دكتور
عبد الجواد خلف

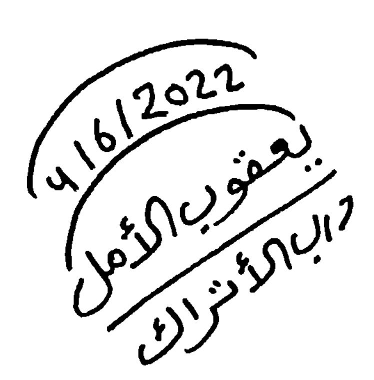
القاضي بدر الدين ابن جماعة

حياته وآثاره ومنهجه في التفسير والعلوم الإسلامية

دار البيان
٢٠٠٧

دكتـــور

عبد الجواد خلف



القاضى بدر الدين بن جماعة

حياته وآثاره ومنهجه

فى

التفسير والعلوم الإسلامية

الطبعة الثانية

دار البيان للطباعة والنشر

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م

دار البيان

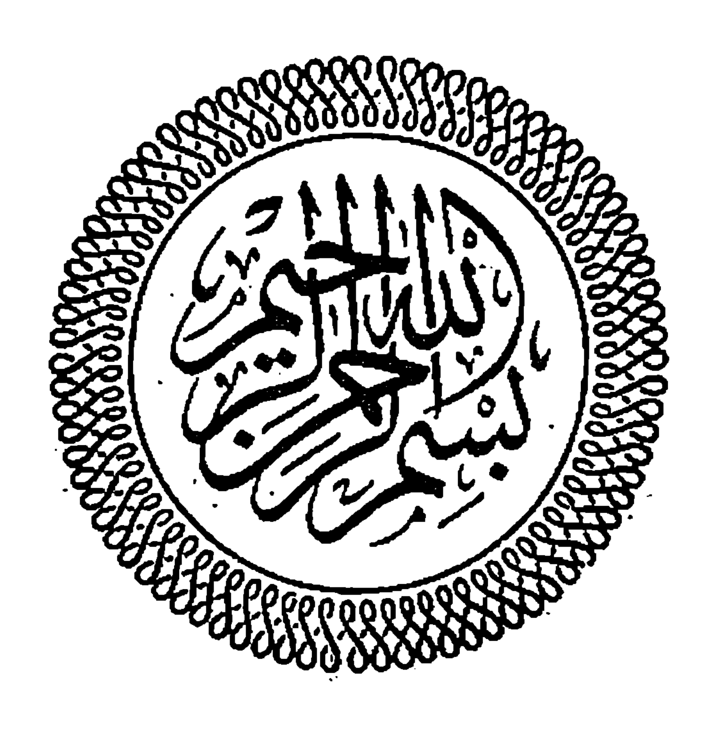
للطباعة
والنشر
والتوزيع



٤ عمارات الجبل الأخضر
بجوار نادى السكة الحديد
ووزارة المالية الجديدة
مدينة نصر
تليفاكس: ٣٤٢٠٩٦٢
ت- ٣٤٢٦٣٢٧

رقم الايداع
٢٠٠١/٢١٨٩٩م

الترقيم الدولى
972-654-86-2


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى هدانا للإسلام، وجعلنا من أمة خير الأنام، سيدنا محمد الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى، وهو القائل: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين"[1].

صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فهذا بحث علمى موضوعه:

"القاضى بدر الدين بن جماعة: حياته وآثاره ومنهجه فى التفسير والعلوم الإسلامية"

وقد دعانى للكتابة حول شخصية هذا القاضى الجليل ومنهجه فى التفسير والعلوم الإسلامية عدة أسباب كان للمصادفة فى أولها دوراً هاماً، يذكرنا بذلك الدور الذى كانت تقوم به المصادفة وحدها فى اكتشاف الأحداث العلمية التى مرت بالبشرية فى تاريخ تأملها.

ذلك أنى ما كنت أسمع بعالم من علماء الأمة يحمل اسم "ابن جماعة" كما كنا نسمع بالذهبى، والسبكى، وابن كثير، وابن تيمية، وغيرهم من مشاهير العصر الوسيط للإسلام، أو مشاهير غيره من الأعصر.

هؤلاء المشاهير الذين كنا ونحن طلاب علم نتسابق إلى ذكر أسمائهم، بمجرد ورود أسماء مؤلفاتهم فى حلقاتنا الدراسية، أو محافلنا العلمية، أو تدريباتنا الذهنية.

---

(١) فى هذا الحديث: "معان بن رفاعة" وهو ضعيف. وقد ورد هذا الحديث بطرق متعددة، وحسنه بعض العلماء لكثرة طرقه على معنى: "ليحمل هذا العلم" على سبيل الإنشاء لا الخبر، قال الخطيب: سئل أحمد بن حنبل عن هذا الحديث وقيل له: كأنه كلام موضوع؟ قال: لا، هو صحيح سمعته من غير واحد، كنز العمال، للمتقى الهندى ١٠/١٧٦، رقم ٢٨٩١٨.

وللمزيد يراجع "كتاب تدريب الراوى" للسيوطى: فى الكلام على شرط العدالة فى الراوى.

فما يكاد يذكر اسم "البخلاء" حتى نبادر بذكر الجاحظ، وما يكاد يُنطق بـ "البداية والنهاية" حتى نسارع بذكر ابن كثير، وما يكاد يلفظ بـ "صبح الأعشى" حتى نتسابق بذكر القلقشندى.

أما "ابن جماعة" فلا أذكر يوما أنه أطل علينا من نافذة التاريخ بكتاب، أو بحث، أو نادرة تفسح له من عقولنا مكانًا، أو من مجالسنا حديثاً.

إلى أن هيأ الله لى أن أكون أحد أفراد بعثة الأزهر العلمية إلى دولة الباكستان الإسلامية.

وكان من حسن حظى أن أنتدب للعمل بمجمع البحوث الإسلامية بإسلام آباد، وأن يكون لى شرف العمل مع الإخوة الباحثين فى هذا المجمع الموقر. وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور/ عبد الواحد هالى بوتا مدير المجمع، والأستاذ الدكتور/ محمد صغير حسن المعصومى نائب المدير آنذاك.

وما لبث هذان الأستاذان الجليلان بعد مدة وجيزة، أن دفعا إلىَّ بمخطوط صغير فى تفسير مبهمات القرآن الكريم بقصد تصفحه كأحد المصورات التى تم نقلها عن دار الكتب المصرية بالقاهرة.

وما إن أخذت فى تقليب صفحات المخطوط ، وقراءة بعض مواده، حتى وجدت نفسى أمام عالم غزير العلم، واسع المعرفة بآثار السلف ، فسارعت أنشد مقدمة المخطوط، لتسعفنى باسم مصنفه، وكلى ثقة أنه أحد مشاهير الأعلام المفسرين لكتاب الله عز وجل.

فإذا بعنوان المخطوط وفيه:

"كتاب غرر التبيان فيمن لم يسم فى القرآن"

لشيخ الإسلام، قاضى القضاة أبى عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكنانى المتوفى سنة ٧٣٣ هـ.

فأثر فى نفسى أن يكون من بين علماء هذه الأمة من أجهل اسمه، وأجهل له هذا الأثر الجليل فى تفسير مبهمات القرآن العظيم.

فسارعت إلى كتب التواريخ وتراجم الرجال لأعرف من حياته ما يذهب عنى عيب الجهل به، فهالنى أن أجد فى بطونها جماعة من صفوة العلماء، ومشاهير عصر المماليك كل واحد منهم يحمل اسم "ابن جماعة" وأنهم جميعا ينتمون إلى أسرة واحدة، سرنى غاية السرور أن يكون عميدها هو القاضى بدر الدين بن جماعة موضوع هذا البحث.

فعكفت على دراسة حياة الرجل وآثاره شهراً يشدنى إلى عام، وعاماً يجذبنى إلى آخر، وفى كل يوم تزداد منزلة الرجل عندى بمقدار ما أعرفه عنه فى هذا اليوم من علم جديد، أو منصب فريد، أو بحث نادر، أو جهد مثابر.

وإذا بالرجل وقد كان علامة عصره، ومقصد طلاب العلم فى زمانه وإذا بمشاهير العلماء الذين حُصِرَت أسماؤهم فى ذاكرتى كأبى حيان، والسُّبكى، والصفدى، وابن كثير، والمقريزى، وابن حجر ماهم إلا تلاميذه، أو تلاميذ أبنائه.

وإذا بالرجل كان على رأس أسرة قدمت للأمة الإسلامية مايزيد على أربعين عالِمًا من بينهم خمسة عشر فقط هم أولاده، وأحفاده، منهم أربع نساء عالمات فاضلات، سبقن بعض الرجال فى علوم الحديث حتى قال العلامة السخاوى عن إحداهن: "نزل أهل مصر بموتها فى الرواية درجة".

وإذا بالرجل وقد كان قطب الرحى فى زمانه، بما تولاه من الوظائف الرسمية فى دولة المماليك، فظل أربعين سنة وهو قاضى القضاة، وأكثر من ستين سنة وهو على صدارة أهم المدارس الجامعية فى عصره فى مصر والشام، وقد بلغ عدد المدارس التى تولى صدارتها أو التدريس بها ثلاث عشر مدرسة.

كما كان خطيباً لبيت المقدس، وخطيباً للمسجد الأموى فى دمشق، وخطيباً للجامع الأزهر فى مصر، وشيخا للشيوخ.

وإذا بالرجل صاحب علوم غزيرة، يضرب فى كل علم بسهم وافر وإذا بمؤلفاته تتردد فى كتب التاريخ والتراجم.

وإذا بالرجل شيخًا للحديث، وأحد رواته الثقات فى زمانه، وإذا به وقد كان أحد المدافعين للتتار ورئيس الوفد الذى ذهب لملاقة غازان التترى وفيهم العلامة ابن تيمية.

وإذا بالرجل فوق كل هذا محمود السيرة والسريرة، مرزوق القبول من الخاص والعام.

فلم أتردد بعد كل هذا الذى علمته وجمعته عنه من أن أشرع - متوكلاً على الله - فى ترتيبه وتبويبه، فجمعت شوارده وقيدت أوابده حتى أصبح درة أزين بها جيد العلامة "بدر الدين بن جماعة" وأقدمه لأبناء أمته كنتاج علمى تخصصى بعد أن أزلت عن ماضية غبار السنين، وعن آثاره غبار الخزائن.

يدفعنى إلى تقديمه طائفة من الأسباب أهمها:

١ - أنه من الخطأ البين ونحن أمة نهضت بالعلم وللعلم أن يكون فى تاريخ هذه الأمة أعلاماً نجهل أسماءهم مثل ما نجهل مؤلفاتهم.

٢ - لا ينبغى لنا ونحن أمة لها هذه الصفة أن لا نسمح لأحد من علمائها ممن كانوا مشعل نور فى تاريخ حضارتها - أن يطل علينا من نافذة التاريخ عبر العصور إلا إذا كان مجدد مذهب، أو صاحب رأى يبهر الأنفاس.

فإذا لم يكن كذلك أغلقنا عليه نافذة التاريخ، وحكمنا على أبناء هذه الأمة بتجاهله، ثم بالجهل به، وهذا إسراف فى عدم تقدير العلماء الذين أفنوا من عمرهم سنين طوالاً، يحملون علم هذه الأمة.

٣ - أنه من الجرم فى حق العلم وتاريخه وأهله، ثم فى حق الأمة الإسلامية كلها، أن يكون فى ماضيها التليد أسرة خالدة تنجب للحضارة الإسلامية، والثقافة البشرية أربعين عالماً ونيفاً، ثم تكون هذه الأسرة الفريدة برجالها الأفذاذ مجهولى الأسماء، والآثار، ومنهم من قيل عنه:

"كان يفاخر به علماء العرب والعجم".

٤ - أنه من العار على مثقفى هذه الأمة، بل على أكثر خواصها أن يظلوا جاهلين بهذه الأسرة الكريمة، بينما آثار عشرات العلماء من أبنائها تملأ خزائن العالم ومكتباته، ومتاحفه وأديرته، وكنائسه فى أقصى الشرق والغرب، بل وفى أعماق الريف من شبه القارة الهندية.

٥ - أن عصور التاريخ الإسلامى - وبالأخص عصر المماليك - حافلة بالعديد من العلماء ممن لهم حق على أبناء هذه الأمة فى معرفتهم، من أمثال شيخ الإسلام العلامة بدر الدين بن جماعة.

٦ - أن تعهد تراث الأمة بالحفظ، والنشر، والاستفادة منه مطلب دينى وقومى متجدد يحفظه الخلف عن السَلف كما علمنا رسول هذه الأمة صلى الله عليه وسلم .

"يحمل هذا العلم من كُل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين".

فلا مستقبل لأمة لا تبنى حاضرها على أمجاد ماضيها، ولا تستضئ بماضيها على طريق مستقبلها.

وبناء على المعطيات التى قدمتها هذه الأسباب وجدتنى بعد أربعة أعوام، أنفقت بياض أيامها وسواد لياليها فى جمع مادة هذا البحث من مظانها المختلفة مابين مطبوع ومخطوط، وما إن وجدت مابين يدى مما جمعته يصلح أن يقدم كنتاج علمى يعتبره أفاضل العلماء سبباً للترقى حتى عمدت إلى البحث فقسمته إلى مقدمة، وخاتمة ينساب بينهما أبواب أربعة، يشتمل كل منها على فصول:

أما الباب الأول: فخصصته كله للتعريف بالعلامة "بدر الدين ابن جماعة وبنيته على تمهيد، وخمسة فصول.

ألمحت فى التمهيد إلى دور أسرة "آل جماعة" فى تاريخ الحركة الثقافية والحضارية فى الإسلام، رجالاً، ونساء .

ثم تحدثت فى الفصل **الأول**: عن "آل جماعة" ونسبهم مدعماً هذا النسب بخارطة تصلهم بجدهم الأعلى جماعة الأول من أولاد "مالك ابن كنانة".

وخصصت **الفصل الثانى**: للعلامة "بدر الدين بن جماعة"، تحدثت فيه عن مولده، وأسرته التى عاش فى كنفها، ثم بيئته التى نشأ فيها .

ثم أفردت **الفصل الثالث**: لدراسته، فوضحت أنها كانت فى بداية مبكرة جداً، كما بينت حدة ذكائه، واستشهدت على ذلك من نصوص المصادر، ثم بينت تنوع هذه الدراسة التى حملها .

ثم جعلت **الفصل الرابع**: للحديث عن شيوخ "ابن جماعة" فاكتفيت منهم بمن ذكرتهم المصادر والمراجع صراحة بأسمائهم فترجمت لهم ترجمات مختصرة، ومفيدة، مبيناً أثر كل واحد منهم على شخصية العلامة "بدر الدين بن جماعة".

وتناولت فى **الفصل الخامس**: شخصية "ابن جماعة"، فجمعت أوصافه ا الخَلْقِيَّة، كما وردت فى المصادر المعتمدة، كما بينت أوصافه الخُلُقِيَّة بياناً كافياً يحيط بخلقه وطبعه.

أما الباب الثانى: فخصصته لعصر ابن جماعة، ومكانته السياسية والاجتماعية فيه، وبنيته **على أربعة فصول**:

خصصت **الفصل الأول**: للأحوال السياسية، موضحاً بإيجاز دور المماليك السياسى فى ذلك العصر، ونشاطهم الحربى وبلائهم ضد أعداء الإسلام من مغول وصليبيين.

وجعلت **الفصل الثانى**: للأحوال الاجتماعية، مبينا طبقات المجتمع بصفة موجزة، والعلاقة بين هذه الطبقات بعضهم ببعض، وبينها وبين المماليك.

وجعلت **الباب الثالث**: للأحوال الفكرية، وأشرت إلى ما كان فى هذا العصر من جدل فكرى، شاعت به المناظرات، وكثرت فيه كتابة الموسوعات.

وكان نهجى فى هذه الفصول الثلاثة هو توخّى الاختصار، الذى يشير إلى الفائدة دون زيادة، وذلك لكثرة ما تناوله الباحثون حول أفكار هذه الفصول الثلاثة.

أما الفصل الرابع: فقد أفردته لإبراز مكانة "ابن جماعة" السياسية والاجتماعية فى عصره، ووضحت فيه أنه كان قطب الرحى للدولة فى ولاية القضاء، والتدريس، والخطابة، ومشيخة الشيوخ، وكيف كان يستقبل استقبالاً رسميًا حافلاً فيخرج له الجيش بجنده، وقائده، ونائب السلطنة فى استقباله وتوديعه، وكيف حظى القبول من السلطان، والأمراء، والعلماء، والشعراء، والأدباء، والصوفية، والعامة وبسطت فى هذا الفصل بسطا، يعادل إيجاز الفصول الثلاثة الأولى من الباب لما ذكرناه من سبب الإيجاز فى الأولى.

أما بسط هذا الأخير فهُو أصل البحث ولبه.

أما الباب الثالث: فخصصته كله لوظائف "ابن جماعة" فحسب.

وبنيته على تمهيد وخمسة فصول:

ألمحت فى التمهيد إلى الأسباب والدوافع التى كانت وراء منزلة ابن جماعة، ومكانته فى عصر المماليك .

ثم أفردت **الفصل الأول:** للكلام على وظيفته كقاض للقضاة، وذكرت منزلة هذه الوظيفة، وتحدثت عن المرات التى تولى فيها قضاء القضاة فى "القدس" و "الشام"، و"مصر" والتى بلغ مجموع سنواتها أربعين سنة، وتعرضت لأشهر القضايا التى عرضت عليه، وخصصت بالذكر قضيتين مشهورتين، هما قضية العلامة "ابن تيمية" وقضية "علاء الدين بن الأثير" وبينت من خلالهما نزاهته، وعدالته فى القضاء.

وجعلت **الفصل الثانى:** للحديث عن وظيفته فى التدريس والمدارس وأثره فيهما، فشرحت منزلة هذه الوظيفة، وتعرضت فى إسهاب إلى المدارس التى

تولى رئاستها، أو التدريس بها، وبيان أزمانها بالتواريخ من المصادر المعتمدة، ثم تعرضت فى هذا الفصل إلى ذكر آثاره على تلاميذه، ثم على أولاده، وأحفاده، وألمحت إلى آثار هؤلاء أيضًا على تلاميذ عصرهم الذين جاءوا من بعدهم.

وتكلمت فى **الفصل الثالث:** على وظيفته فى الخطابة، فبينت منزلة هذه الوظيفة، والمساجد الشهيرة التى تولى خطابتها كالمسجد الأقصى فى "بيت المقدس" و "المسجد الأموى" الجامع فى دمشق، و "الجامع الأزهر" فى مصر وأثره من خلال هذه الوظيفة.

وجعلت **الفصل الرابع:** لوظيفته كشيخ للشيوخ فشرحت معنى هذه الوظيفة وذكرت شيئا من تاريخها، ثم تحدثت عن الخوانق التى تولى مشيختها، وبينت منزلة هذه الوظيفة، وتعرضت لمسألة التصوف عند "ابن جماعة" وهل كان صوفياً بالفعل أم تلك كانت مجرد وظيفة ؟

وأفردت **الفصل الخامس:** للكلام على وظيفته على الإفتاء. فتحدثت عن بداية إفتائه، واستحسان "النووى" لفتواه، ثم ذكرت بعض ما أفتى به وناقشت ذلك، ثم ذكرت أن الإفتاء كان وظيفة تبعية لا وظيفة استقلالية.

وختمت هذا الباب بنقد وتحليل، وأوردت فى التحليل عرضاً موجزاً لغرضى من إيراد هذا الباب، وتعرضت فيه لما يمكن أن يوجه من نقد إلى العلامة "بدر الدين بن جماعة".

أما الباب الرابع: فخصصته للحديث عن مؤلفات "ابن جماعة" فى العلوم والفنون المختلفة، ومنهجه، وطريقته فى تأليفها. وبنيته على تسعة فصول.

أما الفصل الأول: فقد تعرضت فيه لكتب "ابن جماعة"، ومؤلفاته، وأماكن وجودها وأشرت فيه إلى ذكر الأقوال التى تنعته بكثرة التأليف والتصنيف، ثم ذكرت جميع مؤلفاته التى استقيتها من المصادر العربية،

والمراجع ،ودوائر المعارف، وكتب التراجم، والفقه، والكلام، والسياسة الشرعية، والتاريخ، والنحو، والآداب، والعلوم الحربية، والفلك.

وتكلمت عن جود هذه الكتب، فما كان موجودًا منها أشرت إلى مكان وجوده ورقمه الموجود به، وما استطعت الحصول عليه منها حصلت عليه، ووضعت له صورة مقارنة للحديث عنه، وما كان منها مطبوعاً أو محققاً ذكرته.

وأما ما لم يكن موجوداً منها فقد ذكرت المصدر الذى استقيت اسمه ونسبته إلى "ابن جماعة" منه، وأشرت إلى عدم الاستدلال على مكان وجوده.

وأما **الفصل الثانى**: فتحدثت فيه عن منهجه فى تفسير المبهمات من خلال عرضنا لكتابه "غرر التبيان فيمن لم يُسمّ فى القرآن".

ثم عرضت لمنهجه فى تفسير المتشابهات من خلال تصفح كتابه "كشف المعانى عن المتشابه من المثانى" موضحاً فى هذا الفصل معنى المبهمات، ومعنى المتشابهات، ومكانة "ابن جماعة" بين مفسرى المبهمات ومفسرى المتشابهات.

وتحدثت فى **الفصل الثالث**: عن منهجه فى الحديث وعلومه، مستعرضاً ذلك من خلال كتابه "المنهل الروى فى علوم الحديث النبوى" وذكرت مدى ما كان عليه من براعة فى علوم الحديث دراية ورواية، وتعرضت لمناقشة سلسلة روايته، وأوردت له بعض الأحاديث التى رواها بسنده عن الثقات.

وفى **الفصل الرابع**: ناقشت منهجه فى الفقه والأحكام فأوردت شهادات العلماء له فى هذا الفن بالبراعة ثم استعرضت منهجه من خلال ما تيسر لى من كتابه المخطوط وهو رسالته فى المزارعة المعروفة باسم "تنقيح المناظرة فى تحقيق المخابرة".

وفى **الفصل الخامس**: تعرضت لمنهجه فى العقائد وعلم الكلام فذكرت مؤلفاته فى هذا الفن، وخصصت مؤلفه "إيضاح الدليل فى قطع حجج أهل

التعطيل" بإظهار هذا المنهج من خلاله، مبيناً قدرته الفائقة على تتبع أدلة الخصوم وتفنيدها وردها، وإيراد حججه والتدليل عليها.

وفى الفصل السادس: شرحت منهجه فى السياسة الشرعية، وقارنت بين كتابه "تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام" وبين مؤلفات "الماوردى" و "أبى يعلى"، و "ابن تيمية"، وأثبت تفرده عنهم فى نقاط مختلفة.

وجعلت الفصل السابع: لمعالجة منهجه فى النحو، فبينت فيه أن "ابن جماعة" كان وسطاً بين جيلين: جيل "ابن مالك"، و "ابن معطى"، و"ابن الحاجب"، وجيل "أبى حيان" و "ابن عقيل"، ثم أوردت الأمثلة التى تدل على طريقته فى علم النحو وتأليفه فيه.

ثم تحدثت فى الفصل الثامن: عن منهجه فى التربية والتعليم، موضحاً اعتماد كثير من الباحثين المعاصرين عليه فى الاستشهاد به، وناقشت طريقته فى التعرف على الآداب التى يلزم على الطالب والمعلم اتباعها نحو أنفسهم، ثم نحو المؤسسة التعليمية التى ينتسبون إليها.

أما الفصل التاسع: فقد أفردته للكلام على منهجه فى الأدب سواء كان شعرًا أو نثراً، فوضحت خصائص نثره، وأوردت لها نماذج بعد أن وضحتها توضيحاً يلم بالموضوع إلماماً كافياً، كما وضحت خصائص شعره، مبيناً الأغراض التى تناولها، مشيراً إلى البحور التى أورد أوزانه عليها، ثم بينت الأغراض التى أجاد فيها، كما بينت محاولته تجديد القافية العربية، وجمعت له فى ذلك ما يقع فى ديوان صغير يقترب من ثلاثمائة بيت من الشعر، أثبتها كلها له هنا على سبيل جمع التراث وتسجيله فى مكان واحد.

أما الخاتمة: فقد خرجت منها بخلاصة البحث، وهو إبراز شخصية فذة من الشخصيات التى كان لها دورها الهام والفعَّال فى تاريخ الحركة الفكرية لأمتنا فى عصرٍ اتُّهِمَ بالعقم فى إنجاب العلماء، ونوَّهْتُ إلى الأسباب التى أدت

بأكثر المثقفين فى عصرنا إلى عدم التعرف على شخصية العلامة "بدر الدين بن جماعة" ونبهت إلى أهمية تراثنا الحضارى، وضرورة العمل على جمعه ونشره دون الإلتفات إلى محاولات البعض للنيل من هذا التراث جهلاً أو سفها.

أما عن المصادر والمراجع التى اعتمدت عليها فلم تكن قليلة، إذ أربت على المائة عدداً، على الرغم من أنى أكتب فى تاريخ شخصية خاصة، ورغم أنى اكتفيت بتسجيل أسماء المصادر والمراجع التى نقلت عنها بالفعل.

غير أن الفضل الأكبر فيما نقلت عنه، واعتمدت عليه إنما كان للمصادر القديمة المعاصرة لابن جماعة من أصحاب التراجم، والتاريخ.

أما المراجع الحديثة: فلم أعتمد فيها إلا على القليل ككتب الفهارس، ومجلات الحوليات، واكتفيت من كتب البحوث الحديثة بمن نقل عنه، أو عرفه ، أو أشار إليه، أو تنبهُ لذكره، ولم أعتمد فى ذلك من المراجع الأجنبية إلا ما اهتم منها بذكره، وذكر مؤلفاته، ككتاب "كارل بروكلمان"، و "دائرة المعارف الإسلامية"، و "تاريخ السير وليم موير".

وتلك كلها أمور لم أتعمد اختيارها، وإنما فرضتها ظروف الشخصية التى عاشت فى فترة معينة دار البحث حولها، واستلزمت الرجوع إلى مصادر خاصة تهتم به ، وتتحدث عنه.

هذا وإنى لأشعر بمزيد الرضا رغم ما كابدته خلال سنوات أربع، باحثًا عن المصادر، والمراجع بين المدن التى ترددت عليها فى "كراتشى"، و "إسلام آباد"، و "لاهور" و "أبو ظبى"، و"دبى"، و "الشارقة"، منقبا عن كتب هذا العلامة الجليل ومخطوطاته فى كل مكتبات العالم فى "القاهرة"، و "الإسكندرية"، و"أسبانيا"، و "ألمانيا"، و "تركيا"، و "الهند"، و "المدينة المنورة" على ساكنها أفضل الصلاة والسلام .

وما سمعت له بمخطوط فى مكان حتى سارعت بالكتابة إليه، وما بخلت فى سبيل الحصول عليه بجهد ولا مال.

وما إن تَجَمَّعَتْ مادة البحث حتى كان عناء التبويب والتسجيل ، أشد من عناء البحث والجمع. وغايتى من ذلك كله أن أبرز هذه الشخصية العظيمة، والوقورة فى الصورة التى تليق بما كانت عليه فعلاً، وأن أزيل عنه الجهالة التى رانت على عقول أبناء هذه الأمة بصدده، طوال قرون سبعة مضت من تاريخها.

ولا يسعنى بعد هذا الجهد إلا أن أحمد الله تعالى على تمام ما بدأت وعلى ختام ما أنهيت ، وأسأله - جلا وعلا - أن يكون خالصًا لوجهه الكريم، وذخرًا لى ولوالدى وذريتى يوم ينظر المرء ما قدمت يداه إنه سميع مجيب وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الدكتور

عبد الجواد خلف

الباب الأول

التعريف بابن جماعة

تمهيد :

الفصل الأول: آل جماعة ونسبهم.

الفصل الثانى: بدر الدين بن جماعة: مولده – أسرته – بيئته التى نشأ فيها.

الفصل الثالث: دراسته: بدايته المبكرة – حدة ذكائه – تنوع هذه الدراسة.

الفصل الرابع: شيوخه، التعريف بهم، أثرهم على شخصيته.

الفصل الخامس: شخصيته، أوصافه الخلقية، وأوصافه الخلقية.

تمهيد :

قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة - موضوع هذا البحث - هو أحد الشخصيات اللامعة فى أسرة حموية عريقة، قدمت للمجتمع الإسلامى ما يزيد على أربعين عالماً على مدى ثمانية قرون من عصر الأمة الإسلامية، وكان لهم الأثر البالغ فى حياة هذه الأمة فكرياً، واجتماعياً، وسياسياً، وحضارياً.

وكان لكل واحد من أبناء هذه الأسرة دوره الفعال فى سير حركة التاريخ فهو إما على رئاسة القضاء فى هذه الدولة، أو على رئاسة بيت المال، أو متصدر للتدريس بكبريات المدارس يتخرج على يديه مشاهير العلماء، أو مؤثر على الحركة الثقافية لجمهور المسلمين بتوليه خطابة أشهر المساجد كالمسجد الأقصى فى بيت المقدس والمسجد الأموى فى دمشق، والجامع الأزهر، والمسجد الجامع بقلعة السلطان فى مصر كما كان لبعضهم دور لا ينسى فى رد غائلة المعتدين من التتار والمغول عن الأمة الإسلامية إما بالسعى فى الصلح بين الحكام والمعتدين، وإما بإلهاب حماس الجماهير والحكام للتصدى لجهاد العدو ودحره.

على أن دور هذه الأسرة المجيد؛ لم يتوقف عند هذا الحد بل كان لهم الدور الأهم والأكثر تأثيراً فى حياة الأمم والشعوب وقيام الحضارات البشرية، وأعنى به التراث العلمى والأدبى ... الفكرى والحضارى.

فقد خلف لنا علماء هذه الأسرة العظيمة مئات المؤلفات، بل إن القارئ ليندهش إذا تجاور العدُّ من المئات إلى الألوف...! على أن رقم الألف كتاب أو تزيد قليلاً كانت حظ عالم واحد على الأقل من علماء هذه الأسرة فى مجال التأليف وتسجيل التراث.

فها هو ذا جلال الدين السيوطى يقول عن "محمد بن أبى بكر بن عبد العزيز بن جماعة" أحد علماء هذه الأسرة المتوفى سنة ٨١٩هـ.

"كان أعجوبة زمانه فى التقرير وليس له فى التأليف حظ مع كثرة مؤلفاته التى جاوزت الألف فإن له على كل كتاب أقرأه التأليف والتأليفين والثلاثة وأكثرها من شرح مطول ومتوسط ومختصر ونكت إلى غير ذلك"(٢).

بل إن شهرة هذا العالم الجليل تعدت حدود أمته إلى الأمم الأخرى، كما تنوعت مؤلفاته من علوم الدين إلى العلوم الإنسانية والعقلية من طب وفلك وغير ذلك حتى قال عنه ابن العماد الحنبلى فى ما نقله عن ابن حجر :

"أتقن العلوم وصار بحيث يقضى له فى كل فن بالجميع حتى صار المشار إليه بالديار المصرية فى الفنون العقلية، والمفاخر به علماء العجم فى كل فن والمعول عليه"(٣).

ومؤلفات هؤلاء العلماء لا يزال جلها - مع الأسف الشديد - مخطوطاً، ومبعثراً فى شتى أقطار الدنيا، وربما كان أكثرها مفقوداً، أو مجهولاً على أرفف المكتبات الخاصة، وأقل القليل منها مذكور فى كتب الفهارس، ومجلات الحوليات، والأقل منه موجودة نسخه فى بلدان الشرق والغرب يحتاج إلى من يجمعه، أو ينقله، أو يصوره.

ولم يترك علماء هذه الأسرة فنا من الفنون إلا وضربوا فيه بسهم وافر فى التأليف والإبتكار فإلى جانب العلوم الإسلامية من تفسير، وحديث، وفقه، وأصول، وجدل وكلام ومنطق، وتربية وتعليم، وسياسة، ونحو، وأدب، وخطابة، وتاريخ، وبلاغة برعوا فى تأليف العلوم الحديثة، وساهموا مساهمة فعالة فى إرساء قواعد الحضارة الجديدة التى نشاهد تطورها العلمى فى عصرنا الذى نعيش فيه الآن كالطب، كما ألفوا فى علوم الهيئة والزيج، وعلوم الفروسية والعلوم الحربية والإنتاج الحربى كصناعة النفط والكيمياء

(٢) بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة للسيوطى ص ٢٦.

(٣) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى ١٣٩/٧.

والرمح، والنشاب، والدبوس؛ ولهم رسالات فى صناعة الأسطرلاب[٤]، وأحوال الشمس، ولهم فى الألعاب الرياضية مؤلفات قيمة كاللعب بالرمح، والرمى بالنشاب، والضرب بالسيف حتى ألفوا فى علوم الحَرْف والرَّمل.

فلا يأخذنا الإستغراب، ولا تستغرقنا الدهشة إذا وجدنا من بينهم من يقول لنا: "أعرف ثلاثين علما لا يعرف أهل عصرى أسماءها"[٥].

حتى العلوم الشرعية التى عكف عليها جهابذة العلماء وأوسعوها بحثاً، نرى علماء هذه الأسرة إذا تصدوا للكتابة فيها ابتكروا، وقدموا لطلاب العلم شيئا لم يسبقوا إليه.

فها هو القاضى بدر الدين بن جماعة - موضوع بحثنا - يؤلف كتاباً يسميه (المسالك فى علم المناسك) ورغم أن موضوع الكتاب - كما يبدو من عنوانه - مما تمتلئ به بطون كتب الفقه فى جميع المذاهب إلا أن ابن جماعة يقول فيه على مسمع من كبار علماء عصره:

"جمعت فيه من مهمات الدقائق ، وإشارات الحقائق، مالا أعلم أحداً سبقنى إلى وضعه، مع أنى لم أتعرض لذكر أكثر الدلائل والنوادر"[٦].

فإذا عرفنا أن قائل هذا القول كان يعيش بين كبار أئمة عصره، بل بين أشهر علماء الإسلام فى كل العصور من أمثال النووى وابن تيمية، والبيضاوى، وابن كثير، والذهبى، وابن دقيق العيد، أدركنا أن مثل هذا القول لا يصدر إلا من عالم متمكن من علمه، معتد بشخصيته.

---

(٤) الأسطرلاب لفظة يونانية أو فارسية معناها ميزان الكواكب وهى آلة على شكل كرة يتوصل بها لمعرفة كثير من أحوال الكواكب كارتفاع الشمس، وسمت القبلة وعرض البلاد، وغير ذلك، وأول من وضعه بطليموس، وأول من عمله فى الإسلام إبراهيم بن حبيب الفزاري، وهو انواع أشهرها الكروى والمسطح(راجع دائرة معارف البستانى ٥٠٢/١ - ٥٠٤ بتصرف).

(٥) راجع شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ١٣٩/٧.

(٦) راجع كشف الظنون لحاجى خليفة ١٦٦٢/٢.

وفى تاريخ هذه الأسرة المجيدة كثير من الطرائف، والغرائب والعجائب، ولعل أطرف شئ لاحظته عنها خلال البحث والتنقيب فى بطون المصادر والمراجع أن جميع علمائها - مع كثرتهم التى لا تكاد توجد فى أى أسرة إسلامية علمية فى جميع الفترات التاريخية التى تزخر بها الأمة الإسلامية - يحملون جميعا اسماً واحداً هو "ابن جماعة" فكلهم عرفوا فى التاريخ باسم "ابن جماعة" سواء منهم من عاش فى القرن الخامس الهجرى، أو من عاش فى القرن الثانى عشر الهجرى، فجميعهم حملوا اسماً اشتهروا به هو "ابن جماعة" إلى الحد الذى دفع بعض كتاب التراجم إلى الخلط بين أشخاصهم، أو تكرار التراجم للشخص الواحد منهم، ونسبة مؤلف من المؤلفات إلى غير مؤلفه الحقيقى من بينهم، ولعل الإعتزاز الشديد بالانتساب إلى الجد الأعلى هو الذى حدا بأفراد الأسرة إلى التمسك بها طوال هذه السنين المديدة .

ومن غرائب أمر هذه الأسرة أنها تكاد أن تكون مجهولة تماما حتى لدى أكثر المثقفين المعاصرين من أبناء الأمة العربية والإسلامية ليس بالنسبة لمجموع عددهم وكثرتهم فحسب بل بالنسبة لآحادهم، رنتاجهم العلمى والأدبى أيضا.

وإنى لأوشك أن أقطع بأن أكثر المتخصصين من الباحثين المعاصرين فى العلوم الإسلامية وعلى الأخص أولئك الذين وهبوا حياتهم لجمع تراجم علماء الأمة الإسلامية لا يكاد يتجاوز بهم عَدُّ علماء هذه الأسرة عن عشرة علماء فقط.

مع العلم بأنهم شغلوا الحياة السياسية، والفكرية، والاجتماعية مابين القرنين الخامس والثانى عشر الهجريين.

ولم يتوقف حمل رسالة العلم، ولا أداؤها على رجال هذه الأسرة فحسب بل اشتهر من بينها نساء عالمات، فاضلات، جليلات، تخرج على أيديهن الجَمُّ الغفير من مشاهير علماء الإسلام .

وألمع أسمائهن فى التاريخ زينب، وشهدة ، وعائشة، وسارة ، بنات جماعة. أما زينب بنت جماعة فيقول عنها العلامة الحافظ ابن حجر:

ولدت سنة ١٦[٧] وسمعت من جدها نسخة إبراهيم بن سعد ومن الدبوس جزءالحسين بن إبراهيم الجمالى حدث عنها أبو حامد بن ظهيرة بمكة"[٨].

وهى من شيوخ المقريزى ممن أجاز له الرواية[٩].

وأما شهدة بنت جماعة فرغم سماعها الحديث وتعلمها إلا أنها اشتهرت فى التاريخ بأنها زوجة قاضى القضاة تاج الدين المناوى المتوفى سنة ٧٦٥[١٠]، وهى أخت زينب السابقة وكلتاهما ابنتا قاضى القضاة عز الدين بن جماعة المتوفى سنة ٧٦٧ هـ.

وأما عائشة بنت جماعة فهى بنت عبد الرحيم بن محمد بن إبراهيم ابن جماعة المتوفاة سنة ٧٨٩هـ، أسمعت على الوانى جزء أبى محمد بن فارس، وحدثت واستوطنت دمشق، وروى عنها أبو حامد بن ظهيرة بالإجَازة[١١].

ولعل أكثرهن علما ، وأعلاهن نباهة وذكراً هى سارة بنت عمر بن عبد العزيز بن جماعة المتوفاة سنة ٨٥٥هـ وعنها يقول السخاوى فى ضوئه اللامع:

"نزل أهل مصر بموتها فى الرواية درجة"[١٢].

وكان السخاوى نفسه أحد تلاميذها، كما كان أشهر العلماء المعاصرين له والذين أورد هو تراجمهم فى كتابه المذكور، يتلقون العلم على يديها، وقد وصفها بقوله:

---

(٧) أى سنة ٧١٦هـ .

(٨) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر ١٢٠/٢.

(٩) هامش الدرر الكامنة ١٢٠/٢.

(١٠) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد ٥٠٢/٦.

(١١) راجع الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٢٣٦/٢.

(١٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوى ٥٢/١٢.

"حدثت بالكثير، سمع عليها الأئمة ، وحملت عنها ما يفوق الوصف، وكانت صالحة"[١٣].

تلك هى أسرة بنى جماعة التى ينتمى إليها قاضى القضاة "بدر الدين ابن جماعة" موضوع هذا الكتاب، قدمتها فى عرض شديد الإيجاز، يكفى - على ما أظن - لإعطاء القارئ الكريم صورة سريعة عن مدى مكانة هذه الأسرة، ومكانة الشخصية التى أريد أن أقدمها له الآن من بين علماء هذه الأسرة .

أما مجال الحديث عن هذه الأسرة الكريمة بالتفصيل والإسهاب فإن له كتاباً آخر غير هذا الكتاب، أرجو الله تعالى أن يهيئ لى الوقت المناسب لتقديمه لطلاب العلم، بعد أن منّ علىّ بجمع المادة العلمية لجميع أفرادها ، وتسجيل مسوداتها .

أما عن قاضى القضاة "بدر الدين بن جماعة" - موضوع هذا الكتاب - فمن ذا يكون؟ وأى واحد هو من بين أفراد هذه الأسرة العريقة؟ بل أى واحد هو من بين أفراد الأسرة العلمية فى تاريخ الإسلام ؟ وما مركزه العلمى؟ والتاريخى؟ والحضارى؟ والإجتماعى بينهم؟ وما مدى تأثيره على الأحوال السياسية والفكرية فى عصره، وما بعد عصره ؟ وماهى آثاره ومناهجه العلمية ؟

ذلك ما نحاول أن نجيب عليه فى الأبواب والفصول القادمة من هذه الرسالة.

---

(١٣) الضوء اللامع للسخاوى ١٢/٥٢.

الفصل الأول

آل جماعة ونسبهم

بنو جماعة شخصيات علمية وأدبية واجتماعية ينتمون إلى أسرة عريقة ذات أرومة عربية أصيلة يمتد نسبها إلى مالك بن كنانة، وقد اشتهر نسبة هذه الأسرة فى كتب التراجم إلى حماة من أرض الشام، ولكنا لا نعرف على وجه التحقيق أول من استوطن حماة من بنى جماعة، غير أن الغالب أن استيطانهم لها يعود إلى ما قبل الإسلام عندما هاجر آباؤهم الأقدمون من كنانة إليها[١٤].

ومرجع شهرتهم بهذه التسمية يعود إلى ثلاثة من الآباء والجدود كل واحد منهم اسمه "جماعة" إلا أن أيا منهم ليس له فى التاريخ شأن يذكر به سوى أنه جدٌّ لباقة مرموقة من العلماء والمفكرين، والخطباء والحكام، كان لهم فى التاريخ ذكر ونباهة.

وليس بين القاضى بدر الدين وبين جده (جماعة) الأخير إلا والده ووالد والده، أما (جماعة) الأول فيقع فى الترتيب التاسع لآباء قاضينا(بدر الدين).

ومصدر اعتمادنا فى سوق سلسلة نسب آل جماعة على ماذكره المؤرخون المعاصرون للقاضى بدر الدين بن جماعة، ومنهم من كان تلميذاً له كصلاح الدين الصفدى، وتاج الدين السبكى، ومنهم من عاصر كثيراً من علماء الأسرة كمجير الدين الحنبلى؛ إلا أن القاضى مجير الدين الحنبلى يوشك أن يكون المتفرد من بين المؤرخين جميعاً فى ذكر نسب كامل لهذه الأسرة يصل بها إلى مالك بن كنانة حيث يورد فى تاريخه ترجمة لوالد القاضي بدر الدين نفسه فيقول ما نصه:

---

(١٤) راجع خطط الشام لمحمد كرد على ٦٠/١ — ٦٥.

"برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن أبى الفضل سعد الله بن جماعة ابن على بن جماعة بن حازم بن صخر بن عبد الله بن جماعة الكنانى الحموى المولد الشافعى من ولد مالك [١٥] بن كنانة"[١٦].

أما غير مجير الدين من المؤرخين فيوجز هذا النسب إيجازاً شديداً لا يصل به إلا إلى "جماعة" القريب من زمن القاضى بدر الدين، كما فعل اليافعى[١٧]. وأبو الفدا[١٨]، والإسنوى [١٩]، وابن تغرى بردى [٢٠]، والسيوطى[٢١] وتبعتهم دائرة المعارف الإسلامية[٢٢]، ومنهم من يصل به إلى "صخر" الجد السابع، كصلاح الدين الصفدى[٢٣]، والسبكى [٢٤]، وابن تغرى بردى[٢٥]، والكتبى[٢٦] و تبعهم فى ذلك محمود رزق سليم[٢٧]، وبطرس البستانى[٢٨]،

---

(١٥) مالك بن كنانة بطن من كنانة من العدنانية وهم بنو مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة ابن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ومن كنانة قريش وعبد مناة وبنو الليث بن بكر (راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٨٧، نهاية الأرب للنويرى ٢/ ٣٥٠، تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٢٠، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة لكحالة ٣/١٩٩.

(١٦) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجير الدين الحنبلى ٢/ ٤٩٣، وراجع معجم قبائل العرب لعمر كحالة ٣/١٩٣.

(١٧) مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعى ٤/ ٢٨٧.

(١٨) المختصر في أخبار البشر لأبى الفدا ٤/ ١٠٨.

(١٩) طبقات الإسنوى ١/ ٣٨٦.

(٢٠) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٩/ ٢٩٨.

(٢١) حسن المحاضرة للسيوطى ١/ ١٩٨ – ١٩٩.

(٢٢) دائرة المعارف الإسلامية لفنسنك ١/ ١٢١.

(٢٣) الوافى بالوفيات للصفدى ٢/ ١٨، ونكت الهميان للصفدى ص ٢٣٥.

(٢٤) طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ٥/ ٦٤، ٣٢٠.

(٢٥) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٧/ ٢٥١، المنهل الصافى لابن تغرى بردي ١/ ٤٨، (مطبوع)، جـ ٣: (مخطوط) ورقة ٥٥.

(٢٦) فوات الوفيات والذيل عليها للكتبى ٣/ ٢٩٧.

(٢٧) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى لرزق سليم جـ١قسم٢ ص١٠٥.

(٢٨) دائرة معارف البستانى ١/ ٤٣٤.

ومنهم من كاد يصل إلى ما ذكره مجير الدين الحنبلى إلا أنه لم يذكر جماعة الأول ولا النسبة إلى ولد مالك بن كنانة كابن طولون[٢٩]، وابن العماد الحنبلى[٣٠] اللذين أوصلوا النسب إلى عبد الله الجد الثامن للقاضى بدر الدين .

على أن ابن حجر يذكر فى هذه السلسلة بعد صخر اسم جد لم تذكره المصادر كلها هو "حجر" وتوقف عنده[٣١].

ورغم ذلك فإن هذه المصادر على كثرتها لم تذكر لنا شيئاً عن ميلاد ، أو وفاة أحد من آباء القاضى بدر الدين بن جماعة ، ولا ما يذكر به سوى ما أوردته عن والده المباشر (برهان الدين إبراهيم بن سعد الله) المولود فى حماة فى منتصف رجب سنة ٦٩٥ هـ والمتوفى فى بيت المقدس بكرة عيد الأضحى سنة ٦٧٥هـ[٣٢].

وفيما عدا والد القاضى بدر الدين لانجد لأحد فوقه من الآباء ذكر ميلاد أو وفاة سوى مجرد التدرج النسبى إلى أعلى حتى جماعة الأول.

ولو حاولنا أن نرسم صورة بيانية لهذه الأسرة الكريمة متبعين طريقة الترتيب التنازلى طبقا لما أوردته المصادر لذكرناها على النحو التالى:

جماعة (الأول) ثم عبد الله، ثم صخرا ثم جماعة (الثانى)، ثم عليا ثم جماعة (الثالث) والأخير، ثم سعد الله ، ثم إبراهيم، ثم القاضى بدر الدين موضوع هذا البحث.

وعند جماعة الثالث والأخير نتوقف قليلاً لنقول إنه الجد الذى بدأت الأسرة تشتهر عنده، وربما كان كذلك لأنه هو الذى ظهر من "صلبه الشخصيات التى بدأت تذكر فى التاريخ وتعرف ببعض أعمالها ، وإن كان

---

(٢٩) قضاء دمشق والثغر البسام لابن طولون ص ٨.

(٣٠) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد ١٠٥/٦.

(٣١) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٢٨٠/٣.

(٣٢) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجير الدين الحنبلى ٤٩٣/٢ — ٤٩٤.

ذكراً ليس من الأهمية بمكان، فمن صلبه بدأت شجرة هذه العائلة تفرعها فأنجب جماعة الثالث هذا نصر الله، وسعد الله.

فأما نصر الله: فقد عرف بين التراجم بأنه كان ملازماً لمحمد بن الفرات الذى تزعم الطريقة الصوفية التى عرفت آنذاك بالبيانية كما أورد ذلك العلامة ابن حجر أثناء ترجمته لإبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن سعد الله ابن جماعة المتوفى سنة ٧٦٤هـ[٣٣].

والبيانية:

هى الطريقة الصوفية المنسوبة إلى الشيخ أبى البيان الحورانى الدمشقى المتوفى سنة ٥٥١هـ[٣٤]، وعنه أخذ محمد بن الفرات الذى كان أبو الفتح نصر الله بن جماعة ملازماً له، ومعنى ذلك أن نصر الله هذا كان موجوداً فى الربع الأخير من القرن السادس الهجرى.

وأما سعد الله: فهو أبو والد القاضى بدر الدين - المخصوص بهذا البحث - وليس بين يدى ترجمة، له ولا تاريخ يحدد مولده، أو وفاته، سوى ما يجوز لنا أن نذكره تخمينا وهو أنه كان معاصراً لأخيه أبى الفتح نصر الله المتقدم، وأنه أنجب ابنه (إبراهيم) والد القاضى بدر الدين فى منتصف رجب سنة ٥٩٦ هـ[٣٥].

ولسعد الله بن جماعة هذا ابن آخر غير إبراهيم اسمه أبو بكر أورده ابن العماد الحنبلى عرضا كجد لعلاء الدين بن محمود بن أبى بكر بن إسحاق ابن أبى بكر بن سعد الله بن جماعة الذى ترجم له فى وفيات سنة ٨٠٢هـ[٣٦].

---

(٣٣) الدرر الكامنة لابن حجر ٣٥/١.

(٣٤) يراجع عنها حاشية رقم ٤ من المنهل الصافى لابن تغرى بردى ٤٨/١ (مطبوع).

(٣٥) طبقات السبكى ٤٦/٥.

(٣٦) شذرات الذهب لابن العماد ١٨/٧.

وهنا يجب أن أبادر منوها إلى أن أول من عرف من بنى جماعة فى تاريخ كتابة التراث الإسلامى عالم جليل له أثر مخطوط فى فرق الشافعية فى مجلدين كبيرين اسمه "الوسائل فى فروق المسائل" ذكره الدكتور فريد ريك كرن الألمانى فى مقدمة كتاب اختلاف الفقهاء لابن جرير الطبرى الذى طبعه فى بيروت سنة ١٩٠٢م - ١٣٢٠هـ.

وبالرجوع إلى كتب الفهارس رأيت أن مؤلف كتاب الوسائل فى فروق المسائل هو: أبو الخير سلامة بن إسماعيل بن جماعة المتوفى سنة ٤٨٠هـ، على ما ذكره حاجى خليفة[٣٧]، وقد حاولت كثيراً أن أجد له ترجمة تساعدنى على نظم سلامة هذا فى عقد نسب ابن جماعة فلم أوفق، وليس بين يدى مخطوطته[٣٨]، ولا أعرف إن كان قد كتب شيئا عن نفسه فى هذه المخطوطة أم لا ؟ ولعله يكون من قبيل التخمين إن قلنا إن سلامة بن إسماعيل ينتمى إلى (جماعة) الثانى، وليس إلى جماعة القريب. إذ إن وفاته كانت سنة ٤٨٠هـ كما عرفنا .

وإن صح تاريخ الوفاة المذكور وجرينا على قاعدة ابن خلدون التى أوردها ناشر كتاب ذيل تذكرة الحفاظ للذهبى فى ترجمته لمؤلف الذيل شمس الدين أبو المحاسن الحسينى حيث ورد ما نصه:

"قال البرهان البقاعى سمعت ابن حجر ينقل قاعدة عن ابن خلدون وهى: "أنَّا إذا شككنا فى نسب حسبنا كم بين من فى أوله ومن فى آخره من السنين وجعلنا لكل مائة سنة ثلاثة أنفس فإنها مطردة "[٣٩]".

---

(٣٧) كشف الظنون لحاجى خليفة ١٦٧٩/٢.

(٣٨) هذه المخطوطة موجودة فى جامعة برستون فى أمريكا طبقا لما ذكره الدكتور كرن الألمانى المشار إليه آنفا. وقد قمت بالكتابة إلى الجامعة المذكورة للحصول على نسخة من هذه المخطوطة ولكن مع الأسف لم أحظ برد حتى الآن.

(٣٩) مقدمة ناشر ذيل تذكرة الحفاظ فى ترجمة شمس الدين أبى المحاسن الحسينى مؤلف الذيل الأول، الصفحة (ب).

فإذا عرفنا أن سعد الله - جدُّ بدر الدين لأبيه - هو الإبن المباشر لجماعة القريب كان موجوداً سنة ٥٩٦هـ حيث ولد له ابنه إبراهيم على ما قدمنا، وأن سلامة بن إسماعيل ابن جماعة توفى سنة ٤٨٠هـ فإن المسافة الزمنية بين الرجلين هى مائة وست عشرة سنة، فإذا كان لكل مائة سنة ثلاثة أنفس حسب قاعدة ابن خلدون صار بين سعد الله بن جماعة، وسلامة بن جماعة ثلاثة أجيال أى أن سلامة يصبح جده جماعة الثانى (المتوسط) وليس جماعة (القريب) والد سعد الله أبو إبراهيم والد القاضى بدر الدين موضوع رسالتنا.

كما لا نستبعد أن يكون سلامة هو ابن عم جماعة الثالث ويكون والده إسماعيل بن جماعة أخا لعلى بن جماعة الثانى (راجع شجرة النسب رقم (١).

وأرى أنه من المناسب الآن وقد وصلنا فى شجرة النسب إلى والد القاضى بدر الدين أن نرسم فيما يلى خطوطا بيانية تساعد الذهن على ربط الكتابة بشخصيات هذه العائلة ممن ورد ذكرهم فى هذا الفصل من الباب.

وإذا كان الفصل الأول قد انتهى بنا فى سلسلة نسب بنى جماعة إلى الشيخ برهان الدين إبراهيم بن جماعة والد القاضى بدر الدين بن جماعة فإنه يجب علينا أن ننتقل إلى الفصل الثانى من سلسلة فصول هذا الباب الذى أفردناه لترجمة القاضى بدر الدين، موضوع البحث.

وقد خصصنا الفصل الثانى لمولده، ونشأته، وبيئته.

الفصل الثانى
بدر الدين بن جماعة
مولده، أسرته، بيئته التى نشأ فيها، وفاته

مولده:

قاضى القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، أشهر عالم فى بنى جماعة، بل أشهر عالم حمل هذا الاسم فى تاريخ الحركة الفكرية الإسلامية على الإطلاق.

ولد ليلة السبت الرابع من ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وستمائة[٤٠] (٦٣٩ هـ) الموافق لشهر أكتوبر سنة ألف ومائتين وإحدى وأربعين) ١٢٤١م)[٤١]. فى مدينة حماة موطن أبيه، وموطن عائلته الكنانية.

ولا يشذ أحد من المؤرخين وكتاب التراجم عن ذلك لا فى مولده، ولا فى اسمه، ولا فى نسبه[٤٢] فهو حموى مولداً، كنانى نسباً.

أسرته:

وإذ عرفنا أن الشيخ برهان الدين إبراهيم والد القاضى بدر الدين ولد فى منتصف رجب سنة ٥٩٦هـ[٤٣] علمنا أن عمر الوالد يوم ولادة الإبن كان اثنتين وأربعين سنة وثمانية شهور وتسعة عشر يوماً، وهذا يدلنا على أن ولادة القاضى بدر الدين جاءت متأخرة نسبياً، مما يجعلنا نرجح أنه كان أصغر أبناء أبيه، أو أوسطهم على أقل التقديرات.

---

(٤٠) البداية والنهاية لابن كثير ١٦٣/٤، طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ٢٣٠/٥ – ٢٣٢، شذرات الذهب لابن العماد ١٠٥/٦ – ١٠٦.

(٤١) تقويم تاريخى للهاشمى ص ١٦٠.

(٤٢) مجلة معهد المخطوطات العربية ٣١/٢١.

(٤٣) راجع ص:٢٣٠ من هذا البحث.

ولقد بذلت جهداً كبيراً فى البحث عن أولاد الشيخ برهان الدين إبراهيم لمعرفة عددهم، وبيان أحوالهم فثبت عندى منهم ثلاثة غير القاضى بدر الدين نفسه وهم:

إسحاق، وعبد الرحمن، وإسماعيل، ومحمد (بدر الدين). وقد ذكرتهم على هذا الترتيب تمشيا مع الترجيح لدى بأن بدر الدين كان أصغرهم. وأكثر هؤلاء الإخوة لم تذكر له ترجمة، وإنما ذكرت أسماؤهم عرضا فى معرض نسب تراجم المشهورين ممن ولد من أصلابهم أبناء أو أحفاداً، فبادرت إلى ذكر أسمائهم فى شجرة النسب ملحقاً لهم بإخوتهم.

فأما (إسحاق) فليس له بين يدىَّ ترجمة وقد ذكرته أولا لترجيحى أن يكون أكبرهم سناً لأن أباه يكنى به حيث إن جميع الذى ترجموا للشيخ برهان الدين إبراهيم بن سعد الله بن جماعة كناه بأبى إسحاق كابن كثير[٤٤]، وابن تغرى بردى[٤٥]، وابن شهبة[٤٦]، وباعتبار أن هذه الأسرة عربية فمن المرجح أن يكون الشيخ برهان الدين قد تكنى بأبى إسحاق جريا على عادة الإسلام فى أن يكنى الأب باسم أكبر أبنائه سنا، يدل عليه ما ورد فى الحديث الذي رواه أبو داود والنسائى[٤٧].

---

(٤٤) البداية والنهاية لابن كثير ٢٧٣/١٣.

(٤٥) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢٥١/٧، المنهل الصافى لابن تغرى بردي ٢٥١/٧، المنهل الصافى لابن تغرى بردى ٤٨/١.

(٤٦) راجع معجم المصنفين لكحالة ١٩٣/٢.

(٤٧) عن شريح بن هانئ عن أبيه أنه لما وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومه سمعهم يكنونه بأبي الحكم فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن الله هو الحكم فلم تكنى أبا الحكم ؟ قال إن قومى إذا اختلفوا فى شئ أتونى فحكمت بينهم فرضى كلا الفريقين لحكمى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أحسن هذا فمالك من الولد؟ قال لى شريح ومسلم وعبد الله قال: فمن أكبرهم ؟ قلت: شريح قال: فانت أبو شريح". (راجع مشكاة المصابيح ص: ٤٠٨ باب الأسامى).

و (عبد الرحمن) هو الآخر ليست له ترجمة وقد عرفت نسبته لأبيه (إبراهيم) لأن ابن حجر ساق اسمه عند ترجمة ابنه (إبراهيم بن عبد الرحمن) المتوفى سنة ٧٦٤هـ، وقد ذكر ابن حجر أن إبراهيم هذا ولد سنة ست أو ثمان[٤٨] (أى بعد السبعمائة) ومنه يستفاد أن عبد الرحمن هذا كان حياً فى مطلع القرن الثامن الهجرى.

والجدير بالذكر أن عبد الرحمن أخا القاضى بدر الدين هو الرجل الذى خرج من صلبه - حتى نهاية القرن العاشر الهجرى - اثنا عشر رجلاً كانوا جميعاً من كبار العلماء والحكام.

وهو الوحيد من بين إخوته الذى ينافس أخاه بدر الدين فى إنجاب هذا العدد من العلماء.

وأما (إسماعيل) فلدى له ترجمة واحدة ذكرها ابن حجر فقال:

"إسماعيل بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة أخو القاضى بدر الدين، سمع من الرضى بن البرهان وجلس مع الشهود بدمشق ومات بحماة سنة ٧٣٠ هـ"[٤٩]. كما أن ابن حجر أيضاً ذكر أن لإسماعيل هذا ولداً اسمه (إبراهيم) ولم يذكر لنا مولده ولا وفاته وإنما اكتفى بأن قال عنه:

"ذكره أبو جعفر بن الكويك فى مشيخته"[٥٠].

ولهذا فإنى رجحت أن يكون القاضى بدر الدين أصغر إخوته سنا، وأنهم جميعاً ربما كانوا أسبق منه فى المولد، ولكنه على كل حال فإنه أسبق منهم فى النباهة، والذكر، وعلو الشأن، إذ يكاد إخوة القاضى بدر الدين الثلاثة أن لا يكون لهم بجانبه ذكر أو نباهة، فجميعهم اشتهروا بأبنائهم، أما بدر الدين فاشتهر بنفسه، وساد إخوته وأقرانه بشخصيته وعلمه، ولا نتعدى الصواب أيضاً إذا قلنا إنه هو الذى أعلى ذكر أبنائه وأحفاده، وأسرته كلها

(٤٨) الدرر الكامنة لابن حجر ٣٥/١.

(٤٩) الدرر الكامنة لابن حجر ٣٦٣/١.

(٥٠) المصدر السابق والجزء والصفحة.

مما دعا أحد الكتاب المعاصرين هو الدكتور محيى الدين عبد الرحمن رمضان أن يقول عنه .

"فهو مشتهر بكنيته (ابن جماعة)، بل هو رأس من اشتهر بهذه الكنية"(٥١).

وهذا القول بشهرة القاضى بدر الدين من بين إخوته لا ينفى عنهم تلقيهم للعلم، أو أنه هو وحده الذى تلقاه، وإنما المقصود من ذلك أنه بلغ درجة من العلم لم يبلغها أحد من إخوته، وإلا فقد عرفنا عن أخيه إسماعيل أنه أخذ عن الرضى بن البرهان أحد شيوخ عصره .

كما أن هؤلاء الإخوة الأربعة هم أبناء شهد لهم أصحاب التراجم بالعلم، والدين، والصلاح فها هو ابن كثير يقول عن برهان الدين إبراهيم والد القاضى بدر الدين ما نصه :

"له معرفة بالفقه والحديث ... وسمع من الفخر بن عساكر"(٥٢).

ويصفه القاضى مجير الدين بقوله: "الإمام العالم العلامة، الخطيب، القدوة، الزاهد ... اشتغل بالحديث ودرس بعدة أماكن"(٥٣).

ويقول عنه ابن تغرى بردى: "الشيخ الزاهد العابد أبو إسحاق الكنانى الحموى شيخ البيانية كان من العلماء المشهورين بالدين والصلاح والخير"(٥٤).

ويذكره السبكى بقوله: "سمع فخر الدين بن عساكر، وغيره ودرّس، وكانت له عبادة ومراقبة"(٥٥).

---

(٥١) راجع مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد الحادي والعشرون جـ ١٣/١ حيث قامت المجلة بنشر كتاب المنهل الروى فى علوم الحديث النبوى لبدر الدين بن جماعة بتحقيق الدكتور محيى الدين رمضان . ثم قامت دار الفكر بدمشق بطبع الكتاب مؤخراً.

(٥٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٢٧٣/١٣.

(٥٣) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجبر الدين الحنبلى جـ ٤٩٣/٢.

(٥٤) المنهل الصافى لابن تغرى بردى جـ ٤٨/١.

(٥٥) طبقات الشافعية الكبرى للسبكى جـ ٥/ ٤٦.

فإخوة لهم مثل هذا الوالد، لا يفوتهم فى الغالب شرف العلم والتعليم، وكما أن أباهم كان عالماً فكذلك كان أبناؤهم علماء أفاضل فلا يتصور عنهم أن يكونوا إلا كذلك.

بيئته التى نشأ فيها:

عرفنا أن القاضى بدر الدين بن جماعة من أسرة عريقة ينتهى نسبها إلى مالك بن كنانة، وكان موطنها ومولد أفرادها حماة، فقد ولد القاضى بدر الدين فى حماة، كما ولد فيها أبوه وربما سائر آل جماعة طبقاً لما نقرأه فى ترجمة أبنائها بأنها "أسرة حموية"[(٥٦)].

وحماة التى درج على تربتها قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة واحدة من أشهر مدن الشام وأنزهها، وهى تقع على نهر العاصى، الذى يروى بساتينها بما عليه من نواعير عديدة، وقد وصفها ياقوت الحموى المعاصر لبدر الدين بن جماعة بأنها "مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات، رخيصة الأسعار، واسعة الرقعة، حفلة الأسواق يحيط بها سور محكم"[(٥٧)].

ويذكر الخانجى فى المستدرك علي معجم ياقوت عن سور حماة هذا "بأنه اشتهر قديماً بهذه العبارة التى تقرأ طرداً وعكسً وهى "سور حماة بربها محروس"[(٥٨)].

ويستطرد الخانجى فى وصفها فيقول عنها: "بها عدة أسواق ظريفة، وجوام منظمة، وحمامات مشهورة، وهى كثيرة البساتين والكروم، أرضها فى غاية الخصابة كثيرة المزروعات، كثيرة الخضروات، والفواكه، غزيرة

---

(٥٦) راجع البداية والنهاية لابن كثير ٢٧٣/١٣.

(٥٧) معجم البلدان لياقوت الحموى جـ ٣٣٥/٢.

(٥٨) منجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان للخانجى جـ ١٧٧/٢ -١٧٨.

المياه، يرويها نهر العاصى الشهير، نشيطة التجارة وصناعتها فى المنسوجات القطنية والحريرية فى غاية التقدم"[٥٩].

وكان فى طرف حماة قلعة عظيمة عجيبة فى حصنها، وإتقان عمارتها على ما ذكر ياقوت فى معجمه.

ووصف ياقوت والخانجى لحماة يدل على أنها كانت فى عهد القاضى بدر الدين قد بلغت من الرقى الحضارى مكانة طيبة مكنها من الرُّقى العلمى، حتى نسب إليها جمعٌ من مشاهير العلماء والمفكرين منهم قاضى القضاة تقى الدين بن رزين الحموى المتوفى سنة ٦٨٠هـ، وأبو البركات زين الدين الحموى خطيب حماة المتوفى سنة ٦٥٩هـ، ومحمد بن سالم بن نصر الله الحموى المتوفى سنة ٦٩٧هـ صاحب كتاب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب[٦٠]، والعلامة ابن البارزى شمس الدين إبراهيم بن مسلم بن هبة الله الحموى المتوفى سنة ٦٦٨هـ[٦١]، وشمس الدين أبو عبد الله محمد بن شهاب الدين أحمد بن زين الدين المبارك الحموى المعروف بابن الجزرى المتوفى سنة ٨٢٧هـ[٦٢]، وإليها ينسب أبو محمد المظفر بن بكران بن عبد الصمد الحموى المعروف بالشامى، وكان على ماذكر ياقوت من صالحى القضاة[٦٣]، كما ينسب إليها ياقوت الحموى نفسه، بالإضافة إلى أسرة بنى جماعة كلهم.

وقد حدد لنا ياقوت موقع حماة تحديداً "طبوغرافيا" جيداً فذكر المسافات والإتجاهات بينها وبين ما حولها من مدن الشام الشهيرة فقال:

---

(٥٩) راجع حاشية ٨ من الدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى جـ ٢٩٩/١.

(٦٠) المصدر السابق جـ ٢٦٩/١.

(٦١) المصدر السابق ١/ ٥٥٣.

(٦٢) معجم البلدان لياقوت الحموى جـ ٣٣٥/٣، وراجع اللباب فى تهذيب الأنساب لابن الأثير جـ ١/ ٣٢١.

(٦٣) معجم البلدان لياقوت الحموى جـ ٣٣٥/٢.

"وبين كل من حماة وحمص والمعرَّة وسمَيَّة وبين صاحبه يوم، وبينها وبين شيزر نصف يوم، وبينها وبين دمشق خمسة أيام للقوافل، وبينها وبين حلب أربعة أيام"[٦٤].

وقد كانت حماة وبعض توابعها قريباً من زمن ولاية القاضى بدر الدين ابن جماعة من نصيب الملك المظفر تقى الدين عمر بن أخى السلطان صلاح الدين الأيوبى الذى قسم مملكته - مصرًا وشامًا - بين أولاده وإخوته وأبناء أسرته فكانت حماة والمعرة وأقامية ومنبج من نصيب المظفر هذا[٦٥]، كما كانت لابنه المنصور محمد من بعده، وظل فرع الأسرة الصلاحية فى حماة محتفظاً بالولاية عليها رغم أن الفروع التى حكمت الشمال السورى من هذه الأسرة قد قضى عليها التتار[٦٦]، حتى كان والى حماة منهم فى أواخر أيام القاضى بدر الدين هو إسماعيل أبو الفدا المؤرخ المشهور الذى توفى سنة ٧٣٢هـ قبل وفاة ابن جماعة بعام واحد.

وإذا كانت حماة قد نفقت فيها أسواق التجارة، والصناعة، والزراعة، وسائر مظاهر الحضارة على ما وصفه لنا معاصرو ابن جماعة، فلا بد لأسواق العلم فيها أيضاً من نَفَاقٍ، ورواج، وانتشار، فالعلم كما هو معروف بداهة أساس رواج الحضارة والعمران بكل مظاهرها، كما أن رواج العلم مظهر من مظاهر الحضارة يؤثر أحدهما على الأخر تقدماً أو تأخراً.

وقد سقنا الكلام على حماة على النحو السابق، لأنها البيئة الأولى لبدر الدين بن جماعة موضوع بحثنا، ولا يخفى ما للبيئة من أثر على حياة الأفراد والشعوب، سواء كانت هذه البيئة صغيرة كالأسرة والمدرسة، أو كبيرة كالمدينة والمجتمع، أو عامة كالشعب والأمة.

---

(٦٤) معجم البلدان لياقوت الحموى ٣٢٥/٣.

(٦٥) راجع الدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى ٢١٧/١.

(٦٦) تاريخ العرب المطول لفليب حتى ٧٧٣/٢.

فأما عن البيئة الصغيرة التى تربى فيها القاضى بدر الدين وهى أسرته فقد رأينا أنها أسرة على جانب عظيم من العلم، والثقافة، والمعرفة، فأبوه عالم، وإخوته وأبناء إخوته علماء أفاضل، وكذلك من أجداده من عُدَّ من بين مؤلفى التراث العلمى أيضاً.

وهى أسرة على جانب كبير وعظيم من التأدب بآداب الإسلام، والتحلى بالخلق الرفيع، والزهد، والورع، رغم إقبال الدنيا على أبنائها، مما عرفناه فى ترجمة أبيه، وعمه سعد الله، ورأينا أنها أسرة لها أثرها البالغ فى التربية والتعليم، ليس على أهل حماة فحسب، بل تعدى هذا الأثر من حماة إلى دمشق، والقدس، فوالد قاضينا بدر الدين كان ممن اشتغل برواية الحديث، ونشره، وكان من العلماء الذين عرفوا بالدين، والصلاح، والخير مما سبق أن أوردناه عن ابن تغرى بردى فى المنهل الصافى[٦٧]، والسبكى فى الطبقات[٦٨]، وغيرهما من الذين نقلوا لنا صورة عن علمه وزهده وفضله عن أهل عصره، وتنقله فى ربوع مدن الشام لنشر ما تعلمه من علوم الحديث، والفقه، وغيرهما من العلم .

وإذا كانت هذه هى الأسرة التى نشأ فيها القاضى بدر الدين، فلنا أن نقول عنه بغير تحفظ : لقد رضع العلم لبنا سائغاً، أو رضع اللبن علماً لا يشوبه كدرٌ.

وإذ قد عرفنا زهد والده، وورعه، وتقواه، فلا غرابة أن يتأثر الإبن بأبيه، وأن تتأثر شخصيته به، وأن نجد أثر البيئة الأسرية عليه، فيشب بدر الدين على سمت والده وخلقه وعلمه، وزهده، وتواضعه، وأن نلمس عنه الوقار، والهدوء كما سنعرفه فيما بعد .

---

(٦٧) المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى لابن تغرى بردى الجزء الأول (مطبوع) ص٤٨.

(٦٨) طبقات الشافعية الكبرى للسبكى جـ ٥/ ٤٦ : ٤٧.

أما عن بيئته المدرسية فلا أشك أن أول مدرسة تلقى علمه فيها هى أسرته نفسها، لأن أسرة مثل أسرة آل جماعة يفد إليها، ويسعى للتلقى عنها، خاصة فى المرحلة الأولى لطفولة أبنائها، فبيتهم مدرسة وأسرتهم جامعة، ولهم فى عدد علمائهم كفاية فى العلوم عن أى مدرسة أخرى، خاصة فى ذلك العصر الذى لم يتهيأ للمدارس والجامعات ما تهيأ لها الآن من شكلها الرسمى الحكومى فى نظمها، وشهاداتها.

وليس معنى هذا أننا ننفى عن بدر الدين بن جماعة التحاقه بالمدارس السائدة، فى حماة أو غيرها، ولكننا نرجح أن تكون أولى المراحل التى تلقى علومه فيها هى أسرته، ثم بعد ذلك لنا أن نتصور أن ذهابه إلى المدارس أمر مقطوع به، كشأن طلاب العلم فى عصره حيث كان الطالب لا يكتفى بعالم واحد، ولا بمدرسة واحدة، ولا ببلد واحد، ولا حتى بإقليم واحد.

وعلى هذا فلا نستبعد أن يكون أول تلقيه للعلم فى مدارس نظامية كان فى حماة نفسها إذا علمنا أن حماة فى عصر ابن جماعة كانت من المدن التى تشد الرحال إليها لتلقى العلم فيها، فنرى النعيمى فى كتابه "الدارس فى تاريخ المدارس" وهو يترجم لمجموعة من العلماء ويذكر عنهم الرحلة إلى حماة، يقول عن الأمير علم الدين سنجر المتوفى سنة ٦٩٩هـ:

"روى عن الزكى عبد العظيم، والرشيد العطار. وابن عبد الدايم. وبأنطاكية، وحلب المحمية، وبعلبك، والقدس، وقوص، والكرك، وصفد، وحماة، وحمص، وطيبة، والفيوم، وجدة. وقل من أنجب من الترك مثله"[٦٩].

ويقول فى ترجمة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن عبد العزيز بن رضوان البعلى المعروف بابن الموصلى المتوفى سنة ٧٤٤ هـ ما نصه:

---

(٦٩) الدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى ١/٦٦ -٦٧.

"سمع من جماعة، وتفقه بحماة على الشيخ شرف الدين بن البارزى وغيره"(٧٠).

مما يقطع بأن حماة كانت مدينة مشهورة بالعلم والعلماء، وليس هذا فحسب بل وبوجود مدارس مشهورة بها.

فها هو النعيمى أيضاً ينقل لنا من مصادر متعددة، أن الملك المظفر عمر ابن شاهنشاه المتوفى سنة ٥٨٧هـ الذى بنى المدرسة التقوية بدمشق بنى أيضاً مدرسة عظيمة بحماة، فيقول عنه نقلا عن ابن كثير وغيره ما نصه:

"وله بحماة مدرسة هائلة...قال ابن واصل: كان المظفر عمر شجاعاً، جواداً شديد البأس عظيم الهيبة، وكان من أركان البيت الأيوبى، وكان عنده فضل وأدب، وله شعر حسن ... وذكره ابن كثير فى طبقات الفقهاء الشافعية، توفى رحمه الله تعالى وهو يحاصر منازل كرد من أعمال أرمينية، ثم نقل إلى حماة فدفن بها فى مدرسة له بنيت بظاهر حماة"(٧١).

ويذكر اليونينى فى ذيل المرآة عند ترجمته لعبد الرحمن بن عبد القاهر ابن موهوب أبو البركات زين الدين الحموى الشافعى المتوفى سنة ٩٥٦ هـ ما نصه:

"وبنى زين الدين بحماة مدرسة جليلة ووقف عليها وقفاً كثيراً ودفن بها لما توفى"(٧٢).

وهذا يجعلنا نتصور أن ابن جماعة لابد أن يكون قد التحق فى هذا الوقت المبكر من عمره بمثل هذه المدارس.

وأقول نتصور لأنه ليس بين أيدينا نص صريح يفيد بأن ابن جماعة قد التحق بهذه المدرسة أو بغيرها فى حماة، ولكننا نستنتج ذلك استنتاجاً مادامت

---

(٧٠) الدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى ٩٥/١.

(٧١) المصدر السابق ١/ ٢١٦ -٢١٩.

(٧٢) ذيل مرآة الجنان لليونينى جـ ١٢٩/٢.

النصوص التى بين أيدينا لم تقدم لنا شيئا عن طفولة القاضى بدر الدين يشفى غليل الباحث فى هذه المسألة، إلا أن تصورنا هنا صحيح لا يكاد يخرجه عن منطق الواقع الحقيقى سوى النص التاريخى وهو غير موجود فيما تيسر لى من مراجع.

وأما **البيئة الكبيرة** لابن جماعة وهى مدينته ومجتمعه الذى ضمه مع أقرانه، فلا شك أنها بيئة العلم غُدُوًّا إليها فى مدارسه، ورفقته، وصحبه، ورواحاً إليها عند عودته لأسرته، وأهله، فلا مجال لمثله فى اقتراف السوء، ومعاشرة السفهاء، فبيته وأسرته يمثلان حماة فى الرقى العلمى والجد فيه، والحرص عليه، وحماة تمثل بيته وأسرته فى إنجاب الدارسين، وتخريج النابهين بكل لغات العدد جمعاً، وتثنية، وإفراداً، أو بلسان البلاغة جملة وتفصيلاً.

وما أثبتناه عن حماة هنا كاف لأن يعطينا فكرة لا بأس بها عن بيئته الكبيرة وهى مجتمع حماة، وكان أكثر أهل حماة من المسلمين، وبها قليل من المسيحيين، ولم يكن بها يهودٌ أصلا(٧٣).

أما بيئته العامة وهى الشعب العربى ثم الأمة الإسلامية فى عصره، وظروف هذا العصر، وحوادثه، فإن هذا الموضوع له مكان آخر خصصناه فى الباب الثانى.

أما وإن كان لابد لهذه البيئة من أثر مبكر عليه فى طفولته فهى لا تختلف عن الآثار التى تحدثها المجتمعات الكبرى فى نفوس أبنائها من النواحى العلمية، والتربوية والنفسية وغيرها من الآثار، وهى فى مجموعها، على كل حال قد شكلت من ابن جماعة شخصية علمية متميزة، بما قدمت من مدارس، وبما أتاحت لأبنائها من سبل التسهيل على طلاب العلم منهم، وجددت حماس الشباب المسلم لوطنه بانتصاراتها على الصليبين، فأسرة بنى أيوب التى

---

(٧٣) راجع منجم العمران فى المستدرك علي معجم البلدان للخانجى جـ ١٧٨/٢.

تولت مقاليد الحكم قبل ولادة القاضى بدر الدين بن جماعة كانت مغرمة ببناء المدارس، وإنشاء المعاهد فى ربوع البلاد التى تم لهم السيطرة عليها فى مصر، والشام، وبلاد الحجاز، كما كان نور الدين من قبل صلاح الدين مهتما ببناء دور العلم إلى الحد الذى جعله أول حاكم يبنى داراً للحديث فى تاريخ الإسلام، وعهد نور الدين أمر هذه المدرسة إلى العلامة ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق(٧٤).

وعن هذه النهضة العلمية والحضارية فى تلك الفترة يتحدث فيليب حِتّى فيقول:

"لقد تمتعت سورية برغم الحروب الأهلية والدينية فى عهد الدولة النورية والدولة الأيوبية - وبنوع أخص فى عهد نور الدين وصلاح الدين - بأزهى حلقة من تاريخها الإسلامى باستثناء العصر الأموى، ولا تزال إلى اليوم فى دمشق مخلفات العمارات والمدارس التى أنشأها أبناء هاتين الأسرتين، ولم يكتف نور الدين بترميم أسوار المدينة بما فيها من أبراج وأبواب وببناء دور للحكومة ظلت تستعمل حتى الأيام الأخيرة، بل أسس فى دمشق أقدم مدرسة مختصة بعلم الحديث وأنشأ البيمارستان الشهير المعروف باسمه والمدارس الأولى التى أخذت تزهر فى البلاد فى العصور التالية .... أما المدارس فكانت ملحقة بالمساجد وكان بعض الطلاب يعيشون داخلها وقد روعى فيها الطراز الذى قامت عليه المدرسة النظامية، وهذه المدارس الملحقة بالمساجد إنما كانت على المذهب الشافعى، وقد أسسها نور الدين فى حلب وحمص وحماة وبعلبك . . وبز صلاح الدين سلفه فى الإنفاق على البناء والتعليم وكان من سياسته مكافحة التشيع والميول الفاطمية بواسطة التربية والتعليم، ومن هنا فقد

---

(٧٤) راجع: مقدمة تاريخ دمشق لابن عساكر والتى كتبها د/ صلاح الدين المنجد المجلد الأول ص : ٢٣ -٢٤.

اشتهر فى أنه يعد أعظم مشيد لدور العلم فى الإسلام بعد نظام الملك وقد أصبحت دمشق فى عصره مدينة المدارس ولما زارها ابن جبير سنة ١١٧٤م أشار إلى وجود عشرين مدرسة فيها"[٧٥].

ولقد امتدت حركة النهضة العلمية والحضارية هذه إلى أواخر عصر دولة المماليك[٧٦].

فإذا قلنا إن عين القاضى بدر الدين بن جماعة تفتحت على اكتمال النهضة العلمية فى عصريها النورى والأيوبى، وأن نهاية عهد الأسرة الأيوبية كانت بداية نموه الجسمانى والعقلى أدركنا مدى الأثر البالغ لهذه البيئة على تكوين شخصية القاضى بدر الدين فإن المفهوم البديهى يقضى أن القومية العامة تترك بصماتها الواضحة على الاتجاهات النفسية والعقلية لشبابها ارتقاءً أو انحطاطاً وتملأهم بالآمال والرغبات، وتدفعهم دفعاً للعمل على تحقيق أكبر قدر ممكنٍ من هذه الآمال والرغبات، أو تهوى بهم إلى عالم الكسل والخمول والركون إلى الأسفل.

فكثرة دور العلم والعلماء، وازدهار النهضة العلمية للأمة فى تلك الفترة التى ولد فيها ابن جماعة لا شك كان لها أبلغ الأثر فى بلورة شخصيته، ودفع هذه الشخصية نحو التطلع إلى العلم، والتمنى بأن تكون له المكانة العالية بين شيوخ عصره الأفذاذ، من أمثال الفخر بن عساكر، ومحيى الدين النووى، والعز بن عبد السلام الذين كانوا بغير شك محور تفكير أى طالب علم يتطلع إلى المستقبل، ويحلم أن يكون مثلهم، ولقد حاول القاضى بدر الدين بن جماعة أن يكون ذا شأن بين الكبار وهو بعد حديث السن، فإذا به يتصدى للفتوى على مسمع من شيوخ عصره، فيقصده الناس لذلك، ويقف

---

(٧٥) تاريخ العرب المطول لفيليب حتى ٢/٧٨٠ -٧٨٣.

(٧٦) انظر المرجع السابق جـ ٢/٧٨٠ -٧٨٧.

علامة وقته الإمام محيى الدين النووى على فتوى له بخطه فيستجيدها ويستحسن ما أجاب به[٧٧]

كما أن من أثر البيئة العامة عليه من وجود كبريات المدارس دفعته إلى الجد والاجتهاد، ليصبح فيما بعد واحداً من أشهر الذين تصدوا للتدريس بكبريات هذه المدارس فى الشام ومصر والقدس؛ وليكون واحداً من بين الذين تولوا رئاسة أشهر هذه المدارس كالكاملية والقيمرية بدمشق، والصالحية والناصرية وغيرهما بمصر[٧٨].

ولم يقتصر تأثير البيئة العامة على ابن جماعة عند هذا الحد، بل نفثت فيه من روحها الوطنية والقومية إلى الحد الذى جعلت منه شخصية وطنية وسياسية تتصدى للدفاع عن حرمات أبناء وطنه ودينه ضد غائلة التتار الزاحفين، وما ذلك إلا لأن عصر الدولتين النورية والصلاحية كان عصر الحماس الدينى والوطنى الذى أيقظ نفوس الشباب للجهاد واسترداد التراب الوطنى من أيدى الصليبين؛ فبدا عصر هاتين الدولتين وكأنه الأمل المنشود الذى تتطلع إليه الجماهير الإسلامية فى الوقت الذى بدأ فيه نجم الخلافة العباسية يؤذن بالأفول.

فلا غرابة إذاً أن نجد بدر الدين بن جماعة على رأس المتصدين المنافحين للغزاة، ولا غرابة أن نجد كثيراً من المؤرخين يذكرون اسمه قبل اسم تقى الدين ابن تيمية عندما تأتى النذر باجتياح "غازان" التترى لمدن الشام، فإذا بالقاضى بدر الدين بن جماعة يتهيأ وصحبه فى يوم الأربعاء التاسع والعشرين من شهر ربيع الأول: سنة ٦٩٩هـ.

---

(٧٧) طبقات الأسنوى جـ ٣٨٦/١، النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى جـ ٢٩٨/٩.

(٧٨) راجع: الدرر الكامنة لابن حجر جـ ٣/ ٢٨٠ - ٢٨٢.

يقول الدوادارىُ - وهو شاهد عيان لابن جماعة وتوفى قبله بسنة - يقول ما نصه:

"واجتمع الناسُ فى ذلك اليوم فى مشهد على، وتشاوروا فى أمر الخروج إلى غازان، فكان ممن اجتمع ذلك اليوم من يذكرون وهم: القاضى بدر الدين بن جماعة، والشيخ زين الدين الفارقى، والشيخ تقى الدين بن تيمية، وقاضى القضاة نجم الدين بن صصرى، والصاحب فخر الدين بن الشيرجى، والقاضى عز الدين بن الزنكى، والشيخ وجيه الدين بن منجى، والصدر عز الدين عدنان، والشيخ نجم الدين بن أبى الطيب، وناصر الدين عبد السلام، والصاحب شهاب الدين بن الحنفى، والقاضى شمس الدين بن الحريرى، والشيخ الصالح شمس الدين قوام النابلسى، وجماعة كبيرة من القراء، والفقهاء، والعدول، وأجمعوا رأيهم على الخروج إلى غازان فلما كان نهار الاثنين صلوا صلاة الظهر وتوجهوا إلى الله عز وجل وخرجوا ليتقنوا أمر صلاح البلد"(٧٩).

تلك هى بيئة بدر الدين بن جماعة أسرة، ومجتمعا، وأمة، كل منها ساهم بشكل ملحوظ فى تكوين جانب من شخصيته العامة والخاصة، فانعكس عليه تأثير الأسرة فى التحلى بالخلق الحسن، والتواضع الجم، والزهد فى الدنيا مع القدرة عليها، والتدين إلى حد العفاف وحب الفقراء له، وهذه كلها فى الحقيقة صفات أبيه - على ما قدمنا - ورثها عنه، وتأثر به.

كما انعكس على شخصيته الأثر العلمى لمجتمع حماة الذى شهد بداية طفولته وصباه، وتمنياته وتطلعاته إلى أن يكون واحداً مثل كبار علماء عصره.

---

(٧٩) كنز الدرر وجامع الغرر للدوادارىُ جـ ١٩/٩.

أما تأثير البيئة العامة عليه وهى الدولة والأمة، فقد صهرته هذه البيئة إلى الحد الذى جعلت منه شخصية عامة تتولى الحكم، والخطابة، وتجعله فى مَصاف المتصدين للغزاة بل تجعله قطب الرحى لكل حكومة تولت إدارة الحكم فى مصر والشام اعتباراً من أواخر القرن السابع الهجرى إلى نهاية الربع الأول من القرن الثامن الهجرى كما سنعرفه فى الفصول القادمة.

ولا غرو فقد ولد فى حماة وعاش فيها طفولته وصباه ثم تنقل بين دمشق والقدس والقاهرة، وقوص، دارسا ومدرساً، وخطيباً، ورئيسا للقضاة، وشيخاً لشيوخها ، ومديراً لمدارسها، ومجاهداً، وعالماً، وكاتباً وطنياً مخلصاً لوطنه ودينه، وهو فى كل هذا متواضع أشد التواضع مما دعاه أن يقول من شعره فيما يشبه الاعتذار:

لم أطلب العلم للدنيا التى ابتغيت ... من المناصب أو للجاه والمال

لكن متابعة الأسلاف فيه كما ... كانوا فقدر ماقد كان من حالى(٨٠)

وفاته:

وتوفى رحمه الله ليلة الاثنين الحادى والعشرين من جُمادى الأولى سنة ٧٣٣هـ، وقد أكمل أربعاً وتسعين سنة وشهراً وأياماً، على ما ذكره ابن كثير إذ يقول:

"وصلى عليه من الغد قبل الظهر بالجامع الناصرى بمصر، ودفن بالقرافة، وكانت جنازته حافلة رحمه الله"(٨١).

(٨٠) المختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا جـ ١٠٨/٤.

(٨١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٦٣/١٤.

الفصل الثالث

دراسته: بدايته المبكرة، حدة ذكائه، تنوع هذه الدراسة

دراسته:

إن الذى يكتب فى التاريخ العام قد لا يجد نفسه فى موقف صعب بالنسبة لغموض النصوص أو ندرتها مثل ما يجده كاتب فى التاريخ الخاص.

فالباحث عن تاريخ شخصية من الشخصيات مثل شخصية ابن جماعة يجد نفسه فى أغلب الأحيان فى حيرة شديدة للكشف عن بعض جوانب الشخصية التى هو بصدد الكتابة عنها.

وإنى أجد نفسى فى هذه الحيرة بالنسبة للكلام عن دراسة ابن جماعة؛ إذ أنى لا أملك فيما بين يدى من مصادر ومراجع نصوصاً صريحة توضح لنا متى وأين تلقّى ابن جماعة دراسته الأولى.

ولكن لم يمنعنى عدم توفر النصوص الصريحة المباشرة من أن أنظر نظرة تأملية فاحصة فى النصوص التى يمكن أن تحمل فى ثناياها بطريق غير مباشر حل بعض الغموض حول موضوع هذه الدراسة، ونوعيتها، وزمنها، فخرجت من هذه النظرة بعدة نتائج تكاد تكون فى مجموعها خطا واضحاً يعادل النص الصريح فى قوته، وأهم هذه النتائج هى:

أولاً: بدأت دراسة بدر الدين بن جماعة فور ما بدأ يعقل نطق الألفاظ، ويجيد السير على قدميه، ويستقل بأمور نفسه، أى أن دراسته بدأت فى وقت مبكر جداً، نادراً ما يتوفر لغيره ممن هو فى مثل سنه، لولا ظروف ابن جماعة وبيئته الخاصة، التى هيأت له أن يعيش بالعلم ودراسته أكثر مما يعيش على تناول الطعام.

وليس هذا القول ادعاء أدعيه من عند نفسى تجملاً لمجرد الإنشاء اللفظى، ولكنه تأمل بسيط لنصين من نصوص التراجم لشخصيته، أورد أحدهما العلامة ابن حجر فى درره الكامنة حيث يقول ما نصه:

"محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة... ولد بحماة سنة ٦٣٩هـ وأجازه فى سنة ٤٦ الرشيد بن المسلمة، ومكى بن علان، وإسماعيل العراقى، والصفى البرازعى وغيرهم"[٨٢].

والمتأمل لكلام ابن حجر يجد نفسه أمام حقيقة أشبه بالخيال إذ يعنى هذا الكلام أن هؤلاء الأعلام الأربعة وهم أئمة عصرهم على ما سنعرفه من تراجمهم فيما بعد قد أجازوا للقاضى بدر الدين بن جماعة الرواية عنهم وعمره (٧) سبع سنوات فقط، إذ إن ولادته سنة ٦٣٩هـ وأجيز بالرواية سنة ٦٤٧هـ .

وهذا أمر فى غاية الغرابة ولا يكاد الدارس أن يقع على مثله فى تراجم غيره من العلماء إلا نادرًا، ولو أننا استبعدنا هذا النص لغرابته فحسب لوجدنا أنفسنا أمام النص الثانى الذى يفيد الإجازة له سنة (خمسين)، أى وعمره إحدى عشرة سنة، وهذا النص الثانى رواه ابن حجر نفسه أيضا[٨٣]، كما ذكره أكثر من واحد غيره منهم تلميذه صلاح الدين الصفدى الذى يقول:

"قاضى القضاة الامام العالم بدر الدين أبو عبد الله الكنانى الحموى الشافعى ولد بحماة سنة تسع وثلاثين، وسمع سنة خمسين من شيخ الشيوخ الأنصارى"[٨٤].

وذكر اليافعى أيضاً فى مرآة الجنان ما نصه: "وُلِدَ سنة تسع وثلاثين وستمائة وسَمِعَ سنة خمسين من شيخ الشيوخ الأنصارى"[٨٥].

ومن هذه النصوص الثلاثة خرجنا بهذه النتيجة الأولى وهى بداية دراسته فى سن مبكرة جداً سواء كانت الإجازة له وهو فى سن السابعة أو وهو فى

(٨٢) الدرر الكامنة فى أعيان المائة لابن حجر ٢٨٠/٣ – ٢٨١.

(٨٣) راجع: الدرر الكامنة لابن حجر ٢٨١/٣.

(٨٤) الوافى بالوفيات للصفدى ١٨/٢ – ١٩.

(٨٥) مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعى ٢٨٧/٤ – ٢٨٨.

سن الحادية عشرة، فهى فترة وجيزة، ونادرة وقل ما نجدها توفرت لأى دارس آخر ومن هذه النصوص الثلاثة نفسها يمكننا أن نخلص إلى النتيجة التى بعدها.

ثانياً: أن القاضى بدر الدين بن جماعة وهبه الله تعالى ذكاءً وافراً، إلى الحد الذى جعل الرشيد بن مسلمة - تلميذ ابن عساكر الذى تفرد بالرواية فى عصره - يجيزه وهو فى هذه السن المبكرة، ولا يمكن أن يأتى ذلك من مثل ابن مسلمة إلا إذا كان قد وجد فى تلميذه بدر الدين نوعاً مكنه من تحصيل علم أجازه عليه، ولا يجوز لمثل هذا العالم أن يجيز الرواية عنه لمجرد أن تلميذه ابن عالم زميل له، فقد أجاز بدر الدين خلق كثير غير ابن مسلمة وهو دون العاشرة أو دون الثانية عشر كما عرفناه من هذه النصوص.

وليس خروجنا بهذه النتيجة الثانية لمجرد الاستنتاج أيضاً وإنما بين أيدينا نص قوى يدل على نبوغ مبكر فى شخصية القاضى بدر الدين.

وملخص هذا النص أن القاضى بدر الدين كان أثناء دراسته تلميذاً للعلامة ابن مالك فى علوم النحو والتصاريف، وكان ابن مالك يستشهد على صحة قواعد النحو بأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم فاعترض عليه تلميذه ابن جماعة باعتراض قوى أسكت ابن مالك عن الجواب مع جلالة قدره، وقوة باعه فى علومه.

ولنفسح مجال الحديث الآن للعلامة ابى حيان - تلميذ ابن جماعة - الذى يورد لنا هذا الاعتراض فى أسلوب طريف فيقول عن ابن مالك ما نصه:

"قد أكثر هذا المصنف الاستدلال بما وقع فى الأحاديث على إثبات القواعد فى لسان العرب وما رأيت أحداً من المتقدمين والمتأخرين سلك هذه الطريقة غيره، وإنما ذلك لعدم وثوقهم أن ذلك لفظ الرسول عليه الصلاة والسلام، إذ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى القرآن فى إثبات القواعد الكلية

وذلك لأمرين. أحدهما أن الرواة جوّزوا النقل بالمعنى والثانى أنه وقع اللحن كثيرا فيما روى من الحديث لأن كثيرا من الرواة كانوا غير عرب بالطبع. وقد قال لنا القاضى بدر الدين ابن جماعة وكان ممن أخذ عن ابن مالك، قلت له ياسيدى هذا الحديث رواية عن الأعاجم، ووقع فيه من روايتهم ما يعلم أنه ليس من لفظ الرسول صلى الله عليه وسلم فلم يجب بشئ [٨٦]. انتهى

ولهذا فإن أغلب المترجمين لم تخل تراجمهم من الشهادة له بهذه العبارة "وكان ذكيا فطنا[٨٧]". أو "كان ذكياً يقظاً"[٨٨] وأقل ما يستفاد من هذه النصوص ما خلصنا إليه من هذه النتيجة الثانية.

ثالثاً: إن ابن جماعة بدأ كما يبدأ أقرانه بحفظ ما تيسر له من كتاب الله تعالى إن لم يكن أتمه كله، وذلك لاعتبارين:

أولهما: أن الطريقة السائدة فى عصره وما قبل عصره كانت هى البدء، بتحفيظ الطالب القرآن الكريم حتى يستقيم لسانه بالألفاظ العربية الخالصة ويستقر فى عقله أكبر قدر من معانيها المتناولة منها .

وهذا اعتبار لا أظن أن أحداً يطالبنى بالدليل عليه لشهرته، ووجود عشرات النصوص مما يغنى عن ذكرها جميعاً.

وحينما تركنا هذه الطريقة التى كانت سائدة فى نظم التعليم القديمة، ساءت أحوال الملكات الذهنية للطالب المعاصر، حتى أضحت اللغة العربية - وهى لغة القرآن - لغة غريبة على أبنائها، وحتى أصبح فى حكم النادر أن نجد باحثًا متخصصًا يخلو من سقطة لفظ أو ركاكة أسلوب، هذا فضلاً عما يحتاجه العالم إلى حفظ كتاب الله تعالى ليستمد منه ما يحتاج

---

(٨٦) راجع: كشف الظنون لحاجى خليفة ١/٤٠٥ – ٤٠٦، تحت الكلام على (تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك).

(٨٧) الدرر الكامنة لابن حجر ٣/٢٨٢.

(٨٨) مرآة الجنان لليافعى ٤/٢٨٧.

إليه من النصوص الاستدلالية مما دعا بعض الغيورين فى العصر الحديث إلى أن يصرخوا مستنجدين للعودة بطالب العلم إلى طريقة عصر السلف فى حفظهم للقرآن قبل كل شئ[٨٩].

يقول ابن جماعة فى مقدمة تفسيره الذى سماه "كشف المعانى عن المتشابه من المثانى" وهو مازال مخطوطاً محفوظاً بدار الكتب المصرية[٩٠] مانصه:

"فلما منْ الله تعالى بالقرآن العزيز وحفظه وتحصيله، والوقوف على ما قدر من تفسيره وتأويله، واتفق إلقاء الدروس فى المدارس، وما يظهر فى بحوثها من النفائس، وبما لهج بعض فضلاء الحاضرين بمسائل حسنة غريبة، وسأل عن مناسبات ألفاظها لمعانيها العجيبة . . . . وقد استخرت الله تعالى فى ذكر أجوبة ما على الخاطر منه باختصار لاغنى عنه، وسميته كشف المعانى عن المتشابه من المثانى"[٩١].

وحفظ ابن جماعة لكتاب الله تعالى مبكراً هو الذى يفسر لنا نبوغه مبكراً أيضاً، وهو الذى يفسر لنا مقدرته الفائقة على فن الخطابة، والقراءة بصوت طيب فى المحراب كما يرويه معاصره العلامة ابن كثير فى تاريخه[٩٢]، وابن حجر فى الدرر الكامنة"[٩٣].

رابعاً: تنوعت دراسة ابن جماعة فى شتى العلوم والفنون والمعارف، فلم يترك فناً من الفنون إلا وضرب فيه بسهم وافر فى تلقيه، حتى قال السيوطى فى حسن المحاضرة "اشتغل بعلوم كثيرة"[٩٤].

---

(٨٩) راجع مجلة الضياء الصادرة عن وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدبى.

(٩٠) تم بحمد الله وتوفيقه تحقيقى لهذا الكتاب، تحقيق د/ عبد الجواد خلف ص ٧٩ – ٨٠ طبع دار البيان - بالقاهرة.

(٩١) كشف المعانى عن المتشابه من المثانى لبدر الدين بن جماعة الورقة الأولى.

(٩٢) راجع البداية والنهاية لابن كثير ١٦٣/١٤.

(٩٣) راجع الدرر الكامنة لابن حجر ٢٨٠/٣ – ٢٨٣.

(٩٤) حسن المحاضرة للسيوطى ١٩٨/١ – ١٩٩.

فدرس الفقه، والتفسير، والحديث والأصلين (أصول الفقه وأصول الدين) كما درس علوم المنطق، والجدل، والتاريخ، وعلوم النحو والتصاريف، كما أتقن علم القراءات، وأجاد فى البحث والمناظرة، حتى علوم الأسطرلاب لم يفته أن يتعلمها ويصبح له فيها رسالة يدرسها[٩٥]، ولذا قال عنه ابن حجر: "تفقه ومهر فى الفنون". وقال أيضاً نقلاً عن الذهبى "كان قوى المشاركة فى الحديث، عارفاً بالفقه وأصوله.. وكان صاحب معارف يضرب فى كل فن بسهم"[٩٦].

وهذا ما دعا الأستاذ عمر كحالة أحد الباحثين المعاصرين أن يقول عنه فى إيجاز جامع:

"محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة.. بدر الدين، مفسر، فقيه، أصولى، متكلم، محدث، مؤرخ، أديب، ناظم، مشارك فى غير ذلك[٩٧].

خامساً: أن ابن جماعة لم يكتف بتلقى هذه العلوم فى حماة فحسب، بل إن النصوص تقطع برحلته فى طلب العلم والتزود منه على أيدى مشاهير العلماء فى عصره، فنجد والده، وشيخ الشيوخ عبد العزيز الأنصارى فى حماة، بينما كان ابن مالك شيخه فى النحو متصدياً لإقراء العربية بحلب ثم انتقل منها إلى دمشق -كما يقول ابن العماد الحنبلى[٩٨] - مما يدل على أن ابن جماعة رحل إليه فى إحدى هاتين المدينتين أو فى كلتيهما، كما كان من شيوخه شيخ الإسلام تقى الدين بن رزين وكان يدرس بدمشق[٩٩] وبالقاهرة أيضاً، وكذلك كان أستاذه القاضى شمس الدين بن علان من أصحاب الخشوعى

(٩٥) راجع الوافى بالوفيات للصفدى ٨/٢ – ٩.

(٩٦) الدرر الكامنة ٢٨٠/٣ – ٢٨٣.

(٩٧) معجم المؤلفين لكحالة ٢٠١/٨ – ٢٠٢.

(٩٨) شذرات الذهب لابن العماد ٣٢٩/٥.

(٩٩) شذرات الذهب لابن العماد ٣٦٨/٥.

يعيش فى دمشق(١٠٠)، كما أن بدر الدين قد رحل إلى القاهرة، ونهل من علوم محدثيها وفقهائها وعلمائها الشيء الكثير، كما كان من شيوخه المجد ابن دقيق العيد، وكان مقيماً بمدينة قوص فى صعيد مصر.

وعلى هذا فإن رحلات ابن جماعة فى طلب العلم كانت داخل نطاق مدن الدولة التى كانت تظله آنذاك، وكانت تمثل مساحة عظيمة من العالم الإسلامى فشملت مدن الشام كحماة، وحلب، ودمشق، والقدس، ومدن مصر ومن أهمها فى ذلك الوقت القاهرة، والإسكندرية، وقوص.

ولهذا قال السبكى فى ترجمة ابن جماعة:

"سمع بديار مصر من أصحاب البوصيرى، ومن ابن القسطلانى، وأجازه ابن مسلمة وغيره، وقرأ بدمشق على أصحاب الخشوعى(١٠١).

ويقول ابن العماد الحنبلى عنه:

"أخذ أكثر علومه بالقاهرة عن القاضى تقى الدين بن رزين"(١٠٢).

ويقول ابن حجر:

"سمع فى سنة خمسين من شيخ الشيوخ بحماة"(١٠٣).

ولقد كانت الرحلة فى طلب العلم إحدى الشواهد الدالة على سعة علم الطالب الرحالة، كما كانت الرحلة إحدى الخصائص المميزة للحركة العلمية فى تاريخ الإسلام خلال القرون الوسطى، ولهذا كان الطلاب يرحلون طلباً للعلماء ذوى السمعة الطيبة فى العلم والدين، كما كان العلماء أيضاً يرحلون إلى سائر بلاد الإسلام للانتفاع بعلمهم وبغية تصدر الدروس فى كبرى

---

(١٠٠) العبر فى خبر من غبر للذهبى ٣٣٢/٥.

(١٠١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ٢٣٠/٥.

(١٠٢) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد ١٠٥/٦.

(١٠٣) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٢٨١/٣.

مدارس العالم الإسلامى ومشاهير مساجده. وكتب التراجم جميعاً أغنتنا عن أن ننقل نصاً بعينه فى هذا المقام، فلا غرابة أن يكون ابن جماعة رحالة مع الرحالين، دارساً، ومدرساً، تلميذاً، وأستاذاً.

الفصل الرابع

شيوخه، التعريف بهم، أثرهم على شخصيته

تمهيد:

حينما نتحدث عن شيوخ ابن جماعة، أو تلاميذه، فإن الغرض من ذلك ليس التطويل لذاته بزيادة عدد صفحات هذا البحث عشرة أو عشرين صفحة، ولا حشوه بالعديد من التراجم التى يمكن أن تدخل الملل على قارئه، أو الخلل على فصوله.

ولكنى قصدت بالدرجة الأولى، وأنا أقدم هذا العالم الجليل للقارىء لأول مرة أن تعرف مدى قيمته العلمية بمعرفة من نقل عنهم العلم، وأن يعرف مدى تأثيره على الحركة الفكرية بمعرفة من نقلوا عنه العلم.

ولا غرو فقد كانت تعرف قيمة العالم لا بعلمه فحسب بل بمعرفة من حمل عنهم، ومن أدّوا عنه.

وكانت معرفة شيوخ الطالب الذين تلقى على أيديهم، بمثابة الاستفسار عن الجامعة التى يتخرج منها الطالب فى عصرنا الحديث.

وكما أن طالب العلوم اليوم يعتز بأنه تخرج فى جامعة الأزهر مثلاً، وأن طالب الطب تخرج فى جامعات لندن، كذلك كان طالب العلوم الإسلامية، وعلوم الطب قديمًا يفتخر بأنه تعلم على يد أبى حنيفة فى الفقه، وابن مالك فى النحو، وابن سينا فى الطب.

فالحديث عن شيوخ ابن جماعة فى الحقيقة هو عرض وبيان للمدارس الجامعة التى تخرج فيها، ولذلك حرص كل عالم فى العصور السابقة أن يذكر قائمة بأسماء شيوخه، وكأنه يعدد المدارس والمعاهد والجامعات التى تخرج فيها، والشهادات والإجازات التى حصل عليها منها.

فلا تعجب إذا سمعناهم يذكرون ترجمة أحد من العلماء السابقين ويصدرونها أو يختمونها بإحدى هاتين العبارتين أو ما يشبههما:
"ذكره الذهبى فى معجم شيوخه"(١٠٤) أو "ذكره ابن الكويك فى مشيخته"(١٠٥)

ولقد أردت أن أذكر شيوخ ابن جماعة مرتبين حسب أهميتهم فوجدتهم جميعاً على درجة سواء من الأهمية، وليس أحدهم أفضل من أن يذكر قبل الآخر.

فعدلت عن ذلك إلى ذكرهم حسب البلاد التى اتخذوها أوطاناً لمقامهم، أو نشر علومهم كالحمويين، والدمشقيين، والمصريين فوجدت أن أكثرهم رحل من بلد إلى آخر كشيخ الشيوخ الأنصارى، الذى تنقل بين حماة ودمشق ومصر، وكابن مالك الذى تنقل بين حماة وحلب ودمشق، والقاضى تقى الدين بن رزين الذى ولد فى حماة، ثم رحل إلى دمشق على وكالة بيت المال، ثم تحول زمن هولاكو إلى مصر مدرساً بالمدرسة الظاهرية(١٠٦).

ولذلك آثرت أن أذكرهم بتواريخ وفياتهم مقدماً لسابقهم وفاة، ثم أتبعه بمن لحقه ذاكراً لكل واحد أهم ما يشير إلى علمه، ودينه، ورحلاته إن وجدت، وأبرز الصفات التى تأثر بها ابن جماعة منه.

وقد كنت آمل أن تسعفنى المصادر والمراجع بذكر جميع شيوخ ابن جماعة -وهم كثيرون- غير أنها مع الأسف قصرت بى عن ذلك، فأوردت هنا ترجمة كل من له نصّ صريح بتلقى العلم عنه.

هذا وقد صرح بشيوخ ابن جماعة كل من ابن حجر فى الدرر الكامنة واليافعى فى مرآة الجنان، والسبكى فى الطبقات، وابن العماد الحنبلى فى

---

(١٠٤) راجع شذرات الذهب لابن العماد ج ١٠٦/٦.

(١٠٥) راجع الدرر الكامنة لابن حجر ج ١٨/١.

(١٠٦) راجع تراجمهم فى هذا الفصل.

الشذرات، وصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى فى الوافى بالوفيات، وجلال الدين السيوطى فى حسن المحاضرة، وابن تغرى بردى فى المنهل الصافى، والذهبى فى العبر وفى الذيل على العبر، وابن كثير فى البداية والنهاية، واليونينى فى ذيل مرآة الزمان.

ولما كان بعض هؤلاء المؤرخين يشتركون فى ذكر بعض شيوخ ابن جماعة لذلك أوردت النصوص المكررة فى مجموعات واحدة حتى يسهل على القارئ معرفة الشيوخ على وجه العموم.

يقول العلامة ابن حجر فى ترجمة بدر الدين بن جماعة ما نصه: أجازه سنة ٦٤ الرشيد بن المسلمة، ومكى بن علان، وإسماعيل العراقى، والصفىّ وغيرهم. وسمع فى سنة خمسين من شيخ الشيوخ بحماة. ومن ابن أبى اليسر، وابن عبد، وابن الأزرق[١٠٧]، والنجيب، وابن علان، والمعين الدمشقى، والرشيد العطار، وابن أبى عمر، والتاج القسطلانى، وابن مالك، والمجد بن دقيق العيد"[١٠٨].

ويقول "عبد الله بن سعد اليافعى" فى مرآة الجنان وعبرة اليقظان مكرراً هؤلاء الشيوخ بغير استيفاء:

"سمع سنة خمسين من شيخ الشيوخ الأنصارى، وبمصر من الرضى ابن البرهان والرشيد العطار وعدة، وبدمشق من أبى اليسر وطائفة، وأجاز له خلائق، وحدث وتفرد فى وقته"[١٠٩].

ويقول السبكى فى الطبقات بغير استيفاء أيضاً، بل بإيجاز شديد: "سمع بديار مصر من أصحاب البوصيرى، ومن ابن القسطلانى، وأجازه ابن مسلمة وغيره؛ وقرأ بدمشق على أصحاب الخشوعى"[١١٠].

---

(١٠٧) فى هامش الدرر حاشية رقم ٢ نصها: سمع من ابن أبى القاسم وابن عبد الدايم وابن الأزرق.

(١٠٨) الدرر الكامنة لابن حجر ٢٨١/٣ - ٢٨٢.

(١٠٩) مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعى ٢٨٧/٤.

(١١٠) طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ٢٣٠/٥.

أما ابن العماد فى الشذرات فيزيدنا على شيوخه شيخاً هو ابن رزين فيقول ما نصه: "أخذ أكثر علومه بالقاهرة عن القاضى تقى الدين بن رزين، وقرأ على الشيخ جمال الدين بن مالك"[111].

أما صلاح الدين الصفدى فإنه يورد لنا بعض ما ذكر من الشيوخ فى المجموعة (١)، (٢) ويضيف عليها ثلاثة شيوخ آخرين هم: الرضى ابن البرهان وابن عِزون، وابن عبد الوارث فيقول: "سمع سنة خمسين من شيخ الشيوخ الأنصارى، وبمصر من الرضى ابن البرهان، والرشيد العطار، وإسماعيل بن عزون، وعدة، وبدمشق، من ابن أبى اليسر، وابن عبد، وطائفة وأجاز له عمر البراذعى، والرشيد بن مسلمة، وطائفة، وحدث بالشاطبية عن ابن عبد الوارث صاحب الشاطبى"[112].

ويعود السبكى فى ترجمة القاضى بدر الدين فيذكر له سلسلة رواية تفيدنا أنه حدث عن أبى الفرج بن أبي محمد عبدالمنعم النميرى فيقول: "أخبرنا شيخنا قاضى القضاة بدر الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ابن جماعة قراءة عليه وأنا حاضر فى الثالثة، أخبرنا أبو الفرج بن أبى محمد عبدالمنعم بن أبى الحسن على النميرى...إلخ"[113].

ويسرد لنا السبكى هذه السلسلة حتى ينتهى بها إلى أبى هريرة - رضى الله عنه - مرفوعاً إلى النبى ﷺ.

وسنعود إلى ذكر هذه السلسلة ومناقشتها عند الكلام على مؤلفاته فى علم الحديث.

أما السيوطى، وابن تغرى بردى، والذهبى، وابن كثير بالإشتراك مع اليونينى فكل منهم يضيف إلى معلوماتنا شيخاً من شيوخ ابن جماعة لم تذكره النصوص المتقدمة:

---

(١١١) شذرات الذهب لابن العماد ١٠٥/٦.

(١١٢) الوافى بالوفيات للصفدى ١٨/٢.

(١١٣) طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ٢٣٠/٥.

يقول السيوطى فى ترجمة ابن المتوج تاج الدين محمد بن عبدالوهاب مانصه: "أحد العدول بمصر ولد بها فى ربيع الأول سنة تسع وثلاثين وستمائة وسبع وحدث، وألف تاريخ مصر سماه "إيقاظ المتغفل، واتعاظ المتأمل". روى عنه البدر ابن جماعة"(١١٤).

ويتحدث ابن تغرى بردى فى المنهل الصافى فى ترجمة الشيخ إبراهيم ابن جماعة والد القاضى بدر الدين، أن القاضى بدر الدين تتلمذ على أبيه فيقول ما نصه:

"روى عنه ولده قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة"(١١٥).

ويذكر ابن كثير فى ترجمة شمس الدين عطاء الحنفى الأذرعى فيقول عنه:

"كان ابن عطاء من العلماء الأخيار، كثير التواضع قليل الرغبة فى الدنيا، وروى عنه ابن جماعة وأجاز للبرزالى"(١١٦).

ويورد ابن كثير أيضاً فى ترجمة قاضى القضاة شرف الدين أبو حفص عمر بن عبد الله السبكى المالكى ما نصه:

"كان مشهوراً بالعلم والدين، روى عنه القاضي بدر الدين بن جماعة وغيره"(١١٧).

وعلى الرغم من أن ابن جماعة قد تلقى العلم عن خلق لا يحصون كما سبق فى نص اليافعى الذى يعبر عن ذلك بقوله:

"أجاز له خلائق"(١١٨) وكما عبر السبكى بقوله "أجازه ابن مسلمة وغيره"(١١٩) والصفدى بقوله:

---

(١١٤) حسن المحاضرة للسيوطى ٣٦٦/١.

(١١٥) المنهل الصافى لابن تغرى بردى ٤٨/١ – ٤٩.

(١١٦) البداية والنهاية لابن كثير٢٦٨/١٢.

(١١٧) المصدر السابق ٢٦٠/١٣.

(١١٨) مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعى ٢٨٧/٤.

(١١٩) طبقات السبكى ٢٣٠/٥.

"وإسماعيل بن عزون، وعدة، ... وابن عبد وطائفة... والرشيد بن مسلمة وطائفة"[120].

أقول على الرغم من ذلك إلا أن هذه النصوص لم تذكر من شيوخه سوى أربعة وعشرين شيخاً كلهم بغير استثناء من كبار علماء الأمة الإسلامية فى عصرهم ليس هذا فحسب بل ومن عدولهم وصلحائهم، ولا يختلف فيهم أحد سواء من المؤرخين أو من المعدلين والمجرحين. وكأن المترجمين اكتفوا بهذا العدد وإن بدا قليلاً لقيمة كل واحد منهم مفرداً فى علمه ودينه، وصلاحه، وخلقه، وكأنّ كل واحد منهم أمة وحده، وكأنهم فى إجتماعهم فى هذه النصوص أربعا وعشرين أمة وليس أربعة وعشرين شيخاً تلقى عنهم علومهم وآدابهم، وتقواهم وصلاحهم تلميذهم الورع الذكىُّ الألمعى بدر الدين ابن جماعة.

وأورد الآن تراجم هؤلاء الشيوخ الأخيار:

١ - صفى الدين بن البراذعى المتوفى سنة ٦٤٧هـ

أبو البركات عمر بن عبدالوهاب، أحد كبار الشخصيات العلمية ذات الشهرة الممتازة ، والعدالة فى رواية حديث رسول الله ﷺ. وهو قرشى الأصل دمشقى المقام والدراسة والوفاة، تلقى الرواية عن الأكابر كأبن عساكر وابن عصرون.

يقول عنه الإمام الذهبى فى العبر فى وفيات سنة ٦٤٧هـ: "وابن البراذعى صفى الدين أبو البركات عمر بن عبدالوهاب القرشى الدمشقى العدل، روى عن ابن عساكر، وأبى سعد بن عصرون. توفى فى ربيع الآخرة"[121] ونفس هذه العبارة نقلها ابن العماد هذا[122].

(١٢٠) الوافى بالوفيات للصفدى ١٨/٢.

(١٢١) العبر فى خبر من غبر للذهبى ١٩٤/٥.

(١٢٢) شذرات الذهب لإبن العماد الحنبلى ٢٣٨/٥.

وقد تتلمذ بدر الدين بن جماعة على العلامة ابن البراذعى وهو ابن سبع سنوات، وأجاز ابن البراذعى لبدر الدين الرواية عنه قبل وفاته بسنة واحدة كما عرفناه آنفاً من النصوص(١٢٣)

٢ - الرشيد بن مسلمة المتوفى سنة ٦٥٠هـ:

أبو العباس أحمد بن المفرج بن على، أحد المتفردين فى وقته بالرواية، وهو دمشقى تولى نظارة الأيتام، وسمع من كبار علماء زمانه أشهرهم هبة الله بن الدقاق وابن عساكر وابن البطى، وعبدالقادر الجيلى.

يقول عنه الذهبى فى العبر فى وفيات سنة ٦٥٠هـ: "وفيها توفى الرشيد بن مسلمة أبو العباس بن المفرج بن على الدمشقى ناظر الأيتام ولد سنة خمسين وخمس مئة، وأجاز له الشيخ عبد القادر الجيلى، وهبة الله بن الدقاق، وابن البطى، والكبار، وتفرد فى وقته، وسمع من الحافظ ابن عساكر وجماعة. وتولى فى ذى القعدة"(١٢٤).

وهو أيضاً من أوائل شيوخ ابن جماعة الذين تلقى العلم على أيديهم وهو فى السابعة من عمره، وأجاز له الرواية عنه فى سنة ٦٤٦هـ، هو والعلامة ابن البراذعى كما يؤخذ من النص السابق الذى ترجم فيه ابن حجر العلامة بدر الدين(١٢٥).

٣ - الرشيد العراقى المتوفى سنة ٦٥٢هـ:

أبو الفضل إسماعيل بن أحمد بن الحسينى، وهو عالم ابن عالم، كان أبوه من مشاهير فقهاء الحنابلة فى دمشق، وقد استجاز لابنه الرشيد إسماعيل من شهدة، والسلفى كما يقول عنه الذهبى فى العبر وابن العماد فى الشذرات فى حوادث سنة ٦٥٢هـ:

---

(١٢٣) راجع ص: ٤٨ من هذا البحث.

(١٢٤) العبر فى خبر من غبر للذهبى ٢٠٥/٥.

(١٢٥) الدرر الكامنة لابن حجر ٢٨٠/٣ - ٢٨١، وراجع ص ٤٨ من هذا البحث.

"وفيها توفى الرشيد العراقى أبو الفضل إسماعيل بن أحمد بن الحسين الحنبلى الجابى بدار الطعم، كان أبوه فقيهاً مشهوراً سكن دمشق واستجاز لابنه من شهدة والسلفى وطائفة. فروى الكثير بالإجازة. توفى فى نصف جمادى الأولى"[١٢٦].

ويتشابه الرشيد العراقى مع البراذعى وابن مسلمة فى أنه أجاز لابن جماعة وعمره سبع سنوات كما سبق أن أسلفنا إحالة على نص العلامة ابن حجر[١٢٧].

كما يشترك هؤلاء الشيوخ الثلاثة فى أنهم جميعاً أهل الرواية العدول الذين سكنوا دمشق، ورحل إليهم فى منتصف القرن السابع الهجرى.

٤ - شيخ الشيوخ الأنصارى المتوفى سنة ٦٦٢هـ

شرف الدين عبدالعزيز بن محمد بن عبدالمحسن بن محمد بن منصور ابن خلف. وتمتد سلسلة نسبه إلى قبيلة الأوس الأنصارية، وقد استقر أهله فى دمشق، غير أن والده كان قاضياً فى حماة موطن ابن جماعة فانتقل معه ولده شرف الدين هذا، واشتهر عنه الذكاء، وكان أديباً، شاعراً، وهو أيضاً من أوائل شيوخ بدر الدين بن جماعة، بل إن المرجح عندى أن يكون أول شيوخ ابن جماعة على الإطلاق أولاً: لوجوده فى حماة، وثانياً: لأن أكثر صفات ابن جماعة الخلقية موجودة فيه، فقد كان مفرط الذكاء وابن جماعة كان كذلك، وكان متين الدين، كريم الخلق، لين الجانب، حسن المحاضرة، ذا سمت ووقار، وهذه كلها كانت صفات ابن جماعة كما سنعرفه فيما بعد، فضلاً عن أنه أكثر السماع حتى سمع ببغداد من أبى الفرج عبدالمنعم بن عبدالوهاب بن كليب أحد الرواة فى سلسلة رواية حديث ابن جماعة عن أبى هريرة -رضى الله عنه- السابق الإشارة إليها[١٢٨].

---

(١٢٦) العبر فى خبر من غير للذهبى ٢٥٥/٥ وشذرات الذهب لابن العماد ٢١٠/٥.

(١٢٧) راجع ص ٤٨ من هذا البحث.

(١٢٨) راجع ص ٥٨ من هذا البحث.

ويقول عنه اليونينى فى ذيل مرآة الزمان عند الكلام على وفيات سنة ٦٦٢هـ: "الإمام العلامة مجموع الفضائل شيخ الشيوخ قرأ القرآن الكريم بالروايات واشتغل بالأدب عن أبى اليمن زيد بن الحسن الكندى، وسمع منه كثيراً، وسمع ببغداد من أبى الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب بن كليب وغيره، وحدث بحماة، ودمشق، ومصر، وغير ذلك، ومولده ضاحى نهار يوم الأربعاء ثانى وعشرين جمادى الأولى سنة ست وثمانين وخمسمائة بدمشق بدرب كشك، وكان أحد الفضلاء المعروفين، وذوى الأدب المشهورين، جامعاً لفنون من العلوم ومعارف حسنة، ذا سمت ووقار، وجد وحسن خلق وإقبال على أهل العلم وطلبته، وتقدم عند الملوك، وترسل عنهم غير مرة، وكانت له الوجاهة التامة والمكانة المكينة، وله النظم الفائق، واليد الطولى فى الترسل والأصالة فى الرأى مع الدين المتين، ومكارم الأخلاق، ولين الجانب، وحسن المحاضرة، والمباسطة... وتوفى بحماة ليلة الجمعة الثامن من شهر رمضان"[١٢٩].

ويقول ابن العماد الحنبلى عنه فى الشذرات:

"ويعرف بابن الرفاء... وكان مفرط الذكاء، ورحل به أبوه فسمع من ابن كليب جزء ابن عرفة، ومن أبى المجد المسند كله، وله محفوظات كثيرة، وفضائل شهيرة، وحرمة، وجلالة"[١٣٠]. وقد سمع عليه ابن جماعة سنة ٦٥٠هـ[١٣١].

٥ - الرشيد العطار المتوفى سنة ٦٦٢هـ

أبو الحسين يحى بن علىَ بن عبد الله بن على بن مفرج، أحد حفاظ مصر فى زمانه، وشيخ المدرسة الكاملية بالقاهرة، وهو أحد أصحاب

---

(١٢٩) ذيل مرآة الزمان لليونينى ٢/٢٣٩ – ٢٤٠.

(١٣٠) شذرات الذهب لابن العماد ٥/٢٠٩، والعبر فى خبر من غبر للذهبى ٥/٢٦٨.

(١٣١) الوافى بالوفيات للصفدى ٢/٨.

البوصيرى أشهر المحدثين بمصر فى مطلع القرن السابع الهجرى الذى كان يرحل إليه من جميع البلاد، يقول عنه الذهبى فى وفيات سنة ٦٦٢هـ.

"الحافظ أبو الحسين... القرشى الأموى النابلسى المالكى. ولد سنة أربع وثمانين، وسمع من البوصيرى، وإسماعيل بن ياسين والكبار فأكثر وأطاب، وجمع "المعجم" وحصل الأصول، وتقدم فى الحديث وولى مشيخة الكاملية ست سنين"(١٣٢).

وقال عنه السيوطى فى حسن المحاضرة: "وإليه انتهت رياسة الحديث بالديار المصرية وألّف وخرّج"(١٣٣).

وهو من مشاهير الشيوخ الذين تلقى عنهم ابن جماعة ورحل إليهم فى مصر.

٦ - الرضى بن البرهان المتوفى سنة ٦٦٤هـ:

رضى الدين بن عمر بن مضر بن فارس، ينتهى نسبه إلى قبيلة مضر العربية، وعاش فى (برز) إحدى قرى مرو من أعمال واسط، وكان تاجراً يتنقل من مكان إلى آخر، وينقل علمه حيث نزل وهو من العدول فى رواية الحديث، عدّله الذهبى فى العبر وذكره فى وفيات سنة ٦٦٤هـ فقال:

"ابن البرهان العدل الصدر رضى الدين إبراهيم بن عمر بن مضر ابن فارس المضرى الواسطى البرزى التاجر السّفار. ولد سنة ثلاث وتسعين. وتُوفى فى حادى عشر رجب"(١٣٤).

وقد ثبت أن ابن جماعة سمع عليه بمصر كما يفيدنا صلاح الدين الصفدى فى الوافى بالوفيات إذ يقول عند الكلام عن ابن جماعة ما نصه:

---

(١٣٢) العبر فى خبر من غبر للذهبى ٢٧١/٥.

(١٣٣) حسن المحاضرة للسيوطى ١٦٦/١.

(١٣٤) العبر فى خبر من غبر للذهبى ٢٧٦/٥.

"سمع سنة خمسين من شيخ الشيوخ الأنصارى، وبمصر من الرضى ابن البرهان"(١٣٥) وكان يحدث بصحيح مسلم بنيسابور عن أبى الفتح منصور ابن عبدالمنعم الفراوى، كما نقل ذلك اليونينى فى حوادث سنة ٦٦٤هـ فقال:

"سمع صحيح مسلم بنيسابور على أبى الفتح منصور بن عبد المنعم الفراوى. وحدث به مراراً عدة بدمشق ومصر والقاهرة واليمن، وذكر أنه سمع من أبى حسن المؤيد بن محمد الطوسى، وأجاز له جماعة كثيرة. وكان شيخاً، صالحاً، دينا، حسن الشكل من أكابر التجار المتمولين المعروفين بإخراج الزكاة على وجهها، وكانت له صدقات وبر، وعنده سكون وخشوع، وكان يقال إن معه أربعين ألف دينار فكان يخرج من الزكاة فى كل سنة ألف دينار غير ما يتصدق به على وجه التبرع، وجميع ما يكتسبه ينفقه على نفسه وفى الطاعات والقرب، ورأس المال بحاله لا ينقصه ولا يزيده. وكانت وفاته فى حادى عشر رجب الإسكندرية"(١٣٦).

٧ - ابن عبد الوارث المتوفى سنة ٦٦٥هـ:

معين الدين أبو الفضل عبدالله بن محمد بن عبدالوارث المعروف بابن فار اللبن صاحب الشاطبى وآخر من قرأ الشاطبية على مؤلفها كما قرأها عليه جماعة من السادة الأخيار منهم البدر التادفى شيخ الإمام الذهبى، كما يقول الذهبى نفسه فى وفيات سنة ٦٦٤هـ.

"وفيها ابن فار اللبن معين الدين أبو الفضل عبدالله بن محمد بن عبدالوارث الأنصارى المصرى آخر من قرأ الشاطبية، على مؤلفها، قرأها عليه شيخنا البدر التادفى"(١٣٧).

---

(١٣٥) الوافى بالوفيات للصفدى ١٨/٢.

(١٣٦) ذيل مرآة الزمان لليونينى ٣٤٨/٢.

(١٣٧) العبر فى خبر من غبر للذهبى ٢٧/٥، وراجع شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ٣١٦/٥.

وكان بدر الدين بن جماعة ممن شارك شيوخ الذهبى فى الأخذ عن ابن عبد الوارث والتحديث بالشاطبية.

يقول الصفدى فى ترجمة ابن جماعة مشيراً إلى تلمذته عليه:

"وحدث بالشاطبية عن ابن عبدالوارث صاحب الشاطبى، وسمعتها عليه مع جماعة بمنزله مجاور الجامع الناصرى"(١٢٨).

وتأتى أهمية الشاطبية التى كان يحدث بها ابن جماعة ى أنها أفضل ما صنفها أبو القاسم بن فيرُّة بن أبى القاسم الرعينى الشاطبى نزيل الإسكندرية، قال عنه ابن كثير فى حوادث سنة ٥٩٠هـ.

"الشاطبى الضرير مصنف الشاطبية فى القراءات السبع، فلم يسبق إليها ولا يلحق فيها، وفيها من الرموز كنوز لا يهتدى إليها إلا كل ناقد بصير هذا مع أنه ضرير.. وكان ديناً خاشعاً، ناسكاً، كثير الوقار لا يتكلم فيما لا يعنيه وكان يمتثل كثيراً بهذه الأبيات وهى لغز فى النعش وهى لغيره

أتعرف شيئاً فى السماء يطير ... إذا سار هاج الناس حيث يسير

فتلقاه مركوباً وتلقاه راكباً ... و كل أمير يعتليه أسير

يحث على التقوى ويكره قربه ... وتنفر منه النفس وهو نذير

ولم يستزر عن رغبة فى زيارة ... ولكن على رغم المزور يزور"(١٢٩).

٨ - ابن القسطلانى المتوفى سنة ٦٦٥هـ:

تاج الدين أبو الحسن على بن أحمد بن محمد القيسى أحد شيوخ الحديث المشهورين الذين تولوا مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة، كما اشتهر بالعدالة، والدين، وحسن الخلق. قال عنه اليونينى فى ذيل مرآة الزمان:

"تفقه وسمع من جماعة كثيرة وحدث بالكثير مدة، ودرس بالمدرسة المالكية المجاورة للجامع العتيق بمصر، وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية

---

(١٢٨) الوافى بالوفيات للصفدى ٢/١٨.

(١٢٩) البداية والنهاية لابن كثير ١٣/١٠.

بالقاهرة إلى حين وفاته، وكان أحد المشايخ المشهورين بالفضل، والدين، والعدالة، وحسن الخلق ولين الجانب، ومحبة الحديث وأهله، والتواضع والصلابة فى الدين"(١٤٠).

وقال عنه الذهبى فى العبر فى وفيات سنة ٦٦٥هـ: "ابن الزاهد أبى العباس أحمد بن على القيسى المصرى المالكى المفتى، المعدل، سمع بمكة من زاهر بن رستم، ويونس الهاشمى وطائفة ودرس بمصر"(١٤١).

ولا ريب أن ابن جماعة قد رحل إليه وتلقى العلم فى القاهرة على يديه وتأثر بعلمه وخلقه.

٩ - ابن عزون المتوفى سنة ٦٦٧هـ:

إسماعيل بن عبدالقوى بن عزون، أحد علماء مصر البارزين المشهورين بالصلاح، وذكره الذهبى فى العبر، وعنه نقل ابن العماد فى الشذرات فى وفيات سنة ٦٦٧هـ:

"وفيها توفى زين الدين أبو الطاهر إسماعيل بن عبدالقوى بن عزون الأنصارى المصرى الشافعى، سمع الكثير من البوصيرى، وابن ياسين، وطائفة، وكان صالحاً خيراً"(١٤٢).

١٠ - المجد بن دقيق العيد المتوفى سنة ٦٦٧هـ:

على بن وهب بن مطيع، كان من أهل العلم الذين طارت بذكرهم الآفاق، ورغم أنه كان يسكن مدينة قوص من صعيد مصر إلا أن طلاب العلم كانوا يرحلون إليه، وبما أن ابن جماعة تلقى العلم عنه فإن ذلك دليل على أن ابن جماعة رحل إليه فى قوص مثل ما رحل إلى حلب ودمشق والقاهرة وقد وصفه الذهبى فقال:

---

(١٤٠) ذيل مرآة الزمان لليونينى ٢/٣٧١ - ٣٧٢.

(١٤١) العبر فى خبر من غبر للذهبى ٥/٢٨١.

(١٤٢) شذرات الذهب لابن العماد ٥/٣٢٤.

"على بن وهب بن مطيع العلامة مجد الدين بن دقيق العيد القشيرى، المالكى. شيخ أهل الصعيد ونزيل قوص. وكان جامعاً لفنون العلم، موصوفاً بالصلاح والتأله، معظماً فى النفوس. روى عن على بن المفضل وغيره، وتُوفى فى المحرم عن ست وثمانين سنة"[١٤٣].

والعلامة المجد بن دقيق العيد هذا، هو نفسه والد شيخ الإسلام تقى الدين ابن دقيق العيد الذى نقل ابن العماد عن العز بن عبدالسلام قوله فيه:

"ديار مصر تفخر برجلين فى طرفيها، ابن منير فى الإسكندرية، وابن دقيق العيد فى قوص"[١٤٤].

كما نقل ابن العماد عن الذهبى قوله فيه أيضاً:

"لم ندرك أحداً من مشايخنا يختلف فى أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس السبعمائة".

وقد تلقى تقى الدين بن دقيق العيد العلم على يد والده هو والقاضى بدر الدين بن جماعة فاشتركا فى التلمذة على يده، كما أن بدر الدين خلف تقى الدين على قضاء القضاة عندما توفى الأخير فى خامس عشر المحرم سنة سبعمائة وثلاثة.

١١ - ابن عبد الدائم المتوفى سنة ٦٦٨هـ:

الشيخ زين الدين أحمد بن نعمة بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أحمد ابن بكير، أبو العباس المقدسى النابلسى، هكذا ذكر اسمه ابن كثير فى تاريخه وقال عنه:

"تفرد بالرواية عن جماعة من المشايخ، ولد سنة خمس وسبعين وخمسمائة، وقد سمع ورحل إلى بلدان شتى"[١٤٥].

---

(١٤٣) العبر فى خبر من غبر للذهبى ٢٨١/٥.

(١٤٤) شذرات الذهب لابن العماد ٦/ ٥ - ٦.

(١٤٥) البداية والنهاية لابن كثير ٢٥٧/١٣.

ونقل عنه اليونينى فى ذيل المرآة ما نصه: "سمع الكثير بدمشق من يحيى بن محمود الثقفى[١٤٦] وأبى محمد عبد الرحمن ابن على[١٤٧] وغيرهما، وببغداد من أبى الفرج بن عبد الرحمن بن على ابن الجوزى[١٤٨]، وأبى الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب بن كليب[١٤٩]، وغيرهما وكتب الكثير بخطه من الكتب الكبار والأجزاء المنثورة وكان سريع الكتابة... وحدث بالكثير مدة، وبقى حتى احتج إلى ما عنده وتفرد بالرواية عن جماعة من شيوخه، وكان فاضلاً، متنبها وإليه انتهت الرحلة ببلده، وسمعت عليه صحيح مسلم وغيره رحمه الله تعالى... وروى أنه قال: كتبت بإصبعى هاتين أكثر من ألفى مجلدة. وروى عنه الناس وألحق الأصاغر بالأكابر وكان ديناً فهما"[١٥٠].

وقال عنه الذهبى فى العبر: "روى الحديث بضعا وخمسين سنة، وانتهى إليه علو الإسناد"[١٥١].

١٢ - شرف الدين السبكى المتوفى سنة ٦٦٩هـ:

عمر بن عبد الله بن صالح بن عيسى السبكى المالكى، وهو أول مالكى تولى قضاء مصر بعد أن جدد الملك الظاهر بيبرس القضاة من المذاهب الأربعة، وكان والياً لحسبة القاهرة قبل تولى القضاء، وهكذا حكى ابن كثير فى تراجم وفيات سنة ٦٦٩هـ وقال:

"ولد سنة خمس وثمانين وخمسمائة وسمع الحديث وتفقه وأفتى بالصالحية، وولى حسبة القاهرة، ثم وَلِىَ القضاء سنة ثلاث وستين لما ولوا من

(١٤٦) توفى سنة ٥٨٤هـ.

(١٤٧) توفى سنة ٥٨٧هـ.

(١٤٨) توفى سنة ٥٩٧هـ.

(١٤٩) توفى سنة ٥٩٦هـ.

(١٥٠) ذيل مرآة الزمان لليونينى ٢/٤٣٦ – ٤٣٧.

(١٥١) العبر فى خبر من غبر الذهبى ٥/٢٨٨.

كل مذهب قاضياً، وقد امتنع أشد الإمتناع ثم أجاب بعد إكراه، بشرط ألا يأخذ على القضاء جامكية، وكان مشهوراً بالعلم والدين، وروى عنه القاضى بدر الدين بن جماعة وغيره"(١٥٢).

١٣ - المعين الدمشقى المتوفى سنة ٦٧٠هـ:

معين الدين أحمد بن على بن يوسف بن عبد الله بن بندار من أسرة دمشقية استوطنت مصر واشتهرت بالعلم، فقد كان أبوه قاضياً وجده عالماً، وكان من أصحاب البوصيرى المحدث المصرى.

قال عنه الذهبى فى وفيات سنة ٦٧٠هـ: "أحمد بن قاضى الديار المصرية زين الدين على بن العلامة أبى المحاسن يوسف بن عبد الله بن بندار الدمشقى ثم المصرى معين الدين ولد سنة ست وثمانين وخمس مائة، وسمع من البوصيرى وابن ياسين وطائفة"(١٥٣).

١٤ - ابن مالك المتوفى سنة ٦٧٢هـ:

جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائى، أحد مشاهير العالم الإسلامى فى علوم النحو واللغة، وصاحب التصانيف الذائعة الصيت، ومنها الكافية، ومنها المثلث، ومنها الألفية فى النحو والمعروفة باسم ألفية ابن مالك.

قال عنه ابن كثير: "صاحب التصانيف المشهورة المفيدة. منها الكافية الشافية وشرحها والتسهيل وشرحه، والألفية التى شرحها ولده بدر الدين شرحاً مفيداً. ولد بحيان سنة ستمائة وأقام بحلب مدة ثم بدمشق وكان كثير الإجتماع بابن خلكان وأثنى عليه غير واحد، وروى عنه القاضى بدر الدين بن جماعة، وأجاز لشيخنا علم الدين البرزالى"(١٥٤).

(١٥٢)البداية والنهاية لابن كثير ١٣/ ٢٦٠.

(١٥٣)العبر فى خبر من غبر للذهبى٢/ ٢٩٢.

(١٥٤)البداية والنهاية لابن كثير ١٣/ ٢٦٧.

وقد رأينا فيما سبق كيف أن ابن جماعة عارض أستاذه ابن مالك هذا فى استدلاله بالأحاديث على القواعد النحوية رغم أن رواتها من الأعاجم(١٥٥).

كما سبق أن ذكرنا أن ابن جماعة يمكن أن يكون قد تلقى العلم على ابن مالك وهو بحلب أو دمشق أو كليهما ، وقد آن لى أن أذكر الآن أن ابن جماعة يمكن أن يكون قد تلقى العلم على أستاذه ابن مالك فى حماة نفسها حيث ثبت من المصادر أن ابن مالك نظم ألفيته فى حماة فى وقت مبكر يقترن بالوقت الذى كان فيه ابن جماعة صبياً يتلقى العلم عن أهله فى حماة وعلى علمائها فيها ، وهذا القول أستنتجه من واقع نص ذكره ابن الوردى فى تاريخه المعروف باسمه والذى وسم بتتمة المختصر فى أخبار البشر حيث قال ما نصه: "وأخبرنى شيخنا قاضى القضاة شرف الدين هبة الله بن البارزى قال: نظم الشيخ جمال الدين الخلاصة الألفية بحماة عندنا برسم اشتغالى فيها ، وكنت شاباً ، وخدمته ، ولقد رأيت بركة خدمتى له".

ويستطرد ابن الوردى مستدلاً على مكانة ابن مالك العلمية فيقول:

"ويحكى أن الشيخ تاج الدين عبدالرحمن الفزارى العالم المشهور تأسف يوم موت ابن مالك تأسفاً كثيراً وقال: أكان الشيخ جمال الدين فى النحو مثل الشافعى فى الفقه"(١٥٦).

١٥ - الكمال بن عبد المتوفى سنة ٦٧٢هـ:

عبد العزيز بن عبدالمنعم بن الخضير بن شبل الدمشقى، من الشيوخ المسندين الثقات قال عنه الذهبى:

"الكمال بن عبد ، المسند الثقة أبو نصر عبدالعزيز بن عبدالمنعم بن الفقيه أبى البركات الخضير بن شبل الحارثى الدمشقى. ولد سنة تسع وثمانين وسمع من الخشوعى، والقاسم، وعبداللطيف بن أبى سعد"(١٥٧).

---

(١٥٥) راجع ص ٥٠ من هذا البحث.

(١٥٦) تاريخ ابن الوردى ٢/٣١٨.

(١٥٧) العبر فى خبر من غبر للذهبى ٥/٢٩٩.

١٦ - ابن أبى اليسر المتوفى سنة ٦٧٢هـ:

إسماعيل بن إبراهيم بن أبى اليسر شاكر بن عبد الله التنوخى كان ممن أجاز للقاضى بدر الدين، وهو من أصحاب الخشوعى.

ذكره ابن العماد الحنبلى فى الشذرات فى وفيات سنة ٦٧٢هـ قال: "وفيها مسند الشام ابن أبى اليسر تقى الدين أبو محمد إسماعيل ابن إبراهيم بن أبى اليسر شاكر بن عبد الله التنوخى الدمشقى الكاتب المنشئ ولد سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وروى عن الخشوعى فمن بعده، وله شعر وبلاغة، وفيه خير وعدالة. تُوفى فى السادس والعشرين من صفر"[(١٥٨)].

١٧ - ابن علاق المتوفى سنة ٦٧٢هـ:

عبد الله بن عبد الواحد بن محمد بن علاق الأنصارى المصرى الرزاز المعروف بابن الحجاج، قال عنه الذهبى فى العبر والسيوطى فى حسن المحاضرة:

"سمع البوصيرى وإسماعيل بن ياسين وكان آخر من حدث عنهما"[(١٥٩)].

١٨ - النجيب المتوفى سنة ٦٧٢هـ:

عبد اللطيف بن عبد المنعم بن الصيقل، أحد رواة الحديث العدول فى الديار المصرية قال عنه ابن العماد الحنبلى فى الشذرات:

"أبو الفرج الحرانى الحنبلى، التاجر، مسند الديار المصرية. ولد بحران سنة سبع وثمانين ورحل به أبوه فأسمعه الكثير من ابن كليب، وابن المعطوش، وابن الجوزى، وابن أبى المجد، وولى مشيخة دار الحديث الكاملية. وتُوفى فى أول صفر وله خمس وثمانون سنة"[(١٦٠)].

---

(١٥٨) شذرات الذهب لابن العماد ٥/٣٣٨.

(١٥٩) العبر للذهبى ٥/٢٩٩، حسن المحاضرة للسيوطى ١/١٧٩.

(١٦٠) شذرات الذهب لابن العماد ٥/٣٣٦، العبر للذهبى ٥/٢٦٨، حسن المحاضرة للسيوطى ١/ ١٧٩، مرآة الجنان لليافعى ٤/١٧٢.

والنجيب هذا هو أول الرواة الذين روى عنهم ابن جماعة حديث أبى هريرة -رضى الله عنه - (لا تقوم الساعة حتى لا تنطح ذات قرن جماء).

وسنرجع إلى تتبع هذه السلسلة فى باب آخر من هذا البحث إن شاء اله تعالى.

١٩ - ابن عطاء الحنفى المتوفى سنة ٦٧٣هـ:

عبد الله بن شرف الدين محمد بن عطاء بن حسن بن عطاء بن جبير ابن جابر بن وهيب الأذرعى الحنفى المذهب، ذكره ابن كثير فى تاريخه فى وفيات سنة ٦٧٣هـ وقال عنه:

"سمع الحديث، وتفقه على مذهب أبى حنيفة وناب فى الحكم عن الشافعى مدة ثم استقل بقضاء الحنفية أول ما ولى القضاء من المذاهب الأربعة، ولما وقعت الحوطة على أملاك الناس أراد السلطان منه أن يحكم بها بمقتضى مذهبه، فغضب من ذلك فقال: هذه أملاك بيد أصحابها، وما يحل لمسلم أن يتعرض لها، ثم نهض من المجلس فذهب، فغضب السلطان من ذلك غضباً شديداً، ثم سكن غضبه فكان يثنى عليه بعد ذلك ويمدحه، ويقول لا تثبتوا كتباً إلا عنه. كان ابن عطاء من العلماء الأخيار كثير التواضع، قليل الرغبة فى الدنيا، روى عنه ابن جماعة، وأجاز للبرزالى"[(١٦١)].

وأشار الذهبى فى العبر إلى علمه، وخلقه، وتلاميذه، وشيوخه فقال:

"كان المشار إليه فى مذهبه، مع الدين والصيانة والتواضع والتعفف، اشتغل عليه جماعة. وروى عن ابن طبرزد وغيره ومات فى جمادى الأولى، وقد قارب الثمانين"[(١٦٢)].

والغالب أن ابن جماعة تلقى العلم على يديه فى دمشق التى يصرح ابن العماد الحنبلى بتولى قضاءها قائلا فى ترجمته:

"روى عن ابن طبرزد وجماعة وولى قضاء دمشق"[(١٦٣)].

---

(١٦١)البداية والنهاية لابن كثير ٢٦٨/١٣.

(١٦٢)العبر فى خبر من غبر للذهبى ٣٠١/٥.

(١٦٣) شذرات الذهب لابن العماد ٣٤٠/٥.

٢٠ - إبراهيم بن جماعة المتوفى سنة ٦٧٥هـ:

هو والد القاضى بدر الدين محمد موضوع بحثنا. وقد قدمنا تراجم ابن كثير له وكذلك ابن تغرى بردى، كما عرفنا فيما نقلناه عن القاضى مجير الدين فى الأنس الجليل قوله عنه:

"ولد بحماة فى يوم الاثنين منتصف رجب سنة ٥٩٦هـ ست وتسعين وخمسمائة، ومات أبوه وهو صغير ثم انتقل إلى دمشق وتفقه على الشيخ أبى منصور ابن عساكر، ثم اشتغل بالحديث ودرس بعدة أماكن وكان كثير التهجد ملازماً للاشتغال بالحديث والصيام، عارفاً بعمل أهل الطريق مقبولاً عند الناس وحج مرارا ثم قصد من حماة زيارة بيت المقدس فوصل إليه وأقام به أياماً ثم مرض يومين وتُوفى فى الثالث وذلك ضحوة النهار يوم عيد الأضحى سنة ٦٧٥هـ خمس وسبعين وستمائة، وبالمسجد الأقصى صُلىٍّ عليه. وهو أول من استوطن بيت المقدس من بنى جماعة. وكان يلقب صاحب عرفة لأنه رآه جماعة من الناس بعرفة، وأصبح خطيباً يوم الأضحى بمدينة حماة رحمه الله تعالى"[(١٦٤)].

ومن هذا النص الصريح يعرف أن والد القاضى بدر الدين كان من كبار الصالحين، فضلاً عن كونه من كبار العلماء الذين حملوا العلم ورحلوا من أجل طلبه، كما أدوه ورحلوا من أجل أدائه وأنه كان دائم التنقل بأسرته مما يحتمل تنقل ابنه بدر الدين معه خاصة إلى مدينة القدس التى وردت عبارة القاضى مجير الدين هنا بأنه أول من استوطنها من بنى جماعة. والله أعلم.

٢١ - ابن علان المتوفى سنة ٦٨٠هـ:

شمس الدين أبو الغنائم المسلم بن محمد بن المسلم بن مكى بن خلف القيسى الدمشقى.

---

(١٦٤)الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجير الدين الحنبلى ٢/٤٩٤.

هكذا نقل ابن العماد فى الشذرات وقال: "ولد سنة أربعة وتسعين وخمسائة وسمع الكثير من حنبل، وابن طبرزد، وابن مندويه وغيرهم، وأجاز له الخضوعى وجماعة، وكان من سروات الناس"(١٦٥).

وهو من شيوخ ابن جماعة الدمشقيين، ومن أصحاب الخشوعى المشهورين.

٢٢ - ابن رزين المتوفى سنة ٦٨٠هـ:

أبو عبد الله محمد بن الحسين بن رزين. وهو من أهل حماة، ومن كبار شيوخ عصره الذين تنقلوا فى البلاد ونقلوا العلم إلى البلاد. وقال عنه ابن كثير:

"سمع الحديث، وانتفع بالشيخ تقى الدين بن الصلاح، وأَمَّ بدار الحديث مدة، ودرس بالشامية، وَلِىَ وكالة بيت المال بدمشق، ثم سار إلى مصر فدرس بها بعدة مدارس وَوَلِىَ الحكم بها، وكان مشكوراً"(١٦٦).

وقال الذهبى: اشتغل من الصغر، وحفظ "التنبيه" و "الوسيط" كله، و "المفضل" كله، و "المستصفى" وغير ذلك، وبرع فى الفقه والعربية والأصول، وشارك فى المنطق، والكلام، والحديث، وفنون العلم، وأفتى وله ثمان عشرة سنة. أخذ الفقه عن ابن الصلاح، والقراءات عن السخاوى، والعربية عن ابن يعيش. وكان يفتى بدمشق فى أيام ابن الصلاح، ويؤم بدار الحديث، ثم وَلِىَ الوكالة فى أيام ابن الناصر مع تدريس الشامية، ثم تحول زمن هولاكو إلى مصر، واشتغل ودرس بالظاهرية، ثم وَلِىَ قضاء القضاة، فلم يأخذ عليه رزقاً تديناً وورعاً. تفقه به عدة أئمة، وانتفعوا بعلمه وهديه، وسمته، وورعه"(١٦٧).

---

(١٦٥) شذرات الذهب لابن العماد ٣٦٩/٥.

(١٦٦)البداية والنهاية لابن كثير ٢٩٨/١٣ – ٢٩٩.

(١٦٧)العبر فى خبر من غبر للذهبى ٣٣١/٥.

وقال ابن العماد الحنبلى فى الشذرات: "وممن نقل عنه الإمام النووى"[١٦٨].

وابن رزين بهذه الترجمة تجعله من أوائل شيوخ ابن جماعة، ليس هذا فحسب بل إنها تلحق ابن جماعة فى طلب العلم بمتقدمى عصره سناً وعلماً كالإمام النووى فابن رزين هو شيخ النووى وشيخ ابن جماعة والإمام النووى أكبر من ابن جماعة بثمانى سنوات إذ ولد فى المحرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة[١٦٩]، ولكن ابن جماعة عاش بعد النووى سبعة وخمسين سنة فمات النووى وعمره خمس وأربعون سنة بينما مات ابن جماعة وعمره أربع وتسعون.

٢٣ - ابن أبى عمر المتوفى سنة ٦٨٢هـ:

شمس الدين أبو محمد عبدالرحمن بن الشيخ أبى عمر محمد بن أحمد ابن محمد بن قدامة، أحد علماء دمشق الأخيار، ترجم له ابن كثير فى تاريخه[١٧٠]، والذهبى فى العبر[١٧١] ترجمة مختصرة، ونقل له ابن العماد الحنبلى فى الشذرات ترجمة حافلة ننقل منها مايلى بتصرف:

"شيخ الإسلام وبقية الأعلام ابن القدوة الزاهد، سمع من أبيه وعمه الشيخ موفق الدين، وابن طبرزد، وحنبل، وأبى اليمن الكندى، وسمع من أصحاب السلفى وعنى بالحديث، وتفقه على عمه، وشرح كتاب عمه المقنع فى عشر مجلدات ضخمة، وأخذ الأصول عن السبت الآمدى، ودرس وأفتى، وأقرأ العلم زماناً طويلاً، وانتفعت به الناس، وانتهت إليه رياسة العلم فى زمانه، وكان معظماً عند الخاص والعام، عظيم الهيبة لدى الملوك، وغيرهم، كثير الفضائل والمحاسن، متين الديانة، والورع، وقد جمع المحدث إسماعيل

---

(١٦٨) شذرات الذهب لابن العماد ٣٦٨/٥.

(١٦٩) راجع تذكرة الحفاظ للذهبى ٢٦٠/٤.

(١٧٠) راجع البداية والنهاية لابن كثير ٣٠٢/١٣.

(١٧١) العبر فى خبر من غبر للذهبى ٣٣٨/٥.

بن الخباز ترجمته وأخباره فى مائة وخمسين جزءاً، قال الحافظ الذهبى: ما رأيت سيرة عالم أطول منها أبداً، وقال الذهبى أيضاً: وكان الشيخ محيى الدين النووى يقول: هو أجل شيوخى، وقال الذهبى: وروى عنه أيضاً الشيخ زين الدين أحمد بن عبد الدايم وهو أكبر منه وأسند، وكان رقيق القلب سريع الدمعة كثير الذكر لله والقيام بالليل، وكان متواضعاً عند العامة مترفعاً عند الملوك، وكان مجلسه عامراً بالفقهاء، والمحدثين، وأهل الدين، وأوقع الله محبته فى قلوب الخلق، وكان كثير الاهتمام بأمور الناس، وذكر فخر الدين البعلبكى، أنه منذ عرفه ما رآه غضب وعرفه نحو خمسين سنة، وقد وَلِىَ القضاء مدة تزيد على اثنتى عشرة سنة على ما كره منه، ولم يتناول عليه معلوماً، وممن أخذ عنه العلم الشيخ تقى الدين بن تيمية، وأبو محمد الحارثى، وأبو الحسن العطار، والمزى، والبرزالى وغيرهم، قال الذهبى رأيت وفاة الشيخ شمس الدين بن أبى عمر بخط شيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية، فمن ذلك: توفى شيخنا الإمام سيد أهل الإسلام فى زمانه، وقطب فلك الأيام فى أوانه، وحيد الزمان حقاً حقاً، وفريد العصر صدقاً صدقاً، الجامع لأنواع المحاسن المعالى، البرىء عن جميع النقائض والمساوى، القارن بين خلتى العلم، والحلم، والحسب والنسب، والعقل، والفضل، والخلق، والخُلق، وذو الأخلاق الزكية، والأعمال المرضية مع سلامة الصدر، والطبع واللطف، والرفق، وحسن النية، وطيب الطوية، إن كان المتعنت يطلب له عيباً فيعوزه"[١٧٢].

هذا هو ابن أبى عمر أحد أساتذة بدر الدين بن جماعة، كان وعاء من أوعية العلم، بل كان جامعة يستقى منها الطالب ما شاء من العلوم والفنون فتخرّج على يديه المشاهير من حملة التراث الفكرى لأمتنا كالنووى، والذهبى، وابن تيمية وابن جماعة.

---

(١٧٢) شذرات الذهب لابن العماد ٢٧٦/٥ — ٢٧٩.

وأستاذ كهذا حوى هاتيك العلوم، وتحلى بهذه الصفات لو تأثر كل طالب منها بصفة أو صفتين لكان جديراً بأن يكون من خيار المربين فكيف بمن حمل عنه كل هذا أو أكثره، وهو القاضى بدر الدين بن جماعة موضوع بحثنا.

٢٤ - ابن المتوج المتوفى سنة ٧٣٠هـ:

تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج بن صالح الزبيرى، آخر من تُوفى من شيوخ ابن جماعة. ولم يذكر ابن كثير ولا ابن العماد الحنبلى ترجمة له، كما لا تشير كتب التراجم كطبقات الشافعية، والدرر الكامنة وغيرهما، إلى أنه كان شيخاً لابن جماعة، ولكن الذى ترجم له وأفاد هذه المشيخة إنما هو السيوطى فى حسن المحاضرة حيث قال:

"(ابن المتوج) تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج بن صالح الزبيرى. أحد العدول بمصر، ولد بها فى ربيع الأول سنة تسع وثلثين وستمائة، وسمع وحدث وألف تاريخ مصر، وسماه "إيقاظ المتغفل، واتعاظ المتأمل". روى عنه البدر بن جماعة. مات بمصر فى المحرم سنة ثلاث وسبعمائة"(١٧٣).

والجدير بالملاحظة هنا أن ابن المتوج شيخ ابن جماعة هذا ولد فى نفس السنة التى ولد فيها ابن جماعة، كما أنه مات قبل ابن جماعة بثلاث سنوات فكيف أضحى أستاذاً له؟

والجواب عن ذلك أن الحركة العلمية فى العصور السابقة لم تكن تعتد بمسألة السن هذه، بل كان يحمل الكبير عن الصغير، كما يحمل الصغير عن الكبير مادام عند الصغير علم ليس عند الأكابر، كما رأينا فى ترجمة ابن أبى عمر السابقة فقد تتلمذ على يديه ابن عبدالدايم رغم أن ابن عبدالدايم كان أكبر منه وأَسَنَّ كما قال ابن العماد نقلاً عن الذهبى(١٧٤).

---

(١٧٣) حسن المحاضرة للسيوطى ٢٦٦/١.

(١٧٤) راجع النص ص ٧٦ من هذا البحث.

والذى يبدو لى من النص أن ابن المتوج كان مؤرخاً كتب فى تاريخ مصر وابن جماعة نهل من سائر العلوم الكثير - ما خلا التاريخ - فلم يكن له مانع من حمل التاريخ عن ابن المتوج وأن يتخذه ابن جماعة أستاذاً له مهما كان سنه معادلاً لسنه أو حتى أقل منه، مادام ابن جماعة قد وجد فى أستاذه أهم شروط المعلم وهى:

علمه وعدالته التى صرح بها جلال الدين السيوطى فى الترجمة.

أولئك هم شيوخ ابن جماعة ذكرناهم لحصر النصوص لأسمائهم، وإلا فإن شيوخه كثيرون سكتت المصادر والمراجع عن ذكر بعضهم، فاكتفيت بذكر من ذكرت منهم لأهميتهم، وذيوع صيتهم، وعلو مكانتهم العلمية والخلقية، وهو سرد كاف فى حد ذاته لبيان أن ابن جماعة نهل من بحار علومهم، ورشف من غرف معارفهم ما أهله أن يكون فى عداد الصفوة الممتازة من حملة العلم، وأن يكون فى مقدمة الذين حملوا عنهم العلم.

والذى تجدر الإشارة إليه قبل أن ننتقل إلى الفصل التالى هو أن نعيد إلى الأذهان ما ذكرناه سابقاً من أن هؤلاء الشيوخ كانوا على درجة فى الفضل سواء، فكلهم كبار أخذوا عن كبار، فلما أخذ الصغار عنهم صاروا بهم كباراً فكانوا كما يقول علماء الحديث فى تعبيراتهم "ألحقوا الصغار بالكبار" أى صيروا الصغير كبيراً بحسب الحال.

وقد مات من شيوخ ابن جماعة فى سنة واحدة خمسة أنفس وكان ذلك فى سنة ٦٧٢هـ. كما لم يكن أى واحد منهم متهماً فى خلقه، ولا ضعيفاً فى دينه، ولا قليلاً فى علمه، بل كلهم رواة عدول غلب عليهم علم الحديث لشرف منزلته منهم، ثم هم أفذاذ مشاركون فى غيره، فجمع بدر الدين ابن جماعة من كل شيخ خير ما فيه من خصال حتى صار جامعاً لأفضل صفات شيوخه جميعاً، وقد لخصها أبو الفدا فى تاريخه بقوله:

"حسن المجموع، كان ينطوى على دين، وتعبد، وتصون، وتصوف، وعقل، ووقار، وجلالة، وتواضع، وحمدت سيرته، ورزق القبول من الخاص والعام، وتنزه عن معلوم القضاة لغناه مدة... ومحاسنه كثيرة"(١٧٥).

والذى ينظر فى هذا النص على اختصاره ويراجع عليه تراجم شيوخه يجد أن كل خصلة منها فيها أثر من آثار شيخ من شيوخه عليه.

فالدين والتعبد خصال أبيه، وأساتذته ابن عبد الوارث، والرضى ابن البرهان، وابن القسطلانى، والمجد بن دقيق العيد.

والتصون والتصوف كانا من صفات أبيه، وأستاذيه ابن عطاء الحنفى، وابن رزين. والعقل والوقار كانت صفات أستاذه شيخ الشيوخ عبدالعزيز الأنصارى، وحمد السيرة ورزقه القبول من الخاص والعام والتنزه عن معلوم القضاء كانت خصال أستاذه ابن أبى عمر.

وما ذلك إلا لأن ابن جماعة تأثر بشيوخه فنقل عنهم صفاتهم، كما نقل عنهم علمهم، وحمد فى خلقه ودينه وعلمه كما حمدوا.

---

(١٧٥) المختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا ٤/١٠٨.

الفصل الخامس
شخصيته: أوصافه الخَلْقِيّة، أوصافه الخُلُقِيّة

أوصافه الخَلْقِيّة:

قلنا فيما سبق إن ابن جماعة بدر الدين محمد بن إبراهيم هو أشهر شخصية فى بنى جماعة على الإطلاق، بحيث أن كل من جاء بعده منهم كانت شهرته تبعاً لشهرة قاضينا بدر الدين هذا، ولم تأت له الشهرة عن مال مبذول، أو جاه مصنوع، أو تزلف لحاكم، أو جرياً وراء منصب زائف.

وإنما هو رجل شهرته نفسه ورفعه علمه، وسمت به أخلاقه، فلم يكن فى خَلْقِه ولا فى خُلُقه عيب ينقص منه، ولم يكن له بسببهما نقص يُعاب به: بل وهبه الله تعالى حسن الخلق إلى جانب ما وهبه من حسن الصورة، ووقار الهيبة، ووفرة الحرمة.

كان بدر الدين بن جماعة أبيض اللون، مسمتا، له شكل تام، وهيئة مليحة ولحية مستديرة، زانت لما شابت، وكان شيبهاً نقياً صافيا زادته حسناً وبهاء، وكان وقوراً، هادئاً، ساكناً جليلاً، وكان صوته دقيقاً نقياً فصيحاً: طيباً بقراءة القرآن فى الصلاة، يأخذ بمجامع القلوب، ويشد آذان السامعين إليه عند الخطابة، وكان جميل الثياب يتخير منها ما يناسب وقاره، وكان حسن الإبصار بعينيه، جيد السمع بأذنيه، لكن أصاب العطب سمعه وبصره قبل موته بست سنوات فثقل سمعه، وأضر بصره، لما امتد به العمر الذى بلغ أربعاً وتسعين سنة، اجتمع له فيها من الوجاهة، والعز، ورفعة الشأن ما ندر أن يجتمع لغيره. مع كمال عقل، ووفرة ذكاء وجلال فى الصدور، ووقع فى النفوس.

ويكاد الحافظ ابن حجر ينفرد من بين أصحاب التراجم فى ذكر وصف يكاد يكون كاملاً لهيئة القاضى بدر الدين بن جماعة ينقله عن الذهبى وآخرين فيقول:

"كان يخطب من إنشائه ويؤديها بفصاحة، ويقرأ فى المحراب طيبا، واجتمع له من الوجاهة، وطول العمر، ودوام العز مالم يتفق لغيره... قال الذهبى: كان... ذكياً فطناً مناظراً، متفنناً... تام الشكل، وافر العقل... ثم ثقل سمعه، ثم أضر... قال وكان مليح الهيئة، أبيض، مسمتا، مستدير اللحية، نقى الشيبة، جميل البزَّة، دقيق الصوت، ساكناً وقورا"(١٧٦).

أوصافه الخُلُقيّة:

أجمعت المصادر التى ترجمت للقاضى بدر الدين بن جماعة على أنه كان فى خُلُقه أجمل مما كان عليه فى هيئته، وحسن طلعته، فلم يشذ مصدر منها عن وصفه بالورع، والصيانة، وكف الأذى عن الناس، ولين الجانب لهم، مع حسن الخُلُق، والتودد لمعارفه وطلابه وغيرهم، كما تخبرنا هذه المصادر أنه مع كثرة أمواله، وانبساط الدنيا بين يديه، لم يشغف بزخرفها، ولم يفتتن ببريقها، وقد أتت له من كل جانب، فكان مع كثرة أمواله، سعيد الحظ فى وظائفه، حيث تقلد أهم وظائف الدولة فى عصره، من رئاسة قضاء إلى زعامة خطابة، إلى مشيخة شيوخ إلى صدارة علم فى كبريات مدارس العالم الإسلامى فى عصره فى دمشق، والقدس، والقاهرة مع بعد الصيت، وطول مدة رئاسته، وحسن سيرته بين العام والخاص.

ومع كل إقبال الدنيا عليه بشتى ألوانها وزخارفها، فإنه أمسك نفسه تماماً عن الإلتفات إليها، والتوجه نحوها، فأخذ نفسه بالتقشف والاقتصاد فى جميع أغراض حياته من مأكل، وملبس، ومركب، ومسكن، فجعل العفاف

---

(١٧٦) حسن المحاضرة للسيوطى ٢٦٦/١.

حليته، والكفاف غايته، والعبادة مسلكه؛ يجمع له هذه الأوصاف كلها العلامة ابن حجر فيقول:

"كان... وافر العقل، حسن الهدى، متين الديانة، ذا تعبد، وأوراد، وكان فى ولايته الثانية قد كثرت أمواله فترك الأخذ على القضاء عِفّةً... وقال القطب: من بيت علم وزهادة، وكانت فيه رئاسة وتودد، ولين جانب، وحسن أخلاق ومحاضرة حسنة، وقوة نفس فى الحق، قرأت بخط البدر النابلسى كان علامة وقته، وَلِى القضاء، والخطابة، والتصاذير الكبار، ورزق الحظ فى ذلك، وبعد صيته، وطالت مدته، وحسنت سيرته، وكان متقشفاً، مقتصداً فى مأكله، وملبسه، ومركبه، ومسكنه، حسن التربية من غير عنف ولا تخجيل"[(١٧٧)].

ويقول عنه السبكى فى الطبقات:

"متحل بالعفاف، مُتَخَلٍّ إلا عن مقدار الكفاف... ذو عقل لا يقوم أساطين الحكماء بما جمع فيه"[(١٧٨)].

ويذكره القاضى مجير الدين بقوله: "كان حسن السيرة، له الجلالة والخلق الرضى"[(١٧٩)].

ويوجز ابن كثير هذا كله عنه فيقول:

"كل هذا مع الرياسة، والديانة، والصيانة، والورع، وكف الأذى"[(١٨٠)].

والقاضى بدر الدين بن جماعة لم يكن متكلفاً فى سلوكه وورعه، وإنما كان ذلك جبلته، وفطرته، كما لم تكن هذه الفطرة والجبلة خاصة

---

(١٧٧) راجع النص ص : ٨٠من هذا البحث.

(١٧٨) المختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا ٤/١٠٨.

(١٧٩) الدرر الكامنة لابن حجر ٣/٢٨٢.

(١٨٠) الدرر الكامنة لابن حجر ٣/٢٨٢.

بفترة معينة من فترات عمره المديد الطويل، وإنما كان ذلك منهجه ومسلكه طول هذا العصر المديد، واشتهر به فتى وشاباً، وشيخاً، وهرماً، حتى أن ابن حجر يذكر عنه حادثة تدل على شدة التزامه بحدود الله، وأخذ نفسه بالورع مهما أبعد الوقت بينه وبين الحوادث التى عرضت له.

يقول ابن حجر:

"من ورعه أنه لما وَلِىَ تدريس الكاملية رأى فى كتاب الوقف فى شرط الطلبة المبيت فجمع ما كان أخذه وهو طالب وأعاده للوقف لأنه كان لا يبيت"(١٨١).

ومعنى هذا أن ابن جماعة حاسب نفسه حساباً دقيقاً على جرم ارتكبه وهو طالب فى المدرسة الكاملية، وهو أنه كان ينتفع بأموال، أو كتب، أو أمتعة، أو ما شابهها، بينما شرط الواقف بالإنتفاع بأموال المدرسة وأمتعتها. أن يكون الطالب دائم الإقامة فى المدرسة، وهو لم يكن كذلك.

ولعل من الطريف أن ابن جماعة لم يكن يعلم وهو طالب بشروط وقفية المدرسة فطالب العلم عادة ليس من شأنه ولا من دأبه أن يبحث عن مثل هذه الدقائق من الأمور، إذ لا يعنيه شىء غير تحصيل العلوم، وقد شاءت إرادة الله أن يصبح الطالب بدر الدين بن جماعة أستاذاً متصدراً لمشيخة المدرسة التى كان طالباً بها فى القاهرة من قبل، والتى كان ينتفع بأغراضها مخالفا شرط الواقف فى ضرورة المبيت. وحينئذ فقط أتيح له أن يطلع على شروط وقفية المدرسة فما كان إلا أن جمع ما أخذه وهو طالب وأعاده للوقف، رغم أنه لا يؤاخذ فى الحقيقة لارتكابه فعلا كان يظن أنه من حقه، ولكن شدة ورعه وأخذه لنفسه بالشدة فى طاعة الله -عزّ وجلّ- ومرضاته لم تدع له خياراً

(١٨١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ٢٣٠/٥، وراجع المختصر فى أخبار البشر ١٠٨/٤، وتاريخ ابن الوردى ٤٢٨/٢.

بين إلزام نفسه بالحيطة، أو تركها لعدم المبالاة، فالتزم الحيطة تورعاً، وأسقط من حسابه مغبّة عدم المبالاة رغم ما يستره فى الظاهر وهو تقادم العهد بين حالته وهو طالب وحالته وهو أستاذ وشيخ للمدرسة.

كما كان من أخلاقياته وسلوكه التواضع الجم، وعدم التعلق بالمناصب، والفرح بها إن جاءت، أو الحزن عليها إن ذهبت، بل لم يتردد أن يركب إلى من خَلَفَه فى منصب القضاء ليهنئه رغم أنه عزل عنه عزلاً.

يقول ابن حجر أيضاً عنه: "ولما عزل، واستقر جلال الدين القزوينى مكانه ركب من منزله من مصر وجاء إلى الصالحية حتى سلم عليه فعد ذلك من تواضعه".

وهذا السلوك من ابن جماعة يدل على مدى ما كان يتمتع به من خلق رفيع نادر، قليلاً ما عرفناه فى العديد من شخصيات عصره.

وإذا نحن أردنا أن نعقد مقارنة بين موقفه هذا مع جلال الدين القزوينى وبين موقف القاضى الزرعى الذى عينه الملك الناصر محمد بن قلاوون بدلاً عن ابن جماعة سنة ٧١٠هـ لتبين لنا مدى الفرق الواضح بين أخلاق القاضى بدر الدين بن جماعة، وأخلاق وتصرفات القاضى سليمان بن عمر الزرعى الذى كان ابن جماعة هو صاحب اليد البيضاء عليه حيث أنابه عنه فى قضاء دمشق والقاهرة.

ونورد هنا نص العلامة ابن حجر الذى يقول فى ترجمة سليمان بن عمر الزرعى هذا ما نصه:

"وناب بدمشق والقاهرة عن ابن جماعة، وعزل ابن جماعة به بعد مجىء الناصر من الكرك وولاه القضاء فى الثلاثاء تاسع عشرى صفر سنة ٧١٠هـ ولم يشعر ابن جماعة إلا وقد دخل عليه وهو لابس الخلعة والمجلس بقاعة الصالحية غاص بالناس، وهو يُعَلِّم على مكتوب فقام له، وظن أنه وَلِىَ قضاء

الشام فهناه فاستمر الزرعى قائماً وابن جماعة ينتظر جلوسه ليقعدا جميعا، فلما طال ذلك قال له ما الذى وليته؟ قال: مكان مولانا.. فأطرق خجلاً وخرج من القاعة وجلس الزرعى مكانه"[١٨٢].

وهذا النص لا يحتاج إلى تعليق، وإنما هو كاف بنفسه لبيان أن القاضى بدر الدين بن جماعة كان من طراز نادر بين رجالات عصره فى سمو النفس وت ء الخلق.

وكان ابن جماعة قوى الدين على مذهب الأشاعرة، معتدل الرأى، فلم يعرف عنه النزوع إلى العنف بل كان غالب تصرفاته الرفق بينما كان معاصره العلامة ابن تيمية حَادًّا التصرف تجاه منحرفى الصوفية ومدعيها، ورغم أن ابن جماعة كان رفيقاً لابن تيمية فى أحوال كثيرة، إلا أن كلا منهما كان نقيض الآخر فى معالجة الظواهر التى تسود عصرهما، فبينما كان ابن تيمية حَادًّا كان ابن جماعة هادئاً، وبينما سلك ابن تيمية طريق الحرب المعلنة ضد منحرفى الصوفية الذين خرجوا عن حدود الشرع والعقل، كان ابن جماعة بنفسه صوفياً معتدلاً، بل عينته الدولة شيخاً للشيوخ وهو أعلى منصب لرئاسة الصوفية بها زمن الناصر محمد بن قلاوون كما سيأتى.

وعلى الرغم من أن بدر الدين بن جماعة كان هو القاضى الذى قُدِّمَ إليه ابن تيمية ليحاكم على يديه إلا أن ابن جماعة لم ير فى قضية ابن تيمية جريمة يستحق أن يحاكم بسببها، ما خلا ألفاظاً، ارتآها ابن جماعة بأنها خروج على الأدب مع رسول الله ﷺ كما سنذكر ذلك عند عرضنا لقضايا ابن جماعة إن شاء الله تعالى.

وابن جماعة رغم أنه تولى مشيخة الصوفية إلا أنه لم يكن من ذلك الطراز الذى ساد عصره ممن ملؤوا الحياة العامة بالخرافات التى قاومها ابن

---

(١٨٢) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجير الدين الحنبلى ٢/ ٤٨٠.

تيمية رحمه الله تعالى أشد مقاومة، ولكنه كان من طراز علمى يمزج العمل بالدين ولا يَكِلُ نفسه إلى الخرافات فقد كان من أفاضل أهل السنة والجماعة على مذهب أبى الحسن الأشعرى كما يورد ذلك ابن العماد الحنبلى إذ يقول:

"له الجلالة الوافرة، والعقل التام الرضى، فالله تعالى يحسن له العاقبة، وهو أشعرى فاضل"(١٨٣).

ولعل مرجع حالة التصوف عنده إلى أنه نشأ فى بيت صوفى النزعة فأبوه وعمه كانا من كبار الصوفية ومن كبار رجال الطريقة البيانية، ولم يعرف عنهم جميعاً إلا الاعتدال فى مسلكهم.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن منشأ حبه للصوفية واعتقاده فيهم راجع إلى حادثة حدثت له فى مطلع عمره مع فقير متصوف يرويها لنا اليافعى فى مرآة الجنان فيقول عنه ما نصه:

"له وقع فى القلوب، وجلالة فى الصدور، وكان والده من كبار الصالحين".

(قلت) هكذا ترجم عنه بعض المتأخرين بهذه الترجمة، وهو جدير بها، ما خلا ألفاظاً يسيرة أدخلتها فيها، وكان حسن الاعتقاد فى الصوفية، وبلغنى أنه سئل عن ذلك فقال كلاماً معناه أن سبب ذلك أنه كان إذا مر فى صغره على فقير فى بلاد الشام يقول: مرحباً بقاضى الديار المصرية، وكان من أمره ما كان من السيرة الرضية"(١٨٤) انتهى كلام اليافعى.

فالصوفية عند ابن جماعة لم تكن إهمالاً للنفس والحياة، وبعض مظاهر الدين كما نراه عند غيره، ولكنها كانت منهجاً وسلوكاً يعتمد على

---

(١٨٣) البداية والنهاية لابن كثير ١٦٣/١٤.

(١٨٤) الدرر الكامنة ٢٨٣/٢.

أن لله عباداً وقفوا أنفسهم على طاعته، وتقديم العمل، وترك الأمل، يدل على ذلك أن ابن جماعة كان من أولئك الرجال الذين ارتقوا بعقولهم إلى الحد الذى تجاوز عصره الذي يعيش فيه.

فمع أنه كان مبرزاً فى علوم الدين صاحب تعبد وأوراد، وتصون وتصوف كما عرفنا لم يمنعه ذلك من النبوغ فى العلوم الحديثة، والتأليف فيها، وتدريسها مع إنكار الكثير من العلماء وغير العلماء لها.

فمَنْ مِنْ أصحاب النزعة الصوفية يؤلف رسالة فى الأسطرلاب، ويدرسها مثل ما فعل ابن جماعة؟

يحكى لنا صلاح الدين الصفدى أحد تلاميذه فى ذلك عنه فيقول:

"أخبرنى القاضى شمس الدين بن الحافظ ناظر الجيش بصفد وطرابلس قال كنت أقرأ عليه بدمشق وهو فى بيت الخطابة رسالته فى الأسطرلاب فقال لى يوماً إذا جئت تقرأ فى هذه فاكتمه فإن اليوم جاء إلىّ مغربى، وقال يا مولانا قاضى القضاة، رأيت اليوم واحداً يمشى فى الجامع وفى كمه آلة الزندقة، فقلت وماهى؟ فقال الأسطرلاب"(١٨٥).

وهذا يدل على أن ابن جماعة كان رجلا متفتح العقل، متوقد الذهن، تقيا فى غير إهمال، متصوفاً فى اعتدال يعمل لرقى العلم ونهضة الكون أملا فى رضا الله على أحسن الوجوه.

كما يدلنا أمره لتلميذه بكتمان آلة الاسطرلاب على مدى حلمه، ومعالجته للأمور بالسياسة والحكمة والتعقل، ومجاراة الناس ومخاطبتهم على قدر عقولهم.

هذا وكان من أهم الصفات الخلقية التى يتحلى بها القاضى بدر الدين ابن جماعة، والتى لازمته طول عمره الحلم، والعفو، والصبر الجميل.

---

(١٨٥) الوافى بالوفيات للصفدى ١٩/٢.

روى العلامة ابن حجر أن النصير الحمامى هجاه بمقطوعة شعر سبه فيها بأقذع ما يسب به إنسان وناوله إياها ، فحلم عنه، وأحسن إليه وهى:

قاضى القضاة المقدسى صحب الأمور المطاعة

سألته عن أبيه فقال لى ابن جماعة

هذا رغم ما كان عليه من قوة السلطان، والقدرة على إيقاع العقوبة الفورية باعتباره كبير القضاة. ولكن حال به حلمه، وعفوه، وصبره عن ذلك.

الباب الثانى

عصر ابن جماعة ونبذه عن ملامحه السياسية والاجتماعية والفكرية

الفصل الأول

الأحوال السياسية

بالحساب الزمنى ولد القاضى بدر الدين بن جماعة سنة ٦٣٩هـ (١٢٤١م) ومات فى ليلة الإثنين الحادى والعشرين من جمادى الأولى سنة ٧٣٣هـ (يناير ١٣٣٣م)[١٨٦].

أى أنه عاش نحو قرن من الزمن، بدأت فى الثلث الأول من القرن السابع الهجرى، وانتهت فى الثلث الأول من القرن الثامن.

أما بحساب الحوادث التاريخية فإنه ولد بُعَيد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبى أعظم سلاطين الدولة الأيوبية، قاهر الصليبيين، وكاسر الفاطميين، وموحد القطرين مصر والشام.

ومات قبيل وفاة السلطان محمد بن قلاوون، أطول سلاطين المماليك البحرية والبرجية عهداً، وأكثرهم صلاحاً وإصلاحاً، وأميلهم إلى الدين والبر[١٨٧].

عاصر ابن جماعة فترة من أدق وأحرج الفترات السياسية فى تاريخ الأمة الإسلامية كلها، وفى تاريخ المنطقة التى ولد وتنقل بين ربوعها، وهى مصر والشام بصفة خاصة، وقد أتاح له عمره المديد الذى عاشه أن يرى دولاً تزول وتمضى، وعروشاً تقام ،وتيجاناً تتوج، وحروباً ضارية تندلع فى شتى أنحاء العالم الإسلامى.

كان العالم الإسلامى خلال عصر ابن جماعة قد انقسم إلى دويلات متناحرة كالغوريين، والخلجيين وآل تغلق، بما فى ذلك الخلافة العباسية

---

(١٨٦) تقويم تاريخى للهاشمى ص١٨٤.

(١٨٧) تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم ١/١١٢ - ١١٩.

الكبرى فى بغداد، بحيث لم يعد لهذه الخلافة إلا الرمز الذى اجتمعت تحته كلمة المسلمين وإن تفرقوا شعوبا تُحْكَم بدويلات ينتمى حكامها إلى أسر من الأتراك، أو الأيوبيين أو غيرهم، حتى أن العام الثانى لولادة ابن جماعة تولى فيه آخر خليفة عباسى هو المستعصم بالله الذى جرفته سيول التتار الزاحفة.

والحقيقة أن العالم الإسلامى فى عصر ابن جماعة كانت تجتاحه عواصف ثلاثة:

الأولى:

كانت تأتى من الشرق ممثلة فى قوة عاتية لا تعرف رَبًّا، ولا تؤمن بدين سوى السيطرة وسفك الدماء، وتلك هى قوة التتار المغوليين.

الثانية:

قوة عنصرية حاقدة، ترى فى الإسلام منافساً خطيرة، وعدوا لدينها لدوداً، ممثلة فى الصليبيين الزاحفين تحت شعار الصليب.

أما القوة الثالثة:

فهى قوة العداوة المستحكمة بين الأسر الإسلامية الحاكمة فى شتى أقطار الشعوب الإسلامية، وكأن هؤلاء الملوك المسلمين لم يكفهم ما يحيط بالأمة الإسلامية من مشرقها ومغربها؛ فأرادوا أن يجهزوا عليها بطعنها من الداخل فى صميم القلب.

عاصر ابن جماعة هذه الأخطار الثلاثة التى انقضت انقضاض الصواعق المدمرة على الأمة الإسلامية، حيث شهد فى أولى مراحل عمره انفكاك الوحدة الإسلامية بين مصر والشام عقب وفاة البطل صلاح الدين الأيوبى، الذى انهارت الدولة الأيوبية الممتدة من دجلة إلى النيل بمجرد وفاته إذ لم يخلفه أحد من أبنائه أو إخوته فى مثل قوته ولا غيرته على الإسلام وشئون المسلمين.

وكان من أهم مآثر صلاح الدين التى يذكرها له التاريخ أنه الرجل الذى كسر غطرسة الصليبيين وأضعف شوكتهم، وفل حشودهم، وأجلاهم عن أكثر الإمارات التى أقاموها فى الشرق الإسلامى باسم الصليب.

ولعل الأهم من ذلك أن الصليبيين تعلموا على يد صلاح الدين خلق الحرب والسلام واحترام المعاهدات الدولية، كما أنه نزع من عقولهم تلك الأفكار السيئة التى راودتهم عن عبادة المسلمين لمحمد ﷺ كما يذكر ذلك فيليب حِتّى، أحد المؤرخين المعاصرين حين يتحدث عن الصليبيين فيقول:

"ويجب أن نذكر أولا أن الأفرنج قصدوا الأراضى المقدسة وهم يحسبون أنفسهم أرفع منزلة من أهلها، وكانوا يظنون أن أهلها وثنيون يعبدون محمداً ولكنهم ما كادوا يتصلون بهم حتى زالت الغشاوة عن عيونهم"(١٨٨).

ويقول فى موضع آخر عن أخلاق صلاح الدين فى معاملة أسراه من ملوك الصليبيين:

"وكان فى مقدمة الأسرى النبلاء غى ده لوسينيان Gwy de Lusignan ملك أورشليم وقد أحسن السلطان صلاح الدين النبيل معاملته ، أما استقبال ريجلند (Reginld of Chatilion) الذى كان يخرق الهدنة ويعبث بالأمن فقد نال معاملة أخرى"(١٨٩).

وإذا كان ابن جماعة لم ير هذه الوقائع رأى العين، فقد وصلت إلى مسامعه على التأكيد من والده ومعلميه فقد كانت تلك الوقائع قريبة العهد بولادته، لا تكاد تتجاوز الأربعين سنة.

---

(١٨٨) تاريخ العرب المطول لحتى جـ ٢/٧٦١، وراجع الإسلام والحضارة العربية لمحمد كرد على ص٢٩٣..

(١٨٩) تاريخ العرب المطول لحتى جـ ٢/ ٧٦٦.

ولكنه قدر له أن يرى وأن يعيش فى مآثر دولة صلاح الدين، تلك الدولة التى هيأت للشام ومصر أسباب العمران من إنشاء المدارس والمساجد، ودور العلم فى شتى المدن كما أعادت الحماسة الوطنية والغيرة الدينية إلى النفوس مما كان له الأثر الواضح فى تربية ابن جماعة ومعاصريه. علاوة على مظاهر الحضارة الأخرى من صناعة وزراعة وتجارة.

ولكنه مع ذلك قدر له أن يرى سقوط هذه الدولة، وتناحر ملوكها إلى حد قيام الحروب بينهم، وانشغالهم بذلك عن مواجهة الصليبيين الذين مافتئوا فى عصر ابن جماعة يغيرون على مدن مصر والشام، والمغرب العربى، مما أدى إلى ضعفهم. وتفكك الرابطة بين الشام ومصر ومحاولة ملوك كل من الإقليمين السيطرة على مافى يد الآخر، مما دعا الملك الصالح أيوب ملك مصر إلى الإكثار من شراء المماليك ليستعين بهم فى القضاء على إخوته وأبناءعمومته، فما لبثوا بعد حين أن قضوا على ملكه وملك الأيوبيين جميعاً، وأسسوا ماعرف فى التاريخ باسم دولة المماليك، وكان أول سلاطينهم عز الدين أيبك التركمانى الذى تزوجته شجرة الدر أرملة الملك الصالح أيوب لتحكم من خلفه بعد أن رفض المسلمون، ورفضت الخلافة العباسية تمليكها، فعين المماليك الأشرف موسى ابن الملك العادل ليكون ملكاً على مصر على أن يتولى عز الدين أيبك الوصاية عليه إذ كان الأشرف لا يزيد عمره على ثمانى سنوات[١٩٠].

وقد أفاض المقريزى فى خططه فى ذكر نشأة المماليك، وجلب الملك الصالح أيوب لهم واعتماده عليهم، ثم قيام دولتهم بعد موته، نجتزئ منها بما يلى:

---

(١٩٠) راجع حسن المحاضرة للسيوطى جـ ٢/٣٩.

"فاجتمع عليه مماليكه، وقد عظمت مكانتهم عنده، وكان من أمره ما كان حتى ملك مصر فرعى لهم ثباتهم معه حين تفرق عنه الأكراد وأكثر من شرائهم، وجعلهم أمراء دولته وخاصته وبطانته والمحيطين بدهليزه إذا سافر، وأسكنهم معه فى قلعة الروضة وسماهم البحرية، وكانوا دون الألف مملوك، قيل ثمانمائة، وقيل سبعمائة وخمسون كلهم أتراك، فلما مات الملك الصالح بالمنصورة أحس الفرنج بشئ من ذلك فركبوا من مدينة دمياط وساروا إلى فارسكور وواقعوا العسكر فى يوم الثلاثاء أول شهر رمضان سنة سبع وأربعين، نزلوا بعزية شارمساح ثم بالبرمون، ونزلوا تجاه المنصورة، فكانت الحروب بين الفريقين إلى خامس ذى القعدة فلم يشعر المسلمون إلا والفرنج معهم فى المعسكر فقُتِلَ الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، وانهزم الناس ووصل "رماد فرنسى" ملك الفرنج إلى باب قصر السلطان فبرزت البرجية وحملوا على الفرنج حملة منكرة حتى أزاحوهم وولوا فأخذتهم السيوف والدبابيس وقتل من أعيانهم ألف وخمسمائة، فظهرت البحرية من يومئذ، واشتهرت.

ثم لما قدم الملك المعظم توران شاه أخذ فى تهديد شجرة الدر ومطالبتها بمال أبيه فكانت البحرية تذكرهم بما فعلته (أى شجرة الدر) من ضبط المملكة حين قدم المعظم وما هى عليه من الخوف منه فشق ذلك عليهم، وكان قد وعد الفارس أقطاى المتوجه إليه من المنصورة لاستدعائه من حصن كيفا بأمره فلم يف له، فتنكر له وهو من أكابر البحرية وأعرض مع ذلك عن البحرية واطرح جانب الأمراء حتى قتلوه وأجمعوا على أن يقيموا بعده فى السلطة سرية أستاذهم، فأقاموها فى السلطنة وحلفوا لها فى عاشر صفر، ورتبوا الأمير عز الدين أيبك التركمانى الصالحى أحد البحرية مقدم العسكر. . . فخلعت عليهم وأنفقت فيهم الأموال ولم يوافق أهل الشام على سلطنتها، وطلبوا الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز صاحب حلب،

فسار إليهم بدمشق وملكها، فانزعج العسكر بالقاهرة، وتزوج الأمير عز الدين أيبك التركمانى بالملكة شجرة الدر، ونزلت له عن السلطنة وكانت مدتها ثمانون يوما"(١٩١).

ويحلل الدكتور أحمد شلبى شخصية عز الدين أيبك أول مؤسس لدولة المماليك فيقول:

"ولم يكن أيبك ذا شخصية قوية مما يفيد أن شجرة الدر اختارته ستاراً لتحكم من ورائه ،ولكن أيبك أراد أن يستبد بالسلطان دونها فحصل بينهما صراع انتهى بأن دبرت شجرة الدر قتله، ثم قتلها ابنه فيه.

بقى اسم صغير ينبغى أن نذكره قبل أن يتم الأمر للمماليك، ذلك هو الصبى الأيوبى الأشرف موسى الذى وضعه المماليك مع أيبك كسلطان شرعى على أن يكون أيبك وصياً عليه، ولكن أيبك سرعان ما عزله واستبد بالأمر، وبعزل الأشرف، واستبداد أيبك بالأمر دون شجرة الدر ، انتهى ملك الأيوبيين وأصبح الأمر فى مصر للمماليك"(١٩٢).

كان بدر الدين بن جماعة عند سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك البحرية لا يزيد عمره على العاشرة وكان فى خلال هذه الفترة يتلقى العلم على أهله فى الشام ، وكان يلحظ ويشاهد تقاتل أمراءالأسرة الأيوبية واندلاع الحرب بين إماراتهم الصغيرة تلك الأسرة التى كان همها فى الماضى القريب دحر الغزاة الصليبيين فأصبحت بعد موت عائلها العظيم فى تناحر من أجل المصالح الشخصية.

ولكن مع ذلك فإن هذه الأسرة سجلت آخر أمجادها الحربية والتاريخية بدحر الحملة الصليبية على مصر وأسر ملك فرنسا قائد الحملة فى مدينة المنصورة فى آخر أيام الملك الصالح أيوب، وذلك بواسطة فطنة وشجاعة سريته

---

(١٩١) راجع الخطط للمقريزى جـ٣/ ٣٨٤ – ٣٨٦.

(١٩٢) التاريخ الإسلامى للدكتور أحمد شلبى جـ ١٨٦/٥.

وأم ولده شجرة الدر، التى تحقق النصر بسببها لنجاحها فى إخفاء موت الصالح وإدارتها شئون البلاد بحزم وجلد قلما تتوافر عند أبطال الرجال.

ولعل هذا ما شجعها على إعلان تبوئها عرش السلطنة ومساندة مماليك زوجها الراحل لها.

غير أن التقاليد الإسلامية حالت دون بقائها فى السلطة أكثر من الثمانين يوماً وهو ماعبر المعتصم بالله الخليفة العباسى الذى أرسل إلى المماليك فى مصر يقول لهم:

"إن كان ما بقى عندكم رجل تولونه فقولوا لنا نرسل إليكم رجلاً"[١٩٣].

وأيا ما كان الأمر فإن الفترة السياسية التى عاشها ابن جماعة من عمر الدولة الأيوبية لم تخل من المعارك الحربية رغم الصراعات السياسية الداخلية إلى الحد الذى يجعل أكابر العلماء من أمثال العز بن عبد السلام يشترك فى هذه المواقع الحربية مع توران شاه فى مدينة المنصورة[١٩٤] مما كان له أثر بعيد فى نفس ابن جماعة فيما بعد باشتراكه فى ملاقاة قازان التترى سنة ٦٩٩هـ [١٩٥].

وعلى هذا الأساس فإن أولى التأثيرات الوطنية، ونماذج العلماء العاملين من أمثال العز بن عبد السلام تلقاها ابن جماعة ومعاصروه من الشباب عن هذه الدولة فى وقت مبكر من حياتها، وفى وقت مقارن لزوالها.

فأنعم بها من دولة تلهب الحماس لدينها، ووطنها وأمتها وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة.

لم تلبث الدولة المملوكية أن قامت فى مصر، ولم تلبث غير سنوات قليلة حتى بسطت نفوذها على الشام كله حتى نهر الفرات شرقا، وعلى صعيد مصر حتى أسوان وبلاد النوبة جنوباً.

---

(١٩٣) حسن المحاضرة للسيوطى جـ ٣٩/٢.

(١٩٤) المصدر السابق.

(١٩٥) راجع ص ..... من هذا البحث.

عاش ابن جماعة فى ظل دولة المماليك البحرية أكثر من ثمانين عاماً عاصر من سلاطينها اثنى عشر سلطاناً هم على التوالى: عز الدين أيبك، ونور الدين على بن أيبك، وسيف الدين قطز، والظاهر ركن الدين بيبرس الأول، وناصر الدين محمد بركة بن بيبرس، وبدر الدين سلامش بن بيبرس أيضاً، وسيف الدين قلاوون، والأشرف خليل بن قلاوون، والناصر محمد بن قلاوون أيضاً الذى تولى السلطنة ثلاث مرات، اغتصبها منه فى المرة الأولى مملوك أبيه زين الدين كتبغا، ومن بعده حسام الدين لاجين مملوك أبيه أيضاً، واغتصبها فى المرة الثانية بيبرس الجاشنكير أو بيبرس الثانى، ثم عاد الناصر محمد بن قلاوون سلطاناً على مصر أكثر من ثلاثين عاماً ومات ابن جماعة فى عهده سنة ٧٣٣هـ.

وكان أهم هؤلاء الملوك أثراً من النواحى السياسية، والحربية، والاجتماعية هم: قطز، وبيبرس الأول، وقلاوون وابنيه الأشرف خليل، والناصر محمد الذى كان أطول سلاطين المماليك البحرية والبرجية عهداً ، بل من أطول ملوك الإسلام كذلك كما تولى الحكم من أولاده، وأحفاده من بعده ثلاثة عشر ملكا على التوالى، لم ينقطع الملك فى ذريته إلا بقيام الدولة المملوكية الثانية سنة ٤٨٧ هـ - ١٣٨٢م وهم المماليك الجراكسة أو البرجية.

والطابع المميز لهؤلاء السلاطين جميعاً أنهم مماليك اشتراهم ملوك الدولة الأيوبية وربوا تربية عسكرية، وكان أسعدهم حظاً وأعظمهم مقدرة من تفك رقبته ويصبح حراً بأمر السلطان ليتولى إمارة عشرة أو خمسين أو مائة أو ألف من الجنود[١٩٦].

والعجيب كما يقول الدكتور أحمد شلبى أن المماليك كانوا يعتزون بهذه التسمية، ولا يرون عنها بديلاً، ويرون فيها مجدهم[١٩٧].

---

(١٩٦) راجع تاريخ دولة المماليك فى مصر للسير وليم موير ص٣٤، والمماليك لأنور قلمة ص ١٨.

(١٩٧) التاريخ الإسلامى للدكتور أحمد شلبى جـ ١٧٩/٥.

كما أن بعض المؤرخين من غير المسلمين يتعجب لقيام دولة قوية على يد "مماليك" فنرى فيليب حِتّى يقول:

" يصعب على المرء أن يتصور فى غير التاريخ الإسلامى نشوء دولة كالمماليك وبلوغها أوج الفلاح حتى فى العصور الإسلامية، فإن نشوء الدولة لأمر عجيب يكاد أن يكون فريداً فى بابه، فالمماليك كما يدل اسمهم دولة أنشأها أرقاء مختلفو الأجناس والقوميات جعلوا من أنفسهم طبقة عسكرية حاكمة فى بلاد عربية"(١٩٨).

وهذا تصور صحيح إلى حد كبير، ففى ضوء الإسلام وحده يمكن تقبل هذه الفكرة.

ورغم أن المماليك لم يكونوا فى حاجة إلى من يعترف بسلطانهم إلا أنهم مع ذلك صمموا على أن يضفوا على دولتهم الصفة الشرعية، وقد نالوا غرضهم فى ذلك عند ما قدم إلى القاهرة من بغداد أبو القاسم أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر بأمر الله عم الخليفة المستعصم بالله الذى قتله التتار سنة ٦٥٦هـ، وكان الظاهر محبوساً فى بغداد بعد إزالة الخلافة العباسية، وبقى المسلمون بلا خلافة ثلاث سنوات ونصف، فانتهز السلطان المملوكى الظاهر بيبرس البندقدارى هذه الفرصة واستقبل الظاهر بأمر الله استقبالاً حافلاً وبايعه بالخلافة، وبايعه العلماء، والقضاة، والأعيان وكان أول من بايعه شيخ الإسلام العز بن عبد السلام، ولقبوه بالمستنصر بالله، وكتبت بيعته إلى جميع الآفاق، وفى يوم الجمعة السابع عشر من رجب سنة ٦٥٩هـ خطب هذا الخليفة خطبة بليغة دعا فيها للسلطان بيبرس وخلع عليه وفوض إليه الأمور فى البلاد الإسلامية ولقبه بقسيم أمير المؤمنين(١٩٩).

---

(١٩٨) تاريخ العرب المطول لحتّى جـ ٧٩٣/٢.

(١٩٩) راجع حسن المحاضرة جـ ١/ ٥٢ – ٩٤، والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٢٣١/٢ – ٢٣٣.

ورغم أن هؤلاء الخلفاء لم يكن لهم شأن يذكر فى مصر إذ كان كل شئ بيد سلاطين المماليك إلا أن الخلافة كانت فى ذلك الوقت مظهراً من مظاهر اجتماع الأمة الإسلامية، أكثر مما كان يتصور أنها دعم لسلطة المماليك وكسب لشرعية دولتهم، فلم يكن سلاطين المماليك فى الواقع بحاجة إلى مثل هذه الشرعية حيث أجمع المؤرخون على أن دولتهم كانت دولة عسكرية بحتة تقوم على العسف والطغيان وجمع الضرائب بشتى أنواع القهر والغلبة، ومن هنا وقف كثير من العلماء كالعز بن عبد السلام ومحيى الدين النووى فى وجوههم يذكرونهم بالله واليوم الأخر، والخوف من ظلم الرعية.

وإذا كان المؤرخون قد أفاضوا فى ظلم المماليك وعسفهم واعتبروا أن عصرهم كان من أظلم العصور فى التاريخ الإسلامى، فإنهم مع ذلك لم ينسوا أن يذكروا لهم أعظم الفضائل السياسية والحربية والحضارية، وأهما ما يلى:

١ - كان المماليك البحرية هم القوة الوحيدة فى العالم التى تكسرت عليها صخرة التتار العاتية الزاحفة من الشرق بحيث لم تكن تأتى على شئ إلا خلفته دماراً، فقد كانوا قوماً همجاً لا يعرفون أدياناً ولا حضارات، ولم يتصد لهم شعب من الشعوب، ولا جيش من الجيوش سوى المماليك، ويشاركهم فى ذلك شعوبهم التى وقفت خلفهم، ولولا هذه الوقعة الباسلة لسقطت أوربا تحت سنابل خيلهم.

وهذا ما دعا الدكتور أحمد شلبى أن يقول فى تاريخه :

"خرت قوى كثيرة فى آسيا وأوربا أمام زحف المغول المدمر، ولذلك عد انتصار المماليك عليهم حماية للحضارة العالمية التى كانت لولا مصر والمماليك على وشك أن تنهار، وأن تدوسها أقدام المغول المخربة التى أتت على كل مدنية فى كل وطن حلت فيه"(٢٠٠).

(٢٠٠) التاريخ الإسلامى للدكتور أحمد شلبى جـ ١٦٩/٥.

وكان انتصار المماليك الظافر على التتار بمثابة رد اعتبار حاسم للأمة الإسلامية وأخذ لثأرها فى الهجوم الوحشى على بغداد، وإسقاط خلافتها قبل أقل من سنتين من اندحارهم أمام المماليك.

وكان أهم المواقع الحربية التى خاضها المماليك ضد التتار موقعة عين جالوت بقيادة السلطان قطز فى رمضان سنة ٦٥٨هـ، ثم موقعة حمص بقيادة السلطان قلاوون فى رجب سنة ٦٨٠هـ، وموقعة شقحف سنة ٧٠٢هـ بقيادة السلطان الناصر محمد بن قلاوون[٢٠١].

هذا عدا مناوشات كثيرة مع التتار نتيجة جياسهم خلال ديار الشام وتدميرهم بعض مدنه.

وقد عاش ابن جماعة كل هذه المواقع واشترك فى بعض مناوشاتها ومعه الشيخ تقى الدين بن تيمية سنة ٦٩٩هـ كما سبقت الإشارة إليه.

٢ - انتصارهم على الصليبيين انتصاراً نهائياً، وإجلاؤهم إياهم عن التراب الإسلامى.

ذلك أن انتصار المماليك على المغول فى عين جالوت، لم يكن صداً لأعنف الغارات التاريخية وإنما كان سبباً مباشراً لإعادة قوة الوحدة بين مصر والشام مما ترتب عليه إعادة الحصار حول المستعمرات الصليبية التى بقيت فى أيديهم منذ أيام الأسرة الأيوبية، كما أنه أنهى التقاسيم الجغرافية للممالك الصغيرة التى أقامها ملوك هذه الأسرة، والتى بنوا عيها خلافاتهم السياسية، وتحزب بعضهم ضد الآخر إلى حد الإستعانة بالصليبيين أنفسهم.

وعلى هذا فقط نشط السلطان سيف الدين بن قلاوون سنة ٦٨٨هـ لغزو الصليبيين بطرابلس وفتحها عنوة ثم هدمها جميعها وبنى مكانها طرابلس الموجودة الآن.

---

(٢٠١) راجع الوصف التفصيلى لهذه الواقعة فى البداية والنهاية لابن كثير جـ١٤/٢٦.

ثم نشط من بعده ابنه الملك الأشرف صلاح الدين خليل الذى كان له فضل تحرير المسلمين من هذه الطغمة نهائياً.

وفى هذا يقول المقريزى فى ذكر الملك الأشرف:

"وسار لفتح عكا فى ثالث ربيع الأول سنة تسعين وستمائة ونصب عليها اثنين وتسعين منجنيقاً وقاتل من بها من الفرنج أربعة وأربعين يوماً حتى فتحها عنوة فى يوم الجمعة سابع عشرى جمادى الأولى وهدمها كلها بما فيها، وحرقها، وأخذ صور، وحيفا، وعتليت، وأنطرسوس، وصيدا، وهدمها، وأجلى الفرتج من الساحل فلم يبق منهم أحد ولله الحمد"[(٢٠٢)].

والسلطان الأشرف خليل هذا هو أول من تنبه إلى مكانة بدر الدين ابن جماعة فاستدعاه من الشام واستقبله بكل الاحترام وعينه قاضياً للقضاة وشيخاً للإسلام.

٣ - لم يتوقف نشاطهم السياسى والحربى عند صد المعتدين بل اتجهوا إلى الفتوحات وتوسيع رقعة الدولة، فنرى قواد الظاهر بيبرس يقومون بنشر سلطانه على البربر غرباً، وجنوباً على النوبة التى أصبحت بعد هذا تحت حكم السلطة المصرية الدائم[(٢٠٣)].

كما قاموا بعقد المعاهدات المختلفة مع الدول المجاورة سواء ما كان منها خاصاً بمسائل الحروب، أو تنظيم المعاملات، أو تبادل القناصل[(٢٠٤)]، وجاءت معاهداتهم من مركز القوة لا من مركز الضعف.

(٢٠٢) الخطط للمقريزى جـ ٣/ ٣٨٧ - ٣٨٨، وراجع الوصف التفصيلى الذى أورده ابن كثير لهذه الفترحات فى البداية والنهاية جـ ٣٢٠/١٣ — ٣٢١.

(٢٠٣) تاريخ ابن خلدون جـ ٤٠٠/٥ ، وراجع تاريخ العرب المطول لحتّى جـ٧٩٨/٢.

(٢٠٤) راجع ابن إياس جـ٤٤/٢، ٤٧، ٥٤، ٥٧، جـ١/ ٩٦ - ٩٧.

٤ - حفاظهم على استقلال البلاد وبسط نفوذهم تماماً عليها بحيث أعادوا هيبة الدولة وشوكتها إلى نفوس من حولهم من الدول المجاورة، وهم وإن كانوا لم يختلطوا بالشعب بالمصاهرة أو غيرها إلا أنهم مع ذلك اعتبروا أنفسهم مواطنين أصليين بحكم انتمائهم للإسلام وتعصبهم لمسلك أهل السنة فلم يبخلوا بدمائهم يبذلونها فى المعارك رخيصة، تدفعهم الحمية والغيرة الدينية إلى الدفاع عن الأمة الإسلامية، واسترداد ترابها وصيانتها من غارات أعدائها.

يقول الأستاذ محمود رزق سليم: "على الرغم من أن طبقة المماليك طبقة طارئة على البلاد المصرية، وعلى الرغم من أنها طبقة متجددة تجدداً خارجياً باستمرار، إلا أنها اكتسبت بالإقامة والاستقرار صفة المصرية، واتخذ سلاطينها وأمراؤها هذه البلاد موطناً لا يعرفون لهم موطناً سواه. ولا بدع فقد جُلِبُوا إليه أو نشئوا فيه صغاراً، وشبوا تحت سمائه وفوق أرضه، وملأ هواؤه صدورهم حياة وحركة، وحاطتهم نعمه أينما ساروا واتسع لهم صدره بما لم يتسع به لهم صدر غيره... فلا غرابة إذن أن نصبوا أنفسهم ذادة عنه ومدافعين، وحاطوا استقلاله بكل ضرب من ضروب الصيانة وغزوا باسمه فى كل مكان يحيط به، ونشروا رايته على كثير من الآفاق المجاورة،وأدخلوا فى حوزته عددا ضخماً من البلاد وأحسنوا سمعته بين دول العالم المعروفة إذ ذاك بصفة عامة، وبين دولة المسلمين بصفة خاصة فانتشر صيت مصر شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً . . . . حافظوا على استقلالهم، وبطشوا بكل من بغى عليه، أو اعتدى على طرف من أطراف هذا الوطن.

لذلك شغلوا جزءاً كبيراً من زمنهم بالحروب الخارجية.

وحافظوا بصفة خاصة على بلاد الشام وحلب كأنما اعتبروهما جزءاً من مصر لا يتجزأ. وعنوا بهما عنايتهم بالبلاد المصرية ونسقوهما من الناحية

الإدارية نسقاً مشابهاً للتنسيق الإدارى المصرى تقريباً فكانت مدنهما نيابات مصرية يعين السلطان لكل منها نائباً ، فمنها نيابة صمد، وطرابلس، وحلب، وحماة، ودمشق، وغزة، وغيرها"[(٢٠٥)].

كان اللون السياسى الذى اصطبغت به دولة المماليك هو لون الحكم المطلق الذى يصل إليه الحاكم بقوته ثم يحوله إلى ملك وراثى فى ذريته من بعده، وقد يستقر الأمر لوراثته، وقد يثب عليه من هو أقوى منه فينتزعه لصالحه، لذلك قوى بينهم التنافس فى سبيل الوصول إلى السلطة.

ومع ذلك فقد كان السلاطين يجتهدون فى أن يكون حكمهم فى ظل سلطان الدين حتى وإن اتخذ ذلك مظهراً شكلياً كما رأينا فى إحيائهم للخلافة العباسية فى مصر بعد سقوطها فى بغداد.

ومع أن نظام الحكم كان عسكرياً عرفياً، لا يعتمد على قانون مكتوب ولا يقوم على مجلس للشورى محدد، إلا أننا مع ذلك نرى أن أكثر السلاطين يحاول أن يستمد مشورته من كبار علماء عصره ويسعى جاهداً لتفيذ ما يوصون به رغم معارضتهم لهم واصطدام آراء هؤلاء العلماء برغباتهم الشخصية خاصة بين الملوك أصحاب الهمم العالية كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة:

"وكثير من السلاطين كان يحاول أن يكون حكمه برضا العلماء، وكان يكثر ذلك بين الملوك ذوى الهمة، وخصوصاً فى أوقات الشدة، وعندما يحتاجون إلى نفوذ العلماء، وفرض أمور على العامة لا يقبلونها باسم الدين، وقد كان الظاهر بيبرس الذى سن تقاليد الحكم لدولة المماليك يعنى بسماع كلام العلماء واستشارتهم وتنفيذ آرائهم إن لم يجد فى تنفيذها حرجاً، وقد يصب جام غضبه على بعضهم، ولكن لم يعلم أنه ذهب به فرط الغضب إلى إنزال الأذى"[(٢٠٦)].

---

(٢٠٥) راجع حسن المحاضرة لسيوطى ٢/١١٠.

(٢٠٦) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى لرزق سنيم جـ١ قسم ٢/٩٨٢ -٠٩٢٠. وراجع النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى جـ ٧/٨٦١.

وقد كان من أكابر العلماء الذين شاهدهم ابن جماعة وعاصرهم فى صدر شبابه العز بن عبد السلام ومحيى الدين النووى.

أما العز بن عبد السلام فكان من قوة الإرادة بحيث أنه صمم على بيع أمراء المماليك الذين ثبت عدم عتقهم وفيهم نائب السلطان ونفذ بنفسه ذلك[٢٠٧]. ويوم مات العز قال الملك الظاهر:

"ما استقر ملكى إلا الآن" [٢٠٨].

وهذا ما لم يحدث فى تاريخ الإسلام بين عالم وحاكم.

وأما الشيخ محيى الدين النووى فقد حاول الظاهر بيبرس أن يحصل منه على توقيع بفتوى تبيح له جمع الضرائب من الشعب رغم أن جميع العلماء وقعوا ولكن النووى يقف فى وجه السلطان متحدياً ويقول له "لقد أفتوك بالباطل"[٢٠٩] ومع هذه الشدة من العلماء على السلاطين إلا أنهم لم يتعرضوا لهم بأذى مع قدرتهم على ذلك احتراماً للعلم والعلماء.

وهذا يدل على حسن سياسة وبعد نظر لدى سلاطين المماليك البحرية.

---

(٢٠٧)ابن تيمية حياته وعصره وآراؤه الفقهية لأبى زهرة ص : ٣٤١.

(٢٠٨) المصدر السابق ص : ٤٧.

(٢٠٩) حسن المحاضرة للسيوطى جـ ٢/٤٧.

الفصل الثانى
الأحوال الاجتماعية

أجمع المؤرخون على أن تلك الفترة التى كان يعيشها ابن جماعة بين أوائل القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجرى كونت من سكان مصر والشام مزيجاً عربياً من أهل المشرق والمغرب ومن المسلمين والمسيحيين والترك والعرب والمغول فضلا عن المصريين والشاميين أنفسهم.

وكان من أهم الأسباب لهذه الظاهرة العجيبة هو الهجمات الضارية على قلب العالم الإسلامى من أوائل القرن الخامس الهجرى حتى ما بعد عصر ابن جماعة .

ولذلك لم يتفق المؤرخون على تقسيم موحد للمجتمع فمنهم من جعل الطبقات الإجتماعية ثلاثاً ، ومنهم من عدها أكثر من ذلك.

وتأسيساً على ما كتبه الباحثون حول هذا الموضوع لا يكاد يخرج التقسيم الطبقى للمجتمع عن ثلاث طوائف أساسية هم: الحكام، العلماء، العامة، ويتبع كل منها طائفة أو طوائف.

أ - الحكام: كان الحكام فى الفترة الأولى من حياة ابن جماعة والتى لا تزيد على عشر سنين يمثلون ملوك الدولة الأيوبية وحاشيتهم من المماليك، أما فى الفترة الأكبر من حياته والتى أربت على ثمانين عاماً ، فقد كانوا يتمثلون فى سلاطين المماليك وأتباعهم الذين يشترونهم من المماليك أيضاً ويقومون بتربيتهم تربية عسكرية خاصة علاوة على تلقيهم العلوم الدينية والأدبية فى مدارس أنشئت لهم كان يطلق عليها (الطباق) أو (الأطباق) [(٢١٠)]، وكانت مدة دراستهم تتراوح بين أربعة أو خمسة عشر شهراً ، وإن كانت

(٢١٠) الخطط للمقريزى ٣٠٩/٢، وراجع دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر للدكتور ماجد ١٥/١.

أحيانا تصل إلى أكثر من هذا ، ثم يحتفل بتخرجهم فيعتق المتخرجون جملة ويقسمون إلى أقسام يجعل على كل منها نقيب يظل يترقى إلى الوظائف الكبرى فى حاشية السلطان، أو فى الجيش أو دواوين الحكومة(٢١١).

وقد استعان السلاطين بهؤلاء المماليك سواء فى العهد الأيوبى أو مابعده، فقلدوهم أهم وظائف الدولة سواء فى البلاط السلطانى، أو الجيش، أو المراكز الهامة والحساسة.

وهؤلاء السلاطين ومماليكهم هم الذين استأثروا بكل شئ فى الدولة، وتمتعوا بخيراتها، واستولوا على ممتلكاتها، قم قسموها بينهم إقطاعات يستغلونها ويتصرفون فيها كيف يشاءون(٢١٢).

وقد ملكوا القصور، والجوارى، والخيول ، والجواهر، إلى الحد الذى يصعب معه إيراد أمثلة له مما تمتلئ به كتب التاريخ العام كالنجوم الزاهرة، وبدائع الزهور وغيرها.

ويلحق بهؤلاء المماليك فى مكانتهم الإجتماعية طبقة "الوافدية" وهم أسرى التتار الذين دخلوا فى جملة المماليك، الذين نظر إليهم السلاطين كما يقول الشيخ أبو زهرة: "نظرة تقدير وسهلوا عليهم الإقامة بينهم وجعلوا لهم نظام حكم يخصهم، ولا يعم غيرهم من سكان مصر والشام، فكانوا فى المسائل الشرعية الخالصة يخضعون لسلطان القاضى المسلم الذى يعينه ولى الأمر ليقضى بين الناس، وبالنسبة للمعاملات الجارية كانوا يتحاكمون إلى الحجاب ويسيرون على مقتضى قواعد (السياسا)، وهو كتاب الحكم اذى وضعه لهم جنكيز خان"(٢١٣).

---

(٢١١) راجع نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ١٦/١ – ١٨.

(٢١٢) صبح الأعشى للقلقشندى ٥٠/٤، وراجع مصر فى عهد دولة المماليك الجراكسة للدكتور طرخان ص٢٢٢.

(٢١٣) ابن تيمية حياته وعصره لأبى زهرة ص١٥٠.

ب - **أما طبقة العلماء**: فقد كانوا هم الطبقة التى تلى الحكام والمماليك فى المكانة الاجتماعية لا باعتبار ما يملكون من مال بل باعتبار مكانتهم الدينية ا لتى كان المماليك مهما قيل عنهم - يجلونها ويقفون احتراماً عندها - فقد كان للدين ورجاله وعلمائه فى عصر المماليك منزلة سامية فكان الظاهر بيبرس الأول منقمعا تحت كلمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وكان يخاف الشيخ محيى الدين النووى كما سبق أن أوردناه عن حسن المحاضرة، كما كان الشيخ نصر الدين المنبجى ذا جاه لدى الأمراء خاصة الأمير ركن الدين بيبرس الجاشكنير(٢١٤).

وكان الملك الناصر محمد بن قلاوون صديقاً للشيخ تقى الدين بن تيمية محبا له، كما كان يجل ابن جماعة ويحترمه، وقد ظل ابن جماعة قاضى قضاته أكثر من عشرين سنة .

وقد عزا بعض الباحثين احترام المماليك لعلماء الدين على أنه نزعة وراثية أخذوها عن أساتذتهم الأيوبيين الذين نشئوا فى كنفهم وشاركوهم بعض حروبهم الصليبية التى زادتهم تعصبا للدين(٢١٥).

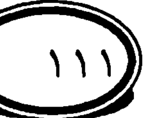
وهذا صحيح إلى حد بعيد غير أن الأولى أن يقال إن النفوس عادة مشدودة إلى الدين، وتكون أكثر شداً إليه عندما تشتد المحن، وتكثر الشدائد، وتتعرض الشعوب إلى هجمات موجهة إلى عقائدهم مباشرة كتلك الهجمات التى تعرضت لها العقيدة الإسلامية من الصليبيين من قبل عصر ابن جماعة ومن المغوليين والتتار أثناء عصره وما بعده.

كما أن المماليك كانوا قوماً ذوى نهم غريب إلى جمع المال بشتى الوسائل سواء كان لمصلحة وطنية أو إشباعاً لنزعة شخصية، أو شهوة نفسية.

---

(٢١٤) راجع عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى لرزق سليم المجلد السادس القسم الثانى الجزء الأول ص١٧.

(٢١٥) المرجع السابق ص ٧.



وكثيرا ما كانوا يجمعون العلماء لاستصدار الفتاوى لجمع المال، وكثيراً ما نجد علماء أفذاذ يقفون فى وجوههم يصدونهم باللين تارة وبالعنف تارة أخرى، وكتاب حسن المحاضرة للسيوطى زاخر بأمثلة رائعة لهذا اللون حتى أننا نرى السيوطى يسوق لنا جملة مفيدة وحاسمة عن الشيخ محيى الدين النووى قالها للملك الظاهر بيبرس الأول عندما أراد جمع المال لقتال التتار فامتنع الشيخ محيى الدين قائلاً:

"أنا أعرف أنك كنت فى الرق للأمير بندقدار وليس لك مال ثم مَنَّ الله عليك وجعلك ملكاً، وسمعت أن عندك ألف مملوك كل مملوك له حياصة من ذهب وعندك مائتا جارية لكل جارية حق من الحلى، فإذا أنفقت ذلك كله، وبقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلاً عن الحوائص وبقيت جواريك بثيابهن دون الحلى أفتيتك بأخذ المال من الرعية، فغضب الظاهر من كلامه، وقال اخرج من بلدى يعنى دمشق، فقال: السمع والطاعة، وخرج إلى نوى فقال الفقهاء إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا وممن يقتدى به فأعده إلى دمشق فرسم برجوعة فامتنع الشيخ وقال: لا أدخلها والظاهر بها، فمات الظاهر بعد شهر"(٢١٦).

وكان أكثر هؤلاء العلماء لا يملكون من الدنيا شيئاً غير صراحتهم فى الحق وخوفهم من الله تعالى، والانتصار للمظلومين من أبناء الشعب تجاه حكامهم الذين كانوا لا يتورعون عن الحيف فى جمع المال بشتى الوسائل.

هذا ولم يخل عصر المماليك من علماء ذوى سمعة طيبة فى سبيل العلم والدين، والوقوف مع الحق أنى كان، منهم تقى الدين بن دقيق العيد، وتقى الدين بن بنت الأعز، وجلال الدين القزوينى، وصدر الدين سليمان الحنفى، وتقى الدين السبكى، وتاج الدين السبكى، وصدر الدين ابن الوكيل،

---

(٢١٦) حسن المحاضرة للسيوطى ٢/٧٩ — ٨٠.

وكمال الدين بن الزملكانى، علاوة على سلطان العلماء العز بن عبد السلام، والشيخ النووى، والتقى بن تيمية وآل جماعة وعلى رأسهم العلامة بدر الدين بن جماعة. بهؤلاء - وغيرهم من أفاضل العلماء - زخر عصر المماليك، بل كان هؤلاء العلماء همزة الوصل الحقيقية بين الحكام وبين الشعب.

وكان العلماء يحصلون على رواتبهم وما يسد حاجتهم من أوقاف المدارس التى كانوا يدرسون بها أو المساجد التى كانوا يتولون الخطابة فيها(٢١٧).

أما القضاة فيبدو أنهم كانوا يحصلون على رواتبهم المالية من الأجور التى كان يدفعها الأخصام لنقباء القضاة وأعوانهم لنظر القضايا، كما يبدو أن هذه الأجور لم يكن لها معلوم ثابت.

نفهم هذا من نص ابن إياس الذى ساقه لنا فى حوادث سنة ٩٠١هـ حيث يقول:

"إن الأمير كرتباى الأحمر الذى قرر فى الوزارة عام ٩٠١هـ أظهر ضروبا من العدل، منها أنه حجر على الرسل والنقباء، ألا يأخذوا من الأخصام أكثر من نصفى فضه، وأن أحداً منهم لا يقرر رسماً على أحد"(٢١٨).

وإذا كان الأمر هكذا فإن العلماء من القضاة كانوا أسعد حظاً فى الأجور من إخوانهم فى الخطابة أو التدريس، غير أن ترك تحديد أجور القضاة لهم جعل الكثير منهم يغالى فى طلب الأجر وربما دفعه عدم تعففه إلى الرشوة، يقول الأستاذ محمود رزق سليم فى معرض حديثه عن قضاة عصر المماليك ما نصه:

---

(٢١٧) راجع التربية عبر التاريخ للدكتور عبد الله عبد الدايم ص١٦٩.

(٢١٨) بدائع الزهور لابن إياس ٣٠٥/٢.



"وإذا ما غلا القاضى فى طلب الأجر ولم يتعفف ، انقلب الأجر رويداً رويداً إلى رشوة يدفعها المتخاصمون إلى القضاة لضمان الفصل لصالحهم. وهذا هو ما وقع فعلا. فكما اتهم القضاة بأنهم يدفعون الرشوة فى سبيل الوصول إلى منصب القضاة، اتهموا بأنهم يأخذون الرشوة على القضاء. وهذا شر ما تبتلى به أمة"(٢١٩).

ولهذا تعفف كثير من القضاة عن أخذ هذا الأجر واستغنى عنه، كما فعل ذلك القاضى بدر الدين بن جماعة نفسه الذى قال عنه أكثر المؤرخين فى ترجمته إنه: "ترك الأخذ على القضاء عفة"(٢٢٠).

ويتبع طائفة العلماء فى مكانتهم الاجتماعية كل من له صلة بهم فمدرسو المدارس يتبعهم المعيدون الذين يجلسون مكان الأستاذ ليعيدوا شرح ما درسة لمن لم يفهم الدرس من الطلاب.

والقضاة يتبعهم نوابهم الذين يختارهم هؤلاء القضاة حكم الأقاليم، وكذلك نواب الخطباء الذين يستتيبهم الخطباء، أنفسهم ليقوموا بأداء الخطبة عنهم ولهذا أطلق على هؤلاء جميعاً فى ذلك العصر اسم "المتعممون"(٢٢١).

ج - العامة: وهم الشعب أو الرعية وفيهم طوائف عديدة فمنهم التاجر والزارع والكادح، وفيهم المسلم، والمسيحى، واليهودى، ومنهم الوطنى والمستوطن.

ومنهم العربى، والمغولى، والرومى، والقبطى، والشامى. وقد تشكل من هؤلاء جميعاً مواطنون أظلتهم دولة المماليك بظلها، وكونت منهم مزيجاً غريبا

(٢١٩) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى الجزء الأول القسم الثانى ص ٨٣ – ٨٤.

(٢٢٠) مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعى ٢٨٧/٤، وراجع الدرر الكامنة ٢٨٢/٣.

(٢٢١) صبح الأعشى للقلقشندى ٢١٠/١١، نظم دولة المماليك ورسومهم فى مصر ١٠/١.

لا يعدله غير مزيجى المجتمع الأمريكى فى العصر الحديث، وكان من نتيجة هذه الخلطة امتزاج مجموعة من العادات والتقاليد، والأفكار بعضها ببعض، انصهرت كلها وذابت فى مجتمع الدولة المملوكية، وهذا ما يذكره كثير من الباحثين الذين كتبوا عن هذه الفترة من التاريخ فنرى الأستاذ محمد أبو زهرة يقول:

"وجدنا فى الحروب الصليبية الشرق يمتزج بالغرب، وتتلاقى حضارات وديانات وعادات، وأفكار، ومهما تكن العلاقة من عداوة ومحاربة فإن العدوى النفسية، والعدوى الفكرية والعدوى فى العادات تسرى مع اشتجار السيوف واختلاط الدماء.

وفى حروب التتار قد التقى قوم، اندفعوا من أقصى الشرق فى الصين حاملين عاداتهم وأخلاقهم وأهواءهم ومنازعهم بأهل الإسلام الذين اعتدلت أمزجتهم وأفكارهم واستقامت عقائدهم، وهم خاضعون لنظم مقررة ثابتة استنبطها العلماء من كتاب الله الهادى إلى سواء السبيل وسنة النبى صلى الله عليه وسلم المبينة لأقوم منهاج مستقيم، التقى هؤلاء، فكان من ذلك اللقاء اضطراب فى العادات والمنازع. وفوق ذلك فإن لحرب الضروس خلطت بين الأمصار الإسلامية نفسها فوجدنا أهل العراق يفرون إلى الشام عندما يغير التتار عليه، وأهل الموصل وما حولها يفرون إلى دمشق وأهل دمشق وما حولها ينتقلون إلى مصر بل إلى بلاد المغرب"[٢٢٢].

وقد رأينا فى نص سابق أن الأجانب احتفظ لهم المماليك بمعاملة خاصة فى دولتهم[٢٢٣].

وبقى أن نقول إن الطوائف الدينية الأخرى كاليهود والمسحيين كانت تشارك بقية أبناء الشعب من المسلمين فى المناسبات القومية المختلفة، منها على

(٢٢٢) ابن تيمية حياته وعصره لأبى زهرة ص ١٤٨.

(٢٢٣) راجع ص : ....

سبيل المثال ما أورده ابن كثير وغيره فى شأن استقبال الظاهر بيبرس البندقدارى لأول خليفة عباسى تطأ قدمه أرض مصر حيث يقول:

"فخرج السلطان ومعه الوزير والشهود والمؤذنون فتلقوه وكان يوماً مشهوداً، وخرج أهل التوراة بتوراتهم والنصارى بإنجيلهم، ودخل من باب النصر فى أبهة عظيمة"(٢٢٤).

وكان أكثر طبقات المجتمع تعرضاً لجور الحكام وعسفهم هم الطبقات الكادحة فى البلاد وعلى الأخص أهل الزراعات والفلاحة فعلى الرغم من النظام المعمول به لفلاحة الأرض وقتذاك هو أن للفلاح ثلث المحصول، والثلثان الآخران أحدهما للمقطع والآخر للسلطان إلا أنه يبدو من سياق نصوص الذين كتبوا حول هذا الموضوع أن الفلاح قد خرج عن نصيبه بالكلية وفر هائماً على وجهه من شدة العسف والظلم.

يقول الدكتور إبراهيم طرخان: "وعلى الفلاح أن يدفع ما يخص الديوان السلطانى من العشور، وهناك رسوم أخرى ومقدارها من ثلاثة دراهم إلى أربعة عن الفدان الواحد، وعليهم أن يدفعوا ما أخذوه من التقاوى السلطانية والقروض بالكيل المتعامل به فى الإقليم، ويكلف ولاة الأقاليم بتحصيلها، وللفلاح ثلث المحصول فى التبن، أما الثلثان الآخران فأحدهما للمقطع والآخر للسلطان، ويدفع كذلك للأمير المقطع أجور رعى ماشيته فى الكلأ الذى ينبت فى الأقطاع على أساس الرأس، وهناك التزامات أخرى يؤديها الفلاح بحكم العادة وهى الضيافة والهدية، وتشتمل على بعض منتجات الريف من غلة ودجاج وخراف وكشك وبرسيم وكعك"(٢٢٥).

ويقول المقريزى بعد وصف لمثل هذه الأهوال:

---

(٢٢٤) البداية والنهاية لابن كثير ٢٣١/١٣، حسن المحاضرة للسيوطى ٤٩/٢.

(٢٢٥) مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة للدكتور طرخان ص ٢٤١ - ٢٤٢.

"إذا حدث وهرب الفلاح فراراً من الظلم والقسوة أعيد قسراً"[٢٢٦].

هـذا ولم تخل طائفة من طوائف الرعية من هذا الظلم بطبيعة الحال غير أن بعضها كان أقدر على تحمل هـذا الظلم من البعض الآخر فأغنياء التجار غير متوسطى الحال منهم، وهم جميعاً غير الفلاحين والزراع.

ولم يكن لهؤلاء جميعاً من يدفع عنهم الظلم سوى ما يهيئة الله عز وجل من مخلصى العلماء العاملين الذين لم يخافوا فى الله حاكماً ولا جباراً.

ولقد كان ابن جماعة من هؤلاء الأخيار ، حيث بلغ المنزلة السامية فى قلوب العامة والخاصة على السواء، وذلك بشهادة المعاصرين له المراقبين لأحواله، الذين ما فتئوا يذكرون عنه حب العامة والخاصة له[٢٢٧].

---

(٢٢٦) الخطط للمقريزى ١٣٨/٢.

(٢٢٧) راجع المختصر فى أخبار البشر ١٠٨/٤، والنص مذكور فى ص ١٤٦، من هذا البحث، ويراجع تاريخ ابن الوردى ٤٠٨/٢.



الفصل الثالث
الأحوال الفكرية

زخر عصر المماليك البحرية إذا بالعديد من العلماء، كما زخر بالكثير من ذوى الشخصيات البارزة، وأصحاب الأسماء الامعة منهم وقد قرأنا فى الفصول السابقة تراجم لطائفة من شيوخ ابن جماعة، كما طالعتنا أسماء مشهورة كالعز بن عبد السلام، ومحيى الدين النووى، وابن تيمية، وابن دقيق العيد، كما ظهر فى هذا العصر الذهبى، وابن كثير، والنويرى، وابن حجر، وتاج الدين السبكى، والمقريزى، .... وغيرهم، وغيرهم كثيرون.

وقد كثرت مؤلفات هؤلاء جميعاً، وتعددت فنونها، من علوم الشرع إلى علوم اللغة، إلى الفلكيات، إلى العلوم الإنسانية كالتاريخ، والجغرافيا، والمنطق، والفلسفة، والتصوف وقد نشأ عن تعدد ألوان التأليف فى شتى العلوم حركة فكرية رائجة خاصة مع اختلاف المذاهب العقائدية والفقهية، والفلسفية.

فكثرت المناظرات وشاع الجدل بين الفرق المختلفة، وتعددت المؤلفات التى تنافح عن الآراء وتدافع عن النزعات.

وكانت الدولة المملوكية التى ازدهرت فى عصر ابن جماعة أكثر الدول الإسلامية جميعاً من حيث انتشار النزعات الفكرية الدينية، والعصبيات المذهبية والعقائدية، باعتبار أنها الدولة التى قامت عقب انهيار التراث الفكرى فى بغداد على يد التتار بحيث شكلت هذه النزعات والعصبيات السياسة العامة لدولة المماليك، مما دعا الأستاذ محمود رزق سليم إلى أن يقول عن هذه الفترة:

"تمكنت الروح الدينية ولهج الناس بها فى شتى شئونهم الحيوية، وأصبحت النزعات الدينية ولا سيما ما يتصل منها بالعقائد، جزءاً هاماً من السياسة العامة فى ذلك العصر" .

فلا غرابة حينئذ إذا رأينا المجادلات والمناظرات قد قوى أمرها واشتد خطرها فيه، وشغل كثير من العلماء بالنظر فى العقائد وغيرها من أمور الدين، والمناقشة فيها، وتعزيز الرأى الذى يذهبون إليه، ولا غرابة أيضاً إذا تعددت حوادث هذه المناظرات، وتطورت فى بعض الأحوال حتى بلغت حدا من الحدة شديداً أو وصلت إلى الإحتكام إلى القضاء والمحاكمة"(٢٢٨).

على أن الأستاذ محمود سليم ساق لنا بعد هذا النص صوراً ونماذج مختلفة لهذه المنازعات والمجادلات والمناظرات بين المتناظرين يستطيع القارئ أن يرجع إليها هناك.

وغاية ما يمكن أن يقال بالنسبة للأحوال الفكرية فى عصر ابن جماعة أنه عصر تميز بكثرة العلم، ووفرة العلماء من شتى الفرق، والمذاهب، وإن كان حظ الفكر والمفكرين المجددين فيه قليلا.

فهناك علماء استبحروا فى علوم الدين سواء الشرعية منها والعقائدية غير أنهم مقلدون لا يخرجون عن تقليد من سبقهم من أئمتهم فى قليل أو كثير.

وهناك علماء فلاسفة ينطلقون خلف النتائج التى تؤديها إليها الفلسفة دون نظر إلى ماعداها.

وهناك علماء حاولوا أن يجمعوا بين الفلسفة والدين على طريقة إخوان الصفا.

وهناك متصوفة خلطوا بين المنازع الروحية والمناهج الفلسفية العقلية وانتهوا بواسطة ذلك إلى فلسفة روحية خاصة تقربهم أو تبعدهم عن المناهج الدينية، بالإضافة إلى أصحاب الطرق، وهم أولئك الذين كانوا يقودون العامة من الناحية الروحية، سالكين بهم مناهج متصوفة قد تكون أبعد ما يكون عن المناهج الإسلامية، إذ كثيراً ما أدت مناهج هؤلاء إلى تقديس العامة لشيوخ

---

(٢٢٨) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى لرزق سليم القسم الثانى ٣/٨ -٩.

الطريق، والاعتقاد فى كراماتهم، وجعل مراتبهم فوق مراتب البشر، وتقريب منزلتهم من الله تعالى.

وهناك العلماء المتكلمون فى الفرق السياسية، والعقائد الدينية والمذهبية، وأشهر الفرق السياسية التى انتقلت إلى عصر ابن جماعة من العصور السابقة هم الشيعة من زيدية، وكيسانية، وإمامية اثنى عشرية، وإسماعيلية، ونصيرية، وفيهم الباطنة.

وأشهر الفرق العقائدية التى ظهرت فى هذا العصر هى: الجبرية الذين يقولون بأن العبد لا إرادة له ولا اختيار، وأنه مجبور فى جميع أفعاله بما فى ذلك الثواب والعقاب والتكليف.

ومن الفرق التى انتقلت إلى هذا العصر أيضاً: المعتزلة أصحاب المعارك الكبرى المدوية فى تاريخ الحركة الفكرية فى الإسلام كمعركة خلق القرآن، وخلق الإنسان لأفعاله بنفسه، والكلام على أن مرتكب الكبيرة فاسق لا هو مؤمن ولا هو كافر، وغير ذلك من مسائلهم التى انتقلوا إلى الجدال بها من عصر العباسيين إلى عصر ابن جماعة.

وقد أدى ظهور المعتزلة فى هذا العصر إلى استمرار ظهور الفرقة المناوئة لهم بالطبع وهم الأشاعرة الذين تعقبوا المعتزلة من بداية الأمر على يد زعيمهم أبى الحسن الأشعرى المتوفى سنة ثلثمائة وثلاثين ونيف.

ولقد كان الأشعرى فى بداية أمره تلميذاً للمعتزلة وبالذات لشيخهم فى عصره أبى على الجبائى، ولكن الأشعرى وجد من نفسه ما يبعده عن المعتزلة وأفكارهم، فاتخذ له منهجاً خاصاً يقوم على طريقة الاستدلال بالنقل والعقل فيأخذ بكل ما جاء به الكتاب والسنة من عقائد، كما يحتج بكل وسائل الإقناع والإفحام، ويرى أن أحاديث الآحاد يحتج بها فى العقائد، ويأخذ بظواهر النصوص فى الآيات التى توهم تشبيه الله تعالى للحوادث بصرفها عن

ظاهرها إلى معنى لا يفيد التشبيه، فهو يعتقد أن لله وجها لا كوجه العبيد، وأن له يداً لا تشبه يد المخلوقات(٢٢٩).

والحقيقة أن أبا الحسن الأشعرى سلك طريقاً وسطاً بين المغالين والمفرطين وناقش الآراء المختلفة بعقل متزن جمع بين المنقول والمعقول، وظلت أراؤه تنتقل من القرن الرابع حتى القرن السابع والثامن، وهى فترة بداية العصر المملوكى عصر العلامة بدر الدين بن جماعة الذى كان على مسلك الأشاعرة كما نقل لنا ذلك ابن العماد(٢٣٠)، وقد أثبتنا نقله فى الفصل الخامس من الباب الأول(٢٣١).

وبين هؤلاء وأولئك علماء أفذاذ جمعوا بين المعقول والمنقول، وقوة الفكر مع قوة الدين، ومتانة العقيدة، كالعز بن عبد السلام، والنووى، وابن دقيق العيد وابن تيمية.

والجدير بالإعتبار هنا أن العلامة بدر الدين بن جماعة منتظم فى عقدهم، مندرج فى سلك دُرِّهِم، بما له من صدارة فى التدريس والقضاء، والخطابة، وبنا له من قدرة على التأليف فى شتى الفنون العقلية، بل والفلكية أيضاً.

ولا شك أنه كانت هناك حركة تأليفية رائعة فى شتى العلوم والفنون وإن وصفها أكثر الباحثين بالتقليدية، وعدم التجديد الفكرى، أو الإجتهاد المذهبى، إلا أن هؤلاء العلماء على اختلاف ألوان مذاهبهم أثروا المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات القيمة التى عوضتها ما فقدته هذه المكتبة من التراث الفكرى الذى غاص فى مياه دجلة والفرات، أو ذهب حرقا على يد الهجوم الهمجى التتارى فى ذلك العصر.

---

(٢٢٩) يراجع فى هذا ابن تيمية حياته وعصره من ص ١٥٣ — ١٩٥.

(٢٣٠) شذرات الذهب لابن العماد ١٠٦/٦.

(٢٣١) راجع ص ؟؟؟؟؟



فكان قيام هذه الحركة الفكرية فى دولة المماليك بمصر والشام، بمثابة البديل العوضى لضياع التراث الفكرى، والحضارى، الذى انتهى بسقوط الدولة العباسية فى بغداد.

ومع نمو حركة التأليف والبحث والمناظرة كثرت الموسوعات، فى شتى الفنون كالصحاح، والمسانيد، والموضوعات فى علوم الحديث، وموسوعات الفقه المذهبى كالمحلى لابن حزم، وكتب ظاهر الرواية للسرخسى الحنفى، والمغنى فى الفقه الحنبلى، ومجموع النووى الشافعى، وموسوعات علم التفاسير كتفسير الفخر الرازى إلى جانب موسوعات التأريخ العام والخاص، كتاريخ دول الإسلام للذهبى، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وغير ذلك من فنون.

على أن هذا الرواج العلمى والفكرى والثقافى كانت وراءه حركة مدرسية جليلة القدر نشأت بأموال ذوى اليسار من الملوك، والأمراء، وأعيان التجار.

ورغم أن إنشاء المدارس فى كل من مصر والشام كان سابقاً عى عصر المماليك - عصر ابن جماعة - إلا أنه انتشر فى هذا العهد انتشاراً رائعاً، بحيث اعتبر ظاهرة عمرانية عظيمة[٢٣٢] إلى جانب كونها حركة فكرية بارزة

وقد أطلق بعض الباحثين المعاصرين على هذا العصر اسم "العصر المدرسى" نظراً إلى كثرة المدارس التى أنشئت فيه[٢٣٣]، بل لكثرتها أيضاً تخصص أكثرها فى فروع معينة، فكان منها مدارس خاصة بعلم الحديث كالمدرسة النورية بدمشق[٢٣٤]، ودار الحديث الكاملية بمصر[٢٣٥].

---

(٢٣٢) راجع تاريخ العرب المطول لحتى ٨١٦/١.

(٢٣٣) راجع ابن تيمية وعصره للشيخ ابى زهرة ص ١٥٨.

(٢٣٤) تاريخ دمشق لابن عساكر المجلد الأول ص ٢٣ – ٢٤.

(٢٣٥) حسن المحاضرة للسيوطى ١٥٩/٢، رراجع الخطط للمقريزى ٢١١/٤.

كما كان منها المدارس الفقهية ، فهناك مدارس الشافعية، والحنفية ، والمالكية ، والحنابلة ، حتى أن عبد القادر بن محمد النعيمى المتوفى سنة ٩٢٧هـ عندما ألف كتابه فى تاريخ مدارس الشام المسمى: الدارس فى تاريخ المدارس رتب هذه المدارس بحسب مذاهبها الفقهية[٢٣٦].

والجدير بالذكر هنا أن العلامة بدر الدين بن جماعة كان على رأس كبريات المدارس وأشهرها سواء فى الشام أو فى مصر.

فكان فى دمشق على رأس المدرسة الناصرية ، والقيمرية ، والعادلية ، والشامية البرانية[٢٣٧].

كما كان فى مصر على رأس مدارس دار الحديث الكاملية ، والصالحية ، والناصرية ، وجامع ابن طولون[٢٣٨] ، وغيرها من المدارس التى سنذكرها فى موضعها من هذا الكتاب.

ومن هنا ندرك أن الحركة الفكرية فى عصر ابن جماعة كانت حركة نشطة دائبة ، اتسمت بالصراع الفكرى الحاد ، مما أدى إلى نشاطها ، ورواجها ، كما أدى إلى إنشاء المدارس المختلفة ، وكثرت المؤلفات فى شتى العلوم والفنون.

كما ندرك أن العلامة بدر الدين بن جماعة ، كان من أشهر العلماء الذين تصدروا الحركة الفكرية فى عصره ، سواء فى مجال التأليف ، أو التربية والتعليم والتدريس فى كبريات المدارس الجامعية ورئاستها.

---

(٢٣٦) راجع فهرس الجزء الثانى من الدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى.

(٢٣٧) راجع الدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى ٣٤/١، ١٣٢، ١٩٦، ٢٨١، ٣٦٤، ٤٦١.

(٢٣٨) راجع البداية والنهاية لابن كثير ٦٠/١٤.

الفصل الرابع
مكانة ابن جماعة السياسية والاجتماعية
فى هذا العصر

إن أى باحث منقب فى مصادر التاريخ التى تناولت عصر المماليك، خاصة مابين سنتى ٦٣٩هـ - ٧٣٣هـ لا يسعه إلا أن يقرر أن العلامة بدر الدين بن جماعة - موضوع هذا البحث - كان من أهم وأرفع الشخصيات العلمية ذات الأثر البارز فى عصره، سواء من الناحية الفكرية والعلمية، بحيث كان مختار السلاطين للقضاء، رغم كثرة القضاة، وكان مختار العلماء لرئاستهم، ورئاسة المدارس رغم كثرة العلماء المبرزين منهم.

وترجع مكانة ابن جماعة ومنزلته فى عصره إلى أنه كان شخصية تحظى بإعجاب من حوله من الدارسين الذين كانوا يتلقون العلم على يديه فى مدارس دمشق، بالإضافة إلى أنه كان وقوراً، هادىء النفس، حسناً فى إلقاء الدرس، محببا لدى الخاصة والعامة.

وسرعان ما ذاع صيته، وانتقلت أخباره بين ربوع الدولة، وسرعان ما انتقل فضل هذا الرجل من بين جدران الفصول، إلى مجالس القصور، ومسامع السلاطين والوزراء فى القاهرة.

وكانت القاهرة هى عاصمة الدولة المملوكية التى امتد سلطانها، لتصبح كما يقول الدكتور أحمد شلبى، حاضرة لامبراطورية شاسعة متحدة، وبسطت نفوذها على اليمن والحجاز، بالإضافة إلى مصر والشام، وخطب ودها ملوك من أوربا وآسيا(٢٣٩).

وقسم سلاطين المماليك هذه الدولة أقساماً إدارية منظمة(٢٤٠)، أطلقوا عليها اسم النيابات، فكانت مصر أربع عشرة ولاية، فى الوجهين البحرى

---

(٢٣٩) التاريخ الإسلامى للدكتور أحمد شلبى ١٩٣/٥.

(٢٤٠) راجع نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر للدكتور ماجد بتصرف ٨٦/١ — ٩٠.

والقبلى، وكان يشرف على كل ولاة الوجه البحرى أو القبلى من يسمى بالنائب، أما الشام فقد قسم إلى ست نيابات هى: دمشق، وحلب وحماة، وطرابلس، وصفد، وكرك، وكان للشام جميعه رئيس واحد يسمى (نائب الشام) مقره فى دمشق وحلب، وله الإشراف على جميع نيابات الشام بما فيها من موظفين وأموال، وله مثل ما للسلطان فى مصر من وزير وحاجب، وناظر نظار، وصاحب ديوان للإنشاء، وقاض للقضاة.

وكان أول ظهور رسمى للقاضى بدر الدين بن جماعة على مسرح أحداث الدولة المملوكية فى رمضان سنة ٦٨٧هـ، عندما عين خطيباً بالمسجد الأقصى، وقاضياً لبيت المقدس[٢٤١]، ومنذ ذلك التاريخ وهو صاحب مكانة مرموقة، وكان أول من اكتشف شخصية القاضى بدر الدين ابن جماعة، وعرف فضله ومنزلته من كبار رجال الدولة، هو الوزير شمس الدين بن السلعوس الذى عينه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون فى هذا المنصب فى العاشر من محرم سنة ٦٩٠ هـ[٢٤٢].

وترجع معرفة هذا الوزير بالقاضى بدر الدين بن جماعة إلى أن السلطان قلاوون، كان قد عينه والياً للحسبة فى دمشق فى رمضان سنة ٦٨٧هـ[٢٤٣]، مما أتاح لهذا الوزير فرصة التعرف على ابن جماعة فى دمشق التى ذاع فيها صيته، وانتشر فيها فضله باعتبار أنها كانت مقر ندواته العلمية، ومكان إقامته.

---

(٢٤١) تاريخ الأنس الجليل لمجير الدين الحنبلى ٢/ ٤٨٠، وقد وهم الأستاذ محمود رزق سليم عندما نقل فى هامش القسم الثانى من الجزء الأول من كتابه عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى ص ١٠٥ عن كتاب الدرر الكامنة لابن حجر انه تولى سنة ٦٨٢ هـ إذ بالرجوع إلى هذا المصدر وجدت أن هذا النقل خطأ، وأنه تولى ذلك فى رمضان سنة ٦٨٧هـ وليس فى ٤ شوال من هذه السنة، كما يذكر الأستاذ سليم فى صلب النص أيضاً.

(٢٤٢) راجع البداية والنهاية لابن كثير ٢١٧/١٣.

(٢٤٣) المصدر السابق والجزء ص ٣١٢.

فما أن عين ابن السلعوس وزيراً فى الدولة الأشرفية حتى انتهز فرصة عزل قاضى قضاة الشافعية تقى الدين بن بنت الأعز من القضاء، وأشار على السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بأن يولى عوضا عنه قاضى القدس وخطيبها بدر الدين بن جماعة، ومما ساعد ابن السلعوس على تحقيق غرضه حادثة غريبة وقعت فى بلاط السلطان الأشرف، ننقلها عن الأستاذ محمود رزق سليم حيث يقول :

"ومن غريب مايروى فى هذا المقام أن السلطان لما عزل القاضى تقى الدين، أراد أن يختار رجلاً من رجال الشافعية بالديار المصرية ليوليه القضاء، فسأل هؤلاء الرجال واحداً واحدًا ، كل منهم على انفراد ، فيمن يصلح منهم ليلى هذا المنصب الجليل فما منهم إلا ذم زميله وأهل مذهبه.... وعندئذ وجد ابن السلعوس الوزير فرصة أشار فيها على سلطانه بأن يختار البدر بن جماعة"(٢٤٤).

ويصف العلامة ابن كثير فى حوادث سنة ٦٩٠هـ قدوم القاضى بدر الدين من القدس لقضاء مصر فيقول:

"وفى أوائل رمضان، طُلِبَ القاضى بدر الدين بن جماعة من القدس الشريف، وهو حاكم به، وخطيب فيه على البريد إلى الديار المصرية، فدخلها فى رابع عشرة، وأفطر ليلتئذ عند الوزير ابن السلعوس، وأكرمه جداً، واحترمه، وكانت ليلة الجمعة ، فصرح الوزير بعزل تقى الدين بن بنت الأعز وتولية ابن جماعة بالديار المصرية قضاء القضاة، وجاء القضاة إلى تهنئته، وأصبح الشهود بخدمته، ومع القضاء، خطابة الجامع الأزهر، وتدريس الصالحية، ودرس بها فى الجمعة الأخرى، وكان درساً حافلاً، ولما كان يوم الجمعة رسم السلطان للحاكم بأمر الله أن يخطب هو بنفسه الناس يومئذ،

---

(٢٤٤) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى الجزء الأول القسم الثانى ص ١٠٥ – ١٠٦، وراجع السلوك للمقريزى ٧٧١/١.

وأن يذكر فى خطبته أنه قد ولى السلطنة للأشرف خليل بن المنصور فلبس خلعة سوداء، وخطب الناس بالخطبة التى كان قد خطب بها فى الدولة الظاهرية، وكانت من إنشاء الشيخ شرف الدين المقدسى فى سنة ستين وستمائة، فيكون بين الخطبتين أزيد من ثلاثين سنة، وذلك بجامع قلعة الجبل، ثم استمر ابن جماعة يخطب بالقلعة عند السلطان، وكان يستتيب فى الجامع الأزهر"[٢٤٥].

وعلى الرغم من أن ابن جماعة أُقْصى عن قضاء الديار المصرية، وأعيد تقى الدين بن بنت الأعز عقب موت الوزير ابن السلعوس فى صفر سنة ٦٩٣هـ[٢٤٦]، إلا أن الرجل كان قد اشتهر، وبان فضله، وذاع صيته، وظل يتقلب فى مناصب القضاء، والخطابة، والتدريس، ومشيخة الشيوخ زهاء أربعين سنة، منتقلاً بين القدس ودمشق والقاهرة، مناضلاً عن دينه وأمته، مجاهداً فى صد الغزاة والطامعين، مع غيره من العلماء من أمثال تقى الدين بن تيمية، ونجم الدين بن صصرى، وعز الدين بن الزكى، وزين الدين الفارقى، وغيرهم من كبار الشخصيات فى عصره، فعلت مكانته، وسمت منزلته، سواء من الناحية السياسية والاجتماعية، أو من الناحية العلمية والفكرية.

أما من الناحية السياسية والاجتماعية ، فقد تجلت مكانة ابن جماعة ومنزلته فى الصور والمواقف الآتية، التى ننقلها من المصادر التى عاصر أصحابها القاضى بدر الدين نفسه، على النحو التالى: .

"فى مستهل سنة ٦٩٩هـ ، تواترت الأخبار بعودة التتار إلى الهجوم على البلاد الشامية ، فخاف الناس من ذلك خوفا شديداً، وجفلوا من بلاد حلب وحماة، إلا أن خروج السلطان - المنصور لاجين آنذاك - على رأس جيش

---

(٢٤٥) البداية والنهاية لابن كثير ٣٢٢/١٣.

(٢٤٦) نفس المصدر والجزء ص ٣٢٥.

المماليك قاصداً الشام، جعل الناس يهدءون، فمنهم من تطوع للقتال، ومنهم من تبرع بالأموال، حتى التقى جيش السلطان لاجين بجيش التتار، بقيادة غازان، يوم الأربعاء السابع والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة، غير أن النصر كان فى صالح التتار هذه المرة، وَكرَّ جيش لاجين عائداً إلى مصر، وفَرَّ كثير من أهل الشام إليها أيضاً، ووجفت قلوب أهل دمشق عندما أزمع غازان ملك التتار على التوجه إلى دمشق[٢٤٧].

هنا يتجلى موقف ابن جماعة - وهو خطيب دمشق فى ذلك الوقت - فيهب على رأس فريق من العلماء، ووجهاء البلد، ليقرروا أمر صلاحها، بمنع غازان من دخول دمشق، بأى وسيلة من الوسائل، حتى لا ينهب أموالها، ويستبيح حرماتها.

يقول الدوادارى فى كنز الدرر وجامع الغرر، وهو يذكر هذه الحادثة فى يوم السبت أول ربيع الثانى سنة ٦٩٩هـ :

"واجتمع الناس فى ذلك اليوم فى مشهد علي، وتشاوروا فى أمر الخروج إلى غازان . فكان ممن اجتمع ذلك اليوم من يذكر وهم: القاضى بدر الدين ابن جماعة ، والشيخ زين الدين الفارقى، والشيخ تقى الدين بن التيمية، وقاضى القضاة نجم الدين بن صصرى، والصاحب فخر الدين بن الشيرجى، والقاضى عز الدين بن الزكى، والشيخ وجيه الدين بن منجى، والصدر عز الدين بن القلانسى، وأمين الدين بن شقير الحرانى، والشريف زين الدين بن عدنان، والشيخ شهاب الدين بن الحنفى، والقاضى شمس الدين بن الحريرى، والشيخ الصالح شمس الدين قوام النابلسى، وجماعة كبيرة من القراء والفقهاء، والعدول، وأجمعوا رأيهم على الخروج إلى غازان، فلما كان نهار

(٢٤٧) عن ابن كثير (البداية والنهاية) ١٤/ ٦ -٧ بتصرف.

الاثنين صلوا الظهر، وتوجهوا إلى الله عز وجل، وخرجوا ليتقنوا أمر صلاح البلد"[٢٤٨].

وقد نجح هذا الوفد نجاحاً كبيراً فى إقناع غازان بحقن الدماء، وكتابة فرمان للناس بالأمان، فتم لهم ما أرادوا منه، غير أن أمر قلعة دمشق لم يحسم، هل تسلم للتتار، أم تصمد فى تبعيتها للمماليك فى مصر ؟ ولقد صمم نائب القلعة "أرجواش" على الصمود، رغم سعى قبجق المنصورى نائب الشام فى تسليمها، حرصاً على مصلحة المسلمين من أهل دمشق، وقد أوعز قبجق إلى ابن جماعة خطيب البلد وتقى الدين بن تيمية وغيرهما، فى القيام بذلك ، فى الثانى عشر من جمادى الآخرسنة ٦٩٩هـ[٢٤٩]. يقول ابن كثير عن ذلك:

"ورسم قبجق لخطيب البلد[٢٥٠]، وجماعة من الأعيان، أن يدخلوا القلعة، فيتكلموا مع نائبها فى المصالحة، فدخلوا عليه يوم الإثنين ثانى عشر جمادى الآخرة، فكلموا وبالغوا معه، فلم يجب إلى ذلك ، وقد أجاد وأحسن، وأرجل فى ذلك ، بيض الله وجهه"[٢٥١].

وقد انسحب التتار عائدين إلى بلادهم، فى السابع من شهر رجب من ذلك العام، ورغم ذلك فإننا نرى العلامة بدر الدين بن جماعة - وكان قد عين قاضياً لقضاة دمشق فى منتصف شعبان سنة ٦٩٩هـ - يأمر بالتعبئة العامة، وإعداد الأسلحة ، وتحويل المدارس إلى مراكز لتدريب العلماء، والفقهاء، مع عامة الناس على الرمى تحسبا لملاقاة العدو، يقول ابن كثير:

---

(٢٤٨) كنز الدرر وجمع الغرر للدواداری ١٩/٩، النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ١٢٣/٨.

(٢٤٩) البداية والنهاية لابن كثير ٧/١٤.

(٢٥٠) أى بدر الدين بن جماعة.

(٢٥١) البداية والنهاية ١٠/١٤، وراجع كنز الدرر وجامع الغرر ٣٥/٩.

"ورسم قاضى القضاة[٢٥٢] بعمل الإماجات فى المدارس، وأن يتعلم الفقهاء الرمى، ويستعدوا للقاء العدو إن حضر، وبالله المستعان"[٢٥٣].

وقد جاء هذا التحسب فى محله، فما إن أهل شهر ربيع الآخر سنة ٧٠٠هـ حتى قوى الإرجاف بأمر التتار، وبأنهم وصلوا إلى البيرة، فبدأ المتطوعون من العامة، الذين دربوا فى الفترة السابقة، يخرجون مع العسكر.

وكان على الشيخ بدر الدين بن جماعة أن يقود الناس قيادة روحية، بعد أن جهزهم ، وحثهم على التدريب الحربى، حتى يكون الاستعداد كاملاً من جانبيه المادى، والروحى.

يقول ابن كثير فى حوادث سنة ٧٠٠ هـ:

"وفى أول ربيع الآخرة قوى الإرجاف بأمر التتر، وجاء الخبر بأنهم قد وصلوا إلى البيرة ، ونودى فى البلد أن تخرج العامة مع العسكر، وجاء مرسوم النائب من المرج بذلك فاستعرضوا فى أثناء الشهر، فعرض نحو خمسة آلاف من العامة بالعدة، والأسلحة على قدر طاقتهم، وقنت الخطيب ابن جماعة فى الصلوات كلها، واتبعه أئمة المساجد"[٢٥٤].

لم يتوقف مهمة ابن جماعة عند حد تعبئة الناس، ومنافحته عنهم ضد الغزو الخارجى، وإنما أدرك من واقع مسئوليته ككبير للقضاة، أن يسعى لإزالة أى خلاف داخلى بين سلاطين عصره، وبين أمرائهم، أو بينهم جميعاً وبين عامة الشعب، واضعاً نصب عينيه أن خلافات ما من هذا [illegible] إنما تخدم الأعداء، وتعرض أمن البلاد وسلامتها لخطر حقيقى.

---

(٢٥٢) أى بدر الدين بن جماعة أيضاً.

(٢٥٣) البداية والنهاية لابن كثير ١٢/١٤.

(٢٥٤) البداية والنباية لابن كثير ١٤/١٤ — ١٥.

فعندما بدأ الملك العادل كتبغا، يشعر أن كرسى السلطنة يهتز تحته أمام لاجين، سارع الأول بدخول دمشق، مستنجداً بالشيخ بدر الدين ابن جماعة لتجديد المواثيق له من أمراء المماليك.

يقول ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة، أثناء الكلام فى حوادث سنة ٦٩٤هـ:

"ثم إن الملك العادل طلب قاضى قضاة دمشق بدر الدين بن جماعة، فحضر بين يدى السلطان، هو وقاضى القضاة حسام الدين الحنفى، وحضرا عند الملك تحليف الأمراء، والمقَدِّمِين، وتجديد المواثيق منهم، ووعدهم وطيب قلوبهم"[٢٥٥].

كما أننا نرى الشيخ بدر الدين، عندما استقر أمر السلطنة للملك المنصور لاجين، يهدئ من روع الملك العادل كتبغا المخلوع عن السلطنة، ويرفق به عن العتاب، وأن يرضخ، ولا يثور، ويدخل تحت الطاعة، حفاظاً على وحدة المملكة.

يقول ابن تغرى بردى:

"وأما لاجين فإنه تسلطن يوم الجمعة، عاشر صفر وركب يوم الخميس سادس عشر صفر، وشق القاهرة ، وتم أمره. وأما الملك العادل كتبغا، فإنه استمر بقلعة دمشق إلى أن عاد الأمير جاغان المنصورى الحسامى، إلى دمشق، فى يوم الإثنين حادى عشر شهر ربيع الأول، وطلع من الغد إلى قلعة دمشق، ومعه الأمير الكبير حسام الدين الظاهرى أستاذ الدار، فى الدولة المنصورية والأشرفية، والأمير سيف الدين كجكن، وحضر قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة قاضى دمشق، ودخل الجميع على الملك العادل كتبغا، فتكلم معهم كلاماً كثيراً بحيث إنه طال المجلس كالعاتب عليهم، ثم إنه حلف

(٢٥٥) النجوم الزاهرة ٨/٦٤.

يمينا طويلة يقول فى أولها : أقول وأنا كتبغا المنصورى، ويكرر اسم الله تعالى فى الحلف مرة بعد مرة ، أنه يرضى بالمكان الذى عينه له السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين، ولا يكاتب ولا يسارر ، وأنه تحت الطاعة ، وأنه خلع نفسه من الملك"(٢٥٦).

ولعل هذه المواقف وأمثالها ، هى التى جعلت الأستاذ محمود رزق سليم يقول عن العلامة بدر الدين بن جماعة فى معرض ترجمته له ما نصه:

"وقد كان لا يفتأ مرجعاً للأمراء فى الصلح ، وفى الشورى والسفارة ، وكان لا يفتأ يسعى لصالح الناس إلى أبواب الملوك"(٢٥٧).

والمصادر التى بين أيدينا تشير إلى أن ابن جماعة كانت له طريقة حكيمة فى معالجة أمور الناس أمام غضبة السلاطين، فهو يستعمل أسلوب الحكمة ، والأناة مع الأمراء والسلاطين، فى أحوال الغضب على أحد من أفراد الرعية، فلم يجابه السلطان بغضبة مثل غضبته، وإنما يحكم أمر المدافعة عن الناس فى لين يطفئ غيظ السلطان، ويعطى فرصة للحاضرين فى مجلسه فى الشفاعة للمذنب.

وبين أيدينا رواية ساقها لنا المقريزى فى السلوك نلخص مضمونها فيما يأتى(٢٥٨):

فى نصف المحرم سنة ٧١٤هـ، اتفق أن نصارى الكنيسة المعلقة بمصر، استعاروا من قناديل الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص)، جملة بموافقة خطيب الجامع ابن القسطلانى، فقام رجل يدعى الشيخ نور الدين على بن عبد الوارث البكرى، ومعه جمع من عائلته البكرية ، ومعهم خلائق، بالهجوم على

---

(٢٥٦) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى جـ ٦٧/٨، وراجع ابن كثير فى البداية والنهاية ٣٤٩/١٣.

(٢٥٧) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبى لرزق سليم الجزء الأول القسم الثانى ص ١٠٧.

(٢٥٨) السلوك فى معرفة دول الملوك للمقريزى الجزء الثانى القسم الأول ص١٣٥ - ١٣٦.

النصارى فى كنيستهم، وأخرق بهم، وأنزل القناديل، وأرجعها إلى الجامع العتيق، وقصد ضرب القومة، فاحتجوا بأن الخطيب القسطلانى هو الأمر بذلك، فتوجهوا إلى القسطلانى بقصد الإخراق به، ولكنه اختفى عند الفخر ناظر الجيش، وعرف الشيخ البكرى أن إعارة القناديل، تمت بموافقة بعض كبار أمراء الدولة، فطلب الاجتماع بالسلطان، وكان فى ذلك الوقت هو الناصر محمد بن قلاوون ومن هنا نورد نص المقريزى الذى قال:

"فأحضر السلطان القضاة والفقهاء، وطلب البكرى فذكر من الآيات والأحاديث التى تتضمن معاداة النصارى، وأخذ يحط عليهم، ثم أشار إلى السلطان بكلام فيه جفاء وغلظة حتى غضب منه عند قوله: أفضل المعروف كلمة حق عند سلطان جائر، وأنت وليت القبط المسالمة، وحكمتهم فى دولتك وفى المسلمين، وأضعت أموالهم فى العمائر والإطلاقات التى لا تجوز، إلى غير ذلك . فقال السلطان له، ويلك . أنا جائر؟ فقال: نعم. أنت سلطت الأقباط على المسلمين وقويت دينهم. فلم يتمالك السلطان نفسه عند ذلك، وأخذ السيف وهم بضربه، فأمسك الأمير أرطغاى يده، فالتفت السلطان إلى قاضى القضاة زين الدين بن مخلوف، وقال: هكذا ياقاضى يتجرأ على. أيش يجب أفعل به؟ قل لى؟ وصاح به. فقال له ابن مخلوف: ما قال شيئا ينكر عليه فيه، ولا يجب عليه شئ، فإنه نقل حديثا صحيحاً فصرخ السلطان فيه وقال: قم عنى. فقام من فوره وخرج".

فقال صدر الدين بن المرحل - وكان حاضراً - لقاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعى: يامولانا . هذا الرجل تجرأ على السلطان، وقد قال الله تعالى آمرا لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ فقال ابن جماعة للسلطان: قد تجرأ ولم تبق إلا مراحم مولانا السلطان"[٢٥٩].

---

(٢٥٩) نفس المصدر والجزء والقسم ص ١٣٥ – ١٣٦.

وهـذا التصـرف مـن ابـن جماعـة يـدل علـى حـنكة فـى معالجـة الأمـور الصعبة فلا هـو كـان عنيفاً جافاً كما كان القاضى زين الدين بن مخلوف، ولا هـو كـان منافقاً للسلطان محرضاً لـه علـى البطش، كما بدا من تصرف القاضى صدر الدين بن المرحل، وإنما ذكر ما يدعو إلى تخفيف الغضب وحث السلطان علـى المـرحمة، باعتباره سلطاناً، كمـا كـان فيه إشـارة خفية إلى الأمـراء الجالسين فـى طلب العفو مـن السلطان، وقد فطنوا لـذلك، فمازالـوا يتلطفون بالسلطان، حتـى أمـر بإطلاقه، والاكتفاء بإخراجه من مصـر، كما يـروى المقريـزى هذا[٢٦٠]، وقد ساق لنا المقريزى أيضاً حكاية تدل على مدى ما كان يتمتع به ابن جماعة من قدرة على معالجة الأمور، ومؤداها: أن الأمير بدر الدين محمد بن كندغدى ابن الوزيرى نائب دار العدل، وشد الأوقاف، أخرق بمباشرى الأوقاف وألزمهم بعلم الحساب مدة عشرين سنة، فقلق القضاة من ذلك وسألوه الإغضاء عن ذلك، فتمادى فى الطلب، فأناب القضاة بدر الدين بن جماعة ليطلب من السلطان عزله.

ويصف المقريزى ابن جماعة، فى هذه المهمة وصفا دقيقاً فيقول:

"فقام القاضى بدر الدين بن جماعة فى العمل عليه، وكان عارفاً بالسعى، وله فى ذلك أياد وتراتيب"[٢٦١].

وهـذا التعبير يـدل علـى أننا أمـام شخصية قوية، ذات دربـة بالأمـور، وحكمة فى معالجة المشاكل، فى أناة وتؤدة.

ومـن هنا نجد أن ابن جماعة يكتسب المكانة العالية، والمنزلة الرفيعة، فى الدولة على الرغم من تغير الحكام فيها بسرعة عجيبة، فقد مر عليه وهو علـى الوظائف الرسمية فـى الدولـة، خمسة سلاطين، وعشـرات الأمـراء مـن

---

(٢٦٠) السلوك فى معرفة دول الملوك لمقريزى الجزء الثانى القسم الأول ص ١٣٦.

(٢٦١) المصدر السابق والجزء والقسم ص ١٢٦.

المماليك»، ومع ذلك فإننا نراه يزداد فى كل الأحوال احتراماً من الجميع على الرغم من تغير الولاة، وتقلب الدول، واختلاف السلاطين، فما أن يعزل عن وظائفه حتى يطلب، وما أن يطلب من جهة إلى أخرى، حتى يُوَدَّع فى حفاوة بالغة، ويُسْتَقبل فى حفاوة أبلغ وأكرم، ويشترك السلطان أو نائبة فى توديعه أو استقباله . بل يخرج له الجيش جميعه إلى ظاهر البلد بقادته وأمراء أسلحته مشاركاً فى تكريم الشيخ، اعترافاً بفضله، ومكانته، ومنزلته.

يذكر ابن كثير فى حوادث سنة ٦٩٣هـ ما نصه:

"وقدم على قضاء الشام القاضى بدر الدين أحمد[٢٦٢] بن جماعة يوم الخميس الرابع عشر من ذى الحجة، ونزل العادلية، وخرج نائب السلطنة والجيش بكماله لتلقيه، وامتدحه الشعراء"[٢٦٣].

ويقول أيضا فى حوادث سنة ٧٠٢هـ:

"وفى يوم الخميس السابع عشر من شهر صفر، وصل البريد إلى دمشق، فأخبر بوفاة قاضى القضاة ابن دقيق العيد، ومعه كتاب من السلطان إلى قاضى القضاة ابن جماعة، فيه تعظيم له، واحترام وإكرام يستدعيه إلى قربه ليباشر وظيفة القضاء بمصر على عادته فتهيأ لذلك، ولما خرج خرج معه نائب السلطنة "الأفرم" وأهل الحل والعقد، وأعيان الناس ليودعوه .... ولما وصل ابن جماعة إلى مصر أكرمه السلطان إكراماً زائداً، وخلع عليه خلعة صوف، وبغلة تساوى ثلاثة آلاف درهم"[٢٦٤].

ورغم أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، عزل ابن جماعة فور عودته من الكرك إلى الحكم فى ربيع الأول سنة ٧١٠هـ، بسبب فتوى كان ابن

(٢٦٢) هكذا فى النص وهو خطأ مطبعى صحته محمد.

(٢٦٣) البداية والنهاية لابن كثير ٣٣٦/١٣.

(٢٦٤) البداية والنهاية لابن كثير ٢١/١٤.

جماعة قد أفتاها ضد الناصر، إلا أن الناصر لم يستمر أكثر من سنة واحدة على عزل ابن جماعة ،وسرعان ما احتاج إلى خبرته وجهوده، فأعاده، مع الإقبال عليه، وإسناد الوظائف الكثيرة إليه.

يقول ابن كثير فى ذلك عند الكلام على حوادث سنة ٧١١هـ ما نصه:

"وأعيد بدر الدين بن جماعة إلى الحكم بديار مصر، فى حادى عشر ربيع الآخر، مع تدريس دار الحديث الكاملية، وجامع طولون، والصالحية، والناصرية، وجعل له إقبال كثير من السلطان"(٢٦٥).

بل إن ذلك التكريم كانت تضفيه الدولة على ابن جماعة حتى وهى تعزله عن وظيفة من وظائفه.

يقول شمس الدين بن طولون فى ترجمته للقاضى بدر الدين بن جماعة:

"ثم نقل إلى دمشق .... وجمع له بين القضاء، والخطابة ، ومشيخة الشيوخ، وقدمها آخر سنة ثلاث وتسعين. ثم صرف عنها بالقاضى إمام الدين القزوينى. واستمر بدر الدين بالخطابة، وأخذ له من إمام الدين تدريس القيمرية، وجاءكتاب السلطان الملك المنصور لاجين بذلك، وفيه احترام وإكرام له"(٢٦٦).

وكذلك عندما عزل عن القضاء فى صفر سنة ٦٩٣هـ يقول ابن كثير:

"وفى صفر بعد موت ابن السلعوس، عزل بدر الدين بن جماعة عن القضاء، وأعيد تقى الدين بن بنت الأعز، واستمر ابن جماعة مدرساً بمصر فى كفاية ورياسة"(٢٦٧).

---

(٢٦٥) البداية والنهاية لابن كثير ١٦/١٤.

(٢٦٦) قضاة دمشق ص ٨٠.

(٢٦٧) البداية والنهاية لابن كثير ٣٣٥/٣.

وكذلك كرمته الدولة عندما عجز عجز الشيخوخة عن مباشرة مهام منصب القضاء، وفى هذا يقول المقريزى فى حوادث شهر جمادى الآخرة سنة ٧٢٧ هـ:

"وفيه سأل قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعى، فى الإعفاء من القضاء، واعتذر بنزول الماء فى إحدى عينيه، وانحداره إلى الأخرى ،وقلة نظره، وكبر سنه. فسأل السلطان من ابنه عز الدين عبدالعزيز بن جماعة عن وظائف والده، فأخبره بها، فلما حضر بدر الدين دار العدل فى يوم الإثنين عاشره، وأعاد السؤال فى طلب الإعفاء، فأجاب السلطان من غير تصريح وقال له: هذا آخر الحكم، ومضى إلى داره بمصر، فقرر له السلطان من مال المتجر فى كل شهر ألف درهم فضة"[(٢٦٨)].

أما تعبير العلامة ابن كثير فى هذا الشأن فيقول:

"فجبروا خاطره فرتب له ألف درهم، وعشرة أرادب قمح فى الشهر، مع تدريس زاوية الشافعى"[(٢٦٩)].

هذا والجدير بالذكر أن العلامة بدر الدين بن جماعة لم ينل هذه المكانة من حكام الدولة الرسميين باعتباره شخصية رسمية فحسب، بل إننا لنجد العلماء والعامة يجلونه ويحترمونه ويفرحون به، بل ويتبركون بالجلوس إليه:

فابن كثير، وابن طولون ، يرويان فى حوادث سنة ٧٠١هـ طلب صوفية خانقاه السمساطية بدمشق لابن جماعة، فيقولان واللفظ لابن كثير:

"وفى يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع الأول جلس قاضى القضاة، وخطيب الخطباء، بدر الدين بن جماعة بالخانقاه السميساطية شيخ الشيوخ بها، عن

---

(٢٦٨) السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى الجزء الثانى القسم الأول ص ٢٨٣.

(٢٦٩) البداية والنهاية لابن كثير ١٢٨/١٤.

طلب الصوفية له بذلك، ورغبتهم فيه، وذلك بعد وفاة الشيخ يوسف بن حمويه الحموى، وفرحت الصوفية به، وجلسوا حوله"(٢٧٠).

وحدث له مثل هذا التكريم من الصوفية أيضاً عندما تولى مشيخة الشيوخ فى خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة سنة ٨٠٧ هـ .

يقول ابن كثير أيضا فى ذكر حوادث شهر جمادى الآخرة من هذه السنة ما نصه:

"وفى هذا الشهر باشر قاضى القضاة ابن جماعة مشيخة سعيد السعداء بالقاهرة بطلب الصوفية له، ورضوا منه الحضور عندهم فى الجمعة مرة واحدة"(٢٧١).

ولم يكن العامة ولا جمهور الناس أقل تكريما له، ولا فرحاً به، من الصوفية فى خانيقاهات دمشق والقاهرة، إذ يقول ابن كثير كذلك فى حوادث سنة ٧٢١هـ ما نصه:

"ودرس ابن جماعة بزاوية الشافعى يوم الأربعاء، ثامن عشر شوال، عوضا عن شهاب الدين أحمد بن محمد الأنصارى ، لسوء تصرفه، وخلع على ابن جماعة، وحضر عنده من الأعيان، والعامة ما نشأ به جمعية الجمعة، وأشعلت له شموع كثيرة، وفرح الناس بزوال المعزول"(٢٧٢).

حتى عندما عمى فى أواخر حياته، كان بيته محط الزائرين، وملتقى الدارسين، يأخذون عنه حديث رسول الله ﷺ ويتبركون به.

يقول ابن العماد الحنبلى أثناء ترجمته لابن جماعة فى الشذرات:

---

(٢٧٠) البداية والنهاية ١٤/ ١٧ – ١٨، قضاة دمشق لابن طولون ص ٨٠.

(٢٧١) البداية والنهاية لابن كثير ١٤/ ٥٠.

(٢٧٢)المصدر السابق والجزء ص ١٠٠.

وعَمِىَ فى أثناء سنة سبع وعشرين فصرف عن القضاء واستمر مع تدريس الزاوية بمصر وانقطع بمنزله بمصر قريبا من ست سنين يسمع عليه ويتبرك به إلى أن توفى"[٢٧٣].

فلا غرابة أن تكون للعلامة بدر الدين هذه المنزلة السامية بين معاصريه من كافة الطبقات الاجتماعية، حكاماً، وأمراء، وعلماء وأعياناً، وعامة.

ولا غرابة بعد ذلك أن نعود لنذكر بما قاله أبو الفدا فى تاريخه عنه:

"حمدت سيرته، ورزق القبول من الخاص والعام"[٢٧٤].

وإذا كانت منزلته قد وصلت إلى حد التدخل للمصالحة بين الأمراء والشفاعة للناس عند الملوك، بل إلى حد إصدار المراسيم بالتعبئة العامة وتحويل المدارس إلى معسكرات للتدريب.

إذا كانت هذه المنزلة قد بلغها ابن جماعة بعلمه وخلقه ... فلا ريب أن علمه وخلقه هما اللذان وضعاه على رأس المناصب الرفيعة، والوظائف السامية، التى يجب أن نتعرف عليها، وعلى مدى أهميتها، ودور ابن جماعة فيها، وأثره من خلالها، علمياً، وفكرياً.

وذلك ما سنقدمه فى الباب الثالث.

---

(٢٧٣) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ٦/١٠٥، طبقات الأسنوى ١/٣٨٦، المنهل الصافى لابن تغرى بردى جـ ٣ ورقة ٥٥ (مخطوط).

(٢٧٤) والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا ٤/١٠٨.

الباب الثالث
وظائف ابن جماعة

تمهيد:

الفصل الأول: وظيفة قاضى القضاة

منزلة هذه الوظيفة - ولايته القضاء، أشهر القضايا التى عرضت عليه

الفصل الثانى: وظيفة التدريس ومنزلتها:

و المدارس التى تولى رئاستها أو التدريس بها - تلاميذه، وأولاده، وأحفاده.

الفصل الثالث: وظيفة الخطابة:

منزلة هذه الوظيفة - أشهر المساجد التى تولى الخطابة فيها - وأثره من خلالها.

الفصل الرابع: مشيخة الشيوخ:

معنى هذه الوظيفة - وتاريخها - الخوانق التى تولى مشيختها - منزلة هذه الوظيفة - التصوف عند ابن جماعة

الفصل الخامس: الإفتاء

بداية إفتائه واستحسان النووى لها - بعض ما أفتى به - الإفتاء وظيفة تبعية عنده

نقد وتحليل

تمهيد:

إن المكانة السياسية والإجتماعية لشخص ما فى عصر من العصور، لابد وأن يكون وراءها من الأسباب والدوافع ما جعل صاحبها يتبوأ هذه المكانة، ويصل إلى تلك المنزلة.

فما هى الأسباب والدوافع التى تكمن وراء مكانة ابن جماعة ومنزلته فى دولة المماليك؟

والجواب عن ذلك بسيط للغاية، فليس وراء شخصية ابن جماعة ومكانته أسبابًا ودوافع غير سبب أو دافع واحد فحسب، ذلكم هو: العلم. وكفى به سببا لرفع صاحبه إلى أوج المنازل، وبلوغ الغايات فابن جماعة كما عرفنا ينحدر من أسرة من أعرق الأسر فى تاريخ حماة كلها، فهى أسرة ذات أرومة عربية كريمة، تنتسب إلى مالك بن كنانة، ثم زانها العلم شرفاً فوق شرف النسب، فاجتمع عليها شرفان، زانا أفرادها بزينة الفضيلة، والخلق الجميل.

ومن هنا فليس من الغريب أن يكون أفراد هذه الأسرة الكريمة مقربين من جمهور الناس خاصهم، وعامهم، يسعى السلاطين والأمراء للانتفاع بعلمهم وخبرتهم، ويسعى عامة الناس للاستنجاد بهم فى الملمات، وطلب حمايتهم، وكسب محبتهم.

وقد اكتسب هذه المنزلة جميع أفراد بنى جماعة على حد سواء.

غير أن أعظمهم شأنا وأعلاهم منزلة، وأسماهم مكانة، هو القاضى بدر الدين بن جماعة، فهو عميد هذه الأسرة، وهو رأسها فى العلم، والخلق، وتبوأ المنازل، وهم به عرفوا، ومن عنده اشتهروا، وقد قدمنا شيئاً من هذا فى الباب الأول.

وما أن عرفته الدولة منذ أيام الأشرف خليل، حتى تنبهت إلى غزارة علمه، وسلامة تفكيره، ورجاحة عقله، مع وقاره الجم، وأدبه الرفيع، فوكلت إليه أهم مناصبها الدينية وهى:

رئاسة القضاء، ورئاسة أهم الجامعات الدراسية، وخطابة أشهر المساجد وأهمها، ورئاسة أعظم دور التصوف فى عصره، وغير ذلك من الوظائف والمناصب الرسمية الهامة.

وسنفصل الكلام فيما يأتى عن هذه الوظائف، وأهميتها، ومدي ما ترتب عليها من آثار علمية وفكرية تركت بصماتها الواضحة على تلاميذ ابن جماعة وأولاده، وكذا على الحركة القضائية والتعليمية.

الفصل الأول
وظيفة قاضى القضاة
منزلة هذه الوظيفة، ولايته القضاء
أشهر القضايا التي عرضت عليه

منزلة هذه الوظيفة:

كان القضاء فى عصر الدولة المملوكية - عصر ابن جماعة - من أخطر الوظائف شأناً، وأرفعها منزلة، ولذا نرى العلامة جلال الدين السيوطى ينقل عن ابن فضل الله ما يفيدنا أن وظائف الدولة المملوكية الكبار تعين إما "من ذوى السيوف" كإمرة الأسلحة المختلفة، أو "من ذوى الأقلام" كالوزارة ونظر الأموال أو "من ذوى العلم" كالقضاة، والخطباء[٢٧٥].

وكذلك نرى القلقشندى يذكرها فى الوظائف الدينية ذات المستوى الرفيع، ويصف القضاة بأنهم الذين لهم مجلس يحضره السلطان فى دار العدل. يقول القلقشندى:

"الوظائف الدينية وهم صنفان.

الصنف الأول: من له مجلس بالحضرة السلطانية بدار العدل الشريف وهو منحصر فى خمس وظائف:

الوظيفة الأولى: قضاء القضاة. وموضوعها التحدث فى الأحكام الشرعية وتنفيذ قضاياها، والقيام بالأوامر الشرعية، والفصل بين الخصوم، ونصب النواب للتحدث فيما عسر عليه مباشرته بنفسه، وهى أرفع الوظائف الدينية قدراً وأجلها رتبة"[٢٧٦].

---

(٢٧٥) حسن المحاضرة للسيوطى ٢/٩٣.

(٢٧٦) صبح الأعشى للقلقشندى ٤/٣٤.

وقد تنبه سلاطين المماليك إلى أن هذه الوظيفة من جملة الوظائف الجليلة، ذات الأثر السياسى، شأنها فى ذلك شأن الوزارة، إلى جانب كونها ذات أثر دينى كبير، فصاروا يعينون قضاة القضاة بأنفسهم، ولا يكلون أمر تعيينهم إلى نوابهم، مع العلم بأن نواب السلاطين كانوا يتمتعون بصلاحيات واسعة النطاق إلى الحد الذى جعل السيوطى يقول:

"وكان النائب أولاً سلطاناً مختصراً، وكان هو الذى يفرق الإقطاعات، ويعين الإمرة والوظائف، ويتصرف التصرف المطلق فى كل أمر، إلا فى ولاية المناصب الجليلة كالقضاء، والوزارة، وكتابة السر"[٢٧٧].

وحتى أنه لما أقيم نظام الخلافة العباسية فى مصر منع هؤلاء السلاطين على الخلفاء أن يتدخلوا فى تعيين قضاة القضاة[٢٧٨].

وربما كان لجوء سلاطين المماليك إلى تعيين قضاة القضاة بأنفسهم لعلمهم بخطر الإختصاصات التى كان يتولاها قاضى القضاة، ومنها أنه كان الأساس لبيعة الخليفة وعزله[٢٧٩]، كما كان يبايع السلطان نفسه، باعتباره رأس أهل الحل والعقد، ومنها:[٢٨٠] خطابة مسجد السلطان بالقلعة، ونظر الأوقاف، وإدارة المدارس الكبرى وأوقافها، وكونهم همزة الوصل بين السلطان والشعب، ومنها النظر فى أموال المحجور عليهم، وفى الوصايا، وأموال اليتامى والغائبين[٢٨١]، ولا يزال تعيين كبير القضاة بأيدى رؤساء الدول جاريا حتى عصرنا هذا وفى أكثر الدول تقدما.

---

(٢٧٧) حسن المحاضرة للسيوطى ٩٣/٢.

(٢٧٨) بدائع الزهور لابن إياس ٢٨/٢.

(٢٧٩) راجع نظم المماليك ٩٨/١.

(٢٨٠) راجع عن هذه: حسن المحاضرة للسيوطى ١٠٠/٢، الخطط للمقريزى ١٤٧/٣.

(٢٨١) المقدمة لابن خلدون ص ١٧٥.

هذا ومما تجدر الإشارة إليه أن القضاء قبل عصر المماليك كان مقصوراً على قاض واحد بالديار المصرية من أى مذهب. أما فى عصر المماليك فقد تغيرت هذه القاعدة لسبب ننقله عن القلقشندى الذى ينقله بدوره عن النويرى فيقول:

"ثم استقر الحال فى أيام الظاهر بيبرس فى سنة ثلاث وستين وستمائة على أربعة قضاة من مذاهب الأئمة الأربعة الشافعى، ومالك، وأبى حنيفة، وأحمد بن حنبل - رضى الله عنهم - وكان السبب فى ذلك فيما ذكره صاحب "نهاية الأرب" أن قضاء القضاة بالديار المصرية كان يومئذ بيد القاضى تاج الدين عبدالوهاب بن بنت الأعز بمفرده وكان الأمير جمال الدين أيدغدى أحد أمراء السلطان الملك الظاهر المتقدم ذكره يعانده فى أموره، ويغض منه السلطان لتثبته فى الأمور وتوقفه فى الأحكام، فبينما السلطان ذات يوم جالس بدار العدل إذ رفعت إليه قصة بسبب مكان باعه القاضى بدر الدين السنجارى، ثم ادعى ذريته بعد وفاته أنه موقوف، فأخذ الأمير أيدغدى يغض من القضاة بحضرة السلطان، فسكت السلطان لذلك، ثم قال للقاضى تاج الدين: ما الحكم فى ذلك؟ قال: إذا ثبتت الوقفية يستعاد الثمن من تركة البائع، قال: فإن عجزت التركة عن ذلك، قال: يوقف على حاله، فامتعض لها السلطان وسكت، ثم جرى فى المجلس ذكر أمور أخرى توقف القاضى فى تمشيتها، وكان آخر الأمر أن الأمير أيدغدى حَسَّن للسلطان نصب أربعة قضاة من المذاهب الأربعة ففعل، وأقر القاضى تاج الدين بن بنت الأعز فى قضاء الشافعية، وَوَلىَ الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن عبد الله صالح السبكى قضاء المالكية، والقاضى بدر الدين بن سلمان قضاء الحنفية، والقاضى شمس الدين محمد بن الشيخ عماد الدين القدسى قضاء الحنابلة،

وجعل لهم الأربعة أن يولوا النواب بأعمال الديار المصرية، وأفرد القاضى تاج الدين بالنظر فى مال الأيتام والأوقاف"(٢٨٢).

ورغم هذا بقى لقاضى قضاة الشافعية، ومنهم القاضى بدر الدين اختصاصات وسلطات أوسع من القضاة الثلاثة الباقين، حيث أضيفت له مهام زائدة، وذلك لأن سلاطين المماليك ورثوا عن أسيادهم الأيوبيين التعصب لمذهب الأشعرى فى العقائد، والشافعى فى الأحكام، حتى نقل السيوطى عن ابن السبكى قوله:

"وقال أهل التجربة إن هذه الأقاليم المصرية والشامية والحجازية متى كان البلد فيها لغير الشافعية خربت ومتى قدم سلطانها غير أصحاب الشافعى زالت دولته سريعاً"(٢٨٣).

وكانت تقام لقاضى القضاة عند توليته فى عصر المماليك تقاليد خاصة تدل على عظم منزلته فى الدولة، حيث تعلن توليته على الناس، ثم يخرج من القلعة فى أبهة عظيمة شاقاً شوارع القاهرة، وقد لبس خلعة القضاء وحوله الفقهاء والشهود، وقد وضع على رأسه عمامة كبيرة للغاية تسمى "شاشية" لها طرف طويل، ويلبس فوق ثيابه لباساً واسعاً متسع الأكمام يسمى "دلقا" أو "فرجية" مفتوحة فوق الأكتاف، طويلة إلى القدمين، ويضع على عمامته طرحة من قماش مقور صلب يستر العمامة ويتدلى على الظهر حتى الكعبين، ويلبس فى رجليه خفا من الأديم، ويركب بغلة لها سرج نفيس غير محلى بشىء من

---

(٢٨٢) صبح الأعشى للقلقشندى ٣/٣٦، وراجع السلوك للمقريزى ١/٥٣٩، طبقات السبكى ٥/ ١٣٥.

(٢٨٣) حسن المحاضرة للسيوطى ٢/١١١ – ١١٢.

الفضة، موضوعة على كسوة من الجوخ تغطى جسم البغلة حتى ذيلها، لها لجام من المعادن الثقيلة(٢٨٤).

هذا وقد كان المقر الدائم لقاضى القضاة هو مدينة القاهرة بالنسبة لإقليم مصر، ودمشق بالنسبة للشام، حيث كان يعين قضاة القضاة من المذاهب الأربعة أيضاً فى الشام(٢٨٥).

على أن المساجد الجامعة، والمدارس الكبرى التى كان يخطب أو يدرس بها قاضى القضاة كانت هى مقر عقد جلساته، وحتى فى بيته أيضاً كان له أن يعقد الجلسات فيها، أو فى موضع واسع معروف وسط البلد(٢٨٦).

كما يفهم من نصوص تراجم القضاة أن هذه الجلسات كانت تعقد فى جميع أيام الأسبوع، ماعدا يومى الإثنين والخميس، فقد خصهما بعض سلاطين المماليك كالظاهر بيبرس، والأشرف خليل، والناصر محمد بن قلاوون بالجلوس فيهما مع القضاة بدار مخصوصة فى القاهرة عرفت باسم "دار العدل".

ويبدو أن الذى حدا بهؤلاء السلاطين أن يفعلوا ذلك هو التشبه بالسلف الصالح وبقادة الأمة فى أول عهدها بالإسلام، لتفقد أحوال الرعية، والنظر فى المظالم، ونشر العدل بين ربوع المملكة(٢٨٧).

---

(٢٨٤) فى وصف زى القضاة وركوبهم، راجع صبح الأعشى ٤٢/٤، والخطط ٣٥/٢، ٣٠٥، ونظم دولة المماليك ٩٦/١ — ٩٧.

(٢٨٥) صبح الأعشى ١٩٢/٤.

(٢٨٦) رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر ٣٣٧/٢، نظم دولة المماليك ورسومهم للدكتور ماجد ١٠١/١.

(٢٨٧) راجع الخطط للمقريزى ٢٣٦/٣، عصر سلاطين المماليك الجزء الأول، القسم الثانى ص ٥٠.

وقد أورد كل من القلقشندى، والمقريزى، والسيوطى وصفا لهذا الجلوس نكتفى فيه بما أورده السيوطى تحت عنوان "ذكر جلوس السلطان فى دار العدل للمظالم"، والذى قال فيه:

"قال ابن فضل الله إذا جلس السلطان للمظالم جلس عن يمينه قضاة من المذاهب الأربعة ثم الوكيل عن بيت المال، ثم الناظر فى الحسبة، ويجلس عن يساره كاتب السر، وقدامه ناظر الجيش وجماعة من الموقعين، تكملة حلقة دائرة، وإن كان ثم وزير من أرباب الأقلام كان بينه وبين كاتب السر، وإن كان الوزير من أرباب السيوف كان واقفاً على بعد مع بقية أرباب الوظائف، ويقف من وراء السلطان صفان عن يمينه ويساره من السلاح دائرة، والجمدارية، والخاصيكية، ويجلس على بعد تقديره خمسة عشر ذراعاً من يمنة ويسرة ذوو السن من أكابر أمراء المؤمنين وهم: أمراء المشورة، ويليهم من دونهم من أكابر الأمراء وقوف من وراء أمراء المشورة، ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحجاب، والدوادارية. لإحضار قصص الناس وإحضار المساكين، وتقرأ عليه، فما احتاج إلى مراجعة القضاء راجعهم فيه، وما كان متعلقاً بالعسكر تحدث مع الخاص وكاتب السر فيه. قال: وهذا الجلوس يكون يوم الإثنين، ويوم الخميس، إلا أن القضاة وكاتب السر لا يحضرون يوم الخميس"[٢٨٨].

وفيما عدا هذين اليومين كان قاضى القضاة يتخذ من المساجد أو المدارس التى يعمل بها مقراً لأحكامه فى إطار الدائرة القضائية التى يتولاها ماعدا قاضى قضاة الشافعية الذى يزيد عن إخوانه الباقين بتولية النواب له فى الأعمال وهم قضاة العمل[٢٨٩]، أى: قضاة الأقاليم.

---

(٢٨٨) حسن المحاضرة للسيوطى ٩٢/٢، راجع صبح الأعشى للقلقشندى ٤٥/٤، الخطط للمقريزى ٣٣٥/٣ – ٣٣٨.

(٢٨٩) راجع نظم دولة المماليك للدكتور ماجد ١٠١/١.

وكما كان قاضى القضاة يعين نوابه فى الأقاليم، كان أيضاً يختار له عدداً من الشهود قد يصل عددهم إلى أربعين شاهداً[٢٩٠].

وكان مجلس الحكم فى ذلك العصر أشبه ما يكون بقاعة المحكمة فى نظامنا المعاصر، ويصفه الدكتور عبدالمنعم ماجد ملخصاً إياه من مصادر عديدة أجتزىء من نصه مايأتى:

"وكان مجلس الحكم يتكون من القاضى والشهود العدول، وحاجب القاضى على الباب، وكاتب الحكم الذى يسجل الأحكام، وشخص يسمى الجلواز - جمعها جلاوزة أو جلاويز - يشرف على النظام فى مجلس القاضى، ويحمل فى يده سوطاً، وشخصية هامة هى الترجمان لعله بسبب وجود المماليك الترك، أو وجود الأجانب بسبب اتساع التجارة... وكان هناك نظام توحيد القضاء فينظر فى القضايا الجنائية، وقضايا السرقات، وقضايا شرب الخمر، والزنا، والمواريث، والوصايا، والمناكحات والطلاق، وقضايا الأحوال الشخصية... وقد كانت الأحكام والشهادة تسجل فى كتب خاصة تسمى "السجلات" وهى عبارة عن الأرشيف القضائى، وكان إنشاء هذه السجلات يقتضى صيغة خاصة مأخوذة من الفقه وطرق الإنشاء، حتى أنها عرفت فى زمن المماليك بعلم الشروط والسجلات.

ولا مشاحة فى أن العادة قد جرت أيضاً فى كتابتها على أن يذكر القاضى اسمه ولقبه ومذهبه"[٢٩١].

أما عن تنفيذ الأحكام التى يصدرها القاضى، فإنه كان يعهد بها إلى والى الشرطة، وهو أداة التنفيذ فى الدولة المماليكية، وقد كان للقضاة سجون خاصة بهم، يسجن فيها من يحكم عليهم، فنسمع عن سجن القضاة أو

---

(٢٩٠) راجع صبح الأعشى للقلقشندى ٣٦/٤.

(٢٩١) نظم دولة المماليك ١٠١ – ١٠٣

سجن الحكم[٢٩٢]، وكان للقضاة بحكم وظيفتهم العالية باعتبارهم الذين يضفون الشرعية على السلاطين والخلفاء ذوى مكانة مرهوبة الجانب، حتى كان القضاة ذوو الشخصية البارزة يهابهم السلاطين، بل ويقبلون أيديهم كما فعل السلطان لاجين مع قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد[٢٩٣].

ولكن كثيراً ما نعثر على نصوص تدل على أن كثيراً من هؤلاء القضاة ضاعت هيبتهم، وانهارت مكانتهم، غير أن من فعل به ذلك منهم كان يستحق هذا إذا ما عرفنا أنه كان من أصحاب الرشاوى، ومرتكبى الجرائم الخلقية، أما الصالحون منهم فكانوا إذا شعروا بأدنى مساس بكرامتهم عزلوا أنفسهم فوراً، وقد حدث هذا من أكثر من قاض فى أسرة بنى جماعة منهم القاضى عز الدين بن جماعة المتوفى سنة ٧٦٧هـ[٢٩٤]، والقاضى إبراهيم ابن عبدالرحيم بن جماعة المتوفى سنة ٧٩٠هـ[٢٩٥].

.. ومن هذه العجالة السريعة التى قدمناها عن القضاء والقضاة ندرك أن القضاء فى عصر ابن جماعة كان منصباً عظيم الشأن، جليل الخطر، لا يقوم به إلا من تهيأ له علما، وخلقاً، وديناً.

أما من قل علمه، وضاعت منزلته، فقليلاً ما كان يحتفظ بهيبة القضاء لنفسه، أو حتى يحتفظ لنفسه بكرامتها حيال الناس.

فإن سألنا سائل أى قاض كان من بين قضاة عصره قاضيكم بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة؟

فسنجيبه فى ثقة واطمئنان:

---

(٢٩٢) نظم دولة المماليك للدكتور ماجد ١٠٢/١ – ١٠٤.

(٢٩٣) راجع حسن المحاضرة للسيوطى١٠١/٢.

(٢٩٤) راجع طبقات السبكى ١٢٤/٦.

(٢٩٥) راجع الدر الكامنة لابن حجر ٣٨/١ – ٣٩.

كان القاضى العلامة بدر الدين بن جماعة زينة للقضاء وشرفا لهذا المنصب السامى الذى زانه، بعلمه وخلقه وفضله، لم يسع إلى باب ملك ولا سلطان، ولا أمير، ولا وزير، وإنما سعت كل الملوك والسلاطين إليه، وكاتبه الوزراء راجين استقدامه، وخطب وده الأمراء طمعاً فى مؤازرته ومساندته.

ومع تقلب الدول وتغير نفوس السلاطين بتغير أشخاص السلاطين أنفسهم، إلا أنها لم تتغير حيال شخص قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة فظل منصب القضاء خاضعاً له، ملتصقاً باسمه أربعين سنة.

بل إننا يجب أن نقول مع المنصفين، لقد ظل منصب القضاء خاضعاً له، ولذريته من بعده أجيالاً ثلاثة، فى القدس ودمشق والقاهرة.

وقد ذكر الدكتور عبدالمنعم ماجد في كتابه نظم المماليك بعد أن بين أن القضاة كانوا يختارون من بين أئمة الرجال المعروفين بعلمهم الواسع والذين اشتهروا فى كبريات المدارس فقال ما نصه:

"ولعل أهم أسرة تولته فى عهد المماليك هى أسرة بنى جماعة، وهى من أصل عربى من كنانة تولته من ٦٩٠هـ/ ١٩٢١م إلى ٧٨٥هـ/١٣٨٢م، أى ثلاثة أجيال ليس فى مصر فقط، بل فى الشام أيضاً، ومع تغير السلاطين المستمر فإنهم كانوا يبقون"(٢٩٦).

وقد رأينا فيما تقدم كيف نال القاضى بدر الدين من الاحترام والتبجيل من كافة سلاطين عصره وأمرائه ومن أعيان الناس وعوامهم مالم ينله مثله فى أكثر العصور مما يدل على جليل منزلته.

وسنلقى ضوءاً كافياً على أماكن ولايته للقضاء، حسب ترتيبها الزمنى وإثبات تواريخها، ثم نعرض ما عثرنا عليه من قضاياه وأهميتها، وما انتهى إليه حكمه فيها.

---

(٢٩٦) دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر للدكتور ماجد ١٠٤/١.

ولايته القضاء:

تولى: (١) قضاء القدس فى رمضان سنة ٦٨٧هـ:

إلا أن كثراً من المصادر تذكر أن وظيفته فى القدس كانت الخطابة ولا تشير فى ذلك إلى القضاء[٢٩٧]، كما أن الأستاذ محمود رزق سليم وإن كان يجمع له فى القدس القضاء مع الخطاب، إلا أنه يحدد تاريخ ذلك بأنه فى ٤ شوال سنة ٦٨٧هـ[٢٩٨].

ولكننا نعتمد فى إثبات التاريخ الأول على مصدر متخصص فى تاريخ القدس والخليل، وهو القاضى مجير الدين فى تاريخه الأنس الجليل الذى يقول:

"قاضى القضاة شيخ الإسلام بدر الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ابن سعد الله بن جماعة الكنانى.

وَلِىَ الخطابة بالمسجد، الأقصى الشريف، وإمامته، وقضاء القدس الشريف جمع له بين ذلك فى شهر رمضان سنة سبع وثمانين وستمائة، بعد موت قطب الدين خطيب المسجد الأقصى الشريف"[٢٩٩].

واستمر ابن جماعة على قضاء القدس وخطابته إلى أن جاءه استدعاء من القاهرة لتولى قضاء القضاة بها.

(٢) قضاء القضاة فى مصر:

تولاه فى ١٤ رمضان سنة ٦٩٠هـ (المرة الأولى) يقول ابن كثير ما نصه:

---

(٢٩٧) البداية والنهاية لابن كثير ٣١٢/١٢، الوافى بالوفيات للصفدى ١٨/٢، مرآة الجنان لليافعى ٢٨٧/٤، فوات الوفيات للكتبى ٢٩٧/٢، ولكن ابن كثير يصرح فى ص ٣٢٢، بأنه كان حاكما على القدس أى قاضياً، نكت الهميان للصفدى ص٢٣٥، المنهل الصافى لابن تغرى بردى ٥٥/٣ (مخطوط).

(٢٩٨) عصر سلاطين المماليك لرزق سليم الجزء الأول القسم الثانى ص

(٢٩٩) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجير الدين الحنبلى ٤٨٠/٢

"وفى أوائل رمضان طلب القاضى بدر الدين بن جماعة من القدس الشريف، وهو حاكم به وخطيب فيه على البريد إلى الديار المصرية فدخلها فى رابع عشرة"[٣٠٠].

وأعفى من منصبه هذا فى صفر سنة ٦٩٣هـ مع بقائه فى مصر فى كفاية ورياسة"[٣٠١].

(٣) قضاء القضاة فى الشام:

(تولاه المرة الأولى) يوم الخميس ١٤ من ذى الحجة سنة ٦٩٣هـ.

وفى هذه المرة استقبله الجيش بكماله وعلى رأسه نائب الشام عند دخوله دمشق، ومدحه الشعراء[٣٠٢]، واستمر على قضاء القضاة بالشام حتى أناب القاضى جمال الدين الزرعى عن نفسه فى قضاء دمشق، فى آخر شوال سنة ٦٩٥هـ[٣٠٣] إلى أن عزل بإمام الدين القزوينى فى جمادى الآخرة سنة ٦٩٦ هـ[٣٠٤].

(٤) قضاء القضاة فى الشام:

(المرة الثانية) من يوم الخميس ١٥ شعبان سنة ٦٩٩هـ حتى ١٧ من صفر سنة ٧٠٢هـ[٣٠٥].

حيث استدعى بكتاب من السلطان فيه تعظيم واحترام له، ليباشر قضاء القضاة فى مصر خلفا عن تقى الدين بن دقيق العيد، الذى توفى فى ١١ صفر من هذه السنة[٣٠٦].

---

(٣٠٠) البداية والنهاية لابن كثير ٣٢٢/١٣.

(٣٠١) راجع البداية والنهاية ٣٣٥/١٣.

(٣٠٢)المصدر السابق والجزء ص ٣٣٦، وراجع النص ص ١٤٢ من هذا البحث.

(٣٠٣)المصدر السابق والجزء ص ٣٣٤.

(٣٠٤)المصدر السابق والجزء ص ٣٤٩.

(٣٠٥) المصدر السابق ١٤/ ١١، ٢١، ٢٧.

(٥) قضاء القضاة فى مصر:

(المرة الثانية) حيث باشر الحكم فى يوم السبت ٤ ربيع الأول سنة ٧٠٢هـ.

واستمر القاضى بدر الدين على قضاء القضاة فى مصر هذه المرة إلى أن أضر بصره وكبر سنه فطلب إعفاءه من المنصب، فأجيب إلى ذلك فى جمادى الآخرة سنة ٧٢٧هـ[٣٠٧].

غير أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون عزله من القضاء ومن جميع مناصبه فى أول ربيع الأول سنة ٧١٠هـ بسبب فتوى أصدرها ابن جماعة ضد هذا السلطان، ولكنه ما لبث أن احتاج إليه، فأعاد له جميع هذه المناصب كلها، مع الإقبال الشديد عليه وذلك فى ١١ ربيع الآخر سنة ٧١١هـ[٣٠٨].

ولكن ابن حجر العسقلانى يرى أن ذلك العزل حدث عند عودة الناصر من الكرك فى سنة ٧٠٩هـ ثم أعيد فى صفر سنة ٧١٠هـ[٣٠٩]. والأول أظهر لأن له ما يوافقه من نصوص المصادر الأخرى وهى كثيرة كما نراها فى هامش الصفحة.

هذا وقد ارتجز الأديب محمد بن دانيال الموصلى[٣١٠] أرجوزة فيمن وَلىَ قضاء مصر منذ الفتح الإسلامى إلى عهد بدر الدين بن جماعة على نمط ألفية ابن مالك فى أرجوزته بكثير من المديح فى أولها وفى ختامها.

---

(٣٠٦) البداية والنهاية ١٤/ ٢١، ١٢٨، دائرة المعارف الإسلامية لفنسنك ١/١٢١.

(٣٠٧) المصدر السابق والجزء ص ٢١، ١٢٨ دائرة المعارف الإسلامية ١/١٢١.

(٣٠٨)المصدر السابق والجزء ص ٥٨، ٦١، راجع دول الإسلام للذهبى ٢/١٦٧، المنهل الصافى لابن تغرى بردى ٢/٥٥ (مخطوط) قضاة دمشق لابن طولون ص٨١، طبقات الأسنوى ١/٣٨٦.

(٣٠٩) الدرر الكامنة ٣/٢٨١.

(٣١٠) هو محمد بن دانيال بن يوسف المراغى الموصلى شمس الدين الحكيم الكمال فاضل أديب متفوق فى النظم أصله من الموصل ونشأ وتوفى بالقاهرة سنة ٧٠٨هـ وكانت له دكان كحل داخل باب الفتوح "فوات الوفيات للكتبى ٢/١٩٠. الدرر الكامنة ٣/٢٨١.

ومن حسن الحظ أن هذه الأرجوزة التى تعتبر وثيقة تاريخية شاهدة على مكانة ابن جماعة فى عصره، قد سجلها كل من العلامة ابن حجر العسقلانى مفتتحاً بها كتابه رفع الإصر عن قضاة مصر، والعلامة جلال الدين السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة.

ولكنها فى رواية ابن حجر مائة وثلاثة عشر بيتاً، بينما فى رواية السيوطى مائة وواحد فقط، ونرى أن ننقل من هذه الأرجوزة ما يخص هذا البحث، وهو المتعلق بمدح العلامة بدر الدين بن جماعة، وذكر عدد توليته القضاء على مصر والشام.

يقول ابن دانيال فى مفتتح قصيدته:

يقول راجى كرم الله العلى	محمد بين دانيال الموصلى
من بعد حمد للعلى الحاكم	غامرنا بالجود والمراحم
ثم الصلاة بعد ترتيل اسمه	على النبى الهادى أمين حكمه
وآله وصحبه العدول	شهود حجة الرضى الرسول
وإننى ضمنت هذا الشعرا	انباء كل من تولى مصرا
من لدن ابن العاص أعنى عمرا	من فتحها ثم هلم جرا
لكننى اخترت الكلام الرجزا	فى حصرهم إذ كان لفظًا موجزًا
ليفتدى عقدا من اللآلى	ينفسه ذكر الجناب العالى
العالمى العاملى الأوحد	بدر التمام ذو السنا محمد
أعنى الكنانى ابن إبراهيما	السيد المفضل الكريمًا
قاضى القضاة وإمام العصر	مفتى الفريقين بأرض مصر
نظمتها وسيلة إليه	معتمدا دون الورى عليه
لا زال سترا مسبلا علينا	يبعث فضل رفده إلينا
وها أنا بذكر ذاك مبتدى	بحمد ذى الحمد البديع الصمد

ثم أخذ يسرد القضاة من أول فتح مصر حتى وصل إلى القاضي بدر الدين فذكر ولاياته، ومدحه فقال:

ثم ولى التقى عبد الرحمن	وبان بدر الدين لما بان
وعاد بدر الدين للشام	ثم ولى الحكم الفتى العلامى
ولم يزل حتى توفاه القضا	ثم ولى التقى أبو الفتح الرضا
وإذ أتاه نازل الحمام	عاد إليها البدر فى التمام
بدر منير كامل الأوصاف	ذو المنهل العذب النمير الصافى
قاضى القضاة حاكم الحكام	واسطة العقود فى النظام
لا برحت نافذة أحكامه	وخلدت زاهرة أيامه
ما لاح بدر كامل الأبدار	وما انجلى الهلال من سرار
والحمد لله على أنعامه	وفضل ما سدد من أحكامه
ثم أفضل الصلاة والسلام	على النبى سيد الأنام
وآله وصحبه وعترته	وكل من أخلص فى محبته[311]

والجدير بالذكر فى هذه المناسبة، أن القاضي بدر الدين بن جماعة، كان يتمتع بمحبة إخوانه القضاة ويرسلون إليه طرفا. من أشعارهم تدل على مدى ظرفهم معه وتوددهم إليه.

أرسل له القاضى كمال الدين الشريشى أحمد بن محمد بن أحمد البكرى المتوفى سنة ٧١٨هـ[312] بيتين يتودد فيهما إليه ويحثه على زيارته متخذا من لقبهما "كمال الدين، وبدر الدين" فرصة لاستخدام التورية فقال:

مولاى "بدر الدين" صل مدنفا	صيره حبك مثل الخلال
لا تخش من عيب إذا زرته	فما يعاب "البدر" عند "الكمال"

---

(٣١١) راجع هذه الأرجوزة فى رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر ٢/١ – ١٧، حسن المحاضرة للسيوطى ١١٧/٢ – ١٢٠.

(٣١٢) ترجمته فى البداية والنهاية لابن كثير ٩١/١٤.

وما أن علم القاضى صدر الدين بن الوكيل المعروف بابن المرحل المتوفى سنة ٧١٦هـ[٣١٣] بقصة هذين البيتين حتى أرسل إلى ابن جماعة يقول له:

يا "بدر" لا تسمع كلام "الكمال" فكل ما نمق زور محال
فالنقص يعرو "البدر" فى تمه وربما يخسف عند "الكمال"[٣١٤]

أشهر القضايا التى عرضت عليه:

إن أربعين عاماً أمضاها قاضينا بدر الدين بن جماعة فى نظر قضايا عصره، كانت كفيلة أن تملأ بطون المصادر التى تعالج تاريخ رجال القضاء على وجه الخصوص، كرفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلانى، والثغر البسام فيمن وَلِىَ قضاء الشام أو قضاة دمشق لابن طولون، غير أننا نأسف كثيراً لأن أيّا من هذه المصادر لم يقدم إلينا شيئاً يذكر عن هذه القضايا.

وربما كان العذر الذى يعتذر به عن هذه المصادر أنها تعنى بتاريخ أشخاص القضاة لا بتاريخ أقضيتهم، وما جرى فيها من الحوادث.

ومع ذلك فإنى أستطيع أن أقول إن بعضا من هذه القضايا مذكور فى كتب التاريخ العام كتاريخ ابن كثير، وابن تغرى بردى، والدوادارى.

والملاحظ عن تلك القضايا التى ذكرت فى هذه المصادر، أنها كانت ذات لون سياسى، فضلاً عن قضايا أخرى ذات لون شرعى، ذكرت فى تراجم الخطط والآثار.

وسنتعرض الآن لبحث أهم القضايا التى عرضت على ابن جماعة، ونتعرض لها بشىء من النقد لنكشف عن مدى شخصية ابن جماعة، وتأثيره على قضايا عصره، وأحداثه.

---

(٣١٣) ترجمته فى البداية والنهاية ٨٠/١٤.

(٣١٤) راجع الدرر الكامنة لابن حجر ٢٥٢/١.

القضية الأولى: "محاكمة الشيخ تقى الدين بن تيمية":

التعريف بابن تيمية[٢١٥]: هو أحمد تقى الدين أبو العباس بن عبد الحليم بن عبدالسلام بن تيمية، ولد فى ١٠من ربيع الأول سنة ٦٦١هـ وتُوفى فى ٢٢ من ذى القعدة سنة ٧٢٨هـ، وهو من خيرة علماء الحنابلة، فى عصره، تتلمذ على شيوخ ابن جماعة كابن عبدالدايم، وابن أبى اليسر، وشمس الدين بن عطاء الحنفى، وابن علان، وغيرهم، ونبغ فى كافة العلوم والفنون والمعارف، واتبع طريقة الإستنباط من الكتاب والسنة وفقه الصحابة، وأفتى على أساسها مخالفاً بذلك فقه الأربعة بما فيها مذهب الحنابلة الذى هو عليه، وكانت له آراء سليمة فى مسائل العقائد، كمسألة استواء الرحمن على العرش وأن ما ورد فى القرآن من صفات الله تعالى هى على حقيقتها كاليد، والعين، لأنه لا يقع فى القرآن مجاز، فخالف بذلك مذهب الأشاعرة - المذهب الرسمى للدولة - فَرُمِىَ هو وجميع الحنابلة بالتجسيم، فكان هو والحنابلة فى واد، وجميع المذاهب الأخرى فى واد آخر، ومن لم يفهم كلامه عاداه معاداة قوية واتهمه بالكفر والمروق عن الدين، ومنهم من عاداه عن حسد له، فهم كلامه أو لم يفهم، كما أنه كان حربا على متصوفى عصره الذين أدخلوا فى أذهان العامة كثيراً من الأباطيل التى لا تمت للدين بصلة، فاكتسب بذلك عداءهم، خاصة شيخهم فى عصره، الشيخ نصر الدين المنبجى، الذى كان بيبرس الجاشنكير سلطان الوقت لا يتصرف إلا برأيه ومشورته.

ولقد قُدِّم ابن تيمية للمحاكمة عدّة مرات، سواء من جانب الصوفية، أو من جانب علماء المذاهب الأخرى، بسبب آرائه الحرة فى الجميع.

---

(٢١٥) مصادر هذا التعريف بتصرف البداية والنهاية لابن كثير ١٣٥/١٤ – ١٤٠، الوردى ٤٠٧/٢.

ولم يكن مجاهداً بلسانه فحسب بل حمل السيف، وقاتل، وتفاوض مع أكثر الفرق المساندة للتتار كالباطنية وغيرهم، وكان على رأس من خرج مع ابن جماعة لمقابلة غازان التترى سنة ٦٩٩هـ والتى أشرنا إليها آنفا(٣١٦).

ومن يمعن النظر فى كلام ابن تيمية لا يجد فيه خروجاً على أصل من أصول الدين، بل يجد أن الخلاف بينه وبين علماء المذاهب الأخرى خلاف لفظى، ولكن يبدو أن سرعة غضبه سببت له كثيراً من العداء، ولذلك يقول الذهبى عنه:

"أنا لا أعتقد فيه عصمة، بل أنا مخالف له فى مسائل أصلية وفرعية، فإنه كان مع سعة علمه، وفرط شجاعته، وسيلان ذهنه، وتعظيمه لحرمات الدين بشرا من البشر تعتريه حدة فى البحث، وغضب وصدمة للخصوم تزرع له عداوة فى النفوس، ولولا ذلك لكان كلمة إجماع، فإن كبارهم خاضعون لعلومه معترفون بأنه بحر لا ساحل له، وكنز لا نظير له، ولكنهم ينقمون عليه أخلاقاً وأفعالاً، وكل يؤخذ من قوله ويترك"(٣١٧).

وقائع القضية:

اجتمع خلق كثير من صوفية القاهرة وعلى رأسهم ابن عطاء الله السكندرى، أحد مشاهير الصوفية، ورفعوا دعوى ضد الشيخ تقى الدين ابن تيمية مكونة من شقين:

الأول: أنه ينتقص من مكانة علماء كبار الصوفية من أمثال الشيخ محيى الدين بن عربى، صاحب كتاب الفتوحات المكية، وكتاب "فتصوص الحكم"، وذلك علناً فى المحاضرات والدروس التى يلقيها على جماهير الناس أثناء وجوده فى القاهرة.

---

(٣١٦) راجع ص ١٣٥ من هذا البحث.

(٣١٧) ابن تيمية حياته وعصره ص٣١.



الثانى: أنه يزعم أن النبى صلى الله عليه وسلم لا يجوز أن يستغاث به، فجرى بحث القضية على النحو الذى ينقله إلينا ابن كثير فيما يأتى فى حوادث سنة ٧٠٧هـ.

"قال البرزالى: وفى شوال منها شكى الصوفية بالقاهرة على الشيخ تقى الدين، وكلموه فى ابن عربى وغيره إلى الدولة، فردوا الأمر فى ذلك إلى القاضى الشافعى، فَعُقِدَ له مجلس وادعى عليه ابن عطاء بأشياء، فلم يثبت عليه منها شىء، لكنه قال: لا يستغاث إلا بالله، ولا يستغاث بالنبى استغاثة بمعنى العبارة، ولكن يتوسل به، وينتفع به إلى الله[٣١٨]، فبعض الحاضرين قال ليس عليه فى هذا شىء، ورأى القاضى بدر الدين بن جماعة أن هذا فيه قلة أدب، فحضرت رسالة إلى القاضى أن يعمل معه ما تقتضيه الشريعة، فقال القاضى: قد قلت له ما يقال لمثله، ثم إن الدولة خيروه بين أشياء، إما أن يسير إلى دمشق، أو الإسكندرية بشروط، أو الحبس فاختار الحبس، فدخل عليه جماعة فى السفر إلى دمشق ملتزماً ما شرط، فأجاب أصحابه إلى ما اختاروه جبراً لخواطرهم، فركب خيل البريد ليلة الثامن عشر من شوال، ثم أرسلوا خلفه من الغد بريداً آخر، فردوه، وحضر عند قاضى القضاة ابن جماعة وعنده جماعة من الفقهاء فقال له بعضهم إن الدولة لا ترضى إلا بالحبس، فقال القاضى: وفيه مصلحة له، واستناب شمس الدين التونسى المالكى وأذن له أن يحكم عليه بالحبس، فامتنع وقال ما ثبت عليه شىء، فأذن لنور الدين الزواوى فتحير، فلما رأى الشيخ توقفهم فى حبسه قال: أنا أمضى إلى الحبس وأتبع ما تقتضيه المصلحة، فقال نور الدين الزواوى يكون فى موضع يصلح لمثله، فقيل له: الدولة ما ترضى إلا بمسمى الحبس، فأرسل إلى حبس القضاة

---

(٣١٨) المعروف فى كتب ابن تيمية وترجمته لابن عبد الهادى أنه لا يجيز هذا. فليحرر "عن هامش البداية والنهاية لابن كثير ٤٥/١٤.

فى المكان الذى كان فيه تقى الدين بن بنت الأعز حين سجن، وأذن له أن يكون عنده من يخدمه، وكان ذلك كله بإشارة نصر المنبجى لوجاهته فى الدولة، فإنه كان قد استحوذ على عقل الجاشنكير الذى تسلطن فيما بعد، وغيره من الدولة والسلطان مقهور معه"(٣١٩).

وبتحليل جلسة المحاكمة هذه يمكن استخلاص الآتى:

١ - أن القضية كان لها جانب شرعى عقائدى بعضها يختص بفلسفة الصوفية، وكلامهم فى وحدة الخالق والمخلوق، ورموز التصوف التى كان يستعملها كبار رجالها مما يوهم ظاهرها الشرك وقد ردها ابن تيمية رداً مقنعاً أمام القضاة ورئيسهم ابن جماعة إلى الحد الذى "لم يثبت عليه منها شىء".

ويختص الجانب الآخر بالدعوى المقامة ضد ابن تيمية فى عدم جواز الإستغاثة بالنبى ﷺ، ونرى أن ابن تيمية قد اعترف بهذه التهمة ولكنه دافع عن نفسه بقوله بأنه "لا يقصد الإستغاثة بمعنى العبارة" أى أن المستغيث يعتقد أن النبى ﷺ قادر على إغاثته من دون الله تعالى، ورأى قاضى القضاة ابن جماعة أن ابن تيمية قد أساء الأدب الذى كان يرجى أن يصدر من مثله كعالم عند الحديث عن النبى ﷺ، ولكن مع ذلك فليس فى هذا خروج عن أصل من أصول الدين فإن الأصل فى الإستغاثة أن تكون بالله عزّ وجلّ.

ويبدو من النص أن محاولة صدرت من جانب رئيس الدولة إلى كبير القضاة ابن جماعة بمعاقبة ابن تيمية حيث حضرت إلى مجلسه رسالته بمعاقبته.

غير أن ابن جماعة رد عليها فى وقار حازم قائلا: "قد قلت له ما يقال لمثله" والمعنى أنى وجهت إليه تحذيراً عنيفاً عندما قلت له إن هذا قلة أدب وهذا كلام فيه تعزير شديد إذا وجه إلى عالم كبير مثل ابن تيمية.

---

(٣١٩) البداية والنهاية لابن كثير ١٤/٤٥ – ٤٦.



وانتهى الحكم فى هذه القضية وأطلق سراح ابن تيمية إلى دمشق على أن يلتزم بشروط معينة، وهى عدم الخوض فى هذه المسائل كما يفهم من فحوى النص.

٢ - أن القضية كان لها جانب سياسى يتزعمه الأمير بيبرس الجاشنكير الذى كان السلطان الناصر محجوباً تحت وصايته لصغر سنه، كما كان الأمير بيبرس مستحوذاً عليه من قبل الشيخ نصر الدين المنبجى أحد كبار الصوفية، أى أن الدولة كلها وقت نظر هذه القضية كانت تسير وفقاً لما يشير به نصر الدين المنبجى كبير الصوفيين.

ولهذا نرى أن ابن تيمية يعاد من الطريق، ويشكل له مجلس حكم جديد يمتنع القضاة جميعاً عن الحكم فيه، ماعدا رئيسهم ابن جماعة الذى رأى بثاقب فكره وبعد نظره خطورة الموقف الذى فيه ابن تيمية، مما أصبح يشكل خطراً حقيقياً على حياته فأيد ابن جماعة حبسه وعبر عن ذلك بقوله: "إن فيه مصلحة له". وإلا كيف نفهم أن الحبس فيه مصلحة لإنسان؟

وهذا ما فهمه الشيخ محمد أبو زهرة أيضاً من تصرف ابن جماعة حيث يقول عن حبس ابن تيمية ما نصه:

"بل لعل المحبس الرفيق الذى نزل فيه كان فيه صيانة من غوغاء الصوفية الذين كانوا يتربصون به الدوائر، ولعلهم يدسون عليه من يرميه رمية طائشة فتصيبه وسط الجموع الحاشدة التى تلتف حوله، ولعل هذا هو الذى أشار إليه قاضى القضاة ابن جماعة عندما قال: إن الحبس فيه مصلحة له"(٣٢٠).

وبهذا الحكم فإن ابن جماعة أثبت أنه كان على درجة عالية من حسن الإدراك والتصرف الواعى، فإنه قد تجنب صداماً مباشراً مع السلطات العليا

---

(٣٢٠) ابن تيمية حياته وعصره ص ٦٩.

فى الدولة، وفى الوقت نفسه صان حياة العلامة ابن تيمية من أن تمتد إليه يد علاوة على أن حكمه لم يصادم نصاً شرعياً.

هذا مع مخالفة ابن تيمية لآراء ابن جماعة، فابن جماعة أشعرى شافعى، وابن تيمية يخالفه فى مذهبى الأشاعرة والشافعية أيضاً كما عرفنا من قبل.

ولكن ابن جماعة تصرف كقاض أولاً، وكعالم ثانياً يعرف أن ابن تيمية يتكلم وهو يقلب الأدلة الشرعية بين يديه مما يجعل المسائل كلها بمثابة خلافات لفظية بحتة، لا توجب اختلافاً حقيقاً فى مفهوم العقائد، وهذا ما جعل الأستاذ محمود رزق سليم يقول بصدد هذه المسألة:

"هذا ويبدو أن الخلاف بين ابن تيمية ومعارضيه خلاف لفظى، أتى من الحرص على التعبير عن المعانى بطريق لفظى خاص"[(٣٢١)].

ولقد حفظ ابن تيمية للقاضى بدر الدين هذه الواقعة عندما أثنى عليه فى فصل خاص فى كتابه "الفتاوى الكبرى"[(٣٢٢)].

القضية الثانية: "محاكمة علاء الدين بن الأثير":

التعريف بابن الأثير[(٣٢٣)]. هو علاء الدين بن أحمد بن سعيد بن محمد ابن الأثير الحلبى المصرى، كان هو وأبوه من أدباء عصر المماليك زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وقد تولى علاء الدين كتابة السر لهذا السلطان مدة من الزمن إلى أن أصيب بالفالج، واكتسب عند السلطان الناصر الوجاهة، والحرمة، والحشمة، وصار يضرب بحشمته المثل وتُوُفىَ سنة ٧٣٠هـ.

---

(٣٢١) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى، الجزء الثالث - القسم الثانى ص٤٦.

(٣٢٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣/١٣٠ – ١٣٤.

(٣٢٣) مصادر هذا التعريف البداية والنهاية لابن كثير ١٤/١٤٩، السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى ج٢، قسم ٢، ص٣٢٧، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبي لرزق سليم قسم ٢، ص ٢٢١، الدرر الكامنة ج ٤/١٤٤ – ١٤٨.

وكان ابن الأثير هذا قد وقع فى محنة أدت به إلى الوقوف فى مجلس القضاء أمام قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة وذلك فى سنة ٧٠٨هـ وذلك عندما تولى بيبرس الجاشنكير السلطنة، إثر تضييقه على سلطان البلاد الحقيقى الناصر محمد بن قلاوون إلى الحد الذى حدا بهذا الأخير إلى أن يَدَّعى أنه يتهيأ إلى الحج وبدلاً من أن يذهب إلى الحج اتجه إلى الكرك[٣٢٤] ليقيم به مضطراً بعيداً عن السلطنة لأنه وجد نفسه عاجزاً عن إدارة حكم البلاد تحت سيطرة الجاشنكير.

وكان أبوه الملك المنصور قلاوون قبل أن يموت قد بايع لابنه الأشرف خليل أخو الناصر فلما قتل الأشرف، نصب مماليك أبيه الناصر محمدًا سلطاناً على البلاد وهو فى التاسعة من عمره.

واغتصب مماليك أبيه منه السلطان مرتين، الأولى اغتصبها كتبغا المنصورى سنة ٦٩٤هـ، وأعيد الناصر سنة ٦٩٨هـ، ولكن السلطة الحقيقية كانت فى يد مملوكى أبيه سلار، وبيبرس، بحيث لم يكن للناصر معهما حكم البتة مما اضطره إلى التوجه إلى الكرك شبه المعزول فى رمضان سنة ٧٠٨هـ، ومن هنا أرسل مكتوباً إلى الأمراء بمصر يستعفيهم تحت تأثير الضغط الذى شل يديه من الحكم الفعلى.

وكان الذى حمل هذا المكتوب إلى أمراء المماليك بمصر هو كاتب سره علاء الدين بن الأثير، الذى وصل القاهرة عصر الجمعة ١٣شوال ٧٠٨هـ.

ويبدو أن بيبرس الجاشنكير انتهز هذه الفرصة فقبض على علاء الدين ابن الأثير وأرغمه على تغيير صيغة المكتوب إلى صيغة أخرى تنص على تنازل

---

(٣٢٤) الكرك قاعدة دولة المماليك وحصنها يشرف على طريق الحج والتجارة ومكانه فى الأردن، (راجع المنجد فى اللغة والاعلام ص ٥٨٦).

الناصر بن قلاوون عن السلطان طواعية اختيارا ، كما أرغمة على أن يشهد زورا أمام القضاة بذلك[٣٢٥].

ويروى لنا الدوادارى وقائع هذه القضية فيما يأتى:

"عقدوا مجلساً ، وأحضروا القضاة الأربعة ، وقرءوا الكتاب الذى زعموا أنه أنفذه مولانا السلطان من الكرك بنزوله عن الملك. فقال القاضى بدر الدين بن جماعة لا يمكن إثبات هذا الكتاب إلا بمن يشهد على لفظه أنه نزل عن الملك اختياراً لا اضطراراً. وكان بخط القاضى علاء الدين بن الأثير رحمه الله، وكان قد حضر من الكرك المحروس لما سَيَّر بيبرس إلى مولانا السلطان "علاء الدين مغلطاى يت أو على" يطلب منه جميع ما عنده من آلات الملك ويرعد ويبرق، فاتكل مولانا السلطان على الله عزّ وجلّ وسير جميع ما طلبه منه وثوقاً منه بالله واتكالاً عليه. فأمر بيبرس فى ذلك الوقت أن يحضروا علاء الدين بن الأثير.

فخرج إليه اليونسى وبشاش، فأحضروه، وهو يرعد شبه القصبة لما فعلوا به من النكال والتهديد ، ثم لاقاه تباكز فى سلالم الرواق، وكان الاجتماع بدار النيابة ، فقال له: اسمع والك[٣٢٦] ، والله متى لم تشهد على الملك الناصر أنه رسم لك أنك تكتب هذا الكتاب، وأنه لفظ بالنزول عن الملك أخرجت هذا السيف من جنبك. وحَيَّدَ من سيفه أربعة أصابع. هذا وهم يعسفوه فى الطلوع، سحب، ثم أجلسوه وأحدقوا به. وسأله القاضى بدر الدين بن جماعة

(٣٢٥) راجع البداية والنهاية لابن كثير ٤٧/١٤ – ٥١، الدرر الكامنة لابن حجر ١٤٤/٤ – ١٤٨، تاريخ ابن الوردى ٣٦٥/٢ – ٣٦٦.

(٣٢٦) الصحيح "ويلك" لكن هكذا فى النص الذي كتبه الدوادارى ويلاحظ عليه رداءة الأسلوب فى كافة الكتاب وإن كان كتابه ذا قيمة تاريخية بحكم أنه كان شاهد عيان لهذه الحوادث لأنه كان تركيا يعمل هو وأبوه فى بلاط الملك الناصر محمد بن قلاوون.

وقال: يا علاء الدين، هذا الكتاب خطك؟ قال نعم. قال: فأنت تشهد على الملك الناصر أنه نزل عن ملكه اختياراً منه وتنزها عنه؟ قال: لا - فنهس تباكز السيف فى جنبه. كاد يغمى عليه، فتأوه لذلك وقال: المراد من المملوك الصدق أو الكذب؟ فقال القاضى بدر الدين: معاذ الله، المقصود الصدق منك، وذلك اللايق ببيتك. قال: لم أسمع من الناصر لفظاً، فأشهد به، ومهما نزل من الله تعالى كان محمولاً على الرأس والعين، وبكى، قال: فدمعت عين القاضى بدر الدين، وأقاموه أيشم قيام ونزل. والزارع منهم من يشتمه ويبصق فى وجهه وينخسه فى جنبه وكادت روحه تروح"[٣٢٧].

ومن وقائع هذه القضية ندرك الآتى:

١ - أن ابن جماعة وقف موقف القاضى العادل رغم أن السلطان كان هو طرف الخصومة الحقيقى فى هذه القضية ومع ذلك فقد رفض ابن جماعة رفضاً قاطعاً أن يحكم بصحة الرسالة، أو حتى بصحة ما جاء بها حتى يثبت لديه بشهادة العدول أن ما ورد فيها قد تلفظ به السلطان الناصر حقيقة وبالاختيار لا بالجبر.

وهذا موقف يسجل لصالح نزاهة القضاء فى ذلك العصر بصفة عامة، وبشجاعة القاضي بدر الدين بصفة خاصة رغم جبروت السلطان بيبرس الجاشنكير وسلاطين المماليك عامة.

٢ - أن تشجيع ابن جماعة بصفته قاضياً للشاهد المجبر ابن الأثير أن يقول كلمة الحق، ولا يخشى سطوة السلطان، وأن له من المحكمة الحماية اللازمة، جعل ابن الأثير يتقوى بتقوية رئيس المحكمة له ويقول كلمة الصدق رغم السيف المغمود فى جنبه.

---

(٣٢٧) كنز الدرر وجامع الغرر للدوادارى ٩/١٨٤ - ١٨٥.

٣ - أن بدر الدين بن جماعة وهو قاضى القضاة كانت تفيض نفسه بالعاطفة الإنسانية، والشعور بالرحمة، والغضب لله خاصة فى ظروف التعسف التى تتخذها السلطات الحاكمة ضد أفراد لا حول لهم ولا قوة، حيث وجدنا عينه تدمع لما شاهده من أحوال علاء الدين بن الأثير، والظروف التى يتعرض لها من قبل هذه السلطات.

وبصفة عامة فإن هاتين القضيتين تمثلان أروع تمثيل مدى ما كانت عليه شخصية ابن جماعة فى القضاء ونزاهته فى أحكامه، بطريقة تدعو إلى الإعجاب مما يكشف لنا عن مدى ما كانت عليه هذه الشخصية من الوقار الجاد والحازم، والمغلف بالهدوء التام، الذى لا يثير حاكماً، ولا ينتقص من حق محكوم.

وعلى الرغم من أن ابن جماعة وقف موقفاً حازماً بجانب العدالة التى كانت موجهة فى الحقيقة لصالح السلطان الناصر المخلوع إلا أننا نجد أنّ السلطان الناصر عند عودته إلى الحكم سنة ٧٠٩هـ لم يحفظ لابن جماعة هذه النزاهة، ووجه إليه النقد مع المنتقدين بل وعزله من جميع مناصبه، ولكن يبدو أن الناصر سرعان ما تبين خطأه بالنسبة لابن جماعة فأعاد إليه مناصبه كلها مع التكريم والإعزاز حتى مع أولاده بعد موته تكريماً لذكرى أفضل وأكرم وأنزه قضاة عصره القاضى العلامة بدر الدين محمد بن جماعة.

وخلا هاتين القضيتين نجد قضيتين أخريين ذكرتهما مصادر الخطط والآثار وليس لهما من الأهمية ما للقضيتين السابقتين، وإنما هما متعلقتان بإثبات حالتى وقف لا غير، وسنسردهما كما وردتا فى مصادرهما تسجيلاً لهما باعتبارهما من وثائق هذا البحث فحسب.

قضية السبع قاعات:

عن هذه القضية نجتزىء من قول المقريزى مايلى:

"هذه الدار عرفت بالسبع قاعات وهى يتوصل إليها من جوار دار بيبرس المذكورة، ومن سويقة الصاحب، وقد صارت عدة مساكن جليلة، ومكانها من جملة اصطبل الجميزة، أنشأها الوزير الصاحب على الدين بن زنبور، ووقفها من جملة ما وقف، فلما قبض عليه الأمير صرغتمش حل أوقافه، ووعد بالسبع قاعات خوند قطلوبنك ابنة الأمير تنكز الحسامى نائب الشام أم السلطان الملك الصالح صالح بن الناصر محمد بن قلاوون، ولقنه الشريفان شرف الدين على بن حسين بن محمد بن نقيب الأشراف، وأبو العباس الصفراوى أن الناصر لما قبض على كريم الدين الكبير بعث إلى كريم الدين من شهد عليه أن جميع ما صار بيده من الأملاك وقفها وطلقها إنما هو من مال السلطان دون ماله، وشهد بذلك عند قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة فأثبت بهذه الشهادة أن أملاك كريم الدين جارية فى أملاك السلطان فأقر السلطان ما وقفه كريم الدين منها على حاله وسماه الناصر"[٣٢٨].

قضية بركة الحبش:

وعن هذه البركة تحدث كل من المقريزى والسيوطى، فقال المقريزى:

"وهى من أشهر برك مصر، وهى فى ظاهر مدينة الفسطاط من قبليها فيما بين الجبل والنيل كانت من الموات فاستنبطها قرة بن شريك العنبسى أمير مصر وأحياها وغرسها قصبا فعرفت باصطبل قرة وعرفت أيضاً باصطبل قامش، وتنقلت حتى صارت ببركة الحبش، ودخلت فى ملك أبى بكر المادانى فجعلها وقفاً ثم أرصدت لبنى حسن وبنى حسين ابنى على بن أبى طالب رضى الله عنهم فلم تزل جارية فى الأوقاف عليهم"[٣٢٩].

ثم ينقل كل من المقريزى والسيوطى عن ابن المتوج ما نصه:

---

(٣٢٨) الخطط للمقريزى ٣/٨٧.

(٣٢٩) نفس المصدر والجزء ص ٢٤٧.

"هذه البركة مشهورة فى مكانها، وقد اتصل ثبوت وقفها عند قاضى القضاة بدر الدين أبى عبد الله محمد بن سعد الله بن جماعة رحمة الله عليه على أنها وقف على الأشراف الأقارب، والطالبين نصفين بينهما بالسوية: النصف الأول على الأقارب والنصف الآخر على الطالبين".

ورأيت أسجال الشيخ قاضى القضاة عز الدين بن عبدالسلام رحمه اله على محضر شهد فيه بالإستفاضة، وهو حين ذلك قاضى مصر والوجه القبلى وأشهد عليه أنه ثبت عنده أن البركة المذكورة جميعها وقف على الأشراف الطالبين، وتاريخ أسجاله التاسع والعشرون من شهر ربيع الآخر سنة أربعين وستمائة، ثم نفذهم جميعاً فى تاريخ واحد قاضى القضاة وجيه الدين البهنسى، وهو قاضى القضاة حين ذاك، ثمو نفذهما قاضى القضاة بدر الدين أبو عبد الله محمد بن جماعة، وهو قاضى القضاة بالديار المصرية، واستقر النصف من ريع هذه البركة على الأشراف والأقارب مع قلتهم والنصف على الأشراف الطالبين مع كثرتهم، وتنازعوا غير مرة على أن تكون بينهم جميعا بالسوية فلم يقدروا على ذلك[٣٣٠].

هذا هو العلامة بدر الدين بن جماعة قدمناه من خلال وظيفته الجليلة كقاض للقضاة، لا يسعنا إلا أن نثبت فى ختامها شهادة المؤرخين والمعاصرن له بنزاهته وعدالته وتثبته فيما يلى وهو بها جدير؛ شهد له الذهبى فى العبر فقال: كان ذا دين وتعبد ونزاهة، وحمد فى القضاء؛"[٣٣١].

وكذا ابن العماد بقوله: "له أحكام محمودة[٣٣٢] وشهد له ابن حجر بحسن السيرة فقال: "نقل إلى قضاء الديار المصرية.... فأحسن السيرة"[٣٣٣].

(٣٣٠) الخطط للمقريزى٢٤٨/٢ – ٢٤٩، حسن المحاضرة للسيوطى ٢٢٩/٢.

(٣٣١) راجع قضاة دمشق ابن طولون ص ٨٢.

(٣٣٢) شذرات الذهب لبن العماد ١٠٦/٦.

(٣٣٣) الدرر الكامنة لابن حجر ٢٨١/٣.

وشهد له أبو الفدا بالتنزه عن أموال القضاء فقال:

"وتنزه عن معلوم القضاء لغناه مدة"[٣٣٤] وكذا شهد له اليافعى بمثل ما شهد به هؤلاء جميعًا....فقال:

"طلب لقضاء مصر بعد ابن دقيق العيد وامتدت أيامه، وحمدت أحكامه... وحسنت أعماله، وترك الأخذ على القضاء عفة وكان... يتثبت من قضائه... وله وقع فى القلوب وجلالة فى الصدور"[٣٣٥].

وقال عنه الذهبى أيضاً: "كان من خيار القضاة"[٣٣٦].

هذا ويبدو أن القاضى بدر الدين بن جماعة، لم يكن سعيداً بمنصب القضاء، رغم أن العديد من العلماء فى ذلك العصر كانوا يسعون إلى هذا المنصب سعياً ويبذلون فيه الأموال الطائلة، رشوة وتملقا ليحصلوا عليه[٣٣٧].

أما ابن جماعة فإن المنصب سعى إليه، ولم يسع هو إلى المنصب، بل يبدو أنه أجبر على قبوله، بينما كان غيره يغبطه عليه، ويحسده على نواله فنراه يبث همومه فى هذه الأبيات التى رواها عنه ابنه القاضى عز الدين بن جماعة.

وليت القضاء وما اخترته ... وكم من حريص سعى جهده
يروم القضاء ويعنى به ... وريك من ذاك قد صده
ويحسد من ناله ظالمًا ... حليف هموم غدت عنده"[٣٣٨]

---

(٣٣٤) المختصر فى أخبار البشر لأبي الفدا حت ١٠٨/٤.

(٣٣٥) مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعى ٢٨٧/٤.

(٣٣٦) دول الإسلام للذهبى ١٨٦/٢.

(٣٣٧) راجع عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى لرزق سليم المجلد الأول، القسم الثانى ص٧٣ — ٧٥.

(٣٣٨) منتخب نزهة الألباء فيما يروى عن الأدباء للقاضي عز الدين بن جماعة (مخطوط) بالمكتبة التيمورية المحفوظة بدار الكتب المصرية الورقة رقم ٥. لوحة (أ).

الفصل الثانى
وظيفة التدريس ومنزلتها
و المدارس التى تولى رئاستهاأو التدريس بها
تلاميذه، أولاده، وأحفاده

منزلة هذه الوظيفة:

على الرغم من أن القضاء كان الوظيفة السامية التى تقلدها ابن جماعة باعتبارها وظيفة رسمية فى الدولة، فإن مناصب التدريس التى تولاها فى مدارس القاهرة ودمشق كانت هى الوظائف الثابتة، والأكثر استقراراً، والأطول مدة فى حياة ابن جماعة.

فقد أفادتنا النصوص أنه كان يعزل أحياناً عن منصب القضاء، لكننا لا نجد نصاً واحداً يفيدنا أنه مكث سنة واحدة بعيداً عن التدريس.

وإذا كانت المصادر التاريخية قد حددت فترة توليته القضاء من عام ٦٨٧ هـ إلى عام ٧٢٧هـ، فإن مناصب التدريس قد بدأت قبل هذا التاريخ بكثير - ربما فى شبابه المبكر - وظل على هذه المناصب إلى أن وافاه أجله فى سنة ٧٣٣هـ وهى فترة تمتد إلى أكثر من ستين سنة.

على أن الذى يستلفت النظر هو أن مناصب التدريس التى تولاها بدر الدين بن جماعة كانت فى أعظم وأرقى مدارس عصره، كما كان يتولى رئاسة بعض هذه المدارس إلى جانب كونه مدرساً، أو شيخاً للحديث باعتباره كبير القضاة كما كان النظام السائد فى عصره آنذاك[٣٢٩].

وكان أكثر المدارس التى تولى العمل فيها شبه رسمية، يعين فيها من قبل الدولة، وكان فى أكثر الأحيان يعين فى عدة مدارس فى وقت واحد إلى

---

(٣٢٩) راجع ص ١٥٥ من هذا البحث.

جانب القضاء، ذلك أن سلاطين المماليك اهتموا اهتماماً كبيراً ببناء دور العلم، وتأسيس المدارس الكبرى، ووقف العقارات الدارة عليها، وتعيين أشهر العلماء على رئاستها والتدريس بها، وبذل النفقات الشهرية الجزيلة لهم وللدارسين، ولهذا عَدَّ القلقشندى وظيفة التدريس من الوظائف الرسمية فى المدارس الهامة، وأدرج المدرسين ضمن النوع الثانى من أرباب الوظائف الدينية وهم الذين ليس لهم مجلس بحضرة السلطان يقول القلقشندى:

"ومنها التداريس وهى على اختلاف أنواعها من الفقه والحديث، والتفسير، والنحو، واللغة، وغير ذلك، لا يُولى السلطان منها إلا فيما يعظم خطره، ويرتفع شأنه مما لا ناظر له خاص كالمدرسة الصلاحية بجوار تربة الإمام الشافعى -رضى الله عنه -، والزاوية الصلاحية بالجامع العتيق بالفسطاط، وهى المعروفة بالخشابية، والمدرسة المنصورية بالبيمارستان المنصورى... ودرس الجامع الطولونى ونحو ذلك"[٢٤٠].

هذا والجدير بالذكر أن وظيفة التدريس كان لها فضل اشتهار العلماء، وإظهار نبوغهم، وانتشار شأنهم، وارتقائهم بسببها إلى المناصب الأكثر رسمية فى الدولة، فإن منصب التدريس كمنصب القضاء أخ يشد من عضده ويكثر من عدده[٢٤١]، وكذلك كان الحال بالنسبة لابن جماعة، فمن التدريس عرف، ومنه ارتقى إلى سلم القضاء، وإن ظل منصب التدريس هو المنصب الدائم بالنسبة له، وجميع الذين ترجموا لحياة ابن جماعة أفادونا أنه كان أستاذاً بارعاً، ومربياً فاضلاً، يحسن القيام بأداء مهمة التدريس، ويصلح نفوس طلابه بالعلم النافع، والخلق الرضى، فى أسلوب تربوى رفيع لا يقل شأنها عن أفضل أساليب التربية والتعليم التى نشاهدها الآن فى عصرنا.

---

(٢٤٠) صبح الأعشى للقلقشندى ٩٣/٤.

(٢٤١) راجع ما نقله السيوطى عن رسالة ابن الأثير الجزرى فى حسن المحاضرة ١٠٧/٢.

يقول عنه العلامة ابن حجر:

"كانت فيه رياسة، وتودد، ولين جانب، وحسن أخلاق، ومحاضرة حسنة... حسن التربية من غير عنف ولا تخجيل"[٣٤٢].

ويصف ابن كثير أحد دروسه فى المدرسة الصالحية بالقاهرة فيقول:

"وانتقل إلى الصالحية، ودرس بها فى الجمعة الأخرى وكان درساً حافلاً"[٣٤٣].

ويقول الأستاذ محمود رزق سليم فى وصفه حول هذا الموضوع:

"وألقى دروسه فى المدرسة الصالحية وكان يجيد إلقاء هذه الدروس"[٣٤٤].

هذا ولابن جماعة كتاب فى التربية والتعليم وتنظيم المدارس سماه. "تذكرة السامع والمتكلم فى آداب العالم والمتعلم"[٣٤٥] يدل على مدى خبرته الواسعة، وباعه المديد فى أصول التربية والتعليم، وتأسيس دور العلم وتنظيم الدروس، وآداب الجلوس إليها، والآداب السلوكية بين التلميذ والأستاذ، وبينهم جميعاً، وبين المنشأة التعليمية التى يتواجدون فيها، للدرس والإقامة.

وقد برع ابن جماعة فى تدريس كافة علوم عصره كالحديث، والتفسير، والفقه والتاريخ، والفلك، وله فى كل فن منها مؤلف أو أكثر بحيث قال عنه ابن حجر:

"صنف كثيراً فى عدة فنون". قال الذهبى: "كان قوى المشاركة فى الحديث عارفاً بالفقه وأصوله"[٣٤٦].

---

(٣٤٢) الدرر الكامنة لابن حجر ٢٨٢/٣.

(٣٤٣) البداية والنهاية ٣٢٠/١٣.

(٣٤٤) عصر سلاطين المماليك الجزء الأول - القسم الثانى ص١٠٦.

(٣٤٥) طبعته دار معارف حيدر آباد الدكن بالهند سنة ١٣٥٣هـ وراجع ص٢٧٢. من هذا البحث.

(٣٤٦) الدرر الكامنة لابن حجر ٢٨٢/٣.

وقال عنه اليافعى:

"كان قوى المشاركة فى فنون الحديث، عارفاً بالتفسير، والفقه، وأصوله، ذكياً يقظاً، متفننا، مفسراً، خطيباً مفوها، .... وله تصانيف سائرة، وأربعون تساعية، درس، وأفتى، واشتغل.... وروى الكثير.... وَلى مناصب كباراً... وتفرد وصنف فى علوم الحديث والأحكام وغير ذلك"[(٣٤٧)].

وقال عنه الأستاذ محمود رزق سليم:

"وقد برع هذا القاضى فى الفقه والحديث، وتفسير القرآن الكريم، والكتابة الإنشائية، ونظم الشعر"[(٣٤٨)].

وهذا التقريظ يدل على أن ابن جماعة كان له منهج واضح فى التربية، وكانت له طريقته المتميزة فى التعليم، مما يجعله بحق واحداً ممن كان لهم أبلغ الأثر على سير الحركة التعليمية ونهضتها فى ذلك العصر، خاصة وقد علمنا أنه تولى التدريس فى أشهر وأكبر مدارس دمشق، والقاهرة وقد بلغ مجموع هذه المدارس التى تولى أعمال التدريس أو الإشراف على إدارتها خلال عمره الطويل ثلاث عشرة مدرسة، منها خمس مدارس بدمشق هى:

القيمرية، والعادلية، والناصرية الجوانية، والغزالية، والشامية البرانية.

وثمانى مدارس بالقاهرة وهى: الصالحية، والناصرية، وجامع ابن طولون، والكاملية، وزاوية الشافعى، والخشابية، وجامع الحاكم، والمشهد الحسينى.

وسنلقى ضوءاً كافياً على تاريخ كل مدرسة من هذه المدارس لنعرف موقعها، وأهميتها وأثرها على الحركة العلمية والفكرية فى ذلك العصر، ونحدد التاريخ الذى تولى فيه ابن جماعة التدريس بكل منها فيما يلى:

---

(٣٤٧) مرآة الجنان لليافعى٢/٢٨٧، الوافى بالوفيات للصفدى٢/١٨ – ١٩.

(٣٤٨) عصر سلاطين المماليك لرزق سليم ج١ قسم ٢ ص ١٠٥.

(أ) مدارس دمشق

١ - المدرسة القيمرية[٣٤٩]:

مكانها بدمشق بسوق الحريميين عند مئذنة فيروز[٣٥٠]، وتنسب إلى الأمير ناصر الدين أبو المعالى حسين بن عبدالعزيز القيمرى مقدم الجيوش الذى تُوُفىِّ مرابطاً سنة ٥٦٦هـ، وهو الذى مَلَّك دمشق للناصر صاحب حلب بعد مقتل توران شاه بن الصالح أيوب، وكان من أعظم الناس وجاهة وإقطاعاً.

وقد وقف هذه المدرسة على الشهرزورى المتوفى سنة ٦٧٥هـ، وعمل على بابها الساعات التى لم يسبق إلى مثلها، ولا عمل على شكلها، يقال إنه أنفق عليها أربعين ألف درهم.

وعقب وفاة صلاح الدين الشهرزورى ابن الموقف عليه المدرسة سنة ٦٨١هـ تولى تدريسها مباشرة الشيخ بدر الدين بن جماعة إلى أن توجه إلى قضاء القدس سنة ٦٨٧هـ. ثم عاد إلى التدريس بها سنة ٦٩٣هـ، إلى أن طلب لقضاء مصر سنة ٧٢٠هـ.

٢ - المدرسة العادلية الكبرى:

قال النعيمى عنها: "داخل دمشق شمالى الجامع بغرب وشرقى الخانقاه الشهابية وقبلى الجاروخية بغرب وتجاه باب الظاهرية يفصل بينهما الطريق. أول من أنشأها نور الدين محمد بن زنكى... سنة ٥٦٨هـ... إلى أن أزال الملك العادل ذلك البناء، وعمل مدرسة عظيمة فسميت العادلية[٣٥١].

---

(٣٤٩) مصدرنا عن هذه المدرسة هو الدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى ٤٤١/١.

(٣٥٠) حى القيمرية بدمشق اليوم.

(٣٥١) الدارس فى تاريخ المدارس للنعيمى ٤٥٩/١.

وقد درَّس ابن جماعة فى هذه المدرسة فى العشرين من ذى الحجة سنة ٦٩٣هـ. حسب رواية ابن كثير[٣٥٢]. ولكنى أجزم بأن ابن جماعة كان أستاذا لهذه المدرسة قبل ثلاث وعشرين سنة من رواية ابن كثير حيث ألف ابن جماعة كتابه المعروف بشرح كافية ابن الحاجب فى النحو فى هذه المدرسة عشية الخميس ١٧ من ذى القعدة سنة ٦٧٠هـ. كما أفاده هو فى كتابه المشار إليه[٣٥٣].

وقد ولد للشيخ بدر الدين ابنه القاضى عز الدين بن جماعة بمنزله بهذه المدرسة سنة ٦٩٦هـ[٣٥٤].

وكان من مدرسى هذه المدرسة الشيخ كمال الدين التفليسى المتوفى سنة ٦٥٢هـ، والشيخ بهاء الدين السبكى المتوفى سنة ٧٥٣هـ[٣٥٥].

٣ - المدرسة الشامية البرانية:

مكانها بالعقيبة بمحلة العونية بدمشق، أنشأتها - هى والشامية الجوانية - ست الشام ابنة نجم الدين أيوب أخت الملك الناصر صلاح الدين المعروفة بأم الصالح، الخاتون الجليلة، التى كان لها من الملوك المحارم خمسة وثلاثون ملكاً.

والشامية البرانية هذه من أكبر المدارس، وأعظمها، وأكثرها فقهاء وأكثرها أوقافاً.

وكان أول من درس بهذه المدرسة تقى الدين بن الصلاح صاحب المقدمة المشهورة فى الحديث، والتى شرحها بدر الدين بن جماعة فى كتابه "المنهل

---

(٣٥٢) البداية والنهاية لابن كثير ٣٣٦/١٣، والدارس للنعيمى ٣٦٣/١ – ٣٦٤.

(٣٥٣) راجع ص ٢٦٥ من هذا البحث.

(٣٥٤) طبقات السبكى ١٢٣/٦.

(٣٥٥) الدارس للنعيمى ٣٦٣/١ – ٣٦٦.

الروى فى علوم الحديث النبوى" وكان من أساتذتها أيضاً كمال الدين ابن الشريينى وزين الدين بن المرحل[٣٥٦].

وقد درس ابن جماعة بهذه المدرسة فى ذى الحجة سنة ٦٩٣هـ[٣٥٧].

٤ - المدرسة الناصرية الجوانية:

داخل باب الفراديس شمالى الجامع الأموى والرواحية، وشرق المدرسة القيمرية الصغرى والمقدمية الجوانية، وهى من إنشاء الملك الناصر يوسف ابن صلاح الدين يوسف بن أيوب.. وكانت هذه المدرسة تعرف بدار الزكى المعظم، وفرغ من عمارتها سنة ثلاث وخمسين وستمائة[٣٥٨].

وهى من جملة المدارس التى درس بها ابن جماعة فى العشرين من ذى الحجة سنة ٦٩٣هـ عندما نقل من مصر إلى قضاء الشام بعد وفاة الوزير ابن السلعوس وهى هذه المدرسة، والعادلية الكبرى، والشامية البرانية، ثم عزل سنة ٦٩٦هـ بزين الدين الفارقى، ولكنه أعيد فى منتصف ربيع الآخر سنة ٧٠١هـ عوضاً عن كمال الدين بن الشريشى.

وكان من مدرسى هذه المدرسة شيخ الإسلام قاضى القضاة. تقى الدين[٣٥٩] السبكى، وكمال الدين التفليسى وفى هذه المدرسة ألف النعيمى كتابه الدارس فى تاريخ المدارس[٣٦٠].

٥ - المدرسة الغزالية:

وهذه المدرسة هى إحدى الزوايا بالجامع الأموى، وكانت فى الزاوية الشمالية الغربية شمالى مشهد عثمان.

---

(٣٥٦) البداية والنهاية لابن كثير١٤/١٧.

(٣٥٧) الدارس للنعيمى ١/ ٢٧٣ – ٢٧٧.

(٣٥٨)المصدر السابق ١/ ٣٥٩.

(٣٥٩) الدارس للنعيمى ٢٦٣/١ – ٢٦٦.

(٣٦٠) المصدر السابق والجزء ص ٣٦١.

وتنسب هذه الزاوية إلى الغزالى رحمه الله، وسبب نسبتها إليه أن الغزالى لما دخل دمشق قصد الخانقاه السمساطية ليدخل إليها، فمنعه الصوفية لأنهم كانوا لا يعرفونه، فلما علم مكانه، وعرفت منزلته حضر الصوفية بأسرهم إليه واعتذروا له.

ثم نسبت هذه المدرسة إلى الشيخ نصر المقدسى، كما كان من مدرسيها الشيخ عز الدين بن عبدالسلام، كما تولى التدريس بها العلامة بدر الدين ابن جماعة سنة ٦٨٥هـ، ثم تركها سنة ٦٧٨هـ خلفا لأبى المعالى محمد بن أبى الفضل القضاعى الحموى[٣٦١].

وكان من الأوقاف التى جعلت لهذه المدرسة قرية حزم باللوى من حوران.

(ب) مدارس القاهرة

٦ - المدرسة الصالحية:

كانت جزءاً من القصر الفاطمى الكبير بخط بين القصرين بالقاهرة، فلما جاء الملك الصالح نجم الدين بن أيوب بن الكامل محمد ابتدأ بهدم موضع هذه المدارس فى قطعة من القصر فى ١٣ من ذى الحجة سنة ٦٣٩هـ، وتمت عمارتها سنة ٦٤١هـ، ورتب فيها الصالح قاعات منها لتدريس مذهب من المذاهب الأربعة فعرفت باسم "مدارس" الصالحية[٣٦٢]، يقول المقريزى عن بناء الملك الصالح لهذه المدرسة، وأحوالها:

"وهو أول من عمل بديار مصر دروساً أربعة فى مكان... ثم إن الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان بن الظاهر بيبرس وقف الصاغة التى تجاهها وأماكن بالقاهرة، وبمدينة المحلة الغربية وقطع أراضى جزائر

---

(٣٦١) الدارس للنعيمى ٤١٤/١ – ٤٢٣.

(٣٦٢) عن هذه المدرسة راجع الخطط للمقريزى٢٠٩/٤، وسن المحاضرة للسيوطى ١٥٩/٢، تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى لغنيمة ص٩١.

بالأعمال الجيزية، والأضفيجية، على مدرسين أربعة عند كل مدرس معيدان، وعدة طلبة وما يحتاج إليه من أئمة ومؤذنين وقومة وغير ذلك، وثبت وقف ذلك على يد قاضى القضاة تقى الدين محمد بن رزين الشافعى"[٣٦٣].

وقد تولى ابن جماعة تدريس هذه المدرسة مرتين:

الأولى فى ٢١من رمضان سنة ٦٩٠هـ عندما عين على قضاء مصر بإشارة الوزير ابن السلعوس كما سبق أن ذكرنا، وفى ذلك يقول ابن كثير فى حوادث هذه السنة:

"وفى أوائل رمضان طلب القاضى بدر الدين بن جماعة من القدس الشريف، وهو حاكم به، وخطيب فيه على البريد إلى الديار المصرية فدخلها فى رابع عشرة.. فصرح الوزير بعزل تقى الدين بن بنت الأعز وتولية ابن جماعة بالديار المصرية قضاء القضاة... ومع القضاء خطابة الجامع الأزهرى، وتدريس الصالحية.. وذهب فخطب بالجامع الأزهر، وانتقل إلى الصالحية، ودرس بها فى الجمعة الأخرى، وكان درساً حافلاً"[٣٦٤].

واستمر ابن جماعة على تدريس هذه المدرسة إلى ذى الحجة سنة ٣٩٦هـ حيث نقل إلى قضاء دمشق[٣٦٥].

والمرة الثانية فى ١١ ربيع الأول سنة ٧١١هـ، واستمر فيها إلى رجب سنة ٧٢٧هـ حيث طلب من الملك الناصر بن قلاوون إعفاءه بسبب ضرر عينيه، فأُعْفِىَ وحل محله جلال الدين القزوينى[٣٦٦].

---

(٣٦٣) الخطط للمقريزى٤/٢٠٩ – ٢١٠.

(٣٦٤) البداية والنهاية لابن كثير١٢/٣٢٢.

(٣٦٥) المصدر السابق ١٢/٣٣٦.

(٣٦٦) المصدر السابق ١٤/٦١، ١٢٨.

هذا وقد اتخذ ابن جماعة من قاعة هذه المدرسة مقرًا لجلسات الحكم التى كان يعقدها وهو قاضى القضاة فى تلك الفترة(٣٦٧)، وكان أول من اتخذ قاعة هذه المدرسة لعقد الجلسات القضائية والفصل فى الخصومات هو علاء الدين أيدكن البندقدارى نائب السلطان عز الدين أيبك التركمانى، حيث واظب علاء الدين هذا على الجلوس بالمدارس الصالحية مع نواب دار العدل لكشف المظالم علي ما يذكره المقريزى(٣٦٨).

٧ - **المدرسة الناصرية:**

كان فى مصر فى عهد ابن جماعة ثلاث مدارس كل منها يحمل اسم المدرسة الناصرية. أما المدرسة الأولى فكانت بجوار الجامع العتيق "جامع عمرو بن العاص" وقد ذكر المقريزى نقلا عن الكندى أنها خط قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى، فلما تولى الناصر صلاح الدين الأيوبى وزارة مصر للخليفة الفاطمى العاضد هدمها، وأنشأها مدرسة برسم الفقهاء الشافعية(٣٦٩).

وأما الناصرية الثانية فبانيها هو الناصر محمد بن قلاوون، ذكر السيوطى أنه فرغ من بنائها سنة ٧٠٣هـ، ورتب بها درساً للمذاهب الأربعة، ونقل عن المقريزى قوله:

"أدركت هذه المدرسة وهى محترمة إلى الغاية يجلس بدهليزها عدة من الطواشية ولا يمكن غريب أن يصعد إليها"(٣٧٠).

أما الناصرية الثالثة فمكانها بقرافة مصر بجوار قبة الإمام محمد بن إدريس الشافعى - رضى الله عنه -، وقد أنشأها حسب ذكر المقريزى

---

(٣٦٧) راجع السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى ج٢ القسم الأول٢٨٣، الدرر الكامنة لابن حجر ج ٢: ٢٠ ترجمة سليمان بن عمر الزرعى.

(٣٦٨) راجع الخطط للمقريزى ٢٠٩/٤ – ٢١٠.

(٣٦٩) الخطط للمقريزى١٩٣/٤، تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى لغنيم ص٨٤ – ٨٥.

(٣٧٠) حسن المحاضرة للسيوطى١٦٠/٢.

"السلطان صلاح الدين الأيوبى أيضاً، ورتب بها مدرساً يدرس الفقه على مذهب الشافعى، وجعل له فى كل شهر من المعلوم عن التدريس أربعين ديناراً معاملة صرف، كل دينار ثلاثة عشر درهماً وثلث درهم، وعن معلوم النظر فى أوقاف المدرسة عشرة دنانير، ورتب له من الخبز فى كل يوم ستين رطلاً بالمصرى، وروايتين من ماء النيل، وجعل فيها معيدين، وعدة من الطلبة، ووقف عليها حماماً بجوارها، وفرنا تجاهها، وحوانيت بظاهرها، والجزيرة التى يقال لها جزيرة الفيل ببحر النيل خارج القاهرة، وولى تدريسها جماعة من الأكابر والأعيان"[٢٧١].

هذا وقد حقق الأستاذ محمود رزق سليم أن المدرسة الناصرية التى كان يدرس بها القاضى بدر الدين بن جماعة من هذه المدارس الثلاث هى هذه الناصرية التى كانت بجوار قبة الإمام الشافعى.

يقول الأستاذ سليم فى عرضه لوظائف ابن جماعة التى تقلدها فى ١٩ صفر سنة ٦٩٣هـ:

«وأسند إلى بدر الدين بن جماعة التدريس فى المدرسة الناصرية بجوار قبة الشافعى ثم نقل بعد قليل إلى قضاء الشافعية بدمشق[٢٧٢].

ورغم أن مدة تدريس ابن جماعة فى الناصرية فى هذه الفترة كانت قصيرة، إلا أن الدولة أعادت تعيينه فيها مرة ثانية سنة ٧١١هـ.

يقول ابن كثير فى حوادث شهر ربيع الأول من هذه السنة:

"وفيه[٢٧٣] وَلِىَ ابن جماعة تدريس الناصرية بالقاهرة.. وأعيد بدر الدين ابن جماعة إلى الحكم بديار مصر فى حادى عشر ربيع الآخر مع تدريس

---

(٢٧١) الخطط للمقريزى ٤/ ٢٥١.

(٢٧٢) عصر سلاطين المماليك لرزق سليم ج١ - قسم ٢، ص ١٠٦.

(٢٧٣) أى ربيع الأول كما يفهم من سابقة البداية والنهاية لابن كثير ١٤/ ٦١.

الحديث بالكاملية، وجامع طولون، والصالحية، والناصرية، وجعل له إقبال كثير من السلطان"[٣٧٤].

وقد استمر ابن جماعة على التدريس بها إلى أن عزل فيما عزل عنه سنة ٧٢٧هـ بسبب شيخوخته[٣٧٥].

وقد تولى التدريس بهذه المدرسة من شيوخ ابن جماعة قاضي القضاة تقي الدين محمد بن رزين الحموى سنة ٦٧٨هـ على ما ذكره المقريزى[٣٧٦].

٨ - المدرسة الكاملية:

قال عنها العلامة جلال الدين السيوطى:

"هى دار الحديث، وليس بمصر دار حديث غيرها، وغير دار الحديث التى بالشيخونة"[٣٧٧].

وقد سميت باسم السلطان الملك الكامل محمد بن العادل أيوب الذى أنشأها بخط بين القصرين من القاهرة فى سنة ٦٢٢هـ، على ما ذكره المقريزى الذى أردف يقول:

"وهى ثانى دار عملت للحديث، فإن أول من بنى دار حديث على وجه الأرض الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق، ثم بنى الكامل هذه الدار، ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوى ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية، ووقف عليها الربع الذى بجوارها على باب الخرنفش ويمتد إلى الدرب المقابل للجامع الأقمر... وكان موضع المدرسة سوقاً للرقيق، ودارا تعرف بابن كستول"[٣٧٨].

---

(٣٧٤) البداية والنهاية لابن كثير ٦١/١٤.

(٣٧٥) البداية والنهاية لابن كثير ج١٤.

(٣٧٦) الخطط للمقريزى ٢٥١/٤.

(٣٧٧) حسن المحاضرة للسيوطى١٥٩/٢.

(٣٧٨) الخطط للمقريزى ٢١١/٤.

وولى تدريسها من شيوخ ابن جماعة ابن القسطلانى، والنجيب عبداللطيف الحرانى(٣٧٩)، والرشيد العطار(٣٨٠).

ولم يزل يتولاها كبار الحفاظ والمحدثين(٣٨١)، ومنهم العلامة بدر الدين ابن جماعة الذى تولى التدريس بها من ١١ ربيع الآخر سنة ٧١١هـ إلى رجب سنة ٧٢٧هـ(٣٨٢).

وقد أفادتنا المصادر أن ابن جماعة كان قد وفد من الشام على هذه المدرسة طالب علم فيها لاسيما وقد قرأنا فى الأسطر السابقة أن ثلاثة من شيوخه كانوا مدرسين فيها، وصاحب هذه الإفادة هو العلامة ابن حجر إذ يقول فى معرض حديثه عن ابن جماعة ما نصه:

"ومن ورعه أنه لما وَلِىَ تدريس الكاملية رأى فى كتاب الوقف فى شرط الطلبة المبيت فجمع ما كان أخذه وهو طالب وعاده للوقف لأنه كان لا يبيت"(٣٨٣).

٩ - جامع ابن طولون:

هذا الجامع بناه الأمير أبو العباس أحمد بن طولون سنة ٢٦٣هـ فى جبل يشكر بالقاهرة، وهو مكان مشهور بإجابة الدعاء، وقيل إن موسى عليه السلام ناجى ربه عليه بكلمات، كذا ذكر المقريزى فى خططه، وذكر أنه خرب أكثره حتى كانت المغاربة تنزل فيه بأباعرها عندما تمر بمصر أيام الحج، ثم عمره الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصورى سنة ٦٩٦هـ، ورتب فيه دروساً للفقه على المذاهب الأربعة، والتفسير، والحديث، والطب، وعمل

---

(٣٧٩) حسن المحاضرة للسيوطى ١٥٩/٢.

(٣٨٠) الخطط للمقريزى ٢١١/٤.

(٣٨١) تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى لغنيمة ص ٨٩ – ٩٠.

(٣٨٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٦/١٤، ١٢٨.

(٣٨٣) الدرر الكامنة لابن حجر ٢٨٣/٣، وراجع ص ٨٨ من هذا البحث.

بجواره مكتباً لإقراء أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل، كما ذكر المقريزى أن أول مَنْ وَلىَ نظره الأمير علم الدين سنجر الجاولى دوادار السلطان لاجين، ثم وَلىَ نظره بعده قاضى القضاة بدر الدين ابن جماعة[٣٨٤].

"وقد تولى ابن جماعة التدريس بهذا الجامع فى ١١ ربيع الآخر سنة ٧١١هـ ضمن وظائف التدريس التى تولاها فى هذه السنة واستعفى منها ومن غيرها فى سنة ٧٢٧هـ على ما ذكرناه آنفاً[٣٨٥].

١٠ - جامع الحاكم:

ذكر المقريزى أن أمير المؤمنين العزيز بالله الفاطمى أول من أسسه سنة ٣٨٠هـ خارج باب الفتوح أحد أبواب القاهرة، وكان هو أول من خطب فيه، ويعرف أيضاً بالجامع الأنور[٣٨٦].

وقد هدمته زلزلة سنة ٧٠٢هـ فجدده بيبرس الجاشنكير ورتب فيه دروساً على المذاهب الأربعة، ودرس حديث، ودرس نحو، ودرس قراءات[٣٨٧].

يقول المقريزى:

"وجعل لكل درس مدرساً، وعدة كثيرة من الطلبة، فرتب فى تدريس الشافعية قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعى، وفى تدريس الحنفية قاضى القضاة شمس الدين أحمد السروجى الحنفى، وفى تدريس المالكية قاضى القضاة زين الدين على بن مخلوف المالكى، وفى تدريس الحنابلة قاضى القضاة شرف الدين الجوانى، وفى تدريس الحديث الشيخ سعد الدين مسعود الحارثى، وفى تدريس النحو الشيخ أثير الدين أبا حيان،

---

(٣٨٤) راجع الخطط المقريزى ٤/ ٣٦ – ٤١ .حسن المحاضرة للسيوطى ٢/ ١٥٢ – ١٥٤.

(٣٨٥) راجع البداية والنهاية لابن كثير١٤/ ١٦، ١٢٨، الدرر الكامنة ٢٨٢/٣.

(٣٨٦) الخطط للمقريزى ٥٥/٤.

(٣٨٧) حسن المحاضرة للسيوطى ١٥٥/٢.

وفى درس القراءات السبع الشيخ نور الدين الشطنوفى، وفى التصدير لإفادة العلوم علاء الدين بن إسماعيل القونوى، وفى مشيخة الميعاد المجد عيسى ابن الخشاب، وعمل فيه خزانة كتب جليلة، وجعل فيه عدة متصدرين لتلقين القرآن الكريم، وعدة قراء يتناوبون قراءة القرآن، ومعلما يقرئ أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل"[٣٨٨].

١١ - زاوية الشافعى:

وهى بالجامع العتيق ونسبت إلى الإمام الشافعى - رضى الله عنه - لأنه كان يدرس بها فعرفت به؛ ودرس فيها أعيان فقهاء الشافعية[٣٨٩]، وهذه الزاوية درس بها ابن جماعة سنة ٧٢١هـ عوضاً عن شهاب الدين الأنصارى على ما ذكره ابن كثير الذى قال فى حوادث هذه السنة:

"ودرس ابن جماعة بزاوية الشافعى يوم الأربعاء ثامن عشر شوال عوضاً عن شهاب الدين أحمد بن محمد الأنصارى لسوء تصرفه، وخلع على ابن جماعة، وحضر عنده من الأعيان والعامة ما نشأ به جمعية الجمعة، وأشعلت له شموع كثيرة"[٣٩٠].

على أنه يبدو من النصوص التى ساقها لنا ابن حجر العسقلانى، وجمال الدين الإسنوى، وابن العماد الحنبلى أن ابن جماعة كان على تدريس هذه الزاوية قبل سنة ٧٢١هـ، وأنها أضيفت إليه من وظائف القضاء والتدريس عقب عودة السلطان الناصر سنة ٧١١هـ أو سنة ٧١٠هـ على رأى ابن حجر الذى يقول:

---

(٣٨٨) الخطط للمقريزى ٤ /٥٧.

(٣٨٩) المصدر السابق ٢/ ٢٠.

(٣٩٠)البداية والنهاية لابن كثير ١٤/ ١٠٠.



"ثم أعيد ابن جماعة فى صفر سنة عشرة[٣٩١]، ودرس بالصالحية، والناصرية، وجامع ابن طولون، والكاملية، والزاوية المنسوبة للشافعى"[٣٩٢].

كما أنها بقيت معه إلى حين وفاته سنة ٧٣٣هـ[٣٩٣].

١٢ - المشهد الحسينى:

وهو المشهد الموجود داخل مسجده المعروف الآن بحي الأزهر بالقاهرة أمام الجامع الأزهر.

ولما وَلىَ ملك مصر السلطان صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٧هـ أنشأ مدرسة بهذا المشهد غلب عليها اسم المشهد[٣٩٤]، وعين بها مدرسين كان الواحد منهم يجلس للتدريس عند المحراب الذين خلفه الضريح.

وابن جبير قرر أنه رأى المشهد والمدرسة فى بداية الدولة الأيوبية أثناء رحلته من الأندلس قاصد الحج سنة ٥٧٨هـ[٣٩٥].

والأستاذ حسن عبد الوهاب يعتبر أن المسجد الموجود حالياً حل محل تلك المدرسة لوجود الضريح خلف جدار المحراب[٣٩٦].

وقد ذكر الأستاذ محمود رزق سليم أن الشيخ بدر الدين بن جماعة درس بالمشهد الحسينى هذا فى ١٩صفر سنة ٦٩٣هـ أى فى نفس الوقت الذى عين فيه للتدريس بالمدرسة الناصرية[٣٩٧]؛ ولم أر هذا القول لغيره.

---

(٣٩١) أى وسبعمائة كما يفهم من سياق ما قبله.

(٣٩٢) الدرر الكامنة لابن حجر ٢٨٢/٣.

(٣٩٣) راجع طبقات الأسنوى ٣٨٦/١، شذرات الذهب لابن العماد ١٠٦/٦، المنهل الصافى لابن تغرى بردى ج٣: ورقة ٥٥ (مخطوط).

(٣٩٤) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى ٥٥/٦.

(٣٩٥) رحلة ابن جبير ص ١٤.

(٣٩٦) تاريخ المساجد الأثرية لحسن عبدالوهاب ٨٤/١.

(٣٩٧) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى ج١ قسم ٢ ص ١٠٦.

١٣ - المدرسة الخشابية:

وكان مكان هذه المدرسة -على مايبدو - فى الجامع العتيق "جامع عمرو بن العاص" بمصر إذ أن القلقشندى يورد لنا ما يفيد أنها هى نفسها الزاوية الصلاحية الموجودة بهذا الجامع.

يقول القلقشندى:

"الزاوية الصلاحية بالجامع العتيق بالفسطاط وهى المعروفة بالخشابية"[٣٩٨].

ومن هذا يتبين لنا مدى ما كان لابن جماعة من أثر فكرى وعلمى وتربوى على مدارس عصره، وما زخرت به هذه المدارس من طلاب العلم الذين صاروا فيما بعد علماء أجلاء، ساروا على درب أستاذهم، وحملوا لواءه على طريقه ومسلكه.

وإذا كنا نفتخر مثلا بأن العلامة أبا عمرو بن الصلاح كان مدرساً على رأس دار الحديث الأشرفية بدمشق[٣٩٩]، أو أن العلامة الحافظ شمس الدين الذهبى كان على رأس دار الحديث التنكزية بدمشق[٤٠٠]، فكيف بنا لا نفتخر مرات ونحن نعلم أن العلامة بدر الدين بن جماعة كان على رأس ثلاث عشرة مدرسة من أكبر مدارس دمشق والقاهرة.

خصوصاً وقد رأينا من خلال تراجم هذه المدارس مدى أهميتها على سير الحركة التعليمية والتثقيفية، ومدى الدور الهام الذى كانت تؤديه هذه المدارس الجامعة، إلى الحد الذى يمكن معه القول بأنها كانت بمثابة معاهد

---

(٣٩٨) صبح الأعشى ٣٩/٤.

(٣٩٩) الدارس فى تاريخ المدارس ١٩/١.

(٤٠٠) المصدر السابق ٧٨/١ — ٧٩.

لتخريج العلماء، وحصوناً لحفظ مسيرة التاريخ الإسلامى ثقافياً، وفكرياً وحضارياً.

وقد حفظ لهذه المدارس الجامعية دورها المستمر، ذلك النظام الإستقلالى لها والمستمد من الأوقاف الهائلة التى كان حكام ذلك العصر يجزلونها لها، وفى ذلك يقول العلامة ابن خلدون مشيراً إلى عصر المماليك ومعاهده العلمية:

"ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمرانها مستجر، وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت، ومن جملتها تعليم العلم، وأكد ذلك فيها وحفظه، ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين فى دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا.

وذلك أن أمراء الترك فى دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يخلفونه من ذريتهم، لما له عليهم من الرق أو الولاء، ولما يخش من معاطب الملك ونكباته، فاستكثروا من بناء المدارس، والزوايا، والربط، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شركاً لولدهم بنظر أو نصيب منها، مع ما فيهم غالبا من الجنوح إلى الخير والتماس الأجور فى المقاصد والأفعال، فكثرت الأوقاف لذلك، وعظمت الغلات والفوائد، وكثر طلاب العلم ومعلموه بكثرة جرايتهم منها وارتحل إليها الناس فى طلب العلم من العراق والغرب، ونفقت بها أسواق العلوم، وزخرت بحارها"[٤٠١].

تلاميذه:

ولم يقتصر الأثر العلمى والفكرى لابن جماعة على مجرد التدريس فى هذه المدارس الجامعية وإنما برز هذا الأثر بصورة فعلية واضحة فى حشد هائل

---

(٤٠١) مقدمة ابن خلدون ص٤١١.

من العلماء الذين تخرجوا على يديه فى هذه المدارس المختلفة، أو بعبارة أدق فى حشد هائل من التلاميذ الذين صاروا على يد ابن جماعة علماء أفذاذ، نعرفهم بأسمائهم اللامعة عبر تلك الفترة من تاريخنا الإسلامى.

وسنورد نماذج من هؤلاء التلاميذ الأعلام ليتحدد فى ذهن القارىء مدى الأثر العلمى المحمود الذى تركه لنا العلامة بدر الدين بن جماعة فى أشخاص هؤلاء الأجلاء وما أكثرهم عددا، فالأستاذ المعلم الذى مكث أكثر من ستين عاماً فى محراب العلم والتربية الخلقية والفكرية لابد أن يتخرج على يديه أجيال يمكن ايراد أسماءهم - فحسب - فى مجلد على حدة، غير أننى سأكتفى فيما يلى بذكر المشهور منهم.

١ - الإمام أثير الدين أبو حيان: محمد بن يوسف بن على الأندلسى(٤٠٢):

"شيخ النحاة العلم الفرد، والبحر الذى لم يعرف الجزر بل المد، سيبويه الزمان، والمبرد إذا حمى الوطيس بتشاجر الأقران"(٤٠٣).

صاحب البحر المحيط فى التفسير، وإتحاف الأريب بما فى القرآن من الغريب، والتذييل والتكميل فى شرح التسهيل، وتجريد أحكام سيبويه، وزهو الملك فى نحو الترك، ومنطق الخرس بلسان الفرس، ونور الغبش فى لسان الحبش، والمحبور فى لسان اليحمور(٤٠٤).

وقد تُوُفىٌ أبو حيان يوم السبت ٢٨ من صفر سنة ٧٤٥هـ.

٢ - العلامة تاج الدين السبكى: عبدالوهاب بن تقى الدين السبكى المتوفى سنة ٧٧١هـ:

---

(٤٠٢) راجع ص ٥٢ من هذال البحث.

(٤٠٣) طبقات السبكى ٣٢/٦.

(٤٠٤) راجع الدرر الكامنة لابن حجر ٢٠٤/٤، وما بعدها، شذرات الذهب لابن العماد ١٤٧/٦، الدرر الكامنة ٣٢/٦، كشف الظنون لحاجى خليفة ٤٠٥/١ - ٤٠٦.

وهو أحد الأعلام البارزة فى تاريخ الحركة الفكرية فى الإسلام، وله مؤلفات قيمة أشهرها كتاب طبقات الشافعية الكبرى، وقد سمع على ابن جماعة الكثير كما يقول بنفسه ذلك[٤٠٥].

ولتاج الدين السبكى هذا سلسلة رواية عن العلامة ابن جماعة سنتكلم عنها فى موضعها من هذا البحث[٤٠٦].

٣ - المؤرخ الكبير صلاح الدين الصفدى: خليل بن أيبك:

من مشاهير مؤرخى العصر الفاطمى، أجازه ابن جماعة سنة ٨٢٧هـ، وحدث عنه بالشاطبية[٤٠٧].

وأشهر مؤلفاته: الوافى بالوفيات، نكت الهميان.

٤ - الإمام المحدث نور الدين على بن جابر الهاشمى المتوفى سنة ٧٢٥هـ:

شيخ الحديث بالمدرسة المنصورية[٤٠٨]، قال عنه ابن العماد الحنبلى: "له مشاركات وشهرة"[٤٠٩].

ومجالس درسه على ابن جماعة مثبتة في مخطوط غرر التبيان فيمن لم يسم فى القرآن لابن جماعة[٤١٠].

٥ - الفقيه الكبير قطب الدين السنباطى: محمد بن عبدالصمد بن عبدالقادر المتوفى سنة ٧٢٢هـ[٤١١]:

---

(٤٠٥) راجع قوله فى ترجمته لابن جماعة، طبقات السبكى ٢٣٠/٥.

(٤٠٦) راجع ص ١٣٩ من هذا البحث.

(٤٠٧) الوافى بالوفيات للصفدى ١٨/٢ – ١٩.

(٤٠٨) أنشأها الملك المنصور قلاوون، ورتب فيها دروس الفقه على المذاهب الأربعة، ودرس تفسير، ودرس حدث، ودرس طب، راجع حسن المحاضرة ١٦٠/٢.

(٤٠٩) شذرات الذهب لابن العماد ٦٨/٦.

(٤١٠) راجع المخطوط اللوحة رقم ١٠٦.

(٤١١) راجع فى ترجمته طبقات السبكى ٢٤١/٥، الدرر الكامنة لابن حجر ١٦/٤، شذرات الذهب لابن العماد ٥٧/٦.

صنف تصحيح التعجيز، وأحكام المبعض، واستدراكات على تصحيح التنبيه للنووى، واختصر قطعة من الروضة، وكان فقيهاً كبيراً تخرجت به المصريون، وَوَلِىَ وكالة بيت المال، ودرس بالفاضلية(٤١٢)، والحسامية.

٦ - شهاب الدين الهكارى: أحمد بن أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٧٦٣هـ(٤١٣):

ألف كتاباً فى رجال الصحيحين، وأعاد بالجامع الحاكم، وَوَلِىَ مشيخة الحديث بالمدرسة المنصورية السابق ذكرها.

٧ - الإمام العالم شمس الدين بن القماح: محمد بن أحمد بن حيدة بن عقيل المتوفى سنة ٧٤٠هـ:

ناب فى تدريس الكاملية عن ابن جماعة، وكان معيداً بقية الشافعى خمسين سنة، وكان فقيهاً محدثاً، حافظاً مؤرخاً ذكياً مشكوراً فى الفتاوى(٤١٤).

٨ - محمد بن محمد بن الحسين الحلبى صلاح الشاذلى:

قال عنه ابن حجر:

"سمع على القاضى بدر الدين بن جماعة وغيره، وأدَّب الأطفال وعادت عيهم بركاته فلم يقرأ عليه أحد إلا انتفع وكان الشيخ جمال الدين الإسنوى يقول: أنا أشاهد على الشيخ صلاح الدين جلاله"(٤١٥).

---

(٤١٢) بناء الوزير الفاضل عبدالرحيم بن على البيسانى الكاتب المشهور بجوار بيته سنة ٥٨٠هـ ووقفها على الشافعية والمالكية راجع تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى لغنيمة ص ٨٧، ٨٨.

(٤١٣) راجع فى ترجمته حسن المحاضرة للسيوطى ١٦٧/١، الدرر الكامنة ٩٩/١.

(٤١٤) راجع ترجمته فى شذرات الذهب لابن العماد ١٣٢/٦، الوافى بالوفيات للصفدى ١٥٠/٢، حسن المحاضرة للسيوطى ١٩٩/١، السلوك للمقريزى ج٢، قسم ٢، ص ٣٧٥.

(٤١٥) راجع الدرر الكامنة لابن حجر ١٧٤/٤.

٩ - الشيخ القاضى عماد الدين البلبيسى: محمد بن إسحق بن المرتضى المتوفى سنة ٧٤٩هـ:

له سماعات على دروس ابن جماعة فى مخطوط غرر التبيان[٤١٦].

قال عنه ابن العماد الحنبلى:

"وَلِىَ قضاء الإسكندرية، ثم امتحن وعزل، وكان صبوراً على الاشتغال ويحث على الاشتغال بالحاوى، قال الإسنوى: كان من حفاظ مذهب الشافعى كثير التولع بالألغاز الفروعية، محبا للفقراء، شديد الاعتقاد فيهم، وقال الزين العراقى انتفع به خلق كثير من أهل مصر والقاهرة"[٤١٧].

١٠ - وممن سمع على ابن جماعة سلطان مصر الملك الناصر محمد بن قلاوون، ونائبه أرغون، وشيخ الشيوخ القونوى، سمعوا عليه عشرين حديثاً تساعية بقراءة ولده القاضى عز الدين بن جماعة، وأجاز لسامعيه الرواية عنه[٤١٨]؛ والقاضى شمس الدين بن الحافظ ناظر الجيش قرأ عليه رسالته فى الأسطرلاب[٤١٩]، وأحمد بن محمد الأنصارى المعروف بابن الحنبلى[٤٢٠]، وعماد الدين السكرى[٤٢١]، وفخر الدين عثمان بن بلبان المقاتلى المحدث[٤٢٢]، ومحمد بن الحسن بن عيسى اللخمى تقى الدين ابن الصيرفى[٤٢٣].

---

(٤١٦) راجع مخطوط غرر التبيان فيمن لم يسم فى القرآن لابن جماعة اللوحة رقم (١) ص ٢٤٧ من هذا البحث.

(٤١٧) شذرات الذهب لابن العماد ١٦٤/٦، طبقات السبكى ٢٢٧/٥.

(٤١٨) البداية والنهاية لابن كثير ١١٨/١٤.

(٤١٩)الوافى بالوفيات للصفدى ١٨/٢.

(٤٢٠)الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٢٦٠/١.

(٤٢١) حسن المحاضرة للسيوطى /١٨٢.

(٤٢٢) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ٤٦/٦.

(٤٢٣)الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر٢/٤٢٥.

هذا عدا خلق عظيم من أجلة العلماء مبسوطة أسماءهم بإثبات السماع والتلقى على مخطوطات ابن جماعة فى التفسير، والحديث، والفقه، والتاريخ، والسياسة الشرعية، والفلك، وغيرها من المخطوطات.

أولاده وأحفاده:

ولعل أعظم الآثار التربوية، والعلمية، والفكرية، التى خلفها ابن جماعة كانت فى أولاده، وأحفاده، فقد أحسن العالم الجليل تربيتهم، وتهذيبهم، بحيث صاروا من خيار العلماء والقضاة، والخطباء الذين كانت لهم آثارهم العلمية ومؤلفاتهم القيمة فى شتى الفنون والمعارف ليس فقط فى رجال هذه الأسرة، بل وفى نسائها أيضاً.

ويكفى أن نقول إنه كان من تلاميذ أولاد بدر الدين بن جماعة وأحفاده العلامة ابن كثير، وشمس الدين الذهبى، وشمس الدين السخاوى، وعلم الدين البلقينى، والكمال بن الهمام، وابن قزيل، والشمس القاياتى، والمحب بن الأقصرائى، وابن حجر العسقلانى، وعمر بن قدير، والمؤرخ المقريزى، وعشرات المشاهير الذين يفتخر الفكر العربى والإسلامى بهم.

أما ابن كثير فكان تلميذاً لقاضى القضاة عز الدين عبدالعزيز ابن العلامة بدر الدين بن جماعة.

يقول ابن كثير نفسه فى حوادث سنة ٧٢٥هـ:

"وفى سلخ رجب قدم القاضى عز الدين بن بدر الدين بن جماعة من مصر ومعه ولده، وفى صحبته الشيخ جمال الدين الدمياطى، وجماعة من الطلبة بسبب سماع الحديث، فقرأ بنفسه، وقرأ الناس له، واعتنوا بأمره، وسمعنا معهم وبقراءته شيئاً كثيراً نفعهم الله بما قرءوا وبما سمعوا، ونفع بهم"[٤٢٤].

---

(٤٢٤) البداية والنهاية لابن كثير ١١٨/١٤.

وأما الذهبى فقد أثبت سماعه بنفسه من القاضى عز الدين أيضاً حيث نقل ابن العماد الحنبلى عن الذهبى قوله فى عز الدين:

"سمعت منه وسمع منى"[٤٢٥].

وأما علم الدين البلقينى، والكمال بن الهمام، وابن قزيل، والشمس القاياتى، والمحب الأقصرائى، وابن حجر العسقلانى، وعمر بن قديد، فإن هؤلاء العلماء الأجلاء تتلمذوا جميعاً على يد حفيد العلامة بدر الدين ابن جماعة وهو الأستاذ العلامة المتفنن عز الدين محمد بن أبى بكر بن عبدلعزيز بن بدر الدين بن جماعة المتوفى سنة ٨١٩هـ.

قال السيوطى عنه فى ترجمته ما نصه:

"أخذ عنه جمع فيهم الشيخ ركن الدين عمر بن قديد، والكمال ابن الهمام، والشمس القاياتى، والمحب الأقصرائى، وحافظا العصر ابن حجر وشيخنا قاضى القضاة علم الدين البقينى، وخلائق، وروى لنا عنه الجم الغفير"[٤٢٦].

وأما شمس الدين السخاوى صاحب الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع فكان تلميذاً للفاضلة الصالحة حفيدة القاضى بدر الدين الشيخة سارة بنت عمر بن عبدالعزيز بن جماعة المتوفاة سنة ٨٥٥هـ.

قال السخاوى:

"حدّثت بالكثير، سمع عليها الأئمة، وحملت عنها ما يفوق الوصف"[٤٢٧].

---

(٤٢٥) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد ٢٠٨/٦.

(٤٢٦) بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة للسيوطى ص ٢٧ ، وراجع شذرات الذهب لابن العماد ١٤٠/١٧ ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوى ١٧١/٧.

(٤٢٧)الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوى ٥٢/١٢.

وأما المقريزى فقد سمع على حفيدة القاضى بدر الدين، الأستاذة الفاضلة زينب بنت القاضى عز الدين عبدالعزيز بن بدر الدين بن جماعة المولودة سنة ٧١٦هـ على ما ذكره ابن حجر فى الدرر الكامنة حيث قال فى هامش ترجمته لزينب هذه ما نصه:

"أجازت لشيخنا تقى الدين المقريزى"(٤٢٨).

هذا وقد أنجب العلامة بدر الدين بن جماعة أكثر من خمسة عشر عالماً من الأولاد، والأحفاد، نلقى ضوءاً تعريفياً عليهم فى شجرة النسب التالية، ونعقبه بتراجم كافية تبين منزلتهم ووظائفهم ومؤلفاتهم العلمية فيما يأتى:

---

(٤٢٨)الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر ج٢: هامش ص ١٢٠.

وتراجم هؤلاء الأفاضل حسب ورودهم فى شجرة النسب كالآتى:

١ - عبدالله: جمال الدين:

هو أكبر أولاد العلامة بدر الدين بن جماعة لأنه به يكنى كعادة العرب فى تكنية الأب بأكبر أبنائه[٤٢٩]، وكان خطيباً، ذكر المقريزى فى حديثه عن الجامع الناصرى الذى بناه الملك الناصر محمد بن قلاوون بشاطىء النيل من ساحل مصر أنه تولى الخطابة فى هذا المسجد فى ٩ صفر سنة ٧١٢ هـ[٤٣٠]، وتَوُفَّى فى يوم الثلاثاء ١٤من رجب سنة ٧١٦ هـ[٤٣١]، وكان قد رأس وعظم شأنه[٤٣٢].

٢ - عبدالرحيم: زين الدين أبو محمد:

كان من الخطباء أيضاً، فقد خطب فى القدس الشريف ومات به سنة ٧٣٩هـ وبعض كتب التراجم تذكرة باسم عبدالرحمن كما فعله ابن العماد فى الشذرات ولم أره لغيره[٤٣٣].

٣ - عبد العزيز: عز الدين أبو عمر:

ولد فى ١٩من محرم سنة ٦٩٤هـ، وبلغ عدد شيوخه الذين تلقى العلم على أيديهم أكثر من ألف وثلاثمائة على رأسهم والده قاضى القضاة بدر الدين ابن جماعة كما ذكره ابن حجر.

وقد تولى أكثر مناصب أبيه بعد وفاته ومنها قضاء القضاة، وتدريس جامع ابن طولون ونظره، وزاوية الشافعى، والجامع الأقمر، ونظره،

---

(٤٢٩) راجع هامش ص ٣٤ من هذا البحث.

(٤٣٠) الخطط المقريزية ٩٨/٤.

(٤٣١) راجع السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى ج٢ - قسم ٢ ص ١٧٠.

(٤٣٢) البداية والنهاية لابن كثير ٧٧/١٤.

(٤٣٣) راجع الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٣٦٠/٢، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد ١٢١/٦.

والخشابية، وخطابة الجامع الناصرى الجديد، ووكالة بيت المال، ووكالة الخاص، وغير ذلك من الوظائف.

وقد عزل نفسه عن القضاء أكثر من مرة، ولم يحفظ عنه فى دينه ما يشينه، قال عنه الذهبى: "كان خيرا صالحاً حسن الأخلاق كثير الفضائل".

وله مؤلفات قيمة منها المناسك الكبرى، والصغرى، ونزهة الألباب فيما لا يوجد فى الكتاب، ومختصر السيرة النبوية، وتخريج أحاديث الرافعى، وقد عده السيوطى فى الحفاظ، وكان يقول: أشتهى أن أموت بأحد الحرمين معزولاً عن القضاء، فنال ما تمنى ومات بمكة ودفن بعقبة باب المعلى إلى جانب قبر الفضيل بن عياض بينه وبين أبى القاسم القشيرى[٤٣٤].

٤ - إبراهيم: برهان الدين أبو إسحق، وهو ابن عبد الرحيم الإبن الثانى للقاضى بدر الدين:

ولد فى منتصف ربيع الآخر سنة ٧٢٥هـ.

أحضر على جده بدر الدين وسمع من أبيه، وشيوخ مصر والشام، ولازم المزى، والذهبى، واشتغل فى فنون العلم، كان خطيباً بالقدس بعد أبيه ثم عين قاضياً للقضاة بمصر والشام وكان على سيرة جده وعمه فى العفة والنزاهة فى القضاء حتى عزل نفسه أكثر من مرة والسلطان يترضاه ويعيده، ودرس بالمدرسة الصلاحية ببيت المقدس وإليه انتهت رئاسة العلماء فى زمانه، فلم يكن أحد يدانيه فى سعة الصدر وكثرة البذل، وقيام الحرمة، والصدع بالحق، وقمع أهل الفساد، كما يقول عنه ابن العماد فى الشذرات، وبالجملة كان مفخرة تتجمل به الدولة، وتتبرك بوجوده الملوك، كما يقول ابن حجر:

---

(٤٣٤) راجع طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ٦/١٢٣ - ١٢٤، الدرر الكامنة لابن حجر ٢/ ٣٧٨ – ٣٨٢، حسن المحاضرة ١/١٦٨، شذرات الذهب ٦/٢٠٨.

"وله مجاميع وفوائد بخطه، وجمع تفسيراً فى عشر مجلدات، وهو الذى عمل المنبر الرخام بالصخرة الشريفة ببيت المقدس وكان قبل ذلك من خشب، هكذا ذكر القاضى مجير الدين فى الأنس الجليل، ومات فى شعبان بالمزة سنة ٧٩٠هـ"(٤٣٥)

٥ - محمد: ابن عبدالرحيم:

أخو إبراهيم المذكور، وهو الأكبر لأن أباه يكنى به(٤٣٦)، ولم أعثر له على ترجمة.

٦ - عائشة: أم عبدالله:

هى بنت عبدالرحيم حفيدة القاضى بدر الدين أخت محمد وإبراهيم السابقين، وهى محدثة فاضلة، استوطنت دمشق، وأسمعت على الوانى جزء أبى محمد بن فارس، وحدث عنها الأفاضل منهم أبو حامد بن ظهيرة وماتت سنة ٧٨٩هـ(٤٣٧).

٧ - إسحـــاق:

حفيد بدر الدين بن جماعة والإبن الأكبر للقاضى إبراهيم بن عبدالرحيم ابن جماعة المذكور فى رقم ٤ لأنه كنية أبيه(٤٣٨)، ولم أجد له ترجمة.

---

(٤٣٥) راجع رفع الإصر عن قضاة مصر لإبن حجر القسم الأول ص ٢٩ - ٣٦، قضاة دمشق لابن طولون ص١١٢ — ١١٥، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد ٣١١/٦، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٣٨/١ — ٣٩، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى لابن تغرى بردى ٧٨/١ — ٧٩، معجم المصنفين ١٩٢/٣ — ١٩٤، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ٤٥٢/٢.

(٤٣٦) راجع الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٣٦٠/٢.

(٤٣٧) المصدر السابق والجزء ص ٢٣٦.

(٤٣٨) راجع المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ٧٨/١، قضاة دمشق ص ١١٣.

٨ - أحمد: محب الدين:

أخو إسحاق المذكور، وَلى تدريس المدرسة الصلاحية بالقدس، وخطابة المسجد الأقصى وهو دون البلَوغ بعد وفاة أبيه المذكور[٤٣٩] فى رقم (٤) فناب عنه ابن عمه شيخ الإسلام محمد بن عبدالرحمن بن إبراهيم بن عبدالرحيم ابن برهان الدين إبراهيم بن سعد الله بن جماعة[٤٤٠].

٩ - عمر: السراج أبو حفص:

أبو عبد الله وأبو سارة الآتيين فى رقمى (١٣، ١٤) وهو حفيد قاضينا بدر الدين من وده قاضى القضاة عز الدين المذكور فى رقم ٣، وهو أكبر أولاد القاضى عز الدين[٤٤١]، إذ به يكنى، ولم أعثر له على ترجمة.

١٠ - شهـــدة:

بنت عبدالعزيز أخت عمر المذكور، تعلمت الكتابة، وسمعت بقراءة أبيها قاضى القضاة عز الدين عليها، وتزوجت بالقاضى تاج الدين المناوى[٤٤٢]، وماتت فى جمادى الآخرة سنة ٧٥٧هـ.

١١ - أبو بكر: شرف الدين:

ابن القاضى عز الدين بن بدر الدين بن جماعة أخو عمر وأخو شهدة السابقين سمع الكثير على جده العلامة بدر الدين، وتتلمذ على الميدومى، ويحيى بن فضل الله، وأجاز له مشايخ مصر، والشام بعناية أبيه القاضى عز الدين، وناب عن أبيه فى القضاء، والتدريس.

نقل ابن العماد عن ابن حجر قوله فى أبى بكر هذا:

---

(٤٣٩)الأنس الجليل ٢/٤٥٤.

(٤٤٠) هو من فرع آخر غير فرع العلامة بدر الدين.

(٤٤١)طبقات الشافعية الكبرى ٦/١٢٣.

(٤٤٢) كان كبير نواب القضاة لأبي زوجته عز الدين بن جماعة.

"كان يدرى أشياء عجيبة، رأيته يجعل الكتاب فى كمه ويقرأ مافيه من غير أن يكون شاهده"[٤٤٣].

مات فى ١٤ من جمادى الأولى بمصر سنة ٨٠٣هـ عن خمس وسبعين سنة[٤٤٤].

١٢ - زينب: أم أحمد:

بنت القاضى عز الدين أيضاً أخت عمر، وشهدة، وأبى بكر المتقدم ذكرهم.

تعلمت على يد جدها العلامة بدر الدين وسمعت منه نسخة إبراهيم ابن سعد كما سمعت من الدبوسى جزء الحسين بن إبراهيم الجمال.

وقد حدث عنها حامد بن ظهيرة بمكة، كما أنها أجازت الرواية عنها لتقى الدين المقريزى، ولم أعثر على تاريخ وفاتها، وإن كان ابن حجر قد ذكر تاريخ ميلادها سنة ٧١٦هـ[٤٤٥].

١٣ - عبدالله:

حفيد العلامة بدر الدين، فهو ولد ولده عمر بن القاضى عز الدين المذكور فى رقم (٩).

ولد بعد سنة ٧٦٠هـ ونشأ بالقاهرة، وسمع من القاضى برهان الدين إبراهيم بن عبدالرحيم بن جماعة المذكور فى رقم (٤) وأجاز له جده قاضى القضاة عز الدين بن جماعة، وعمته زينب المذكورة فى رقم (١٢)، وسمع من أبى طلحة الحراوى جزد الصغارو كما أجازه كثير من أفاضل العلماء منهم

---

(٤٤٣)الدرر الكامنة ٢/١٩٥.

(٤٤٤) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد ٧/٢٧.

(٤٤٥) راجع الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر٢/١٢٠.

أبو البقاء السبكى، وابن أميلة، والصلاح بن أبي عمرو بن القارى، وكثير غيرهم.

وقد كان محدثاً سمع الفضلاء وكان خيرا كما يقول السخاوى ومات فى المحرم سنة ٨٤٠[٤٤٦].

١٤ - سارة: أم محمد:

ابنة عمر بن عز الدين بن بدر الدين بن جماعة المذكور فى رقم (٩) وأخت عبدالله المذكور فى رقم (١٣) ولدت سنة ٧٦٠هـ، وأجاز لها جمع من أصحاب الفخر بن البخارى وغيره كالصلاح بن أبى ع... وابن أميلة، وابن السوقى، وابن المنجم، وابن القارى.

وكانت محدثة جليلة القدر، سمع عليها السخاوى، وحمل عنها ما يفوق الوصف كما قال هو فى ضوئه اللامع.

وقال عنها أيضاً: كانت صالحة قليلة ذات اليد، ولذلك كنا نواسيها، مع فطنة وذوق، ومحبة فى الطلبة، وصبر على الإسماع، وصحة سماع، وبموتها فى الخامس من محرم سنة ٨٥٥هـ نزل أهل الحديث بمصر فى الرواية درجة[٤٤٧].

١٥ - محمد:

حفيد العلامة بدر الدين بن جماعة من ولده أبى بكر بن القاضى عز الدين المذكور فى رقم (١١).

ولد بينبع سنة ٧٤٩هـ.

أجاز له أهل عصره مصرا، وشاما، فقد سمع من جده القاضى عز الدين الكثير كالأربعين حديث التساعية ومن ابن القارىد والحراوى، والفلانسى،

(٤٤٦)الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوى ٣٨/٥.

(٤٤٧)الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوى لابن حجر ٥٢/١٢.

وأخذ الحاوى عن البلقينى، وأخذ الطب عن العلاء على بن عبدالواحد ابن صغير، كما تتلمذ على العلامة المؤرخ الاجتماعى الكبير عبد الرحمن ابن خلدون، والتاج السبكى وأخيه البهاء، فأتقن العلوم حتى صار المشار إليه بالديار المصرية فى فنون المعقول، والمفاخر به علماء العجم فى كل فن والمعول عليه، وتخرج به طبقات من الخلق، وكان أعجوبة زمانه فى التقرير هكذا ذكر السيوطى عنه، كما قال عنه إن مؤلفاته جاوزت الألف، ومنها شرح جمع الجوامع، ونكت عليه، وحاشية على شرح منهاج البيضاوى للإسنوى، وإعانة الإنسان على أحكام اللسان، ومختصر التلخيص، ومختصر التسهيل المسمى بالقانون، وشرح المنهل الروى الذى ألفه جده العلامة بدر الدين ابن جماعة وكذلك اختصر كتابه المسمى نور الروض فى السيرة، وله فلق الصبح فى أحكام الرمح، ونكت على فصول أبقراط وقد نظر فى كل فن حتى فى الأشياء الصناعية كاللعب بالدبوس، والرمى بالنشاب والرمح، وضرب السيف، والنفط، ومهر فى الزيج، والطب، والنجوم.

وتتلمذ عليه كثير من كبار علماء عصره، وقد سبق أن ذكرنا منهم العلامة ابن حجر، والكمال بن الهمام، وعلم الدين البلقينى، والشمس القاياتى، والمحب الأقصرائى.

وكان لا يُحدِثُ إلا توضأ، ولا يترك أحداً يستغيب عنده، مع محبة المزاح، والفكاهة، واستحسان النادرة، حضر مرة عند السلطان المؤيد شيخ، فسأله السلطان عن شىء من مؤلفاته فى فنون الرمح، والفروسية فأنكر أن يكون له شىء من ذلك، وحصل له فى دولته سوق نافقة.

قال عنه تلميذه ابن حجر:

وكان من العلوم بحيث يقضى   له فى كل فن بالجميع

وقال هو عن نفسه:

"أعرف ثلاثين علما لا يعرف أهل عصرى أسماءها، ومات فى جمادى الآخرة سنة ٨١٩هـ. ولم يتزوج(٤٤٨).

هذا هو العلامة بدر الدين بن جماعة باعتباره أستاذاً، ومعلماً، ومدرساً قاد حركة التدريس أكثر من نصف قرن من الزمان أحدث فيه رواجاً وانتشاراً أثر على الحركة الفكرية، والثقافية برئاسته لهذا العدد الهائل من كبريات مدارس مصر والشام، وتخرج على يديه هذا الحشد الكريم من كبار العلماء، وتلك الباقة الطيبة والنبت المبارك من الأبناء والأحفاد الذين كان لهم الفضل الجليل، والأثر الحميد، فى تقديم علماء أجلاء يفخر الفكر الإسلامى كله بهم من أمثال ابن حجر، والسبكى، والذهبى، وابن كثير، والمقريزى، والسخاوى، والبلقينى، ومئات غيرهم.

وما تلك إلا آثار العلامة بدر الدين بن جماعة ظلت تنتقل مؤثرة بالعمل النافع، والتربية الحسنة من تلاميذه، وأولاده، إلى أحفاده، وتلاميذهم عصراً بعد عصر، وجيلاً بعد جيل، حتى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى، حيث ساق لنا المرادى فى سلك الدرر ترجمة العالم الفاضل بدر الدين بن محمد بن بدر الدين بن جماعة الذى تولى إفتاء الحنفية بالقدس وله فى ذلك كتاب الفتاوى البدرية، وتوفى سنة ١١٨٧هـ(٤٤٩).

---

(٤٤٨)راجع الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ١٧١/٧ – ١٧٤، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ص ٢٥ – ٢٦، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، ٢٦٣/١، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ١٣٩/٧ – ١٤٠، معجم المؤلفين ١١١/٩.

(٤٤٩) سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر للمرادى ج٢: ٢ -٣.

ولم أتمكن من وضع بدر الدين هذا فى سلسلة نسب الجد الأعلى للعلامة بدر الدين موضوع هذا البحث، لأن المصادر لم تسعفنى بهذه السلسلة ربما لبعد المسافة الزمنية لأنها تبلغ خمسة قرون أى خمسة عشر جيلاً.

وننتقل الآن إلى إحدى وظائف العلامة بدر الدين بن جماعة، وأثره من خلالها.

الفصل الثالث

وظيفة الخطابـــة

منزلة هذه الوظيفة - المساجد التى تولى الخطابة فيها، وأثره من خلالها

منزلتها فى هذا العصر:

تعتبر وظيفة الخطابة فى عصر ابن جماعة من الوظائف الهامة السامية خاصة إذا تعلق التعيين فى هذه الوظيفة بأوامر الدولة التى يمثلها السلطان فى ذلك الوقت، وهذا لا يكون إلا فى المساجد البارزة ذات المراكز الحساسة بالنسبة للجماهير كالمسجد الأقصى بالقدس الشريف، والجامع الأزهر، وجامع السلطان بقلعة الجبل بمصر، والمسجد الأموى بدمشق.

ولهذا اعتبر القلقشندى وظيفة الخطيب ضمن وظائف الصنف الثانى من أرباب الوظائف الدينية وهم الذين ليس لهم مجلس بحضرة السلطان، وَعَّد منها التدريس وقد ذكرناه، ثم عد منها الخطابة فقال:

"ومنها الخطابة وهى فى الحقيقة أجل الوظائف وأعلاها رتبة، إذْ كان النبى ﷺ يفعلها بنفسه ثم فعلها الخلفاء الراشدون فمن بعدهم وهى على كثرة الجوامع بالديار المصرية، بحيث أنها لا تحصى كثرة - لا يتعلق منها بولاية السلطان إلا القليل النادر - كجامع القلعة إلا إذا كان مفرداً عن القضاء ونحو ذلك مما لا ناظر له خاص"(٤٥٠).

المساجد التى تولى الخطابة فيها، وأثره:

ومن الملفت للنظر أن جميع المساجد التى تولى خطابتها العلامة بدر الدين ابن جماعة كانت من أهم مساجد الدولة المملوكية فى مصر والشام، بل من

---

(٤٥٠) صبح الأعشى للقلقشندى ٣٩/٤.

أهم المساجد التاريخية فى الإسلام بعد الحرمين الشريفين، ولهذا كان يتم تعيينه فيها بأوامر سلطانية عليا.

فعين فى خطابة المسجد الأقصى بالقدس الشريف، وخطابة المسجد الأموى بدمشق، وخطابة مسجد السلطان الجامع بقلعة مصر، وخطابة الجامع الأزهر، وخطابة الجامع الناصرى الجديد بمصر أيضاً.

أما بيت المقدس فقد تولى الخطابة فيه مع القضاء فى رمضان سنة ٦٨٧هـ كما يذكره ابن كثير فى حوادث رمضان من هذه السنة:

"وفيه توجه الشيخ بدر الدين بن جماعة إلى خطابة القدس بعد موت خطيبه قطب الدين"(٤٥١).

وأما القاهرة فقد تولى خطابة الجامع الأزهر وجامع السلطان بقلعة الجبل فى وقت واحد وهو النصف الأخير من شهر رمضان سنة ٦٩٠هـ علاوة على ما بيده من وظيفة قاضى القضاة وبهذا التعيين صار العلامة ابن جماعة الخطيب الرسمى للدولة والسلطان، فكان يخطب بنفسه بمسجد السلطان فى القلعة وينيب عنه من يخطب فى الأزهر وذلك لأن الجامع الأزهر كان فى المرتبة الثانية فى هذه الحقبة التاريخية بعد مسجد السلطان بالقلعة.

يقول ابن كثير فى حوادث رمضان سنة ٦٩٠هـ:

"ثم استمر ابن جماعة يخطب بالقلعة عند السلطان، وكان يستنيب فى الجامع الأزهر"(٤٥٢).

---

(٤٥١) البداية والنهاية لابن كثير ٣١٢/١٣، وراجع الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ٤٨٠/٢، والذي يفهم من الأنس الجليل أن العلامة ابن جماعة تولى قضاء القدس مرتين غير أنه لم ينقل لنا تاريخاً محدداً لهما.

(٤٥٢) البداية والنهاية لابن كثير ٣٢٠/١٣.

وتأكيداً لدوره الرسمى على خطاب الدولة فإننا نرى السلطان الناصر محمد بن قلاوون عندما انتهى من بناء مسجده الذى سمى "بالجامع الناصرى الجديد" بشاطىء النيل فى الثامن من صفر سنة ٧١٢ هـ نراه يقيم الشيخ بدر الدين فى خطابته، وكان الشيخ بدر الدين يستتيب فى الخطابة عنه ابنه الأكبر جمال الدين عبد الله المتوفى سنة ٧١٦هـ وقد مرت ترجمته.

وأما دمشق فقد تولى بها خطابة المسجد الأموى فى السادس من شوال سنة ٦٩٤هـ علاوة على ما بيده من القضاء حتى قيل إنه أول من جمع بين القضاء والخطابة بدمشق، واستمر بخطابة المسجد الأموى حتى سنة ٧٠٢هـ وإن كان قد عزل عن القضاء سنة ٦٩٦هـ[٤٥٣].

وإذا كنا عرفنا أثر ابن جماعة على الفكر والثقافة من خلال وظيفته كمدرس ورأينا آثاره على هذه المدارس وعلى تلاميذه الذين تخرجوا على يديه، وهى بهذا المفهوم تعتبر وظيفة خاصة بطبقة معينة داخل القطاع المدرسى فإننا نقول إن علينا أن ندرك مدى أثر ابن جماعة على الفكر والثقافة من خلال وظيفته كخطيب يمتد تأثيره من النطاق المحدود إلى النطاق العام الذى يشمل جميع طبقات الأمة من أمراء وعلماء، وطلاب، وكافة الجماهير العاملة، فنراه بهذا المفهوم أبعد أثراً، وأكثر تأثيراً، خاصة إذا كنا قد عرفنا أنه كان يخطب فى أمهات المساجد الجامعة فى القدس، والقاهرة، ودمشق، والتى يقصد إلى الصلاة فيها أكبر جمهور من الناس من كافة الطبقات.

ليس هذا فحسب بل لأن العلامة بدر الدين بن جماعة كان له منهج فى الخطابة محبباً إلى السامعين، يجذب القلوب إليه، ويشد النفوس نحوه ينمق خطابته ويدبجها، ويأخذ بمجامع قلوب المصلين مع طيب صوت بقراءة القرآن وخشوع فى الصلاة.

---

(٤٥٣) البداية والنهاية لابن كثير ١٣/ ٣٣٨، طبقات الشافعية للأسنوى ٣٨٦/١.

وتلك كلها مؤهلات الخطيب الناجح، المؤثر على النفوس فكرياً وخلقياً يقول عنه ابن كثير عندما خطب فى المسجد الأموى فى شوال سنة ٦٩٤هـ:

"ثم خطب من الغد وشكرت خطبته، وقراءته"[٤٥٤].

ويقول عنه اليافعى: "كان خطيباً، ورعاً، صيناً"[٤٥٥].

ويقول عنه ابن حجر:

"كان يخطب من إنشائه يؤديها بفصاحة، ويقرأ فى المحراب طيباً"[٤٥٦].

وذكره الأستاذ رزق سليم فى عداد الخطباء المتازين فى عصر المماليك وقال عنه:

"يعتبر القاضى بدر الدين بن جماعة أحد أدباء العصر ومؤلفيه، لما له من خطابة جامعة شاملة كان يعكف على إعدادها"[٤٥٧].

ولهذا رأيناه كيف كان يقود جماهير أهل الشام - وهو خطيب - ضد التتار ويقنت فى جميع الصلوات فتتبعه الجماهير الغفيرة، وأئمة المساجد فى جميع أنحاء الشام[٤٥٨].

ويبدو أن وظيفة الخطابة كانت أحب وظائفه جميعاً إلى نفسه بصفة عامة، وخطابة القدس، ودمشق بصفة خاصة فهو القائل:

يالهف نفسى لو تدوم خطابتى بالجامع الأقصى وجامع جلق[٤٥٩]

---

(٤٥٤) البداية والنهاية لابن كثير ٣٣٩/١٢.

(٤٥٥) مرآة الجنان لليافعى ٢٨٧/٤.

(٤٥٦) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٢٨٢/٣.

(٤٥٧) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى ج١ قسم ٢ ص١٠٧، ج٣ - قسم ٢ ص٦٧، ٦٨.

(٤٥٨) راجع ص ١٣٧ من هذا البحث.

(٤٥٩) المراد من جلق هنا: دمشق، وجامعها هو الجامع الأموى، وأصل جلق جنوبى دمشق "المنجد ص ١٧٢".

ما كان أهنى عيشنا وألذه فيها وذاك طراز عمرى لو بقى

الدين فيه سالم من هفوة والرزق فوق كفاية المسترزق

والناس كلهم صديق صاحب داع وطالب دعوة بترقق(٤٦٠)

فهو يتمنى دوام الخطابة فى بيت المقدس، ودمشق لأنها سعادة نفسه، وراحة باله.

ففى الخطابة والإمامة العبادة التى تقتضى سلامة الدين، مع الاطمئنان إلى الرزق الحلال، دون الإحتكاك بالناس ومنازعتهم، فليس للخطيب من الناس إلا أحد شخصين: إما داع يدعو له بالخير، وإما طالب دعوة بلين ورقة حال.

ومن خلال العرض الموجز لهذه الوظيفة الجليلة التى تقلدها ابن جماعة يتبين لنا أيضاً مدى تأثيره الفكرى على المجتمع بصفة عامة، لاسيما وأن تقلده لهذه الوظيفة جاء مصاحباً لأشهر المساجد الجامعة فى تاريخ الحركة المسجدية فى الإسلام.

وأعتقد أنى لست بحاجة إلى بيان مكانة المسجد الأقصى، أو المسجد الأموى، أو الجامع الأزهر، وأثرها الفكرى على الجماهير فى جميع العصور فهى مساجد أصبحت معروفة بذاتها، ومشهورة بأسمائها، لا تحتاج إلى تعريف.

وقد آن لنا أن ننتقل إلى إحدى وظائف ابن جماعة الأخرى.

---

(٤٦٠) الوافى بالوفيات ١٩/٢، نكت الهميان ص ٢٣٦.

الفصل الرابع

وظيفة مشيخة الشيوخ

معنى هذه الوظيفة وتاريخها، الخوانق التى تولى مشيختها، منزلة هذه الوظيفة، التصوف عند ابن جماعة

معنى هذه الوظيفة وتاريخها:

عندما استبد صلاح الدين الأيوبى بأمر مصر وآل كثير من الدور والقصور الفاطمية إلى الدولة الصالحية أمر بوقف الدار المعروفة بسعيد السعداء قنبر، الذى كان عتيق الخليفة المستنصر الفاطمى.

وكان وقفها فى سنة ٥٦٩هـ لتكون خانقاه للصوفية، ويرتب لهم فيها الطعام، واللحم، والخبز، وكانت هذه أول خانقاه عملت بديار مصر(٤٦١).

وتعتبر الخوانق من دور العلم، أى أن نظامها "مدرسى" يشرف عليه علماء أجلاء، يباشرون مهمة بث التعليم لمن يقيمون فى هذه الخوانق، لأنها كانت تتميز عن المدارس العادية بإقامة الطلاب داخلها يتمتعون بكافة وسائل الإعاشة كما يتمتعون بالتربية الروحية والسلوكية فى اعتدال وجُعِل لكل خانقاه شيخ، أطلق عليه لقب "شيخ الشيوخ"(٤٦٢).

والخانقاه فى الأصل كلمة فارسية تعنى: الدير، أو المنزل، أو المعبد، والعامة من المصريين ينطقونها "خانكة"(٤٦٣).

وذكر المقريزى فى خططه أن بداية جعل الصوفية فى خوانق يتفرغون فيها للعبادة كانت فى حدود الأربعمائة من الهجرى(٤٦٤).

---

(٤٦١) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى ١٥٨/٢.

(٤٦٢)المصدر السابق ١٥٨/٢.

(٤٦٣) ابن قيم الجوزية لشرف الدين ص ٤٥.

ولكن يبدو أن هذه الفكرة أقدم من ذلك بكثير وأنها ترجع إلى زمن عثمان بن عفان - رضى الله عنه - إذ نقل إلينا الاستاذ عبدالعظيم شرف الدين: "أن أول من اتخذ بيتاً للعبادة زيد بن صوحان بن صبرة، وذلك أنه عمد إلى رجال من أهل البصرة قد تفرغوا للعبادة، وليس لهم تجارات ولا غلات، فبنى لهم دوراً وأسكنهم فيها وجعل لهم مايقوم بمصالحهم من مطعم، ومشرب، وملبس وغيره، فجاء يوماً ليزورهم فسأل عنهم، فإذا عبد الله ابن عامر عامل البصرة لأمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضى الله عنه - قد دعاهم، فأتاه فقال له: يا ابن عامر ما تريد من هؤلاء القوم؟ قال أريد أن أقربهم فيشفعوا فأشفعهم، ويسألوا فأعطيهم، ويشيروا على فأقبل منهم، فقال لا تأت إلى قوم قد انقطعوا إلى الله تعالى فتدنسهم بدنياك، وتشركهم فى أمرك حتى إذا ذهبت أديانهم أعرضت عنهم، فطاحوا لا إلى الدنيا ولا إلى الآخرة، قوموا فارجعوا إلى مواضعكم فقاموا، فأمسك ابن عامر فما نطق بلفظة"[(٤٦٥)].

ولعل هذا القول الذى قاله زيد بن صوحان بن صبرة لعامل أمير المؤمنين عثمان - رضى الله عنه -، فى إبداء رأيه بعد خروج الصوفية من أماكن عبادتهم صحيح إلى حد بعيد لأن فيه إطاحتهم لا إلى الدنيا ولا إلى الآخرة، حيث أثبتت حوادث الأيام صحته فيما بعد زمن الدولة المملوكية، إذ ما لبث عدد هذه الخوانق أن تكاثر لالتجاء المماليك إلى الإكثار من بنائها إلى جانب المدارس، وذلك بسبب النزعة الدينية التى ورثوها عن سادتهم الأيوبيين فى مواجهة الصليبية حتى أننا نرى القلقشندى يورد لنا تراجم لاثنين وعشرين داراً

---

(٤٦٤) الخطط المقريزية ٤/٣٧١ – ٣٧٢، ٢٨٣.

(٤٦٥) ابن قيم الجوزية لشرف الدين ص ٤٥.

من دور هذه الخوانق فى مصر، كما أورد النعيمى ثلاثاً وثلاثين داراً فى الشام.

وقد أدى ازدياد عدد هذه الخوانق إلى ازدياد الصوفية وانتشارها فى عصر المماليك مما أدى بالتالى إلى تدخلهم فى أمر الدولة، وسيطرتهم على العوام، حتى أصبح سلطان الدولة بيبرس الجاشنكير خاضعاً لأوامر شيخهم نصر المنبجى وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك(٤٦٦)، كما سبق أن أشرنا إلى قضاياهم ودعاواهم ضد الشيخ تقى الدين بن تيمية وكيف كانوا سبباً فى محاكمته وسجنه بعد ذلك(٤٦٧) حتى مات وهو فى داخل السجن.

وهذا بُعْد عن فكرة إنشاء بيوت العباد ومنهجها التى كان قد أسسها عليها زيد بن صوجان بن صبرة زمن أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه... وهى فكرة قريبة من أهل الصفة زمن النبى ﷺ.

وأعتقد أن المتصوفة الذين كانوا يعيشون فى هذه الخوانق ويتلقون العلم فيها كانوا مختلفين فى السن عن طلاب المدارس العادية ولهذا كان يسمونهم شيوخاً بدليل أن أستاذهم نعت "بشيخ الشيوخ"(٤٦٨).

كما أرجح أن تزويد هذه الخوانق بكبار العلماء من أمثال القاضى الجليل تاج الدين بن بنت الأعز، والعلامة بدر الدين بن جماعة، ومن قبلهما أولاد شيخ الشيوخ ابن حمويه مع ماكان لهم من الوزارة، والإمارة، كما يقول المقريزى ومن بعد هؤلاء من الأكابر كتقى الدين القلقشندى، إنما كان يقصد به تقديم الزاد العلمى مع الزاد المادى لتحسين الأحوال العلمية والفكرية لهذه الفئة الفقيرة المنقطعة للدرس والعبادة.

---

(٤٦٦) راجع ص ١٦٦ من هذا البحث.

(٤٦٧) راجع ص ١٦٦ من هذا البحث.

(٤٦٨) راجع الخطط المقريزية ٢٧٢/٤، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى ١٥٨/٢

الخوانق التى تولى مشيختها :

ومن هنا نستطيع أن ندرك مدى أهمية تعيين قاضى القضاة بدر الدين ابن جماعة فى هذا المنصب مرتين.

المرة الأولى:

فى التاسع عشر من ربيع الأول سنة ٧٠١ هـ عندما عين شيخاً للشيوخ بخانقاه السميساطية[٤٦٩] بدمشق بناء على رغبة صوفية هذا الخانقاه فيه، وفرحهم به والتفافهم حوله بعد موت شيخهم يوسف بن حمويه الحموى، كما ذكر لنا العلامة ابن كثير[٤٧٠].

المرة الثانية:

كان فى جمادى الآخرة سنة ٧٠٨هـ حيث عين شيخاً للشيوخ بخانقاه سعيد السعداء بالقاهرة، وذلك بناء على طلب صوفية هذا الخانقاه أيضاً.

ويبدو أن العلامة بدر الدين لم يكن لديه الوقت الكافى للذهاب إلى هذا الخانقاه ولكن مع إلحاحهم عليه قَبِلَ أن يذهب إليهم مرة واحدة فى الأسبوع، وهذا ما تفيده عبارة ابن كثير فى ذلك حيث يقول عن هذا التعيين فى حوادث سنة ٧٠٨هـ:

"باشر ابن جماعة مشيخة سعيد السعداء بالقاهرة بطلب الصوفية له، ورضوا منه الحضور عندهم فى الجمعة مرة واحدة"[٤٧١].

---

(٤٦٩) نسبة للسميساطى أبى القاسم على بن محمد بن يحى من أكابر الرؤساء بدمشق، وقف داره التى بباب الغطفانيين على فقراء الصوفية، وكانت هذه الدار أولا لعبد العزيز بن مروان بن الحكم ثم لابنه عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه. (راجع الدارس فى تاريخ المدارس ١٥١/٢ – ١٥٢).

(٤٧٠) راجع البداية والنهاية لابن كثير ١٧/١٤، والنص المذكور ص ١٤٥ من هذا البحث.

(٤٧١) البداية والنهاية لابن كثير ٥٠/١٤ – ٥١.

ومعنى هذا أن ابن جماعة كان يتمتع بمحبة الصوفية من جهة - وقد أشرنا إلى ذلك فى الفصول السابقة[٤٧٢] - كما كان يتمتع بثقة الدولة من جهة أخرى، وذلك نفهمه من تعيينه فى هاتين الدارين وهما أعظم دور التصوف فى دمشق والقاهرة، مع وجود كبار العلماء والمتصوفة فى ذلك الوقت.

ويزداد تأكدنا لهذه الثقة الممنوحة لابن جماعة من كلا الطرفين "الدولة، والصوفية" عندما نعرف من المقريزى وغيره أن السلطان الناصر محمد ابن قلاوون لما بنى خانقاه "سريا قوس" شمال القاهرة وعلى نحو بريد منها بأول تيه بنى إسرائيل خرج بنفسه ومعه الأمراء، والقضاة، ومشايخ الخوانق لافتتاح الخانقاه، فكان المتصدر لإسماع الحديث النبوى هو القاضى بدر الدين ابن جماعة، وخلع عليه السلطان وكان ذلك فى يوم الجمعة السابع من جمادي الآخرة سنة ٧٢٥هـ.

يقول المقريزى:

"وتصدر قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة الشافعى لإسماع الحديث النبوى، وقرأ عليه ابنه عز الدين عبدالعزيز عشرين حديثا تساعياً، وسمع السلطان ذلك، وكان جمعاً موفوراً، وأجاز قاضى القضاة الملك الناصر ومن حضر برواية ذلك، وجميع ما يجوز له روايته، وعندما انقضى مجلس السماع قرر السلطان فى مشيخة هذه الخانقاه الشيخ مجد الدين موسى أحمد بن محمود الأقرائى، ولقبه بشيخ الشيوخ، إلا شيخ خانقاه سعيد السعداء وأحضرت التشاريف السلطانية، فخلع على قاضى القضاة بدر الدين، وعلى ولده عز الدين، وعلى قاضى القضاة المالكية، وعلى الشيخ مجد الدين أبى حامد موسى بن أحمد بن محمود الأقصرائى شيخ الشيوخ، وعلى الشيخ علاء الدين القونوى شيخ خانقاه سعيد السعداء وعلى الشيخ قوام الدين أبى محمد

---

(٤٧٢) راجع ص ١٤٥ من هذا البحث.

عبد المجيد بن أسعد بن محمد الشيرازى شيخ الصوفية بالجامع الناصرى خارج مدينة مصر وعلى جماعة كثيرة، وخلع على سائر الأمراء، وأرباب الوظائف وفرق بها ستين ألف درهم فضة"(٤٧٣).

فابن جماعة كان إذاً هو المتصدر للمجلس رغم وجود هذا العدد المذكور بالنص وهم جميعاً من كبار العلماء، والشيوخ، وفيهم علماء المذاهب علاوة على وجود شيخ الشيوخ هذا الخانقاه وكبار الشيوخ من الخانقاهات الأخرى.

وهذا يقوم دليلاً على أن ابن جماعة قد اكتسب الثقة والهيبة من الجميع. كما يمدنا بانطباع حقيقى عن مدى أثره الفكرى والعلمى، والتربوى فى هذا الجانب أيضا من وظائفه التى تولاها فى دولة المماليك.

منزلة هذه الوظيفة:

وقد أدرج المقريزى وظيفة مشيخة الشيوخ ضمن وظائف الصنف الثانى من أرباب الوظائف الدينية ممن ليس له مجلس بحضرة السلطان، مما يبين لنا أن التصوف فى ذلك العصر كان قد بلغ درجة عالية من التأثير والتغلغل إلى الحدّ الذى جعل له وظيفة، وأن يكون لهذه الوظيفة مسئول رسمى من قبل الدولة هو شيخ الشيوخ(٤٧٤) ولا يزال معمولاً بهذا فى مصر حتى اليوم من خلال مشيخة الطرق الصوفية، وإن لم يعد للخانيقاهات وجود البتة.

التصوف عند ابن جماعة:

ويبرز أمامنا الآن سؤال هام هو: هل كان ابن جماعة صوفياً لأنه كان شيخاً للشيوخ بخانقاه السميساطية وسعيد السعداء؟ أم أن هذه الوظيفة كانت

---

(٤٧٣) الخطط المقريزية ٢٨٥/٤، وراجع البداية والنهاية لابن كثير ١١٨/١٤.

(٤٧٤) الخطط المقريزية ٢٧/٤ — ٣٨.



مجرد وظيفة رسمية للتدريس فرضتها الدولة عليه دون أن يكون له أى ميول صوفية؟

الحقيقة أن أسرة ابن جماعة كانت ذات منشأ صوفى، وقد رأينا فى تراجم أبيه، وجده، وعمه أنهم كانوا من أهل التصوف على الطريقة البيانية فى إطار عقيدة أهل السنة والجماعة.

وعلى طريقتهم سار العلامة بدر الدين بن جماعة، فهو أشعرى فاضل، تقى ورع، ذو عبادة وأوراد، وجميع الذين ترجموا له لا تخل عباراتهم من ذلك.

غير أن الحقيقة عن ابن جماعة أنه لم يكن من أولئك المتصوفة الذين اشتطوا بصوفيتهم إلى القول بالحلول والتجسيم. أو بمذهب الاتحاد بين الخالق والمخلوق.

ولم يعرف عنه الانتصار لما كان يجرى على أيدى جهال الصوفية فى عصره من أتباع عوام الطريقة الأحمدية الذين كان لهم مع ابن تيمية شأن كبير أمام السلطان، ولكن ابن جماعة كان من أحرار العلماء المعتدلين الذين سلكوا طريقاً وسطاً يجمع بين العقل والنفس أى بين العلم والروح دون أن يتنكب الطريق لا من جانب العقل ولا من جانب النفس.

فهو صوفى من حيث تطهير النفس والقلب من الأدران والشوائب والتمسك بالزهد، أى أنه صَفّى قلبه وأخلص نفسه إلى الله عز وجل، سالكاً به طريق الطاعة فى اعتدال. فالصوفية عنده من صفاء القلب لا من لبس الصوف والإعراض عن الدنيا، والسلوك مسلك الشعوذة والدجل الذى كان جهال الصوفية يتظاهرون به، فيغتر العامة بهم.

وهو عقلى، أو علمى، يتخذ من البحث العلمى والنظر العقلى سبيله إلى إدراك حقائق الأشياء التى تعرض له، فهو علمى فى تفكيره، صوفى فى عمله من حيث يهديه العلم الشرعى النافع المؤدى إلى العمل الطيب بالقلب والجوارح؛

ولم يكن هذا شأن ابن جماعة وحده، وإنما كان شأن الكثير من كبار العلماء في عصره، كالعز بن عبد السلام، وابن دقيق العيد، وجلال الدين السيوطى الذى كان شيخاً للخانقاه البيبرسية(٤٧٥).

وحتى الذين كانوا يحاربون جهلة المتصوفة كابن تيمية، وتلميذه ابن قيم الجوزية، كانوا فى الحقيقة متصوفة أيضاً على طريقة ابن جماعة، وقد ألف ابن القيم كتابه المعروف "مدارج السالكين". وهو فى التصوف والزهد، وليس فى لبس الخرق وادعاد الخوارق فتلك مسائل لم يعرف أن ابن جماعة سلك مسلكها، أو انغمس فيها.

بل إننا عرفنا عنه عند الكلام على شخصيته(٤٧٦) أنه كان مليح الهيئة، جميل الثياب، فلم يهمل زينته التى أمر الله بنى آدم اتخاذها.

كما أنه كان ذا عقلية متفتحة بلغت درجة الرقى والتقدم، إلى حد أننا رأيناه يؤلف رسالة فى علم الفلك سماها "رسالة فى الأسطرلاب" وعرفنا كيف أن بعض الجهال اعتبر أنها من آلات الزندقة(٤٧٧).

ولعلى لا أكون مبالغا إذا قلت إنه لم يكن هناك عالم حاز رضاء الجميع فى عصر المماليك مثل بدر الدين بن جماعة، فقد لهج بعلمه وورعه الجميع، وشهد له الكل بالسبق والفضل فى العلوم والفنون، والتدريس. والحمد على الأحكام القضائية، والخطب الجليلة النافعة ومحبة الأمراء، والعلماء، والأعيان، والصوفية، والعامة.

ولم يَبدُ من أى عالم توجيه نقد له مع كثرة العلماء المنتقدين فى عصره وعلى رأسهم ابن تيمية رحمه الله تعالى.

---

(٤٧٥) راجع عصر سلاطين المماليك لرزق سليم ج٣ - قسم ٢ ص١١.

(٤٧٦) راجع ص ٨٦ من هذا البحث.

(٤٧٧) الوافى بالوفيات للصفدى ٢/٩١، وراجع ص ٩٢ من هذا البحث.

ولقد كان ابن تيمية حربا على متصوفة عصره، ولم يعرف مع ذلك عنه توجيه نقد له، بل على العكس كان ابن تيمية رفيق كفاح ابن جماعة كما قدمنا[٤٧٨]، كما كان ابن جماعة قاضيه الذى حاكمه ومع ذلك فقد أفرد ابن تيمية فصلاً كاملاً فى الثناء عليه والاعتذار عنه، وتمييزه عن جميع قضاة عصره[٤٧٩].

فجميع الأكابر من العلماء العاملين كانوا - ولا يزالون - فى الحقيقة متصوفة إذا كان التصوف يعنى الزهد، والورع، وتقوى الله عز وجل فى السر والعلانية.

ولهذا آثر ابن حجر أن يعبر عن حال ابن جماعة بقوله: "وكان عارفاً بطرائق الصوفية"[٤٨٠].

---

(٤٧٨) راجع ص ١٣٥ من هذا البحث.

(٤٧٩) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢/١٣٠ – ١٣٤.

(٤٨٠) راجع الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ٢/٢٨٣.

الفصل الخامس

وظيفة الإفتـــاء

بداية إفتائه، واستحسان النووى لها

- بعض ما أفتى به - الإفتاء وظيفة تبعية عنده

بداية إفتائه، واستحسان النووى لها:

رغم أن النصوص التى بين أيدينا تدلنا على أن العلامة بدر الدين ابن جماعة قد اشتغل بالفتوى إلا أنَّ أيّا منها لم يذكر لنا متى كان ذلك على وجه التحديد.

وعلى كل حال فإن هذه النصوص قاطعة فى إثبات أنه كان يفتى المسلمين فى مسائل دينهم ودنياهم، وأنه كان مسعود الحظ فى إقبال الناس عليه بفتاواهم، وأن ذلك بدأ فى وقت مبكر من شبابه، ومعنى هذا أنه بدأ يفتى وهو فى أولى مراحل عمله بالتدريس فى مدارس دمشق.

يقول عنه ابن حجر فى ذلك: "وقصد بالفتوى وكان مسعوداً فيها"[(٤٨١)].

ويقول ابن تغرى بردى:

"أفتى قديما، وعرضت فتواه على الشيخ محيى الدين النووى فاستحسن ما أجاب به"[(٤٨٢)].

هذا ولم تذكر لنا هذه المصادر ما هذه الفتوى التى استحسنها الإمام النووى وإن أفادتنا شهادة تقديرية لصالح الشيخ المفتى بدر الدين بن جماعة صادرة من عالم جليل القدر، معروف المنزلة.

---

(٤٨١) الدرر الكامنة لابن حجر ٢٨٢/٣.

(٤٨٢) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢٩٨/٣، طبقات الأسنوى ٣٨٦/١، المنهل الصافى لابن تغرى بردى ج٣: ورقة: ٥٥ (مخطوط).

ومع ذلك فإن كتب التراجم ذكرت له بعض الفتاوى، كما أن مؤلفاته المخطوطة يوجد بها العديد من المسائل التى تعتبر فتاوى وهى متنوعة، منها ماهو فى السياسة السلطانية، ومنها ماهو فى الفقه، كما أن بعضاً منها آثار غضب السلطان عليه إلى حد عزله عن منصب رئاسة القضاء فترة من الوقت.

بعض ما أفتى به:

وسنعرض لثلاث فتاوى منها مختلفة اللون، نوضح بها منهجه وطريقته وشخصيته فيها:

الأولى: فتوى فى تنازل الناصر محمد بن قلاوون عن السلطنة:

وقصة هذه الفتوى أن ركن الدين بيبرس الجاشنكير لما اغتصب الملك من الناصر محمد بن قلاوون فى شوال سنة ٧٠٩هـ، أراد بيبرس أن يأخذ العهد لنفسه من القضاة، والعلماء، والخليفة العباسى، وتحت وطأة السلطان كتبوا له عهدا وقعه الخليفة، بتوليته، وعزل الناصر محمد باعتباره تنازل بمحض اختياره، وبعضهم أفتى بوجوب قتاله باعتبار أنه خارجى، وقد تورط بعض القضاة والعلماء فى هذا.

وقد بدا هذا التورط عندما استنجد الناصر محمد بن قلاوون بأمراء الشام، فأعادوه إلى سلطنته بالقاهرة، وفر بيبرس الجاشنكير، وبدأ الملك الناصر يحاسب الخليفة، والعلماء، والقضاة، الذين تورطوا فى هذه المسألة، فأحضرهم واحداً واحداً.

فقال للخليفة كيف تقول أنا خارجى؟ هل أنا خارجى وبيبرس من بنى العباس؟ فسكت الخليفة.

وقال للقاضى علاء الدين بن عبدالظاهر وكان هو الذى كتب العهد لبيبرس يا أسود الوجه.

وقال للقاضى صدر الدين بن المرحل: كيف تقول فى قصيدتك:

ما للصبى وما للملك يكفله   شأن الصبى بغير الملك مألوف؟

فحلف ابن المرحل أنه ما قال هذا وإنما الأعداء زادوا هذا البيت فى القصيدة، والعفو من شيم الملوك فعفا عنه.

وعندما حضر القاضى شمس الدين بن علان يستأذن فى الدخول على الناصر فقال الناصر للدوادارى قل له: أنت أفتيت أنه خارجى، وقتاله جائز مالك عندى دخول، ولكن عرفه أنه وابن المرحل يكفيهما ما قاله الشارمساحى فى حقهما:

ولى المظفر لما فاته الظفر   وناصر الحق وافى وهو منتصر

وقد طوى الله من بين الورى فتنا   كادت على عصبة الإسلام تنتشر

فقل لبيبرس إن الدهر ألبسه   أثواب عارية فى طولها قصر

لما تولى تولى الخير عن أمم   لم يجمدوا أمره فيها ولا شكروا

وكيف تمشى به الأحوال فى زمن   لا النيل أو فى ولا وافاهم مطر

ومن يقوم ابن علان بنصرته   وابن المرحل قل لى كيف ينتصر؟

وقال السلطان لقاضى القضاة بدر الدين بن جماعة يا قاضى. كنت تفتى المسلمين بقتالى؟ فقال معاذ الله. أن تكون الفتوى كذلك، وإنما الفتوى علي مقتضى كلام المستفتى. فعزله الناصر عن القضاء[٤٨٣].

ونفهم من كلام السلطان مع الشيخ بدر الدين بن جماعة، أن ابن جماعة قد أصدر فتوى بقتال السلطان، كما نفهم من رد ابن جماعة على السلطان بأنه أفتى بذلك، ولكن ليس كما فهم الملك الناصر أنه هو المقصود بالسؤال والجواب عليه، ولكن يبدو من كلام ابن جماعة أن السؤال كان عاماً لم يحدد سلطاناً بعينه، فكأن السائل سأل العلامة بدر الدين: ما رأى الدين فى

(٤٨٣) راجع حسن المحاضرة للسيوطى ٨٥/٢، الدرر الكامنة لابن حجر ١٤٤/٤ – ١٤٨، السلوك للمقريزى ج٢ قسم ١ ص ٧٣ – ٨٤، النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٨/٩ – ٩.

سلطان فر هارباً وترك الملك والرعية نهبا للظلمة ، وتخلى عن وجود المسلمين فى وقت الشدة؟

فصدر الجواب على مقتضى سؤال السائل وهو قتال كل سلطان يتخلى عن المسلمين فى الوقت الذى يحتاجون فيه إليه لدفع جبروت المتجبرين عنهم لأنه بمقتضى الشرع هو السلطان، وهو الذى يجب أن يدافع عنهم، حتى الموت، أو النصر، بصرف النظر عن أن يكون فى هذا الجواب إشارة إلى موقف الناصر محمد بن قلاوون.

ونلاحظ من رد ابن جماعة على السلطان الناصر أنه لم يسكت عن الرد كما فعل الخليفة ، ولم يجرؤ السلطان أن يسبه كما سب ابن عبدالظاهر.

ولم ينكر الفتوى، أو يعتذر عنها ، ويطلب العفو كما فعل القاضى ابن المرحل، ولم يتطاول عليه أحد بشعر ولا ذم؛ وإنما أجاب فى وقار العلماء، وثباتهم، وشجاعتهم فى الحق، فإن الفتوى على قدر السؤال شرعاً.

وهى لم تكن موجهة إلا لقتال السلطان الذى يتخلى عن الرعية وقت الشدة ، فإن كنت منهم وجب قتالك، وإلا فلا.

وبالنظر إلى قضية علاء الدين بن الأثير الذى تمت محاكمته أمام ابن جماعة بشأن تنازل الناصر محمد عن الملك، نرى كيف أن ابن جماعة وقف موقفاً سليماً إلى جانب الحق[٤٨٤] ، وكان الحق مع الملك الناصر، إلا أن الناصر كان فى ذلك الوقت صغير السن لا يتعدى الثامنة عشر من عمره، قليل التجربة ، فلم يقدّر لابن جماعة ، ولا لغيره من العلماء ، أى مواقف اضطرارية دفعوا إليها.

ولعل هذا ما دفع العلامة السيوطى أن يجيب عن ذلك بعد ما يقرب من قرنين ونصف من الزمان من هذه الحادثة حيث يقول السيوطى ما نصه:

---

(٤٨٤) راجع ص ١٧٣ من هذا البحث.

"قلت الكل مظلومون مع الناصر، فإنهم أفتوا بالحق، ولكن جبروت، وظلم، وعسف، وشوكة، وصبى، وجهل فمن يخاطب الإنسان"[٤٨٥].

ولذلك رأينا فيما بعد أن الملك الناصر أعاد ابن جماعة إلى جميع وظائفه التى كان عليها، إما رجوعاً إلى الحق واقتناعاً به، وتأكدا منه، وإما اعترافا بعلم الرجل وخلقه، واستقامته على الحق لا يخاف فيه لومة لائم، مع حفظ اللسان، وقوة الجنان، وصبر فى الأمور العصيبة، أو لهذه الأمور كلها مجتمعة.

الثانية: فتوى تحسين طواف السلطان الناصر راكباً:

وقصة هذه الفتوى هى أن الملك الناصر محمد بدن قلاوون سار إلى الحج فى السادس من ذى القعدة سنة ٧١٩هـ وبصحبته المؤيد صاحب حماة، والأمراء، وقاضى القضاة بدر الدين بن جماعة ومعظم أعيان الدولة.

يقول ابن تغرى بردى عن الملك الناصر، وفتوى ابن جماعة له ما نصه:

"وسار حتى وصل مكة المشرفة بتواضع زائد، بحيث أن السلطان قال للأمير جنكلى بن البابا: لازلت أعظم نفسى إلى أن رأيت الكعبة، ذكرت بوس الناس الأرض لى، فدخلت فى قلبى مهابة عظيمة مازالت عنى حتى سجدت لله تعالى، وكان السلطان لما دخل مكة، حسن له قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة أن يطوف بالبيت راكباً كما فعل النبى ﷺ، فقال له الملك الناصر: ومن أنا حتى أتشبه بالنبى ﷺ، لا طفت إلا كما يطوف الناس، ومنع الحجاب من منع الناس أن يطوّفوا معه وصاروا يزاحمونه وهو يزاحمهم كواحد منهم فى مدة طوافه، وفى تقبيله الحجر الأسود"[٤٨٦].

---

(٤٨٥) حسن المحاضرة للسيوطى ٢/٨٥ — ٨٦.

(٤٨٦) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى ٥٩/٩.

ويكمل المقريزى قصة الناصر هذه فيقول:

"وبلغه أن جماعة من المغل ممن حج قد اختفى منه، فأحضرهم وأنعم عليهم، وبالغ فى إكرامهم، وغسل الكعبة بيده، وأخذ أزر إحرام الحجاج، وغسلها لهم بنفسه"(٤٨٧).

والفتوي ظاهرة لا تحتاج إلى توضيح، وهى أن ابن جماعة أفتى للسلطان أن يطوف راكباً، واستدل على فتواه بسند صحيح هو فعل النبى ﷺ.

وهذه الفتوى لا شىء فيها يستحق التوقف عندها، أو حتى إيرادها.

غير أنى اخترت هذه الفتوى لمظنة أن يخطر بذهن قارىء الفتوى الطعن على ابن جماعة فى أنه أراد أن ينافق السلطان الناصر، باعتباره سلطاناً ويغريه بركوب محفة يطوف عليها تمييزاً له عن باقى حجاج بيت الله الحرام، وإرضاء للسلطان وتملقاً إليه، وزلفى بين يديه.

وقد جال بخاطرى هذا الطعن حقيقة عندما قرأت هذه الفتوى لأول مرة، وعجبت لابن جماعة وهو العالم الجليل الذى دفعنى علمه، ووقاره وشخصيته الفذة التى لم يقدمها أحد إلى أن أكتب عنه، فكيف به يحسن للسلطان أن يطوف أفضل مما يطوف غيره من الناس، حتى وإن كان له سند من الشرع، خاصة وأن الملك الناصر رده رداً قوياً، محقراً نفسه - وهو سلطان - بجانب شخص رسول الله ﷺ، وأردت أن أكتب عن هذه الفتوى - رغم صحتها - بأنها هفوة عالم، وكبوة جواد -غير أنى أمسكت القلم عن ذلك عندما قرأت فى سيرة الملك الناصر بأنه كانت به عاهة العرج، فكأنى بابن جماعة وقد أشفق عليه إشفاق الوالد الرحيم، ملتمساً له من الشرع السمح الرخصة التى يحب الله لعباده أن يؤتوها ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾(٤٨٨).

---

(٤٨٧) السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى ج٢، قسم ١ ص ١٩٧.

(٤٨٨) سورة الأحزاب آية ٢١.

كما أن ابن جماعة رأى فى سلطانه الخشوع لله، والمهابة لجلاله، وهو أمر نادراً ما يوجد فى سلاطين المماليك فأراد أن يزيده توغلا فى الإقبال على المناسك بالتعرف على "رخص الشريعة وتسهيلاتها" حتى يحببه إليها، ويزيده إقبالاً عليها، وتلك حكمة العالم الحصيف الذى يعرف المقبل على الطاعة، فيصورها له بأنها سهلة ميسرة، فإن أخذ برخصة التسهيل، فقد أخذ بشرع الله الواسع الرأفة، وإن أخذ نفسه بالعزيمة فقد أحسن التذلل والخشوع، خاصة إذا كان من سلطان شاب، وأخص ما يكون هذا السلطان من طائفة المماليك ذوى الغلظة والغطرسة، فمثل ابن جماعة فى هذه الفتوى كمثل الطبيب الذى يبدل دواء بدواء إذا ظن فى نفس مريضه معافاة الدواء الأول رغم سرعة إنجاعه.

الثالثة: التفرقة بين نفقة المدخول بها وغير المدخول بها:

أثبت ابن جماعة أن أحقية النفقة للمدخول بها واجب ولغير المدخول بها استحسان، لأنه ليس فى مقابلة شىء، واستدل على ذلك من القرآن الكريم، حيث بين أن الله عز وجل غاير فى أحوال المطلقتين فى الأسلوب فقال تعالى "متاعا بالمعروف حقا على المحسنين" ثم قال بعد ذلك ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (٤٨٩).

وفى توجيه ابن جماعة للإستنباط من الآيتين نورد له ما يأتى:

"أتى بالإحسان فى الأولى، وبالتقوى فى الثانية. لأن الأولى فى مطلقة قبل الفرض والدخول، فالإعطاء فى حقها إحسان، وإن أوجبه قوم، لأنه لا فى مقابلة شىء، فناسب المحسنين.

والثانى فى الرجعية، والمراد بالمتاع عند المحققين النفقة، ونفقة الرجعية واجبة فناسب المتقين.

---

(٤٨٩) سورة البقرة آية ٢٤١.

ويرجح أن المراد به النفقة أنه أورد عقب قوله ﴿ مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾[٤٩٠] والمراد به النفقة، وكانت واجبة قبل النسخ، ثم قال ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ ﴾، فظهر أن النفقة فى عدة الرجعية بخلاف البائن بخلع فإن الطلاق من جهتها فكيف تعطى المتعة التى شرعت جبرا للكسر بالطلاق وهى الراغبة فيه فظهر أن المراد بالمتاع هنا النفقة زمن العدة لا المتعة.

وللعلماء فى هاتين الآيتين اضطراب كثير، وما ذكرته أظهر لأنه تقدم حكم الخلع وحكم عدة الموت، وحكم المطلقة بعد التسمية، وبقى حكم المطلقة الرجعية فيحمل عليه"[٤٩١].

وبهذا التخريج للآيتين الكريمتين نرى أن القاضى بدر الدين ينظر فى الأدلة نظرة فاحصة، واعية، يتذوق الدليل، ويمعن النظر فيه، ثم يسوقه ذكاؤه النادر وفهمه المستقيم إلى التفريق بين متاع "نفقة" عبر الله عز وجل عنها بأنها "حق على المحسنين" وبين نفقة أخرى عبر عنها بأنها "حق على المتقين".

والتعبير فى جانب الحق فى الأولى بأنه إحسان يدل على أن هذا الحق غير واجب - وإن أوجبه قوم - والتعبير فى جانب الحق الثانى بأنه على المتقين يفيد الضرورة اللازمة أى الوجوب عليهم.

كما رجح ابن جماعة أن معنى المتاع فى الآيتين هو "النفقة"، واستدل على ذلك أيضاً باستعمال النظر الثاقب المفهوم من إضافة المتاع إلى الحول فتبين أن المراد به النفقة.

---

(٤٩٠) سورة البقرة آية ٢٤٠.

(٤٩١) كشف المعانى عن المتشابه من المثانى لابن جماعة ص تحقيق د/ عبد الجواد خلف، وراجع طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ٢٣٢/٥.

وفهم من إضافة المطلقة إلى المتاع، أنه نفقة الرجعية لا نفقة البائن بخلع، لأن الطلاق فى الرجعية من جهة الزوج فالنفقة جبر للكسر بالطلاق، والمخلوعة طلاق من جهتها وهى الراغبة فيه.

وهذه الفتوى نموذج واحد من عشرات النماذج التى يوردها ابن جماعة فى كتبه، وهى فى الواقع الدليل الحقيقى على مدى طول باعه فى العلم، وامتداد نفسه فى الإستنباط المؤدى إلى استخلاص الحكم الذى تطمئن إليه النفس، وهى مقدرة علمية فذة، قلما تتوفر فى كثير من العلماء، إذ أنها تحتاج إلى علم غزير، وقريحة نفاذة واعية.

الإفتاء عنده وظيفة تبعية:

بقى أن نقول: إن الإفتاء عند ابن جماعة لم يكن وظيفة رسمية ولا مستقلة، وإنما جاءت تبعاً لكونه مدرساً، وعالماً، يتعرض دائماً لسؤال الطلاب، ولكل سائل يحتاج إلى جواب، ولإبداء الرأى عند معايشة النوازل والواقعات.

ذلك أن كل حكم جاد على سؤال سائل تكفل ببيانه قرآن أو سنة فهو فتوى، والقائم به مفت[٤٩٢].

ورغم أن وظيفة الإفتاء كانت من الوظائف الرسمية فى الدولة، وكان مقرها دار العدل بالقاهرة، وقد عدها القلقشندى الوظيفة الثالثة من وظائف الصنف الأول وهم الذين لهم مجلس يحضره السلطان، إلا أن قاضى القضاة ابن جماعة لم يعين فى هذه الوظيفة من قبل الدولة.

وكانت وظيفة الإفتاء بدار العدل معقودة لأربعة علماء من كل مذهب واحد، وكان جلوسهم دون قضاة العسكر[٤٩٣].

---

(٤٩٢) راجع الخطط المقريزية ٤/٦٠.

(٤٩٣) نفس المصدر والجزء ص ٣٦.

وربما أن ابن جماعة لم يعين فى هذه الوظيفة رسمياً لكونها كانت أقل مرتبة من وظيفته على قضاء القضاة التى كانت فوق منزلة قضاء العسكر كما أن فتاواه تعتبر قليلة جدًا بالنسبة لما جمع من فتاوى العلامة ابن تيمية مثلاً، والله أعلم.

نقد وتحليل:

فى ختام هذا الباب الذى عرضنا فيه وظائف العلامة بدر الدين ابن جماعة، والبابين السابقين عليه واللذين كانا بمثابة توطئة تاريخية لحياته، وأخلاقه، وصفاته، ينبغى علينا أن نتوقف قليلاً، لنستعرض من خلال هذه الوقفة نظرة تحليلية ناقدة لهذه الشخصية الجليلة التى نقدمها للقارىء الكريم لأول مرة.

والناقد المحلل غير مطالب بتفسير النصوص التاريخية حسب هواه، ولا هو بمكلف أن يفسر هذه النصوص بغير ما تدل عليه، وإنما حسب الناقد المحلل، ذكر الوقائع التاريخية من مصادرها المعتمدة، وتمييز صحيحها من سقيمها، والحكم على الشخصية التاريخية المراد دراستها من خلال هذه النصوص المميزة.

ومن خلال عرضنا لشخصية العلامة بدر الدين بن جماعة فى الأبواب الثلاثة المتقدمة نستطيع أن نقول فى ثقة واطمئنان، إنه كان شخصية علمية، متميزة، ذات أثر فعال فى مجال العلم والفكر والثقافة، وفى مجال السياسة والحياة الاجتماعية، لا بالنسبة لعصره فحسب، بل بالنسبة للأجيال التى جاءت بعده.

أما عن شخصيته:

فهى صورة مثالية للعالم الجليل فى خَلْقِه، وخُلُقه، وفى دينه، وورعه، لم يشذ مصدر من المصادر التاريخية عن وصفه بذلك.

يدعم هذه الشخصية أسرة عريقة فى نسبها، وعلمها، مما يزيدها وقاراً، وهيبة.

وأما عن علمه: فقد تلقاه عن خيار علماء عصره، حتى تقدم، وساد أقرانه.

وأما تميزه: فقد تفرده بالعديد من المناصب الهامة فى دولة المماليك مما لم يتفق لغيره من كبار علماء عصره.

أما تأثيره:

(أ) ففى مجال العلم والفكر والثقافة يبدو لنا هذا التأثير واضحاً، ممتداً إلى عصرنا الحاضر وذلك فيما خلفه لنا من مصنفات عديدة لازالت بين أيدينا حتى الآن يستشهد بها الباحثون المعاصرون فى أبحاثهم(٤٩٤)، ويحققها المحققون فى مجالات فنونهم المختلفة(٤٩٥).

كما يبدو لنا هذا الأثر الممتد فى تلاميذه الذين تلقوا العلم على يديه كأبى حيان، والسبكى، والصفدى، وغيرهم(٤٩٦)، ثم العلامة المقريزى وابن حجر فى الجيل التالى لهم، ثم من بعدهم من أجيال تتلمذت عليهم حتى وصلت إلينا أنوار مشاعلهم، فاستضأنا بها.

(ب) وفى مجال السياسة والحياة الإجتماعية: فقد ساهم ابن جماعة مساهمة فعلية فى المفاوضات الجارية مع غزاة التتار بالاشتراك مع رفيق كفاحة العلامة ابن تيمية، وغيرهما، كما ساهم فى إعداد الشعب للجهاد بفتح المدارس لتدريب العامة على استعمال الأسلحة، تحسبا لملاقاة العدو(٤٩٧).

---

(٤٩٤) راجع ص ٣٦٢ من هذا البحث.

(٤٩٥) راجع ص ٣٦٢ من هذا البحث.

(٤٩٦) راجع ص ١٩٧ وما بعدها من هذا البحث.

(٤٩٧) راجع ص ١٣٧ من هذا البحث.

وكان من أثره السياسى، جمع كلمة أمراء المماليك، وفض المنازعات التى كانت تنشأ بينهم للوقوف أمام الأعداء صفا واحداً.

كما كان من أثره على مجتمع عصره، شفقته على أبناء أمته، والتوسط بينه وبين أمراء المماليك وسلاطينهم لرفع المظالم عنهم، علاوة على آثاره الإجتماعية عليهم باعتباره خطيباً مفوها يملك عواطف الجماهير، ويؤثر فى توجيهها، ويقودها إلى صالح الأمة، ومصلحتها.

وباعتباره أستاذا فى أكثر مدارس الدولة الجامعة، يحسن تربية أبنائه من غير عنف ولا تخجيل، ويقود حركة التربية والتعليم وإنشاء المدارس وتنظيمها.

أما القضاء، فسيظل التاريخ يذكر له أنه القاضى الذى حاكم ابن تيمية، وحاكم ابن الأثير، فكان مثال العدالة، والنزاهة، ومثال الشجاعة لوقوفه ضد رغبة الدولة ومصلحة السلطان فى هاتين المحاكمتين، وإذا كانت قضية ابن تيمية قد انتهت به إلى السجن، فلم يكن ذلك الحكم قضائياً، وإنما هى الضرورة التى رآها القاضي ببعد نظره تتعدى حكم القضاء إلى القرار السياسى[٤٩٨].

غير أن النقد الوحيد الذى يمكن أن نأخذه على العلامة بدر الدين ابن جماعة، هو ملاينته، وحلمه، لسلاطين المماليك وأمرائهم، وإن اعتذر عنه فيها بأنها: دربة عالم، ومعالجة طبيب[٤٩٩].

---

(٤٩٨) راجع ص ١٦٨ من هذا البحث.

(٤٩٩) راجع ص ١٣٩ وما بعدها من هذا البحث.

الباب الرابع

مؤلفات ابن جماعة، ومنهجه فى التأليف

الفصل الأول: مؤلفات ابن جماعة ، وأماكن وجودها.

الفصل الثانى: منهجه فى التفسير:

(أ) منهجه فى تفسير المبهمات من خلال كتابه: (غرر التبيان فيمن ل يسم فى القرآن).

(ب) منهجه فى تفسير المشابهات من خلال كتابه: (كشف المعانى عن المتشابه من المثانى).

الفصل الثالث: منهجه فى الحديث.

الفصل الرابع: منهجه فى الفقه والأحكام.

الفصل الخامس: منهجه فى العقائد والكلام

الفصل السادس: منهجه فى السياسة الشرعية.

الفصل السابع: منهجه فى النحو.

الفصل الثامن: منهجه فى التربية والتعليم وتنظيم المدارس.

الفصل التاسع: منهجه فى الأدب.

(أ) نثره: خصائصه.

(ب) شعره: أغراضه وخصائصه ، شعره العلمى ، شعره فى المناسبات والاعتذار ، فى الحكم والوصايا ، وضرب المثل ، فى المديح النبوى ، والتأمل الوجدانى ، والغزل الروحى.

(ج) نقد وتحليل.

الفصل الأول

مؤلفات ابن جماعة، وأماكن وجودها، كثرة تآليفه، مؤلفاته فى التفسير وعلومه، والحديث وعلومه، والفقه، والعقائد والكلام، والتاريخ، والنحو، والأدب، وعلوم الحرب، والفلك

تمهيد:

عرضنا فيما سبق فصولاً تكلمنا فيها على نواحى التأثير الفكرى والعلمى لابن جماعة على مجتمع عصره، وتلاميذه ونعرض الآن لوناً آخر من ألوان هذا التأثير، وهو الكتابة التأليفية.

ومما لا شك فيه أن الكتاب المؤلف أبعد وأدوم تأثيراً من الوظائف الزمنية المحدودة.

وإذا كنا عرفنا تأثير الوظيفة المدرسية، أو وظيفة الخطابة، أو مشيخة الشيوخ أو غيرها فهى على كل حال، لا تصل إلى درجة تأثير المؤلفات التى لازالت تحت أيدينا، وستظل ملكاً لمن بعدنا، باعتبارها تراثاً فكرياً باقياً، وعلما دائماً ينتفع به.

فهل كان للعلامة بدر الدين بن جماعة مجال فى التآليف؟ وما هى هذه المؤلفات؟ وأين هى الآن؟

وللجواب عن ذلك نقول:

"تؤكد المصادر التى بين أيدينا بصورة قاطعة أن ابن جماعة كان من كبار المصنفين، بل ومن المكثرين أيضاً.

وبعض هذه المصادر إذا تحدثت عنه كمصنف قالت:

"له التصانيف الفائقة"[(٥٠٠)] أو "صنف كثيراً فى عدة فنون.. وكان صاحب معارف يضرب فى كل فن بسهم"[(٥٠١)] أو "كان إماماً عالماً مصنفاً"[(٥٠٢)] أو "ألف فى فنون كثيرة"[(٥٠٣)] أو "له معرفة بفنون وعدة مصنفات"[(٥٠٤)] أو تقول "له مشاركة حسنة فى علوم الإسلام"[(٥٠٥)] أو "له تصانيف سائرة"[(٥٠٦)] أو "صنف التصانيف"[(٥٠٧)] أو تقول "ومن تصانيفه الكثيرة"[(٥٠٨)] كذا وكذا.

وجميع هذه العبارات تجعلنا نؤكد أن ابن جماعة ألف العديد من الكتب، وسجل كثيراً من الرسالات، وكان له باع واسع فى التصنيف، خصوصاً ولا سيما أن أكثر الذين ذكروا مؤلفاته وأثنوا عليها، إنما هم من المعاصرين له، العالمين بأحواله العارفين بمصنفاته، وبعضهم كان تلميذاً له.

وهذه العبارات توحى بأن العلامة بدر الدين غزير التأليف وافر الإنتاج، وهذا أمر محتمل جداً، بالنسبة لعالم جليل، حيث دأبت أكثر المراجع على أن تورد بعضاً منها، ثم تشير إلى الكثير الذى لا تذكره.

وقد جمعت من أسماء المصنفات ماهو مذكور بالفعل فى بطون هذه المصادر، وأشرت إلى المطبوع منها، ومالم يطبع، وأماكن تواجدها، وسنعرضها فيما يأتى حسب أنواع العلوم والفنون التى صنفت فيها.

---

(٥٠٠) البداية والنهاية لابن كثير ١٦٣/١٤.

(٥٠١) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٢٨٠/٣ — ٢٨٣.

(٥٠٢) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى ٢٩٨/٩.

(٥٠٣) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى ١٩٨/١ — ١٩٩.

(٥٠٤) المختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا ١٠٨/٤.

(٥٠٥) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى ١٠٦/٦.

(٥٠٦) مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعى ٢٨٧/٤.

(٥٠٧) دول الإسلام للذهبى ١٨٦/٢.

(٥٠٨) معجم المؤلفين لعمر كحالة ٢٠١/٨.

أولاً: التفسير وعلومه:

١ - التبيان فى مبهمات القرآن

ذكره حاجى خليفة فى كشف الظنون[٥٠٩]، وإسماعيل باشا فى الذيل عليه تحت اسم "التبيان لمبهمات القرآن"[٥١٠] كما ذكره صاحب هدية العارفين[٥١١]، والقاضى مجير الدين[٥١٢].

ولم يشر أى مرجع من المراجع إلى أى مكان به نسخ مطبوعة أو مخطوطة لهذا الكتاب، وإنما الذى أشار إليه هو العلامة بدر الدين بن جماعة نفسه فى كتابه (المخطوط) "غرر التبيان" الآتى ذكره، فإنه ذكر فى مقدمة هذا المخطوط ما نصه:

"هذا كتاب اختصرت فحواه من كتاب سبق لى فى معناه أذكر فيه إن شاء الله تعالى اسم من ذكر فى القرآن العظيم بصفته، أو لقبه، أو كنيته، وأنساب المشهورين من الأنبياء، والمرسلين، والملوك المذكورين، والمعنى بالناس والمؤمنين إذا ورد لقوم مخصوصين، وعدد ما أبهم عدده، وأمد مالم يبين أمده"[٥١٣].

ومعنى هذا أن كتاب "غرر التبيان" هو مختصر لكتاب "التبيان فى مبهمات القرآن" لأن موضوعهما واحد وهو تفسير مبهمات الكتاب العزيز.

والذى بين أيدينا هو كتاب الغرر المختصر، أما التبيان نفسه فقد بذلت جهدًا كبيرًا للبحث عنه فى مكتبات العالم دون جدوى، وأيًا ما كان الأمر

---

(٥٠٩) كشف الظنون لحاجى خليفة ٣٤١/١.

(٥١٠) إيضاح المكنون لإسماعيل باشا ٢٢٤/١.

(٥١١) هدية العارفين فى أسماء المؤلفين لإسماعيل باشا ١٤٨/٢.

(٥١٢) الأنس الجيل بتاريخ القدس والخليل لمجير الدين الحنبلى ٢٨٠/٢.

(٥١٣) مخطوط غرر التبيان فيمن لم يسم فى القرآن ورقة رقم ١.

فإنه يفهم من اللجوء إلى اختصاره فى كتاب الغرر أنه كان كتاباً ضخماً دفع العلامة بدر الدين إلى اختصاره تسهيلاً على القارىء.

وابن جماعة بتأليفه لهذا الكتاب يعد من أوائل المصنفين الذين كتبوا فى "علم مبهمات القرآن"، وهم ثلاثة كتبوا فى هذا العلم، أذكرهم حسب ترتيبهم وهم: العلامة عبدالرحمن السهيلى المتوفى سنة ٥٨١هـ فقد صنف كتابه المعروف باسم "التعريف والإعلام فيما أبهم فى القرآن من الأسماء[٥١٤] والأعلام"، وهو كتاب لطيف الحجم يقع فى (١٤٧) صفحة قامت بطبعه مكتبة الأزهر الكبرى بمصر سنة ١٣٥٦هـ (١٩٣٨م) بتحقيق الشيخ محمود ربيع المدرس بالأزهر.

ثم جاء تلميذ الإمام السهيلى العلامة محمد بن على بن عساكر فأكمل ما أغفله أستاذه فى كتاب سماه "التكميل والإتمام لكتاب التعريف والاعلام".

ثم جاء ابن جماعة فألف كتاباً، وافياً، جامعاً للكتابين فى علم المبهمات، وسماه »التبيان« هو هذا الكتاب الذى لم نعثر عليه بعد، وإن عثرنا على مختصره الآتى ذكره.

فإذا كان السهيلى أول من كتب فى علم مبهمات القرآن فإن ابن جماعة هو أول من أوفى هذا الفن تصنيفاً وتأليفاً بمؤلفيه "التبيان"، ومختصره "الغرر". ولهذا عدّه الإمام السيوطى من مؤسسى هذا العلم حيث يقول عند الكلام على النوع السبعين من علوم القرآن وهو علم المبهمات ما نصه:

"أفرده بالتأليف السهيلى، ثم ابن عساكر، ثم القاضى بدر الدين ابن جماعة"[٥١٥].

---

(٥١٤) راجع كشف الظنون ٤٢١/١، تحت اسم التعريف والإعلام.

(٥١٥) الإتقان فى علوم القرآن ١٤٥/٢.



هذا وقد ذكر السيوطى أن له مؤلفا فى هذا العلم سماه - مفحمات الأقران فى مبهمات القرآن - يفوق كتب السهيلى، وابن عساكر، وابن جماعة بما جمع فيه، وأورد منه فى كتاب الإتقان خمس صفحات، وقد بحثت عن هذا الكتاب حتى وجدته مطبوعاً[٥١٦] فيما لا يزيد عن خمسين صفحة بالحجم الصغير بحيث أن هذه الكتب الثلاثة للسهيلى، وابن عساكر، والسيوطى لو جمعت لا تصل إلى حجم كتاب ابن جماعة المختصر المسمى بالغرر فضلا عن الكتاب المطول "التبيان".

مما يمكن القول معه بأن ابن جماعة هو الذى أرسى علم مبهمات القرآن، واستوفى جمع مادته.

٢ - غرر التبيان فيمن لم يسم فى القرآن[٥١٧]:

أورده صاحب ذيل كشف الظنون تحت اسم "غرر البيان" لا غرر التبيان، كما هو مذكور فى نسخة الأسكوريال.

وهذا الكتاب مخطوط توجد النسخة الأصلية منه بخط المؤلف العلامة بدر الدين محفوظة بمكتبة الأسكوريال بأسبانيا[٥١٨]، وهو مذكور فى الجزء الأول من فهرس المخطوطات المصورة بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة[٥١٩].

---

(٥١٦) المطبعة المحمودية التجارية بمصر الطبعة الأولى فى رمضان سنة ١٣٤٨هـ.

(٥١٧) قمت بحمد الله بتحقيق هذا الكتاب، وطبع بدار قتيبة للنشر – دمشق – سوريا.

(٥١٨) راجع فهرس الأسكوريال الجزء الأول برقم ١٥٩٨، هدية العارفين فى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ١٤٨/٢، والأنس الجليل بتاريخ القدس والجليل لمجير الدين ٤٨٠/٢.

(٥١٩)فهرس مخطوطات جامعة الدول العربية ٣٥/١، انظر الوحة رقم (١) فى صفحات الضمائم واللوحات: ١٤٢ من هذا ابحث وهى الورقة الثانية من النسخة الأصل لمخطوط غرر التبيان، وكذا اللوحة (٣) وهى اللوحة الثانية لهذا المخطوط نسخة عارف حكمت.

وقد قام هذا المعهد مشكوراً بأخذ صورة من الأسكوريال لهذه النسخة محفوظة بالمعهد تحت رقم ١٥٩٨/ ٢ -١١٠ ق حجم كبير كما أن مجمع البحوث الإسلامية بإسلام آباد قد قام بتصوير النسخة التى صورها معهد المخطوطات العربية، وقد اطلعت على هذه النسخة، ورأيت عليها سماعات بخط قاضى القضاة عز الدين ابن المؤلف.

كما توجد نسخة أخرى بخط حديث نسبياً بمكتبة عارف حكمت ومحفوظة الآن بمكتبة المحمودية بالمدينة المنورة وقد كتب عليها "غرر البيان".

وقد رتب العلامة ابن جماعة ذكر المبهمات على ترتيب سور القرآن، وأورد كل ما ذكره حول هذه المبهمات من أقوال النبى ﷺ، والصحابة، والتابعين دون عزو لقائل اختصاراً، فإن كان فى المسألة أقوال فإنه يذكر ذلك بلفظ: وقيل كذا.

وأعتقد أن عزو كل قول لقائله موجود فى الكتاب المطول وهو التبيان الذى سبق أن تكلمنا عليه.

٣ - كشف المعانى عن المتشابه من المثانى[٥٢٠]:

ذكره حاجى خليفة[٥٢١]، وإسماعيل باشا[٥٢٢]، وصاحب هدية العارفين[٥٢٣].

وهو مخطوط محفوظ بالخزانة التيمورية المهداة الآن إلى دار الكتب المصرية ضمن مجموعة تفسير صفحة (٢٥) تحت رقم (٢٢٥)، أوله: "الحمد لله الذى أنزل القرآن هدى ونوراً وشفاء للمؤمنين"[٥٢٤].

---

(٥٢٠) قمت بحمد الله بتحقيق هذا الكتاب وهو تحت الطبع.

(٥٢١) كشف الظنون لحاجى خليفة ١٤٩٥/٢.

(٥٢٢) إيضاح المكنون لإسماعيل باشا ٣٦٧/٢.

(٥٢٣) هدية العارفين فى أسماء المؤلفين لإسماعيل باشا ١٤٨/٢.

(٥٢٤) فهرس الخزانة التيمورية ٢٢٩/١.

ويوجد نسخة مصورة سنة ١٩٦٢م ومجلدة ومودعة فى دار الكتب المصرية ومحفوظة تحت رقم (١٨١٨ ب) وعدد القطع المصورة (٥٣) ثلاث وخمسون قطعة كل صورة مقاسها (٢٧ × ٢٥ سم) وكل صفحتين مقابلتين مسطرته (٢١) إحدى وعشرون سطراً يبدأ برقمى (٢٦، ٢٧) متقابلتين فى القطعة المصورة الأولى، وتنتهى القطعة المصورة الأخيرة بصفحة واحدة كتابتها غير منتظمة وخطها مائل ورقمها (١٢٨) ويعرف من التعليقات التى عليها أن أصلها مصرى.

وعلى هذه النسخة تملك غير واضح باسم مالكه، وكذا خاتم غير واضح اسم صاحبه وأول هذا المخطوط هو:

"الحمد لله الذى أنزل القرآن هدى ونوراً وشفاء للمؤمنين وموعظة وتذكيراً، وبعث به سيدنا محمد ﷺ بشيراً ونذيراً"[٥٢٥]. وآخره "تم كتاب كشف المعانى فى المتشابه من المثانى بعون الله تعالى ومَنِّهِ تاريخ ثانى شوال سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بالقدس الشريف"[٥٢٦].

ويعنى ابن جماعة فى هذا الكتاب بما ذكره هو فى مقدمته بقوله:

"لما منّ الله تعالى بالقرآن العزيز وحفظه، وتحصيله، والوقوف على ما قدر من تفسيره وتأويله، واتفق إلقاء دروس التفسير فى المدارس، وما يظهر فى بحوثها من النفائس، وبما لهج به بعض فضلاء الحاضرين بمسائل حسنة غريبة، وسأل عن مناسبات ألفاظها لمعانيها العجيبة، مالم يذكر بعضه أو أكثره فى كتب التفسير المشهورة، ولا ألمت به فى أسفارها المسطورة من اختلاف ألفاظ معان مكررة، وتنويع عبارات فنونه المحررة، ومن تقديم وتأخير. وريادات ونقصان، وبديع وبيان، وبسط واختصار، وتعويض حروف

---

(٥٢٥) راجع ص٢ من هذا المخطوط.

(٥٢٦) راجع ص١ من هذا المخطوط.

بحروف أغير، فتُحَلّ تلك الأسئلة بما يفتح الله تعالى به إما منقول أو غير منقول، وقد استخرت الله تعالى فى ذكر أجوبة ما على الخاطر منه، باختصار لا غنى لفهمه عنه، وسميته كشف المعانى فى المتشابه من المثانى"[527].

٤ - الفوائد اللائحة من سورة الفاتحة:

ذكره مجير الدين[528]، وصاحب الذيل على كشف الظنون[529]، وصاحب هدية العارفين[530].

وأورده كارل بروكمان باسم "الفوائد اللائحة من معانى الفاتحة" وذكر أنه محفوظ فى "ليدن بهولندا تحت رقم ١٦٣٦" فقال فى معرض مؤلفات القاضى بدر الدين بن جماعة ما نصه[531]:

٥ - المقتص فى فوائد تكرار القصص:

ذكره إسماعيل باشا فى هدية العارفين[532]، وفى ذيل كشف الظنون[533]، أما حاجى خليفة فقد ذكره باسم المقتص فى فوائد تكرير القصص[534].

---

(٥٢٧) قمت بحمد الله تعالى بتحقيق هذا الكتاب وطبع بدار البيان بالقاهرة، راجع هذه المقدمة فى النسخة المطبوعة ص ٧٩ — ٨٠،

انظر: اللوحة رقم (٣) ص: الضمائم من هذا البحث وهى الورقة الأولى من هذا المخطوط.

(٥٢٨) الأنس الجليل لمجير الدين ٤٨٠/٢.

(٥٢٩) إيضاح المكنون لإسماعيل باشا ٢٠٩/٢.

(٥٣٠) هدية العارفين لإسماعيل باشا ١٤٨/٢.

(٥٣١) -Al-FAWAID -Al- LAHA MINAMNNAANIL - FAATIHLEID-
FATIG = HLEID١٦٣٦

(٥٣٢) هدية العارفين لإسماعيل باشا١٤٨/٢.

(٥٣٣) إيضاح المكنون ٥٤٧/٢.

(٥٣٤) كشف لظنون لحاجى خليفة ١٧٩٣/١.

ولم أعثر لهذا الكتاب على إشارة توضح لنا مكان وجوده الآن فيما تيسر بين يدى من مصادر ومراجع، وواضح من عنوانه أنه تتبع دقيق لقصص القرآن الكريم وبيان الحكم والفوائد من تكرار أكثر قصص الأنبياء مع أممهم.

ثانياً: الحديث وعلومه:

٦ - المنهل الروى فى مختصر علوم الحديث النبوى(٥٣٥):

أورده القاضى(٥٣٦) مجير الدين، وإسماعيل البغدادى(٥٣٧)، وعمر كحالة(٥٣٨)، ودائرة المعارف الإسلامية(٥٣٩) وذكره حاجى(٥٤٠) خليفة أيضاً.

ولهذا الكتاب نسخة وحيدة بخط العلامة بدر الدين بن جماعة نفسه محفوظة بدير الأسكوريال بأسبانيا تحت رقم (١/١٥٩٨)، كما أن معهد مخطوطات جامعة الدول العربية بالقاهرة حصل على ميكروفيلم لهذا المخطوط من هذا الدير بنفس رقمه المحفوظ به(٥٤١).

ولعل هذا الكتاب أحد مصنفاته فى صدر عمله بالتدريس، إذ يرجع تاريخ نسخه إلى سنة ٦٨٧هـ، وهى السنة التى توجه فيها إلى بيت المقدس ليتولى القضاء، والخطابة به، انتهى من تأليفه وهو فى دمشق قبيل توجهه إلى القدس كما يذكره هو فى آخر هذا المؤلف وهذا الكتاب فى علوم الحديث، وهو مختصر أو تهذيب لكتاب "المقدمة" لابن الصلاح أسبق من ألف

---

(٥٣٥) انظر اللوحة رقم: ٧، الضمائم ١٥٧ وهى الورقة الأولى من هذا المخطوط.

(٥٣٦) الأنس الجليل لمجير الدين ٤٨٠/٢.

(٥٣٧) هدية العارفين ١٤٨/٢.

(٥٣٨) معجم المؤلفين ٢٠١/٨.

(٥٣٩) دائرة المعارف الإسلامية ١٤٨/٢.

(٥٤٠) كشف الظنون لحاجى خليفة ١٨٨٤/٢، ١٦٦٣.

(٥٤١) راجع فهرس مخطوطات جامعة الدول العربية ١١٠/١.

كتاباً جامعاً لما سبقه فى علوم الحديث، ويعنى هذا أن ابن جماعة مشارك لابن الصلاح فى إرساء قواعد هذا الفن أيضاً، كما كان أول من استوفى قواعد علم مبهمات القرآن الكريم على ما قدمنا.

وهذه النسخة تقع فى سبع وخمسين ورقة ذات الحجم الكبير، وكل ورقة مكونة من صفحتين، فى كل صفحة ما بين (١٨، ١٩) سطراً يتراوح عدد كلمات السطر الواحد ما بين عشر إلى ثلاث عشرة كلمة، وخطها واضح مقروء، ماعداً بعض الحواشى التى طمست بسبب تقادم العهد، أو الإهمال، كما أن ترتيب بعض الأوراق غير صحيح، وفى اللوحة الأخيرة بوجهيها سماعات كثيرة، وقد رتب ابن جماعة كتاب المنهل على مقدمة وأربعة أطراف، وذكر فى خطبته للكتاب أنه عكف على فوائد مقدمة ابن الصلاح، وحرص على أن يلخص ألفاظها لنفسه، لتقريبها عند مراجعة دروسه التى كان يلقيها لطلابه، فكان أن قدر الله له وجود هذا المختصر.

وأول الكتاب "بسم الله الرحمن الرحيم - الحمد لله الذى أوضح لمعالم السنة سبيلاً، وجعلها على أحكام الشريعة دليلاً"(٥٤٢).

وآخره "تم هذا الكتاب بحمد الله تعالى ومنّه، وفرغت منه بحمد الله تأليفاً وكتابة فى ثامن عشر شعبان بدمشق المحروسة سنة سبع وثمانين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم كثيراً.

كتبه:

محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن على بن جماعة بن حازم الكنانى الشافعى لطف الله تعالى به ولله الحمد والمنة"(٥٤٣). وقد حصلت على

---

(٥٤٢) مخطوط المنهل الروى فى علوم الحديث النبوى لبدر الدين بن جماعة اللوحة الثانية الوجه الأول.

(٥٤٣) اللوحة (٥٦) من نفس المخطوط.

نسخة مصورة بالميكروفيلم لهذا المخطوط من معهد مخطوطات جامعة الدول العربية.

هذا ومن الجدير بالذكر أن المعهد المذكور نشر هذا الكتاب فى مجلة المعهد[٥٤٤] بتحقيق الدكتور محيى الدين عبد الرحمن رمضان، وقد استوفى الأستاذ المحقق الغاية العلمية المرجوة من التحقيق، وبذل فيه جهداً مشكوراً، حتى خرج هذا الكتاب بالصورة الحديثة اللائقة به، وبمؤلفه فجزاه الله خير الجزاء.

ويعتبر هذا الكتاب بعد تحقيقه المشار إليه من أوفى وأحسن ما صنف فى علوم الحديث حتى الآن بما فيها المصنفات الحديثة.

٧ - الفوائد الغزيرة المستنبطة من حديث بريرة:

هذا الكتاب ذكره مجير[٥٤٥] الدين، وصاحب الذيل على كشف الظنون[٥٤٦]، كما ذكره صاحب هدية العارفين فى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين[٥٤٧]، وغيرهم، ولم أعثر عليه حتى الآن، وإن كان كما يبدو من عنوانه أنه رسالة فى شرح حديث بريرة رضى الله عنها.

٨ - مختصر فى مناسبات تراجم البخارى لأحاديث الأبواب:

ذكره كارل بروكلمان وأشار إلى أنه محفوظ فى كوبريلى والقاهرة تحت رقم ٧ -٢٦٠ فقال ما نصه:

---

(٥٤٤) المجلد الحادى والعشرون الجزء الأول جمادى الأولى ١٣٩٥هـ، مايو ١٩٧٥م. ص٢٩ -١١٦، الجزء الثانى ذو القعدة ١٣٩٥هـ - نوفمبر ١٩٧٥، ص ١٩٦ — ٢٥٥.

(٥٤٥) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجير الدين الحنبلى ٢/٤٨٠.

(٥٤٦) إيصاح المكنون لإسماعيل باشا ٢/٨٠٣.

(٥٤٧) الجرء الثانى ص ١٤٨

٢- Muhtasar Fi Minasbat taragum ALBOKHAR Liahakit abwab Kapp VII, ٢٦٠.[٥٤٨]

وهذا الكتاب طبعته الدار السلفية فى بمباى بالهند سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م بتحقيق الأستاذ محمد إسحاق محمد إبراهيم السلفى... وحصلت على نسخة من هذا المحقق.

٩ - مختصر أقصى الأمل والشوق فى علوم حديث الرسول لابن الصلاح:

وقد أشار إلي ذكره بروكلمان دون أن يحدد المكان المحفوظ به ولم أر هذه الإشارة إلا لبروكلمان وواضح من العنوان أن الكتاب مختصر وأن المطول هو أقصى الأمل والشوق للعلامة ابن الصلاح كما أورده بروكلمان:

٢- Muhtasar Agṣal - amul Was - Sauq: Fi ulum hadit ar - rasl Libn as - Salah S١. ٤٤.[٥٤٩]

١٠ - أربعون حديثاً تساعية[٥٥٠]:

هذا الكتاب ذكره له اليافعى فى مرآة الجنان حيث يقول فى ترجمته للعلامة بدر الدين بن جماعة ما نصه:

"له تصانيف سائرة، وأربعون تساعية[٥٥١]". كما أورد ذكره كارل بروكلمان وأشار إلى أنه: "محفوظ فى برلين برقم ١٦٢٢" فقال فى معرض ذكر مؤلفات ابن جماعة ما نصه:

١- Al - Ahadt at - araba Un at - husaiyat - usnad, ٤٠.
Neunfach bilrgete Tradionon. Berl. ١٦٣٥,
Lehrbige Darube a,d,hj, ٧١٨ eb ١٥٣.[٥٥٢]

---

(٥٤٨) Brock g. ٢ : ٧٤.

(٥٤٩) Brock g : ٢: ٧٤.

(٥٥٠) تم لى بحمد الله تحقيق هذا الكتاب وطبع بدار البيان للطبع والنشر بالقاهرة.

(٥٥١) مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعى ٤/٢٨٧.

ثالثاً: علم الفقه:

١١ - العمدة فى الأحكام:

ذكره العلامة السخاوى فى الضوء اللامع فى ترجمة إبراهيم بن محمد ابن محمد ابن سليمان بن على بن إبراهيم بن حارثة بن حنفية حيث قال:

"كان آية بديعة فى الحفظ، فحفظ كتبا جمة، كالعمدة فى الأحكام للبدر ابن جماعة"[٥٥٣].

وهذه العبارة تدل على أن هذا الكتاب كان عظيم الفائدة، غزير المادة فى فقه الشافعية وإلا ما أقبل العلماء على الإعتناء به، والسعى فى حفظه، كما يستفاد من قول السخاوى.

ولم أعثر عليه حتى الآن، كما لم أعرف مصدراً لذكره غير مصدر السخاوى.

١٢ - كشف الغمة فى أحكام أهل الذمة:

أورد ذكره القاضى مجير الدين[٥٥٤]، كما ذكره صاحب الذيل على كشف الظنون[٥٥٥]، وصاحب هدية انعارفين[٥٥٦]، وذكره الدكتور محيى الدين رمضان فى عرضه لمؤلفات ابن جماعة[٥٥٧].

ولم يذكر أى مصدر من المصادر أو المراجع أو الفهارس التى تيسرت لى ما إذا كان لهذا الكتاب وجود الآن أم لا.

---

(٥٥٢) Brock g : ٢: ٧٤.

(٥٥٣) الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع للسخاوى ٥٩/١.

(٥٥٤) الأنس الجليل لمجير الدين الحنبلى ٤٨٠/٢.

(٥٥٥) إيضاح المكنون لإسماعيل باشا ٣٦٢/٢.

(٥٥٦) هدية العارفين لإسماعيل باشا ١٤٨/٢.

(٥٥٧) مجلة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية المجلد الحادى والعشرون - الجزء الأول ص ٣٦.

ولكن الذى يبدو من عنوان هذا المؤلف أنه كان بحثاً طريفاً مستقلاً جامعاً لأحكام أهل الكتاب، وما يتعلق بمعاملاتهم من وجهة نظر الفقه الإسلامى باعتبارهم مواطنين داخل الدولة الإسلامية لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين.

١٣ - الطاعة فى فضيلة صلاة الجماعة:

هكذا ذكره القاضى مجير الدين(٥٥٨) كما أورده إسماعيل باشا فى الذيل على كشف الظنون(٥٥٩)، وصاحب هدية العارفين(٥٦٠)، والدكتور محيى الدين رمضان بعنوان "الطاعة فى فضيلة الجماعة"(٥٦١).

وهو أيضاً من الكتب التى لم يتيسر لى العثور عليها.

ويبدو أن هذا الكتاب كان رسالة مدعمة بالنصوص العلمية من القرآن والسنة وآثار التابعين فى الحث على التزام صلاة الجماعة والسعى إليها، وما ورد فى شأنها من الفضائل.

١٤ - المسالك فى علم المناسك:

هكذا ذكره حاجى خليفة(٥٦٢)، والدكتور محيى الدين رمضان(٥٦٣)، أما صاحب هدية العارفين فيذكره بعنوان "المسالك فى علوم المناسك"(٥٦٤).

---

(٥٥٨) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجير الدين ٢/٤٨٠.

(٥٥٩) إيضاح المكنون لإسماعيل باشا ٢/٧٦.

(٥٦٠) هدية العارفين فى أسماء المؤلفين لإسماعيل باشا ١٤٨/٢.

(٥٦١) مجلة معهد المخطوطات المجلد الحادى والعشرون - الجزء الأول ص٣٦.

(٥٦٢) كشف الظنون لحاجى خليفة٢/١٦٦٣.

(٥٦٣) مجلة معهد المخطوطات المجلد الحادى والعشرون - الجزء الأول ص٣٦.

(٥٦٤) هدية العارفين فى أسماء المؤلفين لإسماعيل باشا ١٤٨/٢.

هذا ورغم أنى لم أتمكن من التعرف على مكان وجود هذا الكتاب، إلا أن حاجى خليفة عندما ذكره فى كشف الظنون أورده بطريقة توضح لنا أنه رآه حيث ذكره على النحو التالى:

"المسالك فى علم المناسك - للقاضى بدر الدين محمد بن إبراهيم ابن جماعة الشافعى (المتوفى سنة ٧٣٣ = ثلاث وثلاثين وسبعمائة) أوله الحمد لله الملك العلام إلخ قال: جمعت فيه من مهمات الدقائق وإشارات الحقائق ما لا أعلم أحداً سبقنى إلى وضعه مع أنى لم أتعرض لذكر أكثر الدلائل والنوادر، ورتبته على عشرة أبواب، وجعلت لكل باب منها فصولاً عشرة، **الأول:** فى فضل الحج، والعمرة، ومكة. **الثانى:** فى العزم على الحج. **الثالث:** فى ابتداء خروج الحاج وسيره، **الرابع:** فى الإحرام، والمواقيت، **الخامس:** فى دخول مكة والطواف، والسعى. **السادس:** فى الوقوف بعرفة، **السابع:** فى الإفاضة إلى المزدلفة ومنى، **الثامن:** فى العمرة وآداب المقام بمكة المكرمة، **التاسع:** فى أنواع التحلل وأحكامه، **العاشر:** فى آداب زيارة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام"[(٥٦٥)].

ومن هذه المقدمة التى عرضها ابن جماعة بنفسه فى هذا الكتاب والتى أوردها حاجى خليفة ندرك مدى ما كان يتمتع به ابن جماعة من التمكن فى مادة الفقه بحيث أنه كان يؤلف فى كل باب من أبوابه تأليفا تخصصياً، بالإضافة إلى أن عرضه للمادة كان عرضاً علمياً يتفق ومناهج البحث التى نشاهدها الآن فى كتابة المعاصرين من التبويب والترتيب ووضع المقدمات، والفهارس، واستيفاء نقاط البحث علمياً، كلا منها على حدة، مما يجعلنا نقتنع بأن العلامة بدر الدين كان باحثاً، مفكراً بقدر ما كان عالماً غزير

---

(٥٦٥) كشف الظنون لحاجى خليفة ١٦٦٣/٢.

العلم، وتلك صفات قلما كانت تجتمع كلها فى عالم واحد من علماء عصره على حدة.

١٥ - تنقيح المناظرة فى تصحيح المخابرة[٥٦٦]:

ذكره القاضى مجير الدين[٥٦٧]، واسماعيل البغدادى فى هدية العارفين[٥٦٨]، وصاحب ذيل كشف الظنون[٥٦٩].

وهى رسالة صغيرة بخط العلامة بدر الدين بن جماعة نفسه، وتقع فى سبع ورقات محفوظة بمكتبة دير الأسكوريال تحت رقم (١٥٩٨ - ٧ق)، وقد نقلها معهد مخطوطات جامعة الدول العربية[٥٧٠] تحت رقم الأسكوريال نفسه، وعن هذا المعهد حصلت على نسخة بالميكروفيلم.

وعلى النسخة سماعات وقراءات فى أولها وآخرها، ويتراوح عدد أسطر الصفحة ما بين (١٨ - ٢٠) سطراً ماعداً المقدمة فهى (١٦) سطراً.

ويبدو أن هذه الرسالة كتبها العلامة بدر الدين بناء على سؤال السلطان له عن موضوع المزارعة فى الفقه الإسلامى حيث يقول فى أول الرسالة ما نصه:

"بسم الله الرحمن الرحيم. قال محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آل محمد وصحبه أجمعين، صلاة دائمة إلى يوم الدين. وبعد:

---

(٥٦٦) انظر: اللوحة رقم (٥) ص: فى الضمائم والملحقات آخر الكتاب وهى تمثل الورقة الاولى من هذا المخطوط.

(٥٦٧) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجير الدين الحنبلى ٤٨٠/٢.

(٥٦٨) هدية العارفين فى أسماء المؤلفين لإسماعيل باشا ١٤٨/٢.

(٥٦٩) إيضاح المكنون لإسماعيل باشا ٣٣١/١.

(٥٧٠) فهرس المخطوطات المصورة معهد إحياء المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية ٢٩٦/١.

"فقد تقدم من تجب طاعته، وتتعين إشارته بشرح مسألة المزارعة والكلام عليها، لعموم حاجة الناس إليها، وذكر ما فيها من الاختلاف، وما رجح كل طائفة من الخلاف، فانتهيت إلى كريم تلك الإشارة، وتحَرَّيْتُ الإختصار وتلخيص العبارة، ونبهت على حجة المانع لها والمجيز، وما يظهر ترجيحه عند النظر والتمييز، والله تعالى يعصم فى ذلك وفى غيره من الخطأ والزلل، ويوفق للإخلاص فى القول والنية والعمل، إنه جواد كريم رأف[571] رحيم"[572].

ويبدو أن مسألة المزارعة كانت منتشرة فى ذلك الوقت حتى أنها شغلت القائمين على الدولة، وإلا لما طلب بيانها من تجب طاعته وتتعين إشارته من ابن جماعة توضيحها، حيث أورد ابن جماعة أقوال العلماء فيها مبيناً أضربها المختلفة، والمجتمع على فساده منها، والمختلف على صحته فيما بينهم والفرق بين المزارعة والمخابرة، إلى آخر ذلك مما هو موضح بتلك الرسالة القيمة.

رابعاً: علوم العقائد والكلام:

١٦ - الرد على المشبهة فى قوله تعالى: (الرحمن على العرش استوى):

وهذا الكتاب ذكره حاجى خليفة[573]، وإسماعيل البغدادى[574]، والدكتور محيى الدين رمضان[575]، عند ذكر مؤلفات ابن جماعة فى مقدمة تحقيق مخطوط المنهل الروى في علوم الحديث النبوى كما سبقت الإشارة إليه[576].

---

(٥٧١) هكذا فى النص وصحتها إملائياً (رءوف).

(٥٧٢) مخطوط تنقيح المناظرة فى تصحيح المخابرة الورقة الثانية الوجه(١).

(٥٧٣) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون لحاجى خليفة ج ص٢٧٠.

(٥٧٤) هدية العارفين فى أسماء المؤلفين وآثار المسنفين لإسماعيل باشا ١٤٨/٢.

(٥٧٥) مجلة معهد مخطوطات ادول العربية المجلد الحادى والعشرون الجزء الأول ص٣٦.

(٥٧٦) راجع ص٢٥٢ من هذا البحث هامش: ٥٣٥.

إلا أن أحدا من هؤلاء لم يشر إلى موضع هذا الكتاب، ولا إلى أى معلومات أخرى، مع أنه كان كتاباً مفيداً كما يبدو من عنوانه - إذ إنه لو كان بين أيدينا لكان نموذجاً لمسائل الخلاف بين الأشاعرة وطريقة أهل السلف فى هذا الموضوع.

١٧ - التنزيه فى إبطال حجج الشبيه:

أورد ذكره إسماعيل باشا البغدادى(٥٧٧)، ولم يتيسر لى أى معلومات بشأن وجوده. هذا وإنى آمل ممن له حظ من العلم، وقد قدر الله له أن يطلع على هذا المقال، وله علم بهذه المخطوطات وأماكن حفظها أن يبادر بإفادتنا احتساباً لوجه الله تعالى، وخدمة للعلم.

١٨ - إيضاح الدليل فى قطع حجج أهل التعطيل(٥٧٨):

ذكر هذا الكتاب إسماعيل باشا فى الذيل على كشف الظنون(٥٧٩)، دون إشارة إلى مكان وجوده، وقد أفادنى قسم مخطوطات دار الكتب المصرية بالقاهرة عن وجود نسخة خطية لهذا الكتاب، قَدَّرَ المختصون فى هذا القسم تخميناً أنها كتبت فى القرن التاسع الهجرى.

وقد حصلت على نسخة مصورة لهذا المخطوط المحفوظ في دار الكتب المصرية تحت رقم (٦٠٦) الفن: توحيد، وعنوان الكتاب:

كتاب إيضاح الدليل فى قطع حجج التعطيل للشيخ الإمام العالم العلامة قاضى المسلمين بدر الدين بن جماعة رحمه الله آمين.

وعدد ورقاته (٣٦) ورقة، ومسطرته (٢١) سطراً بمقاس قدره ٢١ × ٢٥ سم) وكل ورقة تحتوى على لوحتين متقابلتين ماعدا الورقة الأخيرة فهى لوحة

---

(٥٧٧) راجع اللوحة رقم (٦) من الضمائم من هذا البحث وهى تمثل الورقة الأولى.

(٥٧٨) هدية العارفين فى أسماء المؤلفين لإسماعيل باشا ١٤٨/٢.

(٥٧٩) إيضاح المكنون لإسماعيل باشا ١١٥/١

واحدة بها خمسة أسطر آخرها (تم ذلك بحمد الله وعفوه وحسن توفيقه، والحمد لله وحده. اللهم صلى على سيدنا محمد وعلى آل وصحبه وسلم).

وأوله بعد المقدمة:

(أما بعد فإن الذب عن الدين لمن تمكن منه فرض واجب، والرد على أهل البدع أمر لازب، مع أنه لا يقدر على الحمل على الإعتقاد إلا الرب الذى بيده تصاريف قلوب العباد، وغاية المنتصب لإقامة الدليل بيان إبطال أهل التشبيه والتعطيل، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء).

وورق المخطوط قديم، ومفككة، وقد قام الفنيون فى قسم المخطوطات بضمها بعضها إلى بعض بأوراق "السيلوفان" وقد أكلت الأرضة بعض الأجزاء.

خامساً: علم السياسة الشرعية:

١٩ - تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام[٥٨٠]:

هكذا ذكره حاجى خليفة[٥٨١]، ومعهد إحياء المخطوطات بجامعة الدول العربية[٥٨٢]، أما القاضى مجير الدين[٥٨٣]، وصاحب ذيل كشف الظنون[٥٨٤] فيذكر أنه باسم "تحرير الأحكام فى تدبير جيش الإسلام".

وهذا الكتاب مخطوط يوجد منه أكثر من نسخة، منها نسخة كتبت سنة ١١٤٤هـ بقلم عادى جميل ومحفوظ - بمكتبة البلدية بمصر تحت رقم

---

(٥٨٠) انظر: اللوحة رقم ٧، الضمائم وهى الورقة الأولى من هذا المخطوط.

(٥٨١) كشف الظنون لحاجى خليفة ٣٥٦/١، ولكن نسبه خطأ إلى محمد بن أبى بكر بن جماعة المتوفى سنة ٨١٩هـ.

(٥٨٢) فهرس مخطوطات معهد إحياء المخطوطات بجامعة الدول العربية ٥٤٨/١.

(٥٨٣) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجير الدين ٤٨٠/٢.

(٥٨٤) إيضاح المكنون لإسماعيل باشا ٢٣١/١.

(٣٦٣٨ج) وهو فى خمسين ورقة من الحجم الكبير، ومقاسها (١٦ × ٢٢سم)، ونسخة أخرى محفوظة بمكتبة السلطان محمود فى أيا صوفيا بتركيا تحت رقم (٢٨٥٢) وعدد لوحاتها (١٤٨) لوحة فى (١٥٠) ورقة، ومسطرتها (١٥) سطراً.

وهذه النسخة كتبت فى القرن العاشر ونسبت إلى أبى الحسن محمد السهروردى البغدادى خطأ.

وقد قامت دار الكتب المصرية بتصوير هذه النسخة عن مكتبة السلطان الغازى محمود خان وحفظتها بالدار تحت رقم (١٩٧٢٨ب).

كما قامت الدار نفسها بنسخ هذه النسخة المصورة بقلم نسخ جميل بخط النساخ الشيخ حسن زيدان، الذى انتهى من كتابتها فى سنة ١٣٦٧هـ الموافق ١٩٤٨م، وحفظ فى الدار تحت رقم (٢٣٨٤١ب)، وقد حصلت على هذه النسخة "بالفوتوستات" وهو مجلد متوسط الحجم يقع فى (١٦٧) لوحة بمقاس (١٧×٢٥ سم)، وقد ألفه ابن جماعة فى الإمامة والسياسة، وتنظيم الجند، وعطاءاتهم، والوظائف، والدواوين وغير ذلك فقسمه على سبعة عشر بابا.

الأول: فى وجوب الإمامة. **والثانى:** فى ما للإمام وما عليه. **والثالث:** فى الوزارة. **والرابع:** فى الأمراء. **والخامس:** فى حفظ الأوضاع الشرعية. **والسادس:** فى الأجناد. **السابع:** فى العطاء. **والثامن:** فى الوظائف. **التاسع:** فى الخيل والسلاح. **العاشر:** فى الديوان. **الحادى عشر:** فى الجهاد. **الثانى عشر:** فى كيفية الجهاد. **الثالث عشر:** فى الغنيمة. **الرابع عشر:** فى قسمة الغنائم. **والخامس عشر:** فى الهدنة والأمان. **والسادس عشر:** فى قتال البغاة. **والسابع عشر:** فى عقد الذمة، وأحكامه، وما يجب بالتزامه.

أما بروكلمان فيذكره باسم (تحرير الأحكام فى تدبير ملة الإسلام) ويذكر أنه نقل من فينا سنة ١٨٣٠م، ويذكر له نسخاً محفوظة فى عدة

أماكن منها قارا مصطفى باشا تحت رقم (٤٠١)، والإسكنـــدرية تحت رقم (٤٣، ٤١٤/٣٤٩ تاريخ)، وبرلين تحت رقم (٥٦١٣)، كما أشار إلى نسخة كانت فى حوزة مالك الأشراف المتوفى سنة ٦٩٣هـ - ١٢٩٤م(٥٨٥).

وقد قام المستشرق الألمانى (هانز كوفلر) بنشر هذا الكتاب باللغة العربية فى مجلة (إسلاميكا) على جزئين سنة ١٨٨٥م وترجمه للألمانية.

والجدير بالذكر هنا أن بعثة من معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية سافرت إلى المملكة العربية السعودية للبحث عن المخطوطات هناك لحصرها، وتسجيلها وذلك فى شهر يناير وفبراير سنة ١٩٥٥م، فعثرت على نسخة من مخطوط تحرير الأحكام هذا كتبت فى القرن التاسع (٥٨٦).

٢٠ - حجة السلوك فى مهاداة الملوك:

هكذا ذكر فى الأنس الجليل(٥٨٧)، وذكره صاحب الذيل على كشف الظنون تحت اسم فى (مهادة الملوك) (٥٨٨) بحذف الألف التى بعد الدال - أما الدكتور محيى رمضان فيورده باسم (مهارة الملوك) (٥٨٩) بالراء بدل الدال. ولا أدرى أى العبارات الثلاث أصح، وليس بين يدى ما يرجح إحداها على الأخرى، لأن المراجع التى ذكرت هذا المخطوط لم تشر إلى مكان وجوده كما لم تصف لنا موضوعه ولا ماذا يشتمل عليه، وإلا فالبون شاسع بين أن يكون موضوعه مهاداة الملوك، وبين أن يكون مهارة الملوك.

---

(٥٨٥) Brock ٩ : ٢: ٧٤.

(٥٨٦) راجع رقم (٢١) ص١٥٤، من مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد الأول الجزء الأول مايو ١٩٥٥م. وقد حقق المخطوط د. فؤاد عبد المنعم أحمد وطبع فى دولة قطر.

(٥٨٧) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجبر الدين الحنبلى ٤٨٠/٢.

(٥٨٨) إيضاح المكنون لإسماعيل باشا ٣٩٢/١.

(٥٨٩) مجلة معهد مخطوطات جامعة الدول العربية المجلد الحادى والعشرون الجزء الأول.

فالموضوع على الأول يتعلق بمعاملة الملوك، والإجراءات الواجب اتباعها فى المقابلات وتقديم الهدايا وغيرها. وهو ما يعرف الآن باسم "البروتوكول" والموضوع على الثانى يتعلق بذكر الخصائص التى يجب أن يكون عليها ملوك الرعية من الكياسة والحذق، والمهارة.

سادساً: علم التاريخ:

٢١ - المختصر الكبير فى السير:

ذكره الأستاذ عبدالله الجبورى فى هامش تحقيقه لكتاب طبقات الشافعية للإسنوى، عند الترجمة للعلامة بدر الدين بن جماعة، كما أشار إلى أن هذا المخطوط موجود فى مكتبة الأوقاف العامة بالعراق تحت رقم (٩٥٧)، وأشارت إلى ذكره قائمة المخطوطات العربية المصورة من اليمن[٥٩٠] تحت رقم ٨

غير أن داود الحلبى أورد فى فهرس مخطوطات الموصل[٥٩١] عنوان كتاب تحت رقم: ٥٧ - ذكر اسمه "مختصر فى سيرة النبى لابن جماعة وأشار إلى أن هذا الكتاب موجود ضمن مخطوطات كتب الحديث بمدرسة الحجيات فى محلة القنطرة بالموصل.

ولم يقدم لنا الحلبى وصفاً لهذا الكتاب، ولا عن أى مطول اختصره ابن جماعة كما لم يوضح لنا من فى بنى جماعة - وهم كثيرون - هو الذى صنف هذا الكتاب.

ورغم أنه لم يتيسر لى الحصول على نسخة من هذا المخطوط، إلا أننى أرجح أن يكون هذا المختصر المخطوط الموجود فى مدرسة الموصل، هو نفس

---

(٥٩٠) راجع هامش ص٣٨٦ من كتاب طبقات الشافعية للإسنوى الجزء الأول الذى أصدرته وزارة الأوقاف بالعراق سنة ١٣٩٠هـ بتحقيق الأستاذ عبد الله الجبورى

(٥٩١) فهرس مخطوطات الموصل ص ٣ ١ تحت رقم (٥٧)

المختصر الذى ذكره الإسنوى فى طبقات الشافعية الكبرى ضمن مجموعة مؤلفات للعلامة بدر الدين.

ويا ليت أحدا من المسئولين القائمين على رعاية المخطوطات فى مدينة الموصل يسعفنا بالخبر الجلى عن هذا المخطوط، بعد أن قصرت بى السبل عن بلوغ الغاية فى معرفة حقيقة نسبة هذا المخطوط لبدر الدين بن جماعة، وإن كانت الهمة لم تقصر بى فى البحث عنه، فقد حاولت جهد طاقتى فى حدود الوقت الذى يسمح به عملى، ولازلت أواصل الإتصال بكل الجهات التى أحس بأن لديها شيئاً من هذه المخطوطات.

٢٢ - نور الروض[٥٩٢]:

هذا الكتاب مختصر لكتاب العلامة السهيلى المعروف بالروض الأُنُف. والروض الأنف شرح سيرة ابن هشام. الذى يؤرخ فيه لسيرة النبى صلى الله عليه وسلم، أما نور الروض فهو مختصر لروض السهيلى.

وقد أشار إلى مخطوط نور الروض لابن جماعة معهد مخطوطات جامعة الدول العربية فى الفهرس التاريخى، وقد حصل هذا المعهد على "فيلم" مصور للمخطوط احتفظ به تحت رقم (٣٠٧٦) [٥٩٣]، وذلك عن الأصل المحفوظ فى مكتبة ممتاز العلماء السيد محمد تقى بلكهنو بالهند تحت رقم (٧٥ حديث أهل السنة والجماعة).

ويرجع تاريخ نسخ هذه النسخة إلى سنة (٨٣٣هـ) وهى فى جزئين ناقصة الأول حيث تبتدىء أوراقها بمولد النبى ﷺ.

---

(٥٩٢) انظر: اللوحة رقم: ٨، فى الضمائم وهى الورقة الأولى من هذا المخطوط.

(٥٩٣) فهرس المخطوطات المصورة - القسم التاريخى ص ٣٢٨. وراجع مخطوط نور الروض رقم (٧٥ حديث - ف ٣٠٧٦) بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

وعن الصورة التى يحتفظ بها معهد مخطوطات جامعة الدول العربية حصلت على نسخة "بالميكروفيلم" وهى فى (١٠٠) ورقة تقريباً، كل ورقة مكونة من لوحتين قماس اللوحة (١٨×٢٨) ومسطرتها (٢٥) سطراً بخط نسخ حسن كتبه عبد الله بن محمود.

وآخر الجزء الأول قوله فى قراءة النبى ﷺ للآيات الأولى من سورة يس عند خروجه من بيته مهاجراً، وشباب قريش محدق بباب بيته:

"فقد روى الحارث بن أبى أسامة فى مسنده عن النبى ﷺ أنه ذكر فى فضل يَسَ أنها إن قرأها خائف أمن، أو جائع أشبع، أو عار كُسِىَ أو عاطش سُقى أو سقيم شُفِىَ، حتى ذكر خلالا كثيرة. والله تعالى أعلم.

هذا آخر الجزء الأول من نور الروض وبالله تعالى التوفيق وهو حسبى ونعم الوكيل[٥٩٤].

أما آخر الجزء الثانى فقد ضاعت خاتمته لفساد تحميض الصورة التى حصل عليها المعهد من مكتبة لكهنو، وأعتقد أنها سليمة فى النسخة المخطوطة والمحفوظة بهذه المكتبة، حيث أشار قسم فهارس معهد مخطوطات جامعة الدول العربية فى وصف هذه المخطوطة فى آخر ورقة من المخطوط فى ملاحظات التعريف ما نصه:

"قوبل بنسخة المؤلف التى بخطه من وقف المدرسة المؤيدية بالقاهرة المعزية حسب الطاقة، وسطره أبو البقاء أحمد بن الصفا القرشى الحنفى فى مجالس آخرها يوم السادس من شوال سنة ٨٣٣هـ[٥٩٥] وقد كتب النسخة عبد الله بن محمود فى هذا التاريخ".

---

(٥٩٤) مخطوط نور الروض الورقة ٤٦ اللوحة الثانية.

(٥٩٥) المذكور فى ص ٣٢٨، من القسم التاريخى لفهرس المخطوطات المصورة بجامعة الدول العربية أنها سنة ٧٣٣هـ وأظن ذلك من قبيل سهو المطابع.

وهذا يفيدنا بأن النسخة الأصلية كانت بخط المؤلف، محفوظة فى هذه المدرسة وأن نسخة لكهنو التى بين أيدينا قوبلت بها، ولها قوتها ومنزلتها التاريخية.

سابعاً: علم النحـو:

٢٣ - شرح كافية ابن الحاجب:

أفرده بالذكر معهد المخطوطات العربية بالقاهرة[٥٩٦]، وصورة عن نسخة خطية كتبت سنة ٧٤٠هـ نقلا عن نسخة المؤلف بدر الدين بن جماعة التى كانت محفوظة بالخزانة السعيدية بالمدرسة العادلية الكبرى حيث فرغ من كتاباتها فى عشية الخميس السابع عشر من ذى القعدة سنة ٦٧٠هـ، مما يقطع بأن ابن جماعة كان يدرِّس بهذه المدرسة فى هذا التاريخ أو حتى قبله، وهو تاريخ سابق بكثير على رواية ابن كثير التى ذكر فيها أن ابن جماعة كان يدرس بهذه المدرسة سنة ٦٩٣هـ.

وهذه النسخة المنقولة من خط ابن جماعة، محفوظة فى جامعة استانبول بتركيا تحت رقم (١٣٦٧) وعدد أوراقها (٧٢) ورقة مكونة من لوحتين عدد أسطر اللوحة الواحدة (١٩) سطراً مقاسها (١٥×١٢سم) بخط نسخ جميل ودقيق وقد قام معهد مخطوطات القاهرة بتصوير هذه النسخة وعنه حصلت على نسخة عندى أولها[٥٩٧]:

"بسم الله الرحمن الرحيم. رب أعن.

قال الفقير إلى عفو الله محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الشافعى رحمة الله عليه.

---

(٥٩٦) فهرس مخطوطات جامعة ادول العربية الجزء الأوص ص ٣٨٧.

(٥٩٧) انظر: اللوحة رقم (٩) فى الضمائم آخر هذا البحث.

أ

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آل محمد وصحبه أجمعين إلى يوم الدين. هذا مختصر مشتمل على فوائد عزيز جمعها، ومنبه على ما حذفه اختصار المقدمة الحاجبية مما تدعو الحاجة إليه فى علم العربية من الضوابط، والحدود، والشواهد، والقيود، والمقاييس المعول عليها، والتفاصيل المحتاج إليها، مما قيدته عن شيخنا حجة العرب الإمام العابد الناسك جمال الدين أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك، متع الله بحياته، ونفع ببركاته".

وآخر هذا المخطوط قول ابن جماعة:

"فرغ من تعليقه مقيده محمد بن ابراهيم بن سعد الله بن جماعة بن على ابن جماعة بن حازم الكنانى لطف الله به بالخزانة السعيدية بالمدرسة العالية[٥٩٨] بدمشق حرسها الله عشية الخميس سابع عشر ذى القعدة من سنة سبعين وستمائة".

أى أن هذا المخطوط من أوائل ما صنف القاضى بدر بن جماعة.

٢٤ - الضياء الكامل فى شرح الشامل:

ذكره الدكتور رمضان فى عرضه لكتب ابن جماعة فى مجلة معهد المخطوطات العربية[٥٩٩] دون عزو لمصدر، أو إشارة إلى مكانه، ولا إلى موضوع الكتاب.

ثامناً: علوم الأدب:

٢٥ - لسان الأدب:

هذا الكتاب ذكره العلامة السخاوى[٦٠٠] وعزاه لابن جماعة دون أن يوضح أى واحد من آل جماعة هو الذى ألف هذا الكتاب.

---

(٥٩٨) هكذا فى النص والصحيح (العادلية) ولعل الدال المهملة قد سقطت من الناسخ سهوا.

(٥٩٩) مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الحادى والعشرون، الجزء الأول ص٣٦.

(٦٠٠) الضوء اللامع لأعيان القرن التاسع للسخاوى ٢٣٦/ – ٢٣٧، فى ترجمته للشهاب الأبشيطى المتوفى سنة ٨٨٣هـ.

وجرى صاحب ذيل كشف الظنون على ما جرى عليه السخاوى فلم ينسبه لشخصية محددة من بنى جماعة، وعلى الرغم من أنه ذكر أن هذا الكتاب شرحه شهاب الدين أحمد بن إسماعيل بن أبى بكر بن عمر المصرى المعروف بالأبشيطى الصوفى المتوفى سنة ٨٨٨هـ. إلا أنه لم يذكر أيضاً ما يدل على مكان وجود هذا الكتاب الشارح لكتاب ابن جماعة حتى يمكن الرجوع إليه[٦٠١] إذ لابد أن يبين الشارح نسبة الكتاب المشروح لشخصية ابن جماعة من بين عشرات العلماء من أسرة آل جماعة.

غير أن الذى يغلب عليه الظن أن هذا الكتاب للقاضى بدر الدين ابن جماعة حيث لاحظت أن أكثر المترجمين والمؤرخين لآل جماعة إذا أطلقوا النسبة وقالوا: صنفه ابن جماعة أو ذكره ابن جماعة. فإنما يعنون أشهرهم وهو العلامة بدر الدين، خاصة وأن بدر الدين بن جماعة لا يعد من علماء عصر المماليك فحسب بل ومن أدبائه أيضاً كما سنعرفه فيما يأتى.

ديوان خطـب:

نص على ذكره العلامة ابن كثير حيث قال فى ترجمته لابن جماعة:

"وجمع له خطبا كان يخطب بها فى طيب صوت فيها"[٦٠٢].

ومما يؤكد أن له كتابا فى الخطابة مدوناً، ما سبق أن ذكرناه فى الكلام على وظيفة ابن جماعة على الخطابة ومنها قول العلامة ابن حجر:

"كان يخطب من إنشائه، ويؤديها بفصاحة ويقرأ فى المحراب طيبا"[٦٠٣].

وما ذكره الأستاذ رزق سليم عنه أيضاً:

---

(٦٠١) راجع إيضاح المكنون لإسماعيل باشا ٤٠١/٢.

(٦٠٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٣٦/١٤.

(٦٠٣) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٢٨٢/٣.

"يعتبر القاضى بدر الدين بن جماعة أحد أدباء العصر ومؤلفيه، لما له من خطابة شاملة كان يعكف على إعدادها"[٦٠٤].

وعلى الرغم من هذه الأقوال الصريحة المعتبرة إلا أننى لم أقع على ذكر يشير إلى وجود كتاب مخطوط أو مطبوع يتعلق بخطب ابن جماعة، إما لضياعه ؛كما ضاع أكثر تراثنا، وإما لاختفائه عند من يجهل قيمته، أو لا يعرف نسبته.

٢٧ - أرجوزة فى الخلفاء[٦٠٥]:

أشار إلى ذكرها الأستاذ فؤاد سيد فى فهرس دار الكتب المصرية[٦٠٦]، وهى أرجوزة نظمها ابن جماعة فى سرد من تولى الخلافة منذ قيامها إلى المستكفى بالله آخر خلفاء بنى عباس.

وهذه الأرجوزة مذكورة ضمن مجموعة مصورة "بالفوتوستات" عن الأصل بمكتبة طلعت حرب بالقاهرة تحت رقم (١٨٣٦). ودار الكتب المصرية برقم (١١٥٤٩ح).

ومطلع هذه الأرجوزة:

الحمـد لله الـذى هدانـا   لملـة الإسـلام واجتبـانـا

وآخرها:

وقـام بعـده ابنـه المستكفى   بالله بالبيعـة غير مخفى[٦٠٧]

---

(٦٠٤) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى الجزء الأول - القسم الثانى ص ١٠٧.

(٦٠٥) انظر: اللوحتين رقم: ١٠، ١١ ص: ١٦٦، ١٦٧، فى الضمائم آخر هذا البحث وهما الورقة ٣٦، ٣٨ من مخطوط نزهة النظار لابن الملقن.

(٦٠٦) فهرس مخطوطات دار الكتب المصرية الجزء الأول ص: ٣٣.

(٦٠٧) راجع مخطوط نزهة النظار لابن الملقن المودع بدار الكتب المصرية تحت رقم (٩٤٥١١ج) الورقة ٣٨ - ٤٠.

٢٨ - أرجوزة فى قضاة الشام[٦٠٨]:

وذكرها أيضاً الاستاذ فؤاد سيد فى نفس المجموعة المصورة عن أصل مكتبة طلعت حرب، وتحت نفس أرقام مكتبة طلعت حرب، وأرقام دار الكتب المصرية، وهى فى سرد من تولى القضاء منذ قيام الإسلام إلى أن تولاه ابن جماعة أكثر من مرة، ومطلعها:

يقول راجى ربه الرحيم   محمد هو ابن إبراهيم

وآخرها:

ثم أعادوا بعده محمداً   من بعد رده للقضا مجتهداً
ثم دعوه لقضاء مصرا   ثانية حتما فسار قهرا[٦٠٩]

وكلتا هاتين الأرجوزتين مضمنتان فى مخطوط ابن الملقن المسمى (نزهة النظار). وقد حصلت على نسخة من هذا المخطوط به هاتان الأرجوزتان.

أما أرجوزة الخلفاء فهى من لوحة ٣٨ - ٤٠ وعدد أبياتها (٧٢) بيتاً.

وأما أرجوزة قضاة الشام فمن لوحة ٣٦ - ٣٨ وعدد أبياتها (١٩) بيتاً.

تاسعاً: العلوم الحربية:

٢٩ - تجنيد الأجناد وجهات الجهاد:

ذكره إسماعيل البغدادى فى هدية العارفين[٦١٠]، وصاحب ذيل كشف الظنون[٦١١]، والدكتور محيى الدين رمضان[٦١٢]، ولم يشر أحد منهم إلى ما يدل على مكان وجود هذا الكتاب الآن[٦١٣]، ولا إلى موضوعه.

---

(٦٠٨) راجع المخطوط السابق الورقة (٣٦ - ٣٨).

(٦٠٩) هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لإسماعيل باشا ١٤٨/٢.

(٦١٠) إيضاح المكنون لإسماعيل باشا ٢٢٩/١.

(٦١١) مجلة معهد إحياء المخطوطات العربية المجلد الحادى والعشرون ٣٦/١.

(٦١٢) عثرت على نسخة منه فى مكتبة برلين بألمانيا وتم تحقيقه ودراسته والتعليق عليه وطبع بدار البيان بالقاهرة.

(٦١٣) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجير الدين ٤٨٠/٢.

غير أننا يمكن أن نستنتج من عنوان الكتاب أن موضوعه البحث عن تنظيم وإعداد الشباب اللازم لحماية الثغور الإسلامية، والجهات التى يمكن أن تعاون فى حالة الإستنفار العام، أو ما يطلق عليه فى النظم الحربية المعاصرة اسم "هيئة التنظيم والإدارة للقوات المسلحة (١٧٤) - إدارة التجنيد".

٣٠ - مستند الأجناد فى آلات التجنيد:

أثبتت نسبته إلى ابن جماعة كل من القاضى مجير الدين[٦١٤]، وصاحب هدية العارفين[٦١٥] وصاحب الذيل على كشف الظنون[٦١٦]، ولم أستدل على مكان وجوده، ولا موضوعه وإن كنا نستشف من عنوانه أيضاً أن موضوعه التحدث عن الآلات الحربية، ربما من حيث تاريخها ونشأتها وتطورها، وصناعتها.

هذا وإنى لأنتظر ممن تتوافر لديه أية معلومات عن مكان هذه المخطوطات المشار إلى فقدها من تراث ابن جماعة أن يتفضل مشكوراً بالإرشاد عنها ليمكن الاطلاع عليها للاجتهاد فى نشرها تكميلاً للفائدة العلمية، وحفظا لتراثنا الفكرى الاسلامى.

١٣ - أوثق الأسباب:

قال حاجى خليفة فى كشف الظنون:

"أوثق الأسباب - للشيخ محمد بن جماعة"[٦١٧].

ولا أدرى إن كان هذا الكتاب للعلامة محمد بن جماعة (بدر الدين) موضوع هذا البحث، أم لحفيده محمد بن جماعة (عز الدين) المتوفى سنة ٨١٩

(٦١٤) هدية العارفين فى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ١٤٨/٢.

(٦١٥) إيضاح المكنون لإسماعيل باشا ٤٧٨/٢٠.

(٦١٦) كشف الظنون لحاجى خليفة ٢٠٠/١.

(٦١٧) راجع معنى هذه الكلمة فى ص ١٢.

هـ، خاصة ولم أعرف إن كان هذا الكتاب موجوداً أم لا ، والذى أكاد أن أقطع به أن هذا المؤلف ليس للقاضى محمد بن جماعة بدر الدين - موضوع هذا البحث - بل هو لحفيده محمد بن جماعة عز الدين، وقد ذكرته هنا رغم الشك فى صحة نسبته لعل من بين من يطلع على هذا البحث من يكون عنده من المعرفة بصحة نسبة هذا الكتاب إلى مصنفه الحقيقى ما يدفعه إلى التصحيح.

عاشراً - علم الفلك:

٢٣ - رسالة فى الأسطرلاب(٦١٨)

نسبة هذه الرسالة إلى ابن جماعة مقطوع به حيث عزاها إليه تلميذه صلاح الدين الصفدى فى كتابه الوافى بالوفيات، وذكر أن شمس الدين ابن الحافظ ناظر الجيش كان يتعلم هذه الرسالة على ابن جماعة بدمشق فى بيت الخطابة، يقول الصفدى فى ترجمة ابن جماعة.

"وله رسالة فى الأسطرالاب، وأخبرنى القاضى شمس الدين بن الحافظ ناظر الجيش بصفد، وطرابلس قال: كنت أقرأ عليه بدمشق وهو فى بيت الخطابة رسالته فى الأسطرلاب، فقال لى يوماً إذا جئت تقرأ فى هذه الرسالة فاكتمه فإن اليوم جاء لى مغربى، وقال يا مولانا قاضى القضاة ،رأيت واحداً يمشى فى الجامع وفى كمه آلة الزندقة، فقلت وماهى؟ فقال الأسطرلاب(٦١٩)".

وأعتقد أن هذه الرسالة محفوظة فى دار الكتب المصرية، ضمن مجموعة من الرسائل عن الأسطرلاب مجهولة النسبة إلى مؤلفيها، ويحتاج

---

(٦١٨) الوافى بالوفيات للصفدى ٢/٩، راجع دائرة المعارف البستانى ٤٣٥/١.

(٦١٩) راجع ص١٢ مقدمة الناشر لكتاب تذكرة السامع والمتكلم فى آداب العالم والمتعلم لابن جماعة، طبع دائرة المعارف العثمانية بالهند سنة ١٣٥٣هـ.

التعرف على رسالة ابن جماعة، والتحقيق من نسبتها إليه إلى وقت آمل أن يتحقق لى فى القريب إن شاء الله تعالى.

حادى عشر - علوم التربية والتعليم وتنظيم المدارس:

٣٣ - تذكرة السامع والمتكلم فى آداب العالم والمتعلم:

وهذا الكتاب هو المؤلف الوحيد من بين مؤلفات القاضى بدر الدين ابن جماعة الذى قدر له أن يخرج إلى عالم النور فى العالم الإسلامى بطبعه فى وقت مبكر نسبيا، حيث عنيت بطبعه إدارة جمعية دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند سنة ١٣٥٣هـ، أى قبل خمسين سنة، بتحقيق وتعليق ونشر السيد محمد هاشم اندوى عضو دائرة المعارف المذكورة.

وقد اعتمد السيد الندوى في تحقيق ونشر هذا الكتاب على عدة نسخ مخطوطة أشار إليها وهى:

(أ) نسخة محفوظة فى الخزانة بالهند نسخت ٧٤٢هـ[٦٢٠].

(ب) نسخة محفوظة بالخزانة الألمانية تحت رقم (١٥٥٦) دله عليها المستشرق الدكتور سالم الكرنكوى أستاذ اللغة العربية فى جامعة بون، الذى أفاد المحقق بأن نسخاً ثلاثة محفوظة فى ألمانيا لهذا المخطوط، إحداها فى مكتبة غوطة وهى أصح النسخ وأقدمها وفى آخرها:

"قال المصنف رحمه الله تعالى: وكان الفراغ من جمعه فى رابع عشر ذى الحجة سنة اثنين وسبعين وستمائة والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وسلم، وافق الفراغ من نسخها يوم الجمعة رابع عشر شهر رمضان المبارك سنة اثنين وستين وثمانمائة من نسخة لشيخنا الشيخ زين الدين الأبوتيجى"[٦٢١].

(٦٢٠) هكذا نقلها المحقق عن النسخة وأشار إليها فى هامش ص ١٣ بكلمة (كذا) وأعتقد أن صحة الكلمة "الأبوتيجى" نسبة إلى أبو تيج إحدى بلاد صعيد مصر.

(٦٢١) راجع ص ٢٥٢ من هذا البحث.

وكارل بروكلمان يذكر لهذا الكتاب عدة نسخ تفيد أن ابن جماعة صنف هذا الكتاب سنة ٦٧٢هـ - ١٢٧٣م منها نسخة فى برلين تحت رقم (١٤٢ـ ٣) وفى كويتا بباكستان تحت رقمى (١٦٢ ، ٧٨٧).

هذا وقد أشرنا فيما سبق أن مخطوطا آخر من أهم مخطوطات ابن جماعة قدر له أن يطبع منذ فترة قصيرة، وهو "المنهل الروى فى علوم الحديث النبوى بتحقيق الدكتور محيى الدين رمضان"[٦٢٢]، فتم بذلك طبع أربعة كتب من كل هذه المؤلفات الثلاثة والثلاثين التى ذكرناها هنا.

ونتمنى أن يعنى القائمون على إخراج التراث الإسلامى فى العالم العربى والإسلامى بالالتفات إلى هذه الذخائر النفسية المدفونة فى أنحاء العالم، والعمل على طبعها، وإخراجها، والتى يسبقنا إلى تحقيقها وإخراجها أقسام الإستشراق بالجامعات الأوربية والأمريكية.

---

(٦٢٢) راجع ص ٢٥٢ من هذا البحث.

الفصل الثانى

منهجه فى التفسير

منهجه فى تفسير المبهمات من خلال كتابه (غرر التبيان) ـ منهجه فى تفسير المتشابهات من خلال كتابه (كشف المعانى عن المتشابه من المثانى)

تمهيد:

يمكن ترتيب المصنفات التى صنفها ابن جماعة فى علوم التفسير ـ بحسب ما تيسر لى جمع أسمائها من المصادر المختلفة ـ إلى ثلاثة أنواع تتضمن خمسة كتب:

(أ) علم المبهمات: وله فيه كتابان:

١ - التبيان فى مبهمات القرآن. وقد نوهنا فى الفصل السابق إلى أنه مفقود.

٢ - غرر التبيان فيمن لم يسم فى القرآن، وهو مختصر للتبيان، اقتصر فيه ابن جماعة على ذكر الأقوال فى المبهمات، دون عزو لقائلها، وهذا الكتاب موجود بين أيدينا.

(ب) علم المتشابهات: وله فيه كتاب واحد هو:

١ - كشف المعانى عن المتشابه من المثانى. وهذا الكتاب موجود بين أيدينا أيضًا.

(ج) الفوائد: وصنف فيها كتابين:

١ - الفوائد اللائحة من سورة الفاتحة، وهو مخطوط محفوظ فى (ليدن بهولندا) ولم أتمكن من العثور على صورة له.

٢ - المقتبس فى فوائد تكرار القصص. ولم أوفق فى معرفة مكان وجوده.

وسأتناول من هذه المؤلفات الخمسة فى التفسير كتاب (غرر التبيان) كنموذج لمنهج ابن جماعة فى تفسير المبهمات. وكتاب (كشف المعانى عن المتشابه من المثاني) كنموذج لمنهجه فى تفسير المتشابهات.

أولا : تفسير مبهمات القرآن:

علم المبهمات أحد علوم القرآن، عده السيوطى العلم السبعين من علوم القرآن وقال عنه فى مفحمات الأقران:

"علم المبهمات علم شريف اعتنى به السلف كثيرًا، أخرج البخارى عن ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - قال: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ. قال العلماء: هذا أصل فى علم المبهمات"[(٦٢٣)].

وقال الإمام السهيلى فى مقدمة مبهماته:

"وإذا كان أهل الأدب يفرحون بمعرفة شاعر أبهم اسمه فى كتاب، وكذلك أهل كل صناعة يعنون بأسماء أهل صناعتهم، ويرونه من نفيس بضاعتهم، فالقارءون لكتاب الله العزيز، أولى أن يتنافسوا فى معرفة ما أبهم فيه، ويتحلوا بعلم ذلك عند المذاكرة، وقال ابن عباس - رضى الله عنهما -: مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر - رضى الله عنه - عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ لا يمنعنى إلا مهابته. وذكر الحديث. وقال عكرمة: طلبت اسم الرجل الذى خرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله ثم أدركه الموت أربع عشرة سنة، فهذا أوضح دليل على اعتنائهم بهذا العلم ونفاسته عندهم"[(٦٢٤)].

---

(٦٢٣) مفحمات الأقران فى حل ألفاظ القرآن للسيوطى ص٢.

(٦٢٤) التعريف والإعلام بما أبهم فى القرآن من الأسماء والأعلام للسهيلى ص ٨ - ٩.

وقد كانت مبهمات القرآن تُفَسَّر مع آياتها الجامعة لها، وأول من أفردها بالجمع فى كتاب هو الإمام السهيلي.

أى أن فضل إظهار هذا العلم كان للمغاربة، فالإمام السهيلى كما نقل الشيخ محمود ربيع فى مقدمته على كتاب التعريف والإعلام[٦٢٥] مغربى أندلسى منسوب إلى "سهيل" قرية بالقرب من "مالقة" بالأندلس، وتُوفى بمراكش سنة إحدى وثمانين وخمسمائة بعد أن عاش اثنين وسبعين عاما، وكان - رحمه الله - مكفوفًا، وهو صاحب الروض الإنف، ثم ذيل عليه تلميذ تلاميذه ابن عساكر[٦٢٦].

وهذا ما أشار إليه السيوطى فيما سبق أن أوردناه من كتاب الإتقان حيث قال:

"أفرده بالتأليف السهيلى، ثم ابن عساكر، ثم القاضى بدر الدين ابن جماعة، ولى فيه تأليف لطيف جمع فوائد الكتب المذكورة"[٦٢٧].

وكتب السهيلي، وابن جماعة، والسيوطى موجودة بين أيدينا غير أن تذييل ابن عساكر على كتاب السهيلى لم يقع للسيوطي، كما لم يقع عليه الشيخ محمود ربيع فتتبع ما فات الإمام السهيلى بما ذكره السيوطى ونص على ذلك فقال:

"هذا ولم يقع لنا تذييل ابن عساكر، لذلك رأينا إكمالاً للفائدة أن نتبع المواضع التى تركها السهيلى وذكرها السيوطى ولو كانت سهلة مشهورة"[٦٢٨].

---

(٦٢٥) راجع مقدمة التعريف والإعلام بما أبهم فى القرآن للشيخ ربيع ص٢ - ٥.

(٦٢٦) نفس المصدر ص٥.

(٦٢٧) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى٢/١٤٥، ومعترك الأقران فى إعجاز القرآن للسيوطى أيضًا القسم الأول ص٤٨٤.

(٦٢٨) مقدمة التعريف والأعلام للشيخ ربيع ص٦.

والظاهر هنا أن الشيخ محمود ربيع لم يقع له كتاب ابن جماعة أيضًا، كما لم يقع للسيوطى تذييل ابن عساكر.

وقد آن لى الآن أن أذكر أنى وقعت مؤخرًا على مخطوط فى مبهمات القرآن منعوت باسم (صلة الجمع وعائد التذييل لموصول كتابى الإعلام والتكميل لمؤلف مغربى اسمه محمد بن على بن أحمد الأوسى الشهير بالبلنسي).

والمخطوط مكتوب بخط مغربى ومحفوظ بمكتبة جامعة القاهرة بمصر فى (١٦٤) لوحة، وكل لوحة ذات شطرين ومحفوظ صورته بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢٤٤٤١ ب)، كما يوجد له نسخة ثانية بنفس الدار فى (٢٢٢) ورقة، وبخط مغربى أيضًا تحت رقم (١٩٩٥٦ب)، وقد حصلت على كلتى النسختين بطريق (الفوتوستات).

ومن حسن الحظ أن هذا المخطوط هو الذى حفظ لنا تذييل ابن عساكر على كتابى السيوطي، والسهيلى، فقد ذكر مؤلفه فى مقدمته ما نصه:

"فوقفت فى ذلك على كتاب الشيخ العلامة أبى زيد السهيلى المسمى بالتعريف والأعلام فيما أبهم فى القرآن من الأسماء والأعلام، وعلى ما استدركه عليه الشيخ الأستاذ العالم الأوحد أبو عبد الله محمد بن على بن خضر ابن عسكر الغسانى المسمى بالتكميل والإتمام لكتاب التعريف والإعلام، وهما كتابان أبانا عن أجل غرض ، وخلص جوهرهما من كل عرض، أربع مصنفاهما فى أحكامهما ، وبرع فضلهما وأحكامهما"[٦٢٩].

بل إن البلنسى هذا ينقل أيضًا من تفاسير أخرى عامة كابن عطية، والزمخشري، وقد جعل لكل من اعتاد أن ينقل عنه رمزًا يرمز إلى اسمه على

---

(٦٢٩) مخطوط صلة الجمع وعائد التذييل لموصول كتابى الأعلام والتكميل للبلنسى ص٢ من النسخة رقم (١٩٩٥٦ب) واللوحة الأولى من النسخة رقم (٢٤٤٤١ب).

سبيل الاختصار، وذكرها كالآتى: "سه: للسهيلي، عس : لابن عساكر، نسى: للبلنسي، عطـ : لابن محمد بن عطية، مخ: للزمخشري"[٦٣٠].

ومع أن البلنسى كان يعيش فى عصر ابن جماعة إلا أنه لا مجال للقول بأن ابن جماعة قد نقل منه شيئًا ،وذلك أن مبهمات ابن جماعة أسبق تأليفًا وإسماعًا من مبهمات البلنسى حيث يوجد على كتاب ابن جماعة سماع فى عام ستة وسبعمائة[٦٣١]، وآخر فى عام سبعة عشر وسبعمائة[٦٣٢].

أما البلنسى فيذكر فى اللوحة رثم (١٦١) من كتابه بأنه فرغ من تأليفه عشية يوم السبت الخامس عشر لصفر عام ستة وأربعين وسبعمائة، وأنه لم يتمكن من تبييضه إلا فى التاسع لذى القعدة عام تسعة وخمسين وسبعمائة[٦٣٣].

أى أن البلنسى ألف مبهماته بعد وفاة ابن جماعة بثلاثة عشر عامًا، بل إنه لم يبيضه إلا بعد وفاة ابن جماعة بستة وعشرين عاما، كما يظهر من كتاب البلنسى أنه هو لم ينقل شيئًا عن ابن جماعة أيضًا.

وكتاب البلنسى يقع فى سفر ضخم مكون من جزءين مما يجعلنا نقول بأن كتاب ابن جماعة (التبيان) وهو الكتاب المطول والمفقود حاليا ربما كان أضخم من كتاب البلنسى، وهو واضح من عدد صفحات كتاب (غرر التبيان) مختصر (التبيان) الذى يبلغ (٢١٠) ورقة، أورد فيها معانى المبهمات فقط مع الإشارة إلى ما ورد فيها من أقوال دون أن يذكر أسانيد هذه الأقوال أو متنها كما فعل السهيلي، وابن عساكر، والسيوطي، والبلنسي، وهذا ما أراده ابن جماعة من اختصاره لكتابه التبيان فى كتابه هذا (الغرر).

---

(٦٣٠) راجع نفس المصدر والصفحات.

(٦٣١) مخطوط غرر التبيان لابن جماعة رقم (١٥٩٨/٢ - ١١٠ ق جامعة الدول العربية).

(٦٣٢) نفس المخطوط الورقة الأولى.

(٦٣٣) هذا القول مذكور فى النسخة (٢٤٤٤١ ب) وناقص فى النسخة (١٩٩٥٦ب).

ونصل الآن إلى القول بأننا أمام خمسة كتب مؤلفة فى علم مبهمات القرآن فى تاريخ الحركة التأليفية كلها وهى بحسب ترتيبها الزمنى:

١ - التعريف والإعلام لما أبهم فى القرآن من الأسماء والأعلام للسهيلي.

٢ - التكميل والإتمام لكتاب التعريف والإعلام - لابن عساكر أو ابن عسكر.

٣ - غرر التبيان فيمن لم يسم فى القرآن - لابن جماعة.

٤ - صلة الجمع وعائد التذييل لموصول كتابى الإعلام والتكميل - للبلنسي.

٥ - مفحمات الأقران فى حل ألفاظ القرآن - للسيوطي.

وعلم المبهمات أخص علوم القرآن بالقرآن، وأخص علوم القرآن بالتفسير المأثور عن النبى ﷺ فلا مجال فيه للرأى ولا للاجتهاد والأخذ بالهوى وغلبة الظن.

ولذلك فإن من المبهم ما لا يفسر، وهو كل مبهم استأثر الله تعالى بعلمه، وقد نقل السيوطى عن الزركشى قوله:

"لا يبحث عن مبهم أخبر الله باستئثاره بعلمه"(٦٣٤).

هذا وللإبهام فى القرآن أسباب ذكرها السيوطى فى كتبه: الإتقان، ومفحمات الأقران، ومعترك الأقران، ونقلها عنه الشيخ محمود ربيع فى مقدمته على كتاب التعريف والإعلام ونذكر منها ما يلي:

منها: الاستغناء ببيانه فى موضع آخر كقوله: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ ﴾ فإنه مبين فى قوله: ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

---

(٦٣٤) مفحمات الأقران للسيوطى ص٣، ومعترك الأقران فى إعجاز القرآن للسيوطى القسم الأول ص٤٨١، والاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١٤٥/٢.

ومنها: أن يتعين لاشتهاره كقوله: وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ولم يقل حواء لأنه ليس له غيرها.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾ والمراد نمرود لشهرة ذلك المرسل لأنه المرسل إليه قبل، وإنما ذكر فرعون فى القرآن بصريح اسمه دون نمرود لأن فرعون كان أذكى منه كما يؤخذ من أجوبته لموسى، ونمرود بليدًا ولهذا قال أنا أحيى أوميت وفعل ما فعل من قتل شخص والعفو عن الآخر وذلك غاية البلادة.

ومنها: أن لا يكون فى تعيينه كبير فائدة نحو، ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ ، ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾

ومنها: التنبيه على العموم وأنه غير خاص بخلاف ما لو عين نحو: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا ﴾ .

ومنها: تعظيمه بالوصف الكامل دون الاسم نحو: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ ، ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ ﴾ ، والمراد الصديق فى الكل.

ومنها: تحقيره بالوصف الناقص نحو: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ [٦٣٥].

منهج ابن جماعة فى تفسير المبهمات من خلال كتابه (غرر التبيان)، ومقارنته ببعض ما كتب فى هذا الفن

يعتبر ابن جماعة ثالث خمسة أفردوا لتفسير المبهمات كتبًا مستقلة عن التفسير العام كما ذكرنا ومنهج هؤلاء الأعلام الخمسة متشابه من حيث

---

(٦٣٥) مفحمات الأقران فى حل ألفاظ القرآن ص٣ -٤، وراجع الإتقان فى علوم القرآن ١٤٥/٢ - ١٤٦، ومعترك الأقران فى إعجاز القرآن القسم الأول ص٤٨٤ - ٤٨٦، ومقدمة التعريف والإعلام ص٨ - ٩.

اعتنائهم بجمع المادة المبهمة فى القرآن الكريم وما ورد فى تفسيرها من أقوال معزوة إلى رسول الله ﷺ على سبيل الرفع، أو الوقف أو القطع.

غير أن منهج ابن جماعة فى جمع المبهمات من خلال كتابه (غرر التبيان فيمن لم يسم فى القرآن) يختلف عن مناهج السهيلي، وابن عساكر، والبلنسي، والسيوطى من عدة وجوه:

الأول: أن هؤلاء العلماء الأربعة غالبًا ما يذكرون الآية أو الجزء الأكبر من الآية وفيها اللفظ المبهم، ثم يفيضون فى شرح الجزء الأكبر لغير اللفظ المبهم ،بينما لا يذكر ابن جماعة إلا اللفظ المبهم وشرحه فحسب.

فيورد السهيلى مثلاً ما نصه:

"قوله تعالى: ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ زوجه حواء بالمدّ وأول من سماها بذلك آدم عليه السلام حين خلقت من ضلعه، وقيل من هذه قال: أنثى وتفسيرها امرأة، قيل، وما اسمها قال: حواء قيل ولم؟ قال: لأنها خلقت من حي، وكنية آدم التى كنته بها الملائكة أبو البشر، وقيل: كنيته أبو محمد، كنى بمحمد خاتم الأنبياء ﷺ، وأُهبط آدم عليه السلام بسرنديب من الهند بجبل يقال له بوذ، وأهبطت حواء بجدة، وأهبط إبليس - لعنه الله - بأيلة، وأهبطت الحية ببيسان، وقيل بسجستان وهى أكثر بلاد الله حيات، ولولا العِرْبِدْ يأكلها ويفنى كثيرًا منها لأخليت سجستان من أجل الحيات، قاله أبو الحسن المسعودى[٦٣٦]".

وينقل البلنسى من تذييل ابن عساكر على أستاذه السهيلى عن هذه الآية ما نصه:

"تكلم الشيخ أبو زيد على نزول آدم وحواء، وإبليس والمواضع التى أنزلوا فيها، فرأيت أن أضيف إلى ذلك مدة إقامتهما فى الجنة، ويوم خروجهما،

(٦٣٦) التعريف والإعلام للسهيلى ص ١٠.

ووقته، وما يتعلق بذلك بحول الله، فأقول: ثبت فى الصحيح أن آدم خلق يوم الجمعة، وحكى الطبرى فى التاريخ الكبير أن آدم عليه السلام خلق فى آخر ساعة من نهار الجمعة وهو آخر يوم من الأيام الستة التى خلق الله فيها الخلق، وأن فى بقية ذلك اليوم نفخ فيه الروح وسكن الجنة وأهبط قبل غروب الشمس، وهذا على أن يكون اليوم ألف سنة فتكون الساعة ثلاثًا وثمانين سنة وأربعة أشهر من أيام الدنيا فمكث جسدًا بلا روح أربعين عامًا من أعوام الدنيا ومكث بعد ذلك حيا فى الجنة ومع زوجه ثلاثًا وأربعين عامًا وأربعة أشهر من أعوام الدنيا. وذلك كله ساعة من أيام الآخرة، وقد قيل: إنه مكث فيها خمسمائة عام وكان هبوطه منها لخمسة أيام مضين من نيسان. والله أعلم. وكان آدم عليه السلام طوالاً كثير الشعر جعدًا آدم اللون أجمل البرية وكان أمرد وإنما نبتت اللحى لولده من بعده[٦٣٧]".

والبلنسى نفسه يتكلم عن مكان إهباط آدم عليه السلام ثم يتطرق إلى وصف الهند وأشجارها فيقول:

"وحكى المسعودى أيضًا أن آدم عليه السلام أهبط على جبل الرهون فى جزيرة سرنديد، وأن الحية أهبطت بأصفهان، وذكر الطبرى فى كتاب الياقوتة أن آدم أهبط بدمينا موضع بالهند، وقيل: أهبط على جبل يسمى دوربة قال: وهو أقرب جبال الأرض إلى السماء، وأهبط إبليس بساحل بحر إيلة بالمدينة، والصحيح من ذلك كله أن آدم عليه السلام إنما نزل على جبل سرنديب ويقال فيه سرنديب بالدال... ذكر أهل التاريخ: ومن عجائب هذا الجبل أنه لا يزال عليه نور شعاعى ملون كتلوين قوس قزح لا يخلو منه ليلاً ولا نهارًا، له رائحة تفوق رائحة المسك، وذكر ابن الجزار فى كتاب عجائب

(٦٣٧) خطوط صلة الجمع وعائد التذييل لموصول كتابى الإعلام والتكميل ورقة رقم ١٢ - ١٣ من النسخة (٩٩٥٦ب) دار الكتب المصرية.

الأرض، أن فى هذا الجبل شجرة لها أوراق، للورقة وجه أحمر ووجه أخضر، مكتوب فى الحمرة بالبياض "لا إله إلا الله وحده لا شريك له" ومكتوب فى الخضرة بالحمرة "سبحان الله العظيم"، كل ورقة فى الشجرة على هذه الصفة، وفى هذه الشجرة أطيار على قدر اليمام مرقشة ألوانها، تسبح الله بألسنة عربية وسريانية، لها أصوات خفيفة تبكى المستمع إليها تشوقًا وخيفة، وإذا صيد منها واحد فى قفص لم ينطق ولم يمكث أكثر من يومين ثم يموت، وذكر ابن الصفار أن فى هذا الجبل وردًا أحمر عتيق الحمرة لا ينقطع عنه صيفًا ولا شتاء، مكتوب فى وجه الورقة بالصفرة "لا إله إلا الله" وفى باطنها مكتوب بالخضرة "سبحان الله" وكذلك كثير من الأزهار على هذه الصفة، وذكر القاضى أبو الفضل عياض - رضى الله عنه - أن ببلاد الهند وردًا أحمر مكتوب عليه بالأبيض "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وفى هذا الجبل من الأترج لها طعم خاص، وورقه أخضر عليه نور ساطع وله رائحة كرائحة القرنفل، وخارجه وداخله حار رطب، بخلاف الأترج إذا أكل الآكل منه شيئًا أطربه وأسرع بهضم ما فى معدته، وشهاه أكل الطعام، وزاد فى الباءة، وأدر الماء، وحسن الخلق، ذكره ابن الصفار فى شرح الصغيرة. قال المؤلف وفقه الله: ولو تتبعت عجائب الهند لخرجت إلى التطويل ولكن هذا القدر يملأ الصدور من عظمة الله وينبهه على ما أعد الله فى جنته لعباده مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، جعلنا الله من أهلها بمنه وكرمه[٦٣٨].

---

(٦٣٨) المخطوطين السابقين ص١١ - ٢١ فى المخطوط (١٩٩٥٦ب)، لوحة ٥ - ٦ فى المخطوط (٢٤٤٤١ب).

وهكذا يعرض السهيلي، وابن عساكر، والبلنسى اللفظ المبهم المراد بيانه من خلال الآية المذكور فيها هذا اللفظ ثم يتطرقون إلى تفصيلات وشروح أخرى كان الأولى أن تكون فى غير مواضعها هذه.

أما ابن جماعة فإنه لا ينهج هذا النهج، وإنما يكتفى بذكر اللفظ المبهم فقط ثم يعقبه بتفسيره، ولو كان فى الآية الواحدة أكثر من لفظ مبهم فإنه يذكر كل لفظ على حدة، ويأت بتفسيره، ثم يذكر ما بعده، وهكذا، لا يتطرق إلا إلى تفسير المراد، ولا يخلط بين لفظ ولفظ، ولا يورد تفسيرًا فى غير موضعه، فيقول فى نفس هذه الآية التى عرضها كل من السهيلى وابن عساكر والبلنسى ما نصه هكذا:

(وزوجك) هى حواء خلقت من ضلعه.

(الجنة) هى جنة المأوى دار السلام عند أهل الحق.

(هذه الشجرة) هى: الحنطة، وقيل: العنب، وقيل: التين، وقيل: الكافور.

(اهبطوا) هم: آدم وحواء، وإبليس، والحية، فهبط آدم بسرنديب من الهند، وحواء بجدة من الحجاز وإبليس بالأيلة، والحية ببيسان[٦٣٩].

ويقول أيضًا فى مبهمات أخرى:

"(كلمات) هى قوله: ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا الآية. وقيل: لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملت سوءًا وظلمت نفسى، فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم، ثم قالها وقال، فارحمنى إنك أنت أرحم الراحمين.

(بنى إسرائيل) إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

(وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم) هو قوله تعالى: لئن أقمتم الصلاة الآية.

---

(٦٣٩) اللوحة رقم ٤ من مخطوط غرر التبيان لابن جماعة.

(وتكتمون الحق) هو محمد ﷺ، وبعثه وكانوا يعلمونه بصفاته عندهم.

(أتأمرون الناس بالبر) هم عوام اليهود. أمرهم خواصهم بالتمسك بالتوراة، وقيل هم: من أسلم من أقاربهم أمروهم بالثبات على الإسلام[٦٤٠].

فابن جماعة فى هذه النماذج خصص لكل لفظ معناه المراد منه دون حشو أو زيادة، أو خلط بلفظ آخر على ترتيب الآية التى وجدت فيها الكلمات المبهمة، بينما تعرض كل من السهيلى، وابن عساكر، والبلنسى إلى الخلط بين تفسيرات أخري، وإيراد تفسيرات لألفاظ فى غير مواضعها من المبهم.

فمثلاً هؤلاء العلماء جيمعًا ذكروا تفاسير المبهمات الواردة فى أول الآية الخامسة والثلاثين من سورة البقرة وهى قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ .

والألفاظ المبهمة فيها هى: (زوجك - الجنة).

بينما كان منهج ابن جماعة هو ذكر المبهم وتفسيره مباشرة، فذكر أن المراد من الزوج حواء، ومن الجنة جنة المأوى.

والسهيلي، وابن عساكر، والبلنسى لم يتعرضوا لتفسير (الجنة)، وأفاضوا فى أماكن هبوط آدم وحواء، وإبليس، والحية، وهى مسألة تتعلق بتفسير الآية السادسة والثلاثين فى قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾

كما أفاض البلنسى فى وصف الهند، وأشجارها، وعجائب جبل سرنديب، وهى أيضًا مسألة ليست متعلقة بالآية الخامسة والثلاثين، بل هى غير مختصة باللفظ المبهم أصلاً، إذ إنه خرج عن النقل المأثور إلى النقل عن أصحاب التواريخ [illegible] كثيرًا ما يورد البلنسى ألفاظًا يفسرها على أنها من المبهم [illegible] كذلك [illegible] بل ويفيض فى شرحها، نذكر منها على سبيل

(٦٤٠) [illegible] من مخطوط غرر التبيان لابن جماعة.

المثال الآية الثانية فى سورة الفاتحة (الرحمن الرحيم) وهذه الآية أولى بها أن يكون موضعها فى تفسير المتشابهات وليس فى تفسير المبهمات إذ أى إبهام فى الرحمن الرحيم؟.

الثانى: أن ابن جماعة كان أكثرهم استقصاء، وجمعًا للمادة المبهمة.

ففى سورة الفاتحة جمع كل من السهيلي، والسيوطى، والبلنسى (ثلاثة) مبهمات، وعند ابن جماعة (ستة) مبهمات.

وفى سورة البقرة ذكر السهيلى (ستة وعشرين) لفظًا مبهمًا، والسيوطى (أربعة وعشرين) مبهمًا، وجمع البلنسى للسهيلى، وابن عساكر (ثمانين) مبهمًا، بينما استقصى ابن جماعة مبهمات هذه السورة فى (مائة وسبعة وعشرين) مبهمًا.

وفى سورة آل عمران: جمع كل من السهيلي، والسيوطى (أربعة عشر) مبهمًا، أورد البلنسى (ثمانية وعشرين) مبهمًا جمعًا بين السهيلي، وابن عساكر، أما ابن جماعة فقد استقصى مبهمات هذه السورة فى (ثلاثة وستين) لفظًا.

وفى سورة النساء ذكر السهيلى (ثلاثة عشر) لفظًا مبهمًا، وذكر السيوطى (اثنين وعشرين) مبهمًا، وجمع البلنسى بين مبهمات السهيلي، وابن عساكر فى (اثنين وثلاثين) لفظًا مبهمًا. بينما مبهمات هذه السورة عند ابن جماعة (سبعة وأربعون) لفظًا مبهمًا.

وهكذا.. لو تتبعنا سور القرآن سورة سورة لوجدنا أن ابن جماعة أكثر هؤلاء العلماء جمعًا واستقصاء للمادة المبهمة.

وهذا يدل على أن ابن جماعة كتب فى المبهمات كتابة استقلالية، ولم يكن جامعًا لكتابى السهيلي، وابن عساكر كما ذكر السيوطى فى مفحمات الأقران حيث قال:

"فإن من علوم القرآن التى يجب الاعتناء بها معرفة مبهماته، وقد صنف فى هذا النوع أبو القاسم السهيلى كتابه المسمى بالتعريف والإعلام، وذيل عليه تلميذ تلاميذه ابن عساكر بكتابه المسمى بالتكميل والإتمام، وجمع بينهما القاضى بدر الدين بن جماعة فى كتاب سماه التبيان فى مبهمات القرآن"[٦٤١].

وابن جماعة لم يجمع بينهما كما رأينا وإنما الذى جمع بينهما فى الحقيقة هو البلنسى الذى لم يقع للسيوطى كتابه، كما أن البلنسى لم يضف شيئًا جديدًا على مبهمات السهيلى، وابن عساكر سوى زيادة الشروح، بما قد يجره فى بعض الأحيان إلى الخروج عن أصل تفسير المبهمات.

ولهذا نرى أن ابن جماعة استكمل استقصاء المادة المبهمة أو كاد، فقد زادت مبهماته التى جمعها على نيف وستين وتسعمائة بعد الألف من آى القرآن، وهذا استقصاء لم يبلغه أحد فيمن سبقه أو لحقه فيما نعرف حتى الآن من خلال كتابه المختصر فقط، ولو أنه وقع لنا كتابه المطول لكان من أفضل الكتب فى علم مبهمات القرآن، خاصة وأن لابن جماعة دراية كاملة بالمأثور عن رسول الله ﷺ والحكم على صحته والاحتجاج به، وذلك واضح لمن يطلع على كتابه (المنهل الروى فى علوم الحديث النبوى).

الثالث: أن ابن جماعة قصد تقديم المادة المبهمة فى كتابه (الغرر) على سبيل الاختصار، فقدم معانى المبهمات برواياتها المختلفة مجردة عن قول قائليها، ليضع أمام القارئ معنى اللفظ المبهم مباشرة، تاركًا الرجوع إلى التفصيل فى كتابه المطول (التبيان فى مبهمات القرآن).

فمثلاً يقول فى تفسير لفظ (العالمين) من الآية الأولى من سورة الفاتحة ما نصه:

---

(٦٤١) مفحمات الأقران فى حل الفاظ القران ص٢.

"العالمين: هم أصناف الخلائق كل صنف منها عالم، وقيل: هم الملائكة، والإنس، والجن، وقيل: ألف عالم، وقيل: ثمانية عشر ألف عالم، وقيل: ثمانون ألفاً"(٦٤٢).

فقد أورد ابن جماعة فى هذا اللفظ خمسة أقوال بصيغة البناء للمجهول، وذكر معانى هذا المبهم كما وردت فى أقوال أصحابها دون أن يذكر متنها، ولذلك كما ذكرنا على سبيل اختصار كتابه الأول فحسب، ومع ذلك فمن يحقق الأقوال الخمسة الواردة فى لفظ (العالمين) يجدها على النحو التالى:

القول الأول: بأنهم أصناف الخلائق، كل صنف منها عالم، هو قول قتادة - رضى الله عنه -: "العالمون جمع عالم وهو كل موجود سوى الله تعالى"(٦٤٣).

والقول الثانى: بأنهم الملائكة والإنس، والجن، هو قول ابن عباس فيما ذكره عنه الإمام الجوزى،(٦٤٤) وروى ابن كثير عن الفراء وأبى عبيدة ما يقرب من هذا القول حيث قال:

"العالم عبارة عمن يعقل وهم أربعة أمم الإنس والجن والملائكة والشياطين"(٦٤٥).

والقول الثالث: بأنهم ألف عالم، هو قول سعيد بن المسيب - رضى الله عنه - نقله ابن كثير عنه "لله ألف عالم ستمائة فى البحر وأربعمائة فى البر"(٦٤٦).

---

(٦٤٢) الورقة الأولى من مخطوطة غرر التبيان لابن جماعة.

(٦٤٣) ذكره القرطبى فى الجامع لأحكام القرآن ٣٨/١.

(٦٤٤) راجع زاد المسير فى علم التفسير للجوزى ١٢/١.

(٦٤٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٤/١.

(٦٤٦) نفس المصدر والجزء والصفحة.

والقول الرابع: بأنهم ثمانية عشر ألفًا، هو قول وهب بن منبه - رضى الله عنه - وأورده الإمام البغوى قال:

"لله ثمانية عشر ألف عالم، الدنيا عالم منها، وما العمران فى الخراب إلا كفسطاط فى صحراء"[٦٤٧].

والقول الخامس بأنهم ثمانون ألفًا، هو قول مقاتل رضى الله عنه، ونقله القرطبى قال:

"العالمون ثمانون ألف عالم، أربعون ألف عالم فى البر، وأربعون ألف عالم فى البحر"[٦٤٨].

فذكر المبهمات فى غرر التبيان عند ابن جماعة بصيغة البناء للمجهول لا تعنى تمريض الرواية للجهل به، وإنما كل قول منها معروف قائله تماما، مبسوط فى كتب التفسير بالمأثور، أو كتب الحديث، أو كتب المغازى والسير.

وإنما لجأت إلى إيراد هذا المثال لعدم وجود كتاب ابن جماعة المطول وهو التبيان والذى أورد فيه هذه الأقوال بمتونها وأسانيدها بغير شك، وأوردها هنا مختصرة كما ذكرنا، على اعتبار أن الاختصار هو منهجه الذى أراده فى وضع هذا الكتاب، فجميع الألفاظ المبهمة الواردة فيه ذكرت على نمط هذا المثال من أول الكتاب إلى آخره مما يغنى عن إيراد أمثلة أخرى.

الرابع: أن ابن جماعة فى إيراده للأقوال المختلفة للفظ المبهم لا يوردها اعتباطًا وإنما يذكرها مرتبة بحسب أهميتها فى القوة فيذكر الأرجح فالراجح فالأقل رجحانا، وقد نص على ذلك بنفسه فى مقدمة كتابه (غرر التبيان) فقال مجملا منهجه فى تأليف هذا الكتاب:

---

(٦٤٧) راجع معالم التنزيل وأسرار التأويل للبغوى ١/ ١٨.

(٦٤٨) تفسير القرطبى ١/ ١٣٨.



"هذا كتاب اختصرت فحواه من كتاب سبق لى فى معناه أذكر فيه إن شاء الله تعالى اسم من ذكر فى القرآن العظيم بصفته، أو لقبه، أو كنيته، وأنساب المشهورين من الأنبياء، والمرسلين، والملوك المذكورين والمعنى بالناس والمؤمنين إذا ورد لقوم مخصوصين، وعدد ما أبهم عدده، وأمد ما لم يبين أمده، وذكرت ما وقع فيه من الاختلاف وقدمت المختار من مواقع الخلاف واقتصرت فيه على ذكر الأسماء دون تفاصيل القصص، والأنباء، ورتبته على ترتيب سور القرآن وسميته (غرر التبيان لمبهمات القرآن)، وما تكرر من ذلك ذكرته فى أول موضع ذكر فيه، أو فى أولى المواضع به"[٦٤٩].

ومقدمة ابن جماعة هذه من أوضح مقدمات كتب تفسير المبهمات المذكورة فى كتب تفسير المبهمات الأربعة الباقية من حيث تفصيل المنهج المتبع الذى يجب أن يكون عليه تأليف المبهمات، فابن جماعة حدد فى هذه الأسطر منهجه بوضوح تام أكثر مما وضحه السهيلى فى مقدمة كتابه (التعريف والإعلام) والذى لم يزد على أن قال فيها:

"وبعد فإنى قصدت أن أذكر فى هذا المختصر الوجيز ما تضمنه كتاب الله العزيز، من ذكر من لم يسمع فيه باسمه العلم، من نبى أو ولى أو غيرها من آدمى أو ملك، أو جني، أو بلد، أو كوكب، أو شجرة، أو حيوان له اسم علم قد عرف عند نقلة الأخبار، والعلماء والأحبار[٦٥٠].

ولم يزد السهيلى عن ذلك سواء فى المقدمة أو الخاتمة سوى أنه أراد أن يذكر المبهمات، ويذكر المصادر التى رجع إليها، أما بيان منهجه من ذكر

---

(٦٤٩) مقدمة مخطوط غرر التبيان فيمن لم يسم فى القرآن نسخة مصورة بدار الكتب المصرية عن النسخة الأصلية بالأسكوريال تحت رقم (١٥٩٨/ ١ - ١١).

(٦٥٠) التعريف والإعلام فيما أبهم فى القرآن من الأسماء والأعلام للسهيلى ص ١٠.

ما وقع فيه من الاختلاف، وأولى الأقوال بالتقديم، ومنهجه فيما تكرر منها فلم يوضحه لنا كما فعل ابن جماعة.

كذلك فإن ابن عساكر الذى أكمل كتاب أستاذه السهيلى لم يزد فى منهجه عن منهج أستاذه سوى القول بأنه تتبع كتاب أستاذه فأكمل المبهمات التى أغفلت فيه[٦٥١].

ولم يكن السيوطى أكثر حظًا من السهيلي، وابن عساكر فى ذكر منهجه هو أيضًا[٦٥٢]. ولا يعنى هذا القول الإقلال من شأن ما كتبه السهيلي، وابن عساكر، والسيوطى فلا ريب أنهم أئمة أعلام، وهم أول من أسس هذا الفن، فلما جاء ابن جماعة، كان حريا أن يضيف إلى البحث العلمى شيئًا جديدًا، وكان الجديد الذى أضافه هو ما ذكرناه من استقصاء المادة المبهمة ومحاولة حصرها، ثم التخصص المنهجى الموضوعى فيها، واستقصاء الأقوال الواردة حولها. فإذا كان السهيلى أول من كتب فى علم المبهمات، فإن ابن جماعة أول وآخر من أكمل مادته، وخصص موضوعه، وأفرد منهجه إفرادًا.

ولا يسعنى بعد هذا إلا أن أجمل ما سبق لى أن فصلته فأذكر أن ابن جماعة كان أوضح العلماء الذين كتبوا فى المبهمات من حيث توضيح المنهج، واستقصاء الألفاظ المبهمة، وإيجاز التعبير عنها، وأن كتابه كان أكمل الكتب جمعًا رغم أنه مختصر لكتاب آخر استوفى فيه أسانيد الأقوال، ومتون قائليها، وهو بهذا يعتبر أكثر العلماء الذين استوفوا لهذا العلم مادته حتى عصرنا الحاضر. فجزاه الله عن القرآن وأهله خير الجزاء.

---

(٦٥١) صلة الجمع وعائد التذذيل لموصول كتابى الإعلام والتكميل للبلنسى اللوحة رقم١٢ (مخطوط).

(٦٥٢) مفحمات الأقران فى حل الفاظ القرآن ص٦.

وبتحقيقى لهذا الكتاب، وتعليقى عليه ورد الأقوال التى قائليها أكون كمن أعاد كتاب ابن جماعة المطول (التبيان) إلى الوجود، وإزالة الوصف عنه بأنه مفقود علاوة على الدراسة الكاملة التى تم تقديم المبهمات تقديمًا نافيًا للجهل بها [٦٥٣].

ثانيا: منهجه فى تفسير المتشابهات:

علم تفسير المتشابهات هو العلم الثالث والأربعون من علوم القرآن بحسب ترتيب السيوطى لهذه العلوم فى كتابه الإتقان.

وأبسط ما يقال عن الآيات المتشابهة أنها هى التى فى مقابلة الآيات المحكمة لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ﴾[٦٥٤]. وإن كان السيوطى قد نقل إلينا أقوالاً كثيرة فى تعريفها نوجزها فيما يلى:

١ - المتشابه ما استأثر الله تعالى بعلمه كقيام الساعة. وخروج الدجال.

٢ - ما لم يتضح معناه.

٣ - ما احتمل من التأويل أوجهًا.

٤ - ما لم يعقل معناه كأعداد الصلوات، والحروف المقطعة فى فواتح السور.

٥ - ما لا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره.

٦ - ما كررت ألفاظه.

٧ - منسوخ الآيات ومقدمها، ومؤخرها، وما تؤمن به، ولا يعمل به.

---

(٦٥٣) راجع: مقدمة كتاب غرر التبيان فيمن لم يسم فى القرآن طبع ونشر دار قتيبة - دمشق - سوريا.

(٦٥٤) الآية رقم : ٧ من سورة آل عمران.

٩ - ما سوى الحلال والحرام(٦٥٥).

والذى تميل النفس إليه أنها المقابل للآيات المحكمة، وهى بهذا المفهوم تشمل هذه الأقوال جميعًا.

وقد أورد الزركشى فى المتشابه ما نصه:

"هو إيراد القصة الواحدة فى صور شتى، وفواصل مختلفة. ويكثر فى إيراد القصص والأنباء، وحكمته التصرف فى الكلام، وإتيانه على ضروب، ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك: مبتدأ به ومتكررًا، وأكثر أحكامه تثبت من وجهين، فلهذا جاء باعتبارين"(٦٥٦).

وقد نظر العلماء الذين عنوا بالبحث فى علوم القرآن إلى أوجه التشابه نظرات شتى فمنهم من عدها باعتبار الزيادة والنقصان، والتقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والجمع، والإفراد، وإبدال حرف بحرف، أو كلمة بكلمة، والإدغام وتركه أو باعتبار عدد الحروف كما ورد منها مكررًا على حرفين، وثلاثة وأربعة إلى ما ورد منها مكررًا على ثلاثة وعشرين حرفًا كما فعل الزركشي(٦٥٧).

ومنهم من قسم المتشابه إلى متشابه:

أ - من جهة اللفظ فقط: سواء كان اللفظ مفردًا. باعتبار الغرابة كلفظ الأبّ فى قوله تعالى: ﴿ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ وباعتبار الاشتراك كلفظ اليمين أو سواء كان الكلام مركبًا للاختصار، والبسط، أو النظم.

ب - من جهة المعنى فقط: كأوصاف الله تعالي، وأوصاف القيامة باعتبار أن تلك الأوصاف لا تصور لنا إذا كان لا يحصل فى نفوسنا صورة ما لم تحسه، أو ليس من جنسه.

---

(٦٥٥) راجع الإتقان فى علوم القرآن ٢/٢، ٣.

(٦٥٦) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ١/١١٢.

(٦٥٧) نفس المصدر والجزء ص١١٢ - ١٤٥.

ج من جهة اللفظ والمعنى: سواء كان من جهة الكمية كالعموم والخصوص أو من جهة الكيفية كالوجوب والندب أو من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ أو من جهة المكان والأمور التى نزلت فيها، أو من جهة الشروط التى يصح بها الفعل.

وهذا موجز ما نقله السيوطى عن مفردات القرآن للراغب الأصفهانى[٦٥٨]، والذين ذكروا كل هذا هم الباحثون فى علوم القرآن وأقسامها.

أما الذين اعتنوا بتوجيه الآيات المتشابهة فهم علماء التفسير بصفة عامة، ولكن لم يفرد أحد لهذا اللون من ألوان التفسير تصنيفًا مستقلاً سوى عدد قليل من العلماء لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ذكرهم الزركشى فى الحديث عن علم المتشابه بقوله:

"وقد صنف فى توجيهه الكِرْمانى كتاب (البرهان)، والرازى كتاب درة التأويل، وأبو جعفر بن الزبير وهو أبسطها فى مجلدين"[٦٥٩].

وقد فات الزركشى أن يضم إليهم شيخ الإسلام العلامة بدر الدين ابن جماعة وأن يذكر له مصنفه: "كشف المعانى عن المتشابه من المثانى" رغم أن الزركشى من وفيات سنة ٧٩٤هـ ربما لأنه لم يقع له كتاب كشف المعانى لابن جماعة.

والقارىء لتصنيف ابن جماعة "كشف المعانى عن المتشابه من المثانى" يدرك براعته العلمية الفائقة فى توجيه هذا اللون الدقيق من ألوان التفسير، ويحس من بداية الصفحات الأولى للكتاب أنه فى رحاب عالم غزير العلم،

---

(٦٥٨) راجع الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١/ ٩

(٦٥٩) راجع البرهان للزركشى ١/ ٢٠

متفرد الفكرة، لا يكل نفسه إلى مجرد النقل عمن سبقه، وإنما يمعن النظر، ويأتى فى البحث بما هو جديد طريف.

فمثلاً يقول فى توجيه قول الله تعالى: (الرحمن الرحيم)، وهى الآية الثالثة من فاتحة الكتاب، الورقة الأولى من تصنيفه المشار إليه ما نصه:

"مسألة: الرحمن الرحيم. ذكر المفسرون فى إيراد الاسمين مع اتحاد المعنى فيهما معانى كثيرة مذكورة فى كتب التفسير لم نطل بها هنا.

وأحسن ما يقال - ما لم أقف عليه فى تفسير - أن فعلان صيغة مبالغة فى كثرة الشيء وعظمه والامتلاء منه، ولا يلزم منه الدوام لذلك كغضبان، وسكران، ونومان.

وصيغة فعيل: لدوام الصفة ككريم، وظريف، فكأنه قيل: العظيم الرحمة الدائمها، ولذلك لما تفرد الرب سبحانه بعظم رحمته لم يسم بالرحمن بالألف واللام غيره"[(٦٦٠)] انتهى كلام ابن جماعة.

وإذا نحن قارنا هذا التوجيه للآية بما ذكره كبار المفسرين لكتاب الله العزيز أدركنا صحة ما قررناه من تفرد العلامة بدر الدين بن جماعة بالفكرة النادرة. فالإمام عبد الرحمن بن الجوزى يقول فى تفسير هذه الآية ما نصه:

"فأما (الرحمن):

فذهب الجمهور إلى أنه مشتق من الرحمة، مبنى على المبالغة، ومعناه ذو الرحمة التى لانظير له فيها، وبناء فعلان فى كلامهم للمبالغة، فإنهم يقولون للشديد، الامتلاء: ملآن، وللشديد الشبع: شبعان. قال الخطابي: فـ (الرحمن)

---

(٦٦٠) اللوحة رقم ٢٧ من مخطوط "كشف المعانى عن المتشابه من المثاني" (٣١٨١٨ ب دار الكتب المصرية).

ذو الرحمة الشاملة التى وسعت الخلق فى أرزاقهم، مصالحهم، وعمت المؤمن والكافر.

(الرحيم) خاص للمؤمنين. قال - عزَّ وجلَّ -: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [(٦٦١)]، الرحيم بمعنى الراحم[(٦٦٢)]. انتهى كلام الجوزى.

وينقل لنا ابن كثير المعاصر لابن جماعة فى تفسيره المعروف بتفسير القرآن العظيم حول هذه الآية أيضًا ما نصه:

(الرحمن الرحيم) اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم، وفى كلام ابن جرير ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا، وفى تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك.

قال القرطبى : ثم قيل هما بمعنى واحد كندمان ونديم، قاله أبو عبيد، وقيل: ليس بناء فعلان كفعيل، فإن فعلان لا يقع غلى مبالغة الفعل نحو قولك: رجل غضبان للرجل الممتلئ غضبًا، وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول، قال أبو على الفارسي: الرحمن اسم عام فى جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالي، والرحيم إنما هو من جهة المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾، وقال ابن عباس: هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر، أى أكثر رحمة، ثم حُكى عن الخطابى وغيره أنهم استشكلوا هذه الصفة وقالوا لعله أرفق كما فى الحديث: "إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله، وأنه يعطى على الرفق ما لا يعْطى على العنف"، وقال ابن المبارك: الرحمن إذا سئل أعطى، والرحيم إذا لم يسأل يغضب"[(٦٦٣)].

ويستطرد ابن كثير بعد ذلك فى كلام طويل.

---

(٦٦١) سورة الأحزاب آية ٤٣.

(٦٦٢) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى ١ - ٩.

(٦٦٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٢٠.

والذى حدا بى إلى هذا النقل الطويل عنه هو جمعه لأقوال العديد من المفسرين حول معنى (الرحمن الرحيم)، لإثبات أنه ليس فى عبارة واحد منهم ما فى عبارة ابن جماعة من براعة التخريج، ودقة العبارة، ولطافة المعنى، وحجية الاستدلال.

ويقول العلامة ابن جماعة شيخ الإسلام فى توجيه قول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ ما نصه:

"مسألة: قوله تعالى: ﴿ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ ، بدأ برب ، ثم بملك، ثم بإله، ما حكمة هذا الترتيب.... ؟ وما فائدة إعادة الناس ظاهرًا مع إمكان ضميره.....؟

جوابه: أن البارى تعالى ربَّى الناس بنعمه أجنة، وأطفالاً، وشبانًا فقال: (رب الناس)، فلما شبوا، عرفوا أنهم عبيد لملك قاهر لهم وهو الله - سبحانه وتعالى - فقال: .... (ملك الناس) فلما عرفوا وجوده وملكه سبحانه كلفوا بعبادته وأمره ونهيه وانفراده بالألوهية والعبادة فقال: ... (إله الناس) فربّ: أخص الثلاثة؛ لأنه يقال فى البارى تعالي، وفى غيره.

وملك: أعم منه وأخص من إله؛ لأنه يقال ملك العراق ونحوه.

وإله: أعم الثلاثة لأنه تعالي: ربهم، وملكهم، وإلهم. ولا يشاركه غيره فى ذلك، فحصل الترقى من صفة إلى صفة، لما فى الوصف الثانى من التعظيم ما ليس فى الأول، وفى الثالث ما ليس فى الثاني.

وأما تكرار الناس: فإما لمشابهة رءوس الآية كغيرها من السور، أو لأن الأوصاف الثلاثة أتى بها عطف بيان كقولك: الفاروق أبو حفص عمر لقصد البيان، فكان التصريح بلفظ الناس أصرح فى البيان من الضمائر.

وخص الناس بذلك لأن غيرهم لا يدعى الربوبية، والملك، والألوهية، فبين أنه إله من قد يوصف بذلك، فغيرهم أولى بأنه إلههم. والله تعالى أعلم[٦٦٤].

ثالثًا: أثر ابن جماعة على مفسرى العصر الحاضر:

وهذا التوجيه الجميل من نوادر التوجيهات التى يمكن أن نقول بأن أثرها قد امتد إلى عصرنا الحاضر، وأن نعتبرها ظاهرة تلمع فى أفق الفكر الإسلامى بين العصر والعصر أو بين العصور وفتراتها، كظاهرة التفسير الطيبة التى نراها فى أيامنا الحالية فى شخص العلامة الجليل الشيخ متولى الشعراوي، أحد علماء مصر.

ذلك العالم الذى استطاع أن يجذب آذان السامعين وقلوبهم إلى تفسير كتاب الله - عزَّ وجلَّ - بواسطة التخريجات اللطيفة التى يستنبطها من آياته الكريمة عبر كتبه، ورسائله، وأحاديثه المذاعة بواسطة (المذياع والتلفاز) ومن أمثلتها ما يقوله الشيخ الشعراوى فى قوله تعالي: (يكور الليل على النهار) ما يأتي:

"لماذا استخدم - سبحانه وتعالى - كلمة يكور .. لماذا استخدم الله لفظ يكور.. ولم يقل يبسط الليل والنهار... ما دامت الأرض منبسطة.. أو يغير الليل والنهار.. أو أى لفظ آخر ..إنك لو جئت بشيء ولففته حول كرة.. فنقول إنك كورت هذا القماش مثلاً.. أى جعلته يأخذ شكل الكرة الملفوف حولها.. وإذا أردت من إنسان أن يصنع لك شيئًا على شكل كرة.. فتقول له خذ هذا وكوره.. أى اصنعه على شكل كرة.. ومعنى قول الله تعالى يكور الليل على النهار... أى يجعلهما يحيطان بالكرة الأرضية.. ومن إعجاز القرآن أن الليل والنهار مكوران حول الكرة الأرضية فى كل و قت.. أى أن الله لم يقل يكور الليل ثم يكور النهار.. ولكنه قال يكور الليل على النهار واستخدام

---

(٦٦٤) اللوحة رقم ١٢٧ من مخطوط ابن جماعة "كشف المعانى عن المتشابه من المثاني".

كلمة "علي" هنا تستحق وقفة.. لتتصور مدى انطباقها على كروية الأرض .. "يكور الليل والنهار" ومعناه أنهما موجودان فى نفس الوقت حول الكرة الأرضية وهذا ما نبأ به القرآن منذ أربعة عشر قرنًا ولم يصل إلى علم البشر إلا فى الفترة الأخيرة"(٦٦٥).

ولا شك أنها آثار العلم ومؤثراته، تنتقل أشعتها فى بطون الكتب عصرًا وراء عصر وجيلاً بعد جيل، وهذا من تواصل الأجيال بالعلم.

هذا وقد وضح لنا ابن جماعة منهجه فى توجيه وتفسير المتشابهات توضيحًا موجزًا، وهو يعتمد فى هذا المنهج على ثلاثة مصادر أساسية هى: النقل، والفكر، والنظر فى لغة العرب مما فتح الله به عليه، واستخاره - عزَّ وجلَّ - فيه، موردًا توجيهاته وتفسيراته على صورة مسائل يجيب عليها ويبين فيها ما يأتى:

١ - اختلاف ألفاظ لمعنى واحد مكرر، أو معنى ثابت بعبارات متنوعة.

٢ - توجيه تقديم لفظ فى موضع يجيء متأخرًا فى موضع آخر.

٣ - توجيه إضافة لفظ فى موضع حذف فى موضع آخر.

٤ - توجيه الإيجاز والإطناب فى مكان وآخر.

٥ - تعويض حرف بحرف أو حروف.

وفى هذا يقول ابن جماعة فى مقدمة كتابه (كشف المعانى عن المتشابه من المثاني) ما نصه:

"أما بعد: فلما مَنَّ الله تعالى بالقرآن العزيز وحفظه وتحصيله، والوقوف على ما قدر من تفسيره، وتأويله، واتفق إلقاء دروس التفسير فى المدارس، وما يظهر فى بحوثها من النفائس، وبما لهج بعض فضلاء الحاضرين بمسائل حسنة غريبة، وسأل عن مناسبات ألفاظها لمعانيها العجيبة، مما لم يذكر بعضه أو

(٦٦٥) معجزة القرآن للشيخ الشعراوى ص٤٨.

أكثره فى كتب التفسير المشهورة، ولا ألمت بى فى أسفارها المسطورة، من اختلاف ألفاظ معان مكررة، وتنويع عبارات فنونه المحررة، ومن تقديم حروف بحروف أغيار، فتحل تلك الأسئلة بما يفتح الله تعالى به إما منقول أو غير منقول، وقد استخرت الله تعالى فى ذكر أجوبة ما على الخاطر منه باختصار لا غنى لفهمه عنه وسميته كشف المعانى فى المتشابه من المثانى..

وقد علم أن القرآن نزل بأفصح لغات العرب وكلامها، وتضمن فنون أنواع فصاحتهم وأقسامها، توسيعًا لمجالهم فى معارضة شيء منه إن قدروا، وبيانًا لعجزهم عن الإتيان بمثل ذراه ولو تسوروا، فلذلك تنوعت موارده، وتشعبت مقاصده، وعمت فوائده، وناسبت ألفاظه مواضعها، وصادفت فصاحته مواقعها، وسأذكر إن شاء الله بعض ما يظهر به ما خفى من ذلك، سالكًا فى إيراده أقرب المسالك"[٦٦٦].

وهذا النهج الذى سار عليه ابن جماعة فى توجيهه للآيات المتشابهة يسير وفق القواعد الفنية، والأصول المقررة لعلم المتشابهات كما سبق أن أوردناها عن الزركشي[٦٦٧].

وحسبنا فى إيراد منهجه ما ذكرناه، إذ إن خطة بحثنا عن "حياته وآثاره" وليست استقصاء جميع ما ذُكِرَ فى التفسير، أو الحديث أو غيرها من الفنون التى ألف فيها، وإنما يكفينا من ذلك إيراد مثال أو مثالين للتنبيه على منهجه فى التأليف والتصنيف.

---

(٦٦٦) اللوحة رقم ٢٦ من مخطوط كشف المعانى لابن جماعة.

(٦٦٧) راجع ص١٨٢ من هذا الفصل.

الفصل الثالث

منهجه فى علوم الحديث

لما كانت السنة النبوية هى المصدر الثانى من مصادر التشريع بعد كتاب الله - عزَّ وجلَّ - حرصت الأمة الإسلامية منذ نشأتها على رعايتها، والسهر عليها بالدراسة والبحث، والتمحيص، والتنقية من الشوائب، من لدن الصحابة رضوان الله عليهم، إلى اليوم.

وإنه لمن نافلة القول أن نشير إلى أن الحديث النبوى هو أبو العلوم الإسلامية، وأصل قيامها وتفرعها، وعنه استقلت علوم التفسير، والفقه، والأصول، والتواريخ، وغيرها من العلوم التى نشأت عند العرب بسبب الإسلام وانتشار حضارته.

فلا غرابة أن نرى شدة حرص الأجيال الإسلامية على رواية الحديث بعنايتهم بصحة الإسناد إلى المعصوم ﷺ، حيث تصدى جهابذة علماء هذا الفن إلى الدخيل فنبذوه، وكشفوا زيفه وبطلانه، وإلى الصحيح فأقاموه، وأعلوا ذكره، وشهروا كتبه، وعرفوا رجاله، حتى صار ذلك لازمة من لوازم هذه الأمة، وسمة من سماتها لم تعرفها على وجه الأرض أمة سواها.

فهى أمة الإسناد، والعلم الصحيح المتواتر من قرآن وسنة يحمله الخلف عن السلف، ويؤديه السلف إلى الخلف. قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (٦٦٨)، وقال ﷺ: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين) (٦٦٩).

(٦٦٨) الآية رقم ٩ من سورة الحجر.

(٦٦٩) مشكاة المصابيح للخطيب التبريزى ٨٢/١ الحديث ٢٤٨، وراجع الجامع لأخلاق الراوى ١/ ١٥ وجه ٢، ومباحث فى علوم الحديث لصبحى الصالح ص١٣٢.

ولا غرابة بعد هذا أيضًا أن نجد الحديث وقد تفرع إلى علوم شتى لها رجال ومؤلفات تُضْرَب لها أكباد المطايا للدرس والتحصيل.

فتعددت علومه من رواية ودراية، إلى جرح وتعديل، وناسخ ومنسوخ، وعال ونازل، وصحيح وضعيف، إلى غير ذلك مما هو مشهور عند أهل الفن لمن يراجعه، وحسبى من ذلك الإشارة لنخلص منها إلى ما نحن بصدد البحث عنه فى هذا الفصل وهو منهج ابن جماعة فى علم الحديث.

والأجدر بنا قبل عرض هذا المنهج أن نتساءل:

ما موقع ابن جماعة ومنزلته بين علماء الحديث وجهابذته؟

ونجيب عن ذلك إجابة واضحة ومحددة بأنه: الموقع المميز الذى يتناسب وقدر العالم بين أقرانه. ويضع صاحبه على مرتبة سواء بين أفذاذ أنداده، رواية ودراية، وتحملا وأداء.

ولا يكاد باحث فى فن الحديث وتاريخه أن يغفل ذكر شيخ الإسلام العلامة بدر الدين بن جماعة أو يغفل آثاره على هذا الفن من ناحية الدراية، والرواية، والتحمل والأداء.

أما من ناحية الدراية فإن علماء عصره ومن جاء بعدهم كالسهيلى وغيره لا يكاد واحد منهم يؤرخ لما كتب فى هذا الفن أن يعرج على ذكر كتابه القيم (المنهل الروى فى علوم الحديث النبوى)[٦٧٠].

ولا أن ينقل عنه من كلامه شيئًا كما فعل السيوطى فى كتابه تدريب الراوى[٦٧١] فضلا عن أن العلامة بدر الدين له أربعة مؤلفات فى الحديث غير

---

(٦٧٠) راجع مقدمة أستاذنا المرحوم الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف على كتاب "تدريب الراوي" للسيوطى ص هـ ، ع مقدمة الدكتور السيد معظم حسين على كتاب "معرفة علوم الحديث" للحاكم النيسابورى ص يو.

(٦٧١) راجع تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى صفحات ذ، ٦، ١٤، ٢٤، وغيرها.

(المنهل الروى) وما زالت مخطوطة ومحفوظة، وقد سبق أن أوردناها فى الفصل الذى أفردناه لمؤلفاته وهى[٦٧٢]:

١ - الفوائد الغزيرة المستنبطة من حديث بريدة.

٢ - مختصر مناسبات تراجم البخارى لأحاديث الأبواب.

٣ - مختصر أقصى الأمل والشوق فى علوم حديث الرسول.

٤ - أربعون حديثًا تساعية.

والكتب الثلاثة الأخيرة ذكرها وحدد أماكن مخطوطاتها "كارل بروكلمان"[٦٧٣]. وهذه الكتب كما هو واضح من أسمائها تدور بين رواية الحديث ومصطلحه، وما يستخلص من فوائد بعضها.

منهجه فى علم الحديث رواية من خلال كتابه المنهل الروى.

أما مؤلفه "المنهل الروى فى علوم الحديث النبوي" فهو الذى سنعرض منهج ابن جماعة من خلاله لأنه الكتاب الذى قدر لى أن أحصل على نسخة مصورة له فضلاً عن نشره محققًا فى مجلة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية[٦٧٤].

وأول ما يلفت النظر فى هذا الكتاب أنه مؤلف بطريقة أكاديمية عصرية ،وكأن مؤلفه ابن جماعة أستاذ فى إحدى الجامعات العصرية الحديثة؛ إذ ما كدت أقرأ الكتاب حتى خلت كأنى أقرأ كتاب "مباحث فى علوم القرآن" للدكتور صبحى الصالح فى ترتيبه وتنظيمه، وتبويبه، وعرضه، وهذه فى الحقيقة إحدى خصائص ابن جماعة فى تأليف العلوم بصفة عامة، وهو من هذه الزاوية يسبق العصر الذى عاش فيه وكان الدكتور صبحى

---

(٦٧٢) راجع ص٢٥٣ من هذا البحث.

(٦٧٣) راجع ص٢٥٣ من هذا البحث.

(٦٧٤) راجع ص٢٥٢ من هذا البحث.

الصالح فى منهجه من خلال كتابه فى علوم الحديث كان طالبًا من طلاب ابن جماعة وتلميذًا من تلاميذه.

ورغم أن هذا الكتاب جاء كتلخيص لكتاب "علوم الحديث" المعروف بمقدمة ابن الصلاح المتوفى سنة ٦٤٣هـ إلا أن منهج ابن جماعة فيه مخالف لمنهج ابن[٦٧٥] الصلاح من حيث التنسيق، وهو بنفسه يوضح لنا ذلك فى مقدمة كتابه فيقول بعد أن عرض المصنفات الجليلة لمن سبق ابن الصلاح من العلماء فيقول:

"واقتفى آثارهم الشيخ الإمام الحافظ تقى الدين أبو عمرو بن الصلاح بكتابه الذى أوعى فيه الفوائد وجمع، وأتقن فى حسن تأليفه ما صنع.

ومنذ تكرر سماعى له وبحثي، وعكوفى على فوائده وحثى، ولم أزل حريصا على تلخيص ألفاظه لنفسى وتلخيص خلاصة محصوله لتقريب مراجعتى له ودروسي، وترتيبه على ما هو أسهل عندى وأولى، وأخلى من الاعتراض عليه، حتى قدر الله وجود هذا المختصر.

فجمعت فيه خلاصة محصوله، وأخليته من حشو الكلام وطوله، وزدته من فرائد الفوائد، وزوائد القواعد، وقد أنقل كلام بعض بنصه، وأحذف فى بعض حشو فصه، وذكرت مسائله حيث ظننت أنه أجدر بها وأولى المواضع بطلبها، ورتبته على مقدمة وأربعة أطراف، والمقدمة فى بيان مصطلحات يحتاج إلى معرفتها طالب الحديث"[٦٧٦].

ومن هذه المقدمة ندرك منهجه فى تأليف كتابه "المنهل الروى فى علوم الحديث النبوى" وهذا المنهج قائم على النقاط التالية:

---

(٦٧٥)قام بطبع المقدمة فى المطبعة العلمية بحلب سنة ١٩٣١م محمد راغب الطباخ، مؤلف التاريخ الكبير لأعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء.

(٦٧٦) مخطوط المنهل الروى لابن جماعة الورقة الثانية

١ - تلخيص مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث لتكون كمرجع له تعينه على أداء دروسه لطلابه فى هذا الفن.

٢ - إعادة ترتيبه، وتبويبه، وذكر مسائله فى المواضع التى يجدر أن تذكر فيها، وقد أورد لنا الدكتور محيى الدين رمضان فى هامش التحقيق جملة مفيدة يجدر بنا إيرادها هنا وفيها يقول:

"فمن ذلك تقديمه الكلام المنقطع، وتأخير المرسل منه، ولعل مراده أن يجعل الكلام على "المقطوع" و"المنقطع" متصلاً لبيان المفارقة بين الاصطلاحين، قلت: أحسن، وكذلك تأخير الكلام على "المدلس" "والتدليس" إلى حيث الكلام على "المسند وما يتعلق به". قلت: وفى ذلك شىء من جعل الشيء إلى جانب شبيهه، وكذلك تقديمه الكلام على "المفرد والمعلل والمضطرب والمدرج والمقلوب والموضوع والمشهور والغريب والعزيز" والثلاثة الأخيرة منها عند ابن الصلاح تلى الكلام على "الإسناد العالى والنازل" قلت: ولعل مراده أن يحصر الكلام على المصطلحات متوالية، وفى ذلك ترتيب، وتأخيره الكلام على "الاعتبار والشواهد والمتابعات" قلت: والبين فى ذلك أنه قدم الكلام على مصطلحات كل ما يباين الآخر، وأخر هذه لما يربط بينها من معان لطيفة، كما أن فى تأخيرها شيئًا من الترتيب المناسب"(٦٧٧).

٣ - حذف حشو الكلام، وزوائده، وطويله.

٤ - زيادة القواعد، وما يستفاد منها.

٥ - الاعتماد على مصادر علمية من كتب وأقوال المتقدمين، وقد وضح ابن جماعة منهجه فى الاعتماد على هذه المصادر بالنقل عنها إما بالنص أو التصرف.

---

(٦٧٧) راجع حاشية المحقق ص٤٦ من مجلة المخطوطات العربية الجزء الأول، المجلد الحادى والعشرون الصادر فى جمادى الأولى ١٣٩٥هـ مايو ١٩٧٥م.

وقد أفرد الدكتور المحقق خارطة بالمصادر التى اعتمد عليها ابن جماعة فى تأليف كتابه "المنهل الروى" والتى بلغت تسعة وثلاثين مصدرًا منها:

كتب الصحاح، والسنن، والمسانيد، والجوامع، والاستيعاب لابن عبد البر، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم، والتاريخ الكبير للبخارى، وطبقات ابن سعد، وعلل ابن حنبل، والدارقطنى، ومدرج الخطيب، والمؤتلف والمختلف لابن ماكولا، ومدخل الحاكم، ومصابيح البغوى، والناسخ والمنسوخ للحازمى.

كما اعتمد ابن جماعة على بعض المراجع التى ألفها بنفسه فنقل منها: كتذكرة السامع والمتكلم فى آداب العالم والمتعلم(٦٧٨).

وقد رتب الكتاب على مقدمة وأربعة أطراف، أما المقدمة فذكر فيها مزية العلم بحديث رسول الله ﷺ، والتعريف بالمتن، والسند، والإسناد، والحديث، والخبر، وجعل الطرف الأول: للكلام على المتن والنظر فى أقسامه، وأنواعه، والطرف الثانى: فى السند وما يتعلق به، والطرف الثالث: فى كيفية تحمل الحديث وطرقه، وكتابته، وضبطه، وروايته، وآداب طالبه، ورواية، والطرف الرابع: فى أسماء الرجال وما يتصل به.

وفضلاً عن ذلك فإن ابن جماعة قد يورد قولاً ثم يرد عليه إما بتصحيحه، أو بيانه، أو زيادة إيضاحه وذلك بقوله (قلت) ونحوها.

ومثال ذلك ما أورده تحت النوع الثانى من الطرف الرابع فى معرفة التابعين ما نصه:

"التابعى من صحب صحابيا، وقيل: من رآه وهو الأظهر، ويقال للواحد تابعى وتابع، قال الحاكم: هم خمس عشرة طبقة أعلاهم من أدرك العشرة، قيس ابن أبى حازم، فأبو عثمان النهدى، وابن المسيب. وغلط فى ابن المسيب

---

(٦٧٨) راجع فهرس مراجع المصنف الذى رتبه الدكتور محيى الدين رمضان فى نفس المصدر السابق. ص ٢٤٣ — ٢٤٤.

فإنه ولد فى خلافة عمر ولم يسمع أكثر العشرة حتى قيل: لم يشرك قيس ابن أبى حازم ذلك أحد ، وقيل : لم يصح ابن المسيب من غير سعد. قلت: إنما قال الحاكم : من أدركهم ولم يقل من سمعهم فلا يرد عليه إلا إدراك أبى بكر - رضى الله عنه - خاصة"[٦٧٩].

وفى الكلام على التواريخ والوفيات ما نصه: "ووفيات الشيوخ: وليس فيه كتاب، قاله ابن الصلاح. قلت: فيه غير كتاب ولكن من غير استقصاء وممن صنف فيه ابن زبر، وذيل عليه قوم بعد قوم إلى زماننا"[٦٨٠] وكذا مواضع كثيرة.

ومن تعمقه فى هذا الفن ودربته فيه تعقبه لابن الصلاح فى قوله:

"ذكر ابن الصلاح أن حكيم بن حزام وحسان بن ثابت عاشا ستين فى الجاهلية وستين فى الإسلام وماتا سنة أربع وخمسين، وهذا فيه نظر؛ لأن إسلام حكيم عام الفتح سنة ثمان، وعاش حسان وأبوه ثابت، وجده المنذر، وأبو جده حرام، كل واحد منهم عاش مائة وعشرين سنة"[٦٨١].

وقد نقل عنه السيوطى ذلك فى كتابه تدريب الراوى دون عزو[٦٨٢].

هذا وقد شرح مقدمة ابن الصلاح كثير من المتقدمين والمتأخرين، فمن المتقدمين شيخ الإسلام الحافظ زين الدين بن عبد الرحيم بن الحسين العراقى المتوفى سنة ٨٠٦هـ فى كتابه "التقييد والإيضاح لما أطلق وأغلق من مقدمة ابن الصلاح". ومن المتأخرين محمد راغب الطباخ فى كتابه "المصباح على مقدمة

(٦٧٩) راجع اللوحة رقم ٤٦ من المخطوط نفسه.

(٦٨٠) راجع اللوحة رقم ٦١ من المخطوط نفسه.

(٦٨١) راجع اللوحة رقم ٦١ من المخطوط نفسه.

(٦٨٢) راجع تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى ص٥١٢.

ابن الصلاح" وهذان الشرحان طبعهما الطباخ مع كتاب مقدمة ابن الصلاح"[٦٨٣].

ومن أهم شراح وملخصى وناظمى مقدمة ابن الصلاح غير ابن جماعة الإمام النووي، وابن كثير، وأبو الفدا ، وأبو الفضل العراقى، والقاضى عز الدين بن جماعة ابن العلامة بدر الدين.

ولكن شرح العلامة بدر الدين يعتبر فى قمة الشروح والتلخيصات من ناحية الإعداد والترتيب وزيادة الفائدة ، وحسن الإيضاح.

وترجع أهمية المنهل لابن جماعة إلى ما ذكره الدكتور محيى الدين رمضان محقق الكتاب بقوله:

"هناك ملاحظة أخيرة على أهمية المنهل وهى أن السيوطى الذى اشتهر بالجمع، والتلخيص بلْه التلفيق وإجادته، نراه فى كتابه "تدريب الراوي" وهو شرح لكتاب أبى زكريا النووى المسمى بالتقريب والتيسير يستعير عبارة ابن جماعة ذاتها فى أغلب كتابه دون مباينة ظاهرة، على أنه يقول فى مقدمة كتابه: "وجعلته شرحًا لهذا الكتاب خصوصًا لمختصر ابن الصلاح ولسائر كتب الفن عمومًا". ولكن الحقيقة غير ذلك[٦٨٤].

وقد نقل الأستاذ المحقق أرقامًا من صفحات كتاب السيوطى وأثبت نقل السيوطى لها من كتاب ابن جماعة[٦٨٥].

وقد اعتنى كثير من العلماء بكتاب المنهل الروى لابن جماعة ، فشرحوه وعلقوا عليه، منهم حفيده محمد بن أبى بكر بن عبد العزيز بن جماعة

(٦٨٣) سنة ١٣٥٠هـ - ١٩٣١م المطبعة العلمية بحلب.

(٦٨٤) مجلة معهد المخطوطات الجزء الأول مايو ١٩٧٥م.

(٦٨٥) نفس المرجع والصفحة.

المتوفى سنة ٨١٩ هـ وهو شيخ ابن حجر والبلقينى وغيرهما من الكبار وذلك فى كتابه: المنهج السوى فى شرح المنهل الروي.

منهجه فى علم الحديث رواية من خلال شهادات العلماء ومناقشة بعض سلسلة روايته.

وأما من ناحية الرواية وتحملها، والتصدى لإسماعها وأدائها، فقد كان من كبار علماء عصره وثقاتهم فيها بشهادة جميع الذين ترجموا له لم يشذ واحد منهم عن ذلك، وفيهم من علماء الحديث ونقاد رجاله الكثيرون، ومنهم الذهبي، وابن كثير، والسبكي، وابن حجر، واليافعي.

فابن حجر ينقل عن الذهبى فيه قوله:

"كان قوى المشاركة فى علوم الحديث"[٦٨٦].

ويقول ابن كثير: "سمع الحديث، واشتغل بالعلم وحصل علومًا متعددة، وتقدم وساد أقرانه.. كل هذا مع الرايسة، والديانة، والصيانة، والورع، وكف الأذى، وله التصانيف الفائقة النافعة"[٦٨٧].

ويقول عنه السبكيى:

"حاكم الإقليمين مصرا وشاما، وناظم عقد الفخار الذى لا يسامى، متحل بالعفاف، مُتَخَلٍّ إلا عن مقدار الكفاف، محدث، فقيه، ذو عقل، لا يقوم أساطين الحكماء بما جمع فيه"[٦٨٨].

ويقول عنه اليافعي:

"حَدَّثَ وتفرد فى وقته، وكان قوى المشاركة فى علوم الحديث"[٦٨٩].

---

(٦٨٦) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ٢٨٢/٣٠.

(٦٨٧) البداية والنهاية لابن كثير ١٦٣/١٤.

(٦٨٨) طبقات الشافعية الكبرى ٢٣٠/٥.

(٦٨٩) مرآة الجنان وعبرة اليقظان ٢٨٧/٤.

ونفس هذه الشهادة شهدها له صلاح الدين الصفدى فى مصنفاته[٦٩٠].

وقال عنه أبوالفدا وهو أحد من رآه من مؤرخى عصره.

"كان ينطوى على دين، وتعبد، وتصون، وعقل، ووقار، وجلالة، وتواضع.... وحمدت سيرته، ورزق القبول من الخاص والعام"[٦٩١].

مثال من سلسلة روايته ومناقشتها:

هذا ولشيخ الإسلام بدر الدين بن جماعة سلسلة رواية يرفعها إلى رسول الله ﷺ، ورواها عنه من تتلمذ على يديه وسمع منه الحديث، ومنهم تلميذه العلامة تاج الدين السبكى الذى يروى عنه حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - فيقول: أخبرنا شيخنا قاضى القضاة بدر الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن جماعة قراءة عليه وأنا حاضر فى الثالث:

أخبرنا أبو الفرج بن أبى محمد عبد المنعم بن أبى الحسن على النميرى بقراءتى عليه. أخبركم الشيخ أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب بن سعد ابن صدقة بن كليب قراءة عليه.

أخبرنا أبو القاسم على بن أحمد بن على بن بيان الرزاز قراءة عليه قال:

حدثنا أبو الحسن محمد بن محمد بن إبراهيم بن مخلد.

أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفار.

أخبرنا الحسن بن عرفة.

أخبرنا عمار بن محمد.

عن الصلت بن يزيد الحنفى قال:

سمعت أبا هريرة - رضى الله عنه - قال:

سمعت خليلى أبا القاسم ﷺ يقول:

---

(٦٩٠) الوافى بالوفيات ١٨/٢، ونكت الهميان فى نكت العميان ص٢٣٥.

(٦٩١) المختصر فى أخبار البشر ١٠٨/٤.

"لا تقوم الساعة حتى لا تنطح ذات قرن جماء".

والمتتبع لهذه السلسلة يعرف ثقة رواتها، كما يدرك صحة الشهادات التى قلد بها المؤرخون ورجال الحديث جيد العلامة بدر الدين بن جماعة.

ولنقف معًا وقفة قصيرة عند أعلام السلسلة لنعرف حكم أهل الجرح والتعديل والتاريخ عليهم:

١ - أبو الفرج بن أبى محمد عبد المنعم بن أبى الحسن على النمرى: تُوفى سنة ٦٧٢ هـ ذكر ابن العماد الحنبلى فى ترجمته عنه ما نصه:

"مسند الديار المصرية.. رحل به أبوه فأسمعه الكثير من ابن كليب، وابن المعطوس، وابن الجوزي، وولى مشيخة دار الحديث الكاملية"(٦٩٢).

٢ - أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب بن سعد بن صدقة بن كليب. تُوُفى سنة ٥٩٦هـ قاله عنه ابن الأثير:

"شيخنا .. كان عالى الإسناد فى الحديث ، وكان ثقة، صحيح السماع"(٦٩٣).

٣ - أبو القاسم على بن أحمد بن على بن بيان الرزاز، مات سنة ٥١٠هـ ذكر ابن الجوزى عنه قال:

"سمع أبا الحسن بن مخلد، وهو آخر من حدث عنه، وحدث عنه بجزء الحسن بن عرفة، وهو آخر من حدث بهذا الجزء فألحق الصغار بالكبار.. وسمع خلقًا كثيرًا"(٦٩٤).

---

(٦٩٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ٢٣٠/٥.

(٦٩٣) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد ٣٣٦/٥.

(٦٩٤) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ١٥٩/١٢، وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٩٤/٢.

٤ - أبو الحسن محمد بن محمد بن إبراهيم بن مخلد. مات سنة ٤١٩ هـ نقل ابن العماد الحنبلى عنه فى ترجمته ما نصه:

"هو آخر من حدث عن الصفار، وابن البختري، وعمر الأشنانى قال الخطيب: "كان صدوقًا، جميل الطريقة"[(٦٩٥)].

٥ - إسماعيل بن محمد الصغار تُوُفى سنة ٣٤١هـ قال عنه ابن حجر:

"الثقة... حدث عن الحسن بن عرفة، وأحمد بن منصور الزيادي، وانتهى إليه عُلُوُّ الإسناد، روى عنه الدارقطنى، وابن منده، والحاكم، ووثقوه، وآخر من حدث عنه بجزء ابن عرفة أبو الحسن بن مخلد"[(٦٩٦)].

٦- الحسن بن عرفة. تُوُفى سنة ٢٥٧هـ قال عنه ابن حجر أيضًا:

"روى عنه الترمذى، وابن ماجه، والنسائى بواسطة زكريا الساجى، وأبو بكر بن أبى الدنيا، وأبو يعلي.. قال عبد الله ابن الدورقى عن ابن معين: ليس به بأس، وأثنى عليه، وقال ابن أبى حاتم: سمعت منه مع أبى وهو صدوق، وقال الدارقطنى: لا بأس به، وذكره ابن حبان فى الثقات"[(٦٩٧)].

وقال عنه فى التقريب: "صدوق. من العاشرة"[(٦٩٨)].

٧ - عمار بن محمد. المتوفى سنة ١٨٢هـ قال عنه ابن سعد:

"هو ابن أخت سفيان بن سعيد الثوري، وكان ثقة، روى عن عطاء بن السائب، وغيره من الكوفيين،[(٦٩٩)] ولا يطعن فيه عدم توثيق البعض له فقد رده الذهبى فى الميزان[(٧٠٠)].

---

(٦٩٥) المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزى ١٨٦/٩.

(٦٩٦) شذرات الذهب ٢١٤/١٣، وراجع الوافى بالوفيات للصفدى ١١٨/١.

(٦٩٧) لسان الميزان لابن حجر ٤٣٢/١ الترجمة رقم ١٣٤٠.

(٦٩٨) تهذيب التهذيب لابن حجر ٢٩٣/٢.

(٦٩٩) تقريب التهذيب لابن حجر ص٨٨، والمنتظم فى تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزى ٢٥٧/٥.

(٧٠٠) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣٢٨/٧.

٨ - الصلت بن قويد. قال عنه ابن حجر:

"ذكره ابن حبان فى الثقات.. قلت: وقع لى حديثه عاليا جدًا"[(٧٠١)].

هذا وقد فند ابن حجر ما قيل حوله من الاختلاف، ورد عليه بأنه اختلاف غير قادح[(٧٠٢)].

٩ - أبو هريرة - رضى الله عنه - توفى سنة ٥٧.

هو أكثر صحابة رسول الله ﷺ فى رواية الحديث فقد بلغت أحاديثه عن المعصوم ﷺ (٥٣٧٤) خمسة آلاف وثلاثة مائة وأربعة وسبعون حديثًا، نقل هذا ابن العماد الحنبلى عن الذهبى[(٧٠٣)].

أما متن الحديث نفسه: لا تقوم الساعة حتى لا تنطح ذات قرن جماء "فله طرق أخرى تعضده وهى نفس هذه السلسلة، ولكن من غير طريق بدر الدين ابن جماعة، وهى مثبتة فى مخطوط نادر الوجود ألفه الإمام السخاوى، وهو ملك خاص للمكتبة العلمية فى قرية "بيرجهندا" من مقاطعة السند فى جمهورية باكستان الإسلامية، وهذه المكتبة ملك لأحد أعيان المسلمين فى هذه المقاطعة، وكان أستاذى الدكتور "محمد طاهر مَلَكَ" رئيس قسم الإسلاميات بجامعة كراتشى والمشرف على بحثى هذا كان قد أطلعنى على هذا المخطوط الذى يعمل على إصداره حاليا بعد تحقيقه.

ويجدر بى أن أورد نص العلامة السخاوى فى نص هذا الحديث بسنده فيما يلى تحت عنوان:

"الحديث الثانى المسلسل بالآخرية"

---

(٧٠١) راجع ميزان الاعتدال فى فقد الرجال للذهبى القسم الثالث ص١٦٨ المسلسلة.

(٧٠٢) راجع ميزان الاعتدال فى فقد الرجال للذهبى القسم الثالث ص١٦٨.

(٧٠٣) لسان الميزان لابن حجر ١٩٧/٣ - ١٩٨ الترجمة رقم: ٨٧٨.

أخبرنى به الإمامان أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الخطيب، وأبو الفضل عبد الرحمن بن محمد بن محمد الصوفى بقراءتى عليهما متفرقين، وأنا آخر الناس قراءة عليهما قبل موتهما، قال الأول: (أنا) أبى وأنا آخر من سمع عليه من بنيه، وقال الثانى: (أنا) به الحافظان أبو الفضل ابن الحسين، وأبو الحسن بن أبى بكر، وأنا آخر من سمع عليهما ممن كتب معى فى الطبقة. وأخبرنى عاليا الشيخ شمس الدين التدمرى وأنا آخر من حدث عنه بالاستدعاء الذى أجاز لنا فيه ممن قرأ على شيخنا. قال الأربعة: أنا[٧٠٤] الصدر أبو الفتح الميدومي، قال الأول: وأنا آخر من سمع عليه من إخوتي، وقال الأخير: وأنا آخر من حدث عنه بالحضور على وجه الأرض أنا أبو الفرج عبد اللطيف بن عبد المنعم بن عبد الوهاب بن سعد بن كليب، وهو آخر من حدث عنه، أنا أبو الحسن محمد بن محمد بن محمد ابن إبراهيم بن مخلد، وهو آخر من حدث عنه، ثنا أبو على الحسن ابن عرفة ابن يزيد العبدى وهو آخر من حدث عنه بجزية الشهيد، حدثنا عمار ابن محمد وهو آخر من حدث عنه عن الصلت بن قويد الحنفي، وهو آخر من حدث عنه قال:

"سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يقول، والصلت آخر من حدث عنه:

سمعت خليلى أبا القاسم ﷺ يقول:

"لا تقوم الساعة حتى لا تنطح ذات قرن جماء"[٧٠٥].

ونلاحظ أن سلسلة السخاوى هذه تلتقى مع سلسلة ابن جماعة عند أبى الفرج عبد اللطيف الحرانى.

---

(٧٠٤) أنا: الواقعة بين الحاصرتين اختصار لكلمة أخبرنا عن المحدثين.

(٧٠٥) لسان الميزان لابن حجر ١٩٣/٣ – ١٩٨، الترجمة رقم: ٨٧٨.

هذا وقد علق السخاوى على هذا الحديث تعليقًا مفيدًا فقال:

"هذا حديث حسن الإسناد، عال، عجيب التسلسل بالآخرية، أورده هكذا العلائى فى سلسلاته ثم تلميذه العراقى فى عشارياته، وهو المحسن لإسناده، ونحوه قول ابن كثير إنه لا بأس بإسناده، ورواه الإمام أحمد فى مسنده عن عمار، فوافقناه فيه بعلو، وعمار ممن احتج به مسلم، والصلت وهو ممن شك البخارى فى اسم أبيه أهو قويد بواو ودال أو بدالين، وثقه ابن حبان، وجزم بكونه من التابعين، وهو مقتضى تصريحه فى روايتنا بالسماع من أبى، وكذا صرح أبو أحمد الحاكم فى الكنى بأنه سمع أبا هريرة"(٧٠٦).

هذا ولابن جماعة أحاديث أخرى موجودة ومروية بالمسلسلات فى مخطوط السخاوى، ومن هذه الأحاديث:

٢ - مسلسل بالأولية تنتهى إلى عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال:

"الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالي، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء"(٧٠٧).

٣ - حديث مسلسل بالفقهاء تنتهى سلسلته إلى نافع عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن النبى ﷺ قال:

"البيعان كل واحد منهما على صاحبه ما لم يتفرقا إلا بيع الخيار"(٧٠٨).

---

(٧٠٦) شذرات الذهب لابن العماد ٦٣/١.

(٧٠٧) اللوحة ٤، ٥ من مخطوط الإمام السخاوى "الجواهر المكللة فى الأخبار المسلسلة".

(٧٠٨) اللوحة رقم ٥ من مخطوط الإمام السخاوى "الجواهر المكللة فى الأخبار المسلسلة".

المصدر المخطوط السابق الورقة ٤.

المخطوط السابق اللوحة ١٣، ١٤.

وهذه الأحاديث وسلسلة روايتها تثبت بغير أدنى شك أن ابن جماعة كان ثقة فى رواية حديث رسول الله ﷺ، ويتحرى أن يروى أيضًا عن الثقات.

ولبدر الدين بن جماعة اختيارات جيدة بروايته عن الثقات مجموعة فى كتابه النفيس (أربعون حديثًا تساعية الإسناد) جمعها من أعلى مروياته عن ثقات شيوخه الذين تلقى عنهم الرواية إثباتًا لعلو إسناده وقد مَنَّ الله عز وجل علىَّ بتحقيق هذاالكتاب والتعليق عليه فخرج على صورة محمودة تليق بروايه رضى الله عنه (٧٠٩).

هذا علاوة على تبوئة مشيخة الحديث فى أكثر من دار من دورها فى عصره، وسماع الجم الغفير عليه من طلاب، وعلماء، وأمراء ، وملوك..

(٧٠٩) راجع كتاب الأحاديث التساعية الإسناد لابن جماعة بتحقيق د/ عبد الجواد خلف، طبع دار البيان للطبع والنشر، القاهرة.

الفصل الرابع
منهجه فى الفقه والأحكام

تمهيد:

يقول شمس الدين بن طولون فى ترجمة ابن جماعة ما نصه:

"مهر فى التفسير والفقه، وشارك فى فنون"[(٧١٠)].

ويقول الأستاذ محمود رزق سليم عنه:

"وقد برع هذا القاضى فى الفقه والحديث"[(٧١١)].

وهاتان الشهادتان وغيرهما تثبتان أن من أكثر ما مهر فيه ابن جماعة من العلوم: علم الفقه.

وقد سبق أن أوردنا فى فصل مؤلفاته فى الباب الثالث أن له فى علم الفقه خمسة كتب هى:

١ - العمدة فى الأحكام.

٢ - كشف الغمة فى أحكام أهل الذمة.

٣ - الطاعة فى فضيلة صلاة الجماعة.

٤ - المسالك فى علم المناسك.

٥ - تنقيح المناظرة فى تصحيح المخابرة.

كما أوردنا أن العلامة السخاوى ذكر أن كتاب العمدة فى الأحكام للبدر ابن جماعة أحد المؤلفات التى كان يحفظها العلماء فى زمانه.

وتلك الشهادات وهذه الكتب تقطع جميعها بأن ابن جماعة كان أحد العلماء الأعلام فى علوم الفقه على مذهب الشافعى، بل وعلى دراية كاملة بفقه المذاهب الأخرى، وأقوال السلف وآرائهم وهذا واضح من سردنا لمناهجه

---

(٧١٠) الثغر البسام فيمن ولى قضاء الشام ص ٨٢.

(٧١١) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى الجزء الأول - القسم الثانى ص ١٠٥.

فى التفسير، والحديث، وكما سنعرفه فى الكلام عن منهجه فى السياسة الشرعية.

ورغم هذا كله فمن المؤسف حقًا أنه لا يوجد بين أيدينا أى كتاب من الكتب الأربعة الأولى - رغم تأكيد المصادر المعتمدة على صحة نسبتها إلى ابن جماعة، بل وتداولها بالحفظ والدراسة أيضًا(٧١٢).

منهجه فى الفقه من خلال كتابه تنقيح المناظرة:

ولم يقع لى سوى الكتاب الأخير وهو: "تنقيح المناظرة فى تصحيح المخابرة" وهو رسالة صغيرة جدًا فى إحدى عشرة صفحة ضمنها مسألة المزارعة، بناء على طلب تقدم به إليه "من تجب طاعته وتتعين إشارته" على حد تعبيره هو فى مقدمة الرسالة(٧١٣).

ولا أستبعد وجود هذه الكتب الآن بعد معرفتى للعديد من المكتبات التى تزخر بآلاف المخطوطات فى شبه القارة الهندية وفى أعماق قرى الباكستان ،وقرى الأقاليم الهندية التى يتجمع فيها المسلمون، مما يلزم معها التفرغ الكامل للبحث والتنقيب.

وكم كان مفيدًا للبحث والتعرف على منهج ابن جماعة فى علوم الفقه والأحكام لو وقع بين أيدينا بعض هذه الكتب.

مع ذلك فإن رسالته فى المزارعة على الرغم من صغر حجمها تلقى ضوءًا لا بأس به على منهج ابن جماعة، وطول باعه فى علم الأحكام، فقد أثبت فى هذه الأوراق الإحدى عشرة، مدى غزارة علمه، وقدرته العقلية، وسلامة حجته، واستقامة عرضه للمسائل الفقهية.

---

(٧١٢) راجع مؤلفات ابن جماعة فى علم الفقه ص٣١٧ من هذا البحث.

(٧١٣) اللوحة الثانية من مخطوط تنقيح المناظرة فى تصحيح المخابرة لابن جماعة (صورة بمعهد مخطوطات جامعة الدول العربية عن الأصل المحفوظ بدير الاسكوريال برقم ٢/١٥٩٨).

ورغم أن المزارعة من المسائل التى تخفى على كثير من طلاب العلم فى كل المذاهب لغموض كتب الفقه فيها إلا أن ابن جماعة أزال غموضها، وأبان وجهها، وجلاها بذكر آثار الصحابة والتابعين، وآراء أصحاب المذاهب الفقهية، وكان منهجه فيها على النحو التالى:

أولا: بدأ بالتعريف التحليلى لمعنى المزارعة والمخابرة من جانبيها اللغوى، واصطلاح أهل الفن، ثم تطرق إلى التقسيم، ومثل لكل قسم، ثم ذكر حكمه الشرعى مدعمًا بالأدلة النقلية والعقلية، فنراه يقول:

"المزارعة: مفاعلة من الزرع، والمخابرة مفاعلة من الخبار، وهى الأرض اللينة، هذا هو الأصح، وقيل: المخابرة مأخوذة من معاملة أهل خيبر حين أقرهم النبى ﷺ عليها، وقيل: مأخوذة من الخبرة وهى النصيب قاله الماوردى. لأن كل واحد من العامل وصاحب الأرض يأخذ نصيبًا من الزرع، وهذا فيه نظر؛ لأنه يلزم منه أن يسمى القراض مخابرة. والله أعلم.

اختلف الناس فى المزارعة، والمخابرة فقال قوم هى بمعنى واحد: وهى دفع الأرض إلى من يزرعها ببعض ما يخرج فيها سواء كان البذر من صاحب الأرض أو من العامل.

والأصح الذى هو ظاهر نص الشافعى - رضى الله عنه - أن معناهما مختلف، فالمزارعة إذا كان البذر من صاحب الأرض. والمخابرة إذا كان البذر من العامل، والمزارعة والمخابرة ضربان: ضرب مجمع على بطلانه وفساده، وضرب مختلف فى صحته وجوازه.

الضرب الأول: المجمع على فساده: وهو أن يكون حصة أحدهما، أو حصة كل واحد مهما منفردة بالتعيين بوجه من الوجوه: إما بالنسبة إلى الأرض مثل أن يقول: زارعت على أن لك ما على الجداول ولى ما عداها، أو أن لك ما على الروابى ولى ما فى الأودية.

أو بالنسبة إلى الزرع مثل أن يقول: على أن لك الحنطة ولى الشعير. أو بالنسبة إلى المسقى كقوله: على أن لك ما سُقى بالنواضح ولى ما سُقى بالسماء.

أو بالنسبة إلى الحصة كقوله على أن لى مائة قفيز ولك ما بقي.

فهذا كله باطل بإجماع العلماء، كما روى سعيد بن المسيب عن سعد قال: كنا نكرى الأرض بما على السواقى، مما يتبقى منها فنهانا رسول الله ﷺ عن ذلك وأمرنا أن نكريها بذهب أو ورق. رواه أبو داود. لأنه ربما تلف ما عين لأحدهما أو لم ينبت، فينفرد أحدهما بالغلة دون الآخر.

الضرب الثانى: المختلف فى صحته وهو أن يعامل صاحب الأرض من يعمل عليها بنصيب معلوم مما تخرج منها من نصف، أو ثلث، أو ربع، أو نحو ذلك، وقد اختلف العلماء فى ذلك على مذاهب.

المذهب الأول: جواز ذلك مطلقًا، سواء كان البذر من المالك أو من العامل، وسواء كان فيها شجر أم لم يكن. والكلام الآن أولاً فى الأرض البيضاء. وممن روى ذلك عنه من الصحابة: عمر بن الخطاب، وعلى ابن أبى طالب، وسعد، وابن مسعود، وعمار بن ياسر، ومعاذ بن جبل، وابن عباس، ومن التابعين: سعيد بن المسيب، وعروة، وعمر بن عبد العزيز، والقاسم، وطاووس، وعبد الرحمن بن أبى ليلى، والزهرى وغيرهم. ومن الفقهاء: محمد بن أبى ليلى، والليث، وأبو يوسف، ومحمد بن الحسن، وأحمد بن حنبل فى رواية، ومن أصحاب الشافعى: ابن المنذر، وابن خزيمة، وقيل: إنه صنف فيه جزءًا، وابن شريح، والخطابى، والماوردى وغيرهم، ومن أصحاب مالك: حى بن يحيى، والأصيلى.

المذهب الثانى: المنع مطلقًا، وأنها باطلة. سواء كان البذر من المالك أو من العامل، وممن روى ذلك عنه من الصحابة: ابن عمر، وجابر، ورافع بن

خَديج، وابن عباس فى رواية. ومن التابعين: عكرمة، ومجاهد، والنخعى، ومن الفقهاء: الشافعي، ومالك، وأبو حنيفة.

المذهب الثالث: إن كان البذر من المالك جاز وهى المزارعة. وإن كان البذر من العامل لم يجز وهى المخابرة. وبه قال ابن عباس فى رواية، وأحمد ابن حنبل فى أظهر روايته، وإسحاق بن راهويه.

قال صاحب المغني: ولعلهم أرادوا أنه يجوز أن يكون البذر من العامل كقول عمر - رضى الله عنه - : لا أن ذلك قول آخر.

هذا كله فى الأرض البيضاء التى لا شجر فيها. أما التى فيها شجر فيأتى تفصيل المذاهب فيها إن شاء الله تعالى بعد ذلك[٧١٤].

ورغم أن منهج ابن جماعة هنا منهج فقهى تأصيلى سار عليه جمهور الفقهاء فى جميع المذاهب إلا أننا مع ذلك لا يسعنا إلا أن نعترف بأن الرجل كان طويل النفس فى استقصاء آراء الصحابة والتابعين وجمهور الفقهاء فى جميع المذاهب.

كما أنه كان حسن التقسيم، جيد التفريع مما يدل على دقة فهمه، وعمق إحاطته لمسائل الأحكام، وسعة صدره فى تتبع الأقوال المختلفة، وتفنيدها، وإبداء الرأى فيما يراه أجدر وأولى فى نظره، ولولا ضيق المجال هنا لأوردت جميع ما ذكره حول هذه المسألة.

ثانيا: يظهر من خصائص نهجه الفقهى فى هذه الرسالة ذكر المصادر التى ينقل عنها، كتبًا، أو مصنفين، كالماوردى، والخطابى، وصاحب المغنى وغيرهم. وهذا ما تسير عليه الآن كبرى الجامعات العلمية فى أبحاث دارسيها وكبار أساتذتها.

---

(٧١٤) اللوحة رقم ٢، ٣ من مخطوط تنقيح المناظرة فى تصحيح المخابرة.

ثالثًا: يقابل الأحاديث المتعارضة. ويقرر فى ذلك أنه لا يصار إلى القول بنسخ الحديث إلا عند تعذر الجمع بينهما، وذلك وصولاً إلى الحكم الفقهى، ولا بن جماعة فى هذا الشأن باع مديد باعتباره أحد علماء الحديث ومصنفيهم كما سبق مناقشة ذلك، فبوأته معرفة علوم الحديث الغاية القصوى فى علم الفقه، واستنباط الحكم الشرعى الصحيح بتقليب الأدلة من النصوص، ومقارنة المتعارض منها، والقدرة على الحكم عليها بالصحة أو الإعلال فتراه يقول مثلا:

"واعلم أن بعض الأئمة قد أعلوا حديث رافع، وإن كان صحيح النقل، ودفعوه بوجوه: الأول شدة اختلافه وكثرة اضطرابه، قال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - وله القدح المعلى فى الحديث، والمعرفة غير مدافع: حديث رافع كثير الألوان وقال أيضًا: حديث رافع ضروب. قال الخطابي:

يؤيد اضطراب حديثه واختلاف الروايات عنه، فمرة يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم - ومرة يقول حدثنى عمومتى عنه. قال الخطابي: ومرة يشعر حديثه بالنهى عن كرى الأرض مطلقًا، ومرة يصرح بجوازه بالذهب والفضة، ومرة يشعر بالنهى عن المزارعة، ومرة يصرح بالشروط المفسدة"(٧١٥).

وبعد: فإنى لا أعتقد أن هذا منهج ابن جماعة فى هذه الرسالة فحسب، بل أعتقد أن هذا منهجه ومسلكه فى علم الفقه بصفة عامة، منهج البحث والاستقصاء، وتتبع أقوال السلف، وعلماء المذاهب، ومقارنة الأدلة، وقرع الدليل بالدليل، وصولاً إلى الحكم الصحيح.

وإذا كنا فى هذا العصر مولعين - أو مطالبين - بأن نذكر عن كل شخصية علمية نبحث فى تاريخها القول عنه: هل كان مجددًا أو غير

(٧١٥) اللوحة رقم ٦ من مخطوط تنقيح المناظرة.

مجدد؟ وهل كان مجتهدًا أو مقلدًا؟ وكأن العالم لا يجوز له أن يطل علينا إلا من خلال تجديده أو اجتهاده. وهذا فى رأيى إسراف فى المطالبة، إذ حَسْبُ العالم علمه، وآثاره، وقدرته على البحث والتمحيص، وبهاتين الصفتين فهو قادر على مد الحركة العلمية والفكرية بالاستمرار فى صورة تلاميذه، وكتبه، ومؤلفاته.

أقول: إذا كنا مطالبين أن نذكر ذلك فلا يسعنى إلا أن أذكر أن ابن جماعة كان فى علم الفقه والأحكام مجتهدًا، وإن كان هذا الاجتهاد نسبيا لا مطلقًا، بمعنى أنه كان يتبع مذهب الإمام الشافعى - رضى الله عنه - فى الأحكام، ولا يمنعه هذا الاتباع من أن يبين آراء كافة المذاهب الأخرى، ثم يوجه رأيه الشخصى إن ظهر له فى المسألة ما يحق له الخروج عن رأى إمامه الذى يقلده.

وهذا القول وإن لم تسعفنا به هذه الرسالة الصغيرة فى المزارعة، إلا أننا نراها فى كتب أخرى ككتاب تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام فى أثناء تعرضه لمسائل وأحكام فقهية فى فن السياسة الشرعية التى أفردناها له وإن كانت جزءًا من الفقه العام للمذاهب على ما سنقدمه له فى هذا الفن إن شاء الله تعالى.

الفصل الخامس

منهجه فى العقائد وعلم الكلام

ألمحنا فى الفصل الثالث من الباب الثانى عند الكلام على الأحوال الفكرية فى عصر المماليك، إلى أن المنازعات العقائدية صارت جزءًا هامًا من السياسة العامة فى ذلك العصر، وقويت المجادلات والمناظرات، حتى وصل بعضها إلى ساحة القضاء والمحاكمات.

ورأينا معارك القرن الخامس العقائدية تظهر من جديد فى هذا العصر، بين من يقول بصرف الآيات التى يوهم ظاهرها التشبيه، وبين من يقول بإثباتها أو تفويضها.

وكان وراء هذه المعارك كلها حركة تأليفية رائعة، فكل فريق نهض للرد على الفريق الآخر يدحض حجج خصمه، ويدعم حجته هو.

وقد كان ابن جماعة كما قدمنا فى ذلك الباب شافعى المذهب، أشعرى العقيدة، فهب يدافع عن مذهب أهل السنة والجماعة على طريقة الأشاعرة، وينافح عن آرائهم ومعتقداتهم، بالمناظرات والجدل تارة، وبالرسائل والمؤلفات تارة أخرى.

وأظهرت هذه المناظرات قوة عارضته، وطول باعه فى علمى العقائد والكلام يغذيهما ويشد من أزرهما معرفته التامة بعلوم القرآن، وعلوم الحديث، تلك العلوم التى كان له فيها القدح المعلى، حتى رأيناه فى ما سبق أن قدمنا من مناهجه فى التفسير والحديث خامس خمسة يؤلف فى المبهمات ورابع أربعة يصنف فى المتشابهات، كما رأيناه يتصدر مشيخة الحديث فى عديد من مدارس الدونة فى مصر والشام.

فلا غرابة بعد ذلك أن نجد ابن جماعة يتصدى لمخالفى مذهبه فى عصره يرد عليهم حججهم، ويبطل خصومتهم، ويفند أدلتهم، وينافح عن

مذهب الأشاعرة وآرائهم مرتئيا أنه مذهب أهل السنة والجماعة، ومن عداه من المخالفين خاصة المعتزلة لأن له أدلة تقوى قلب السائل، وتجيب عن تساؤلاته، وتذهب وساوسه فيما يتعلق بخصوص الآيات التى يتوهم من ظاهرها التشبيه حسب رأيه ومعتقده.

وبالجملة فإن ابن جماعة استطاع أن يصور رأى الأشاعرة تصويرًا دقيقًا، وأن يدافع عنها دفاعًا قويا، وأن يكون له فى هذه المعارك العلمية ثلاثة كتب هامة هي:

١ - الرد على المشبهة فى قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾

٢ - التنزيه فى إبطال حجج التشبيه.

٣ - إيضاح الدليل فى قطع حجج أهل التعطيل.

وواضح من أسماء الكتب الثلاثة مدى قوة نفس شيخ الإسلام البدر بن جماعة فى هذا الفن غير أن الكتاب الأول والثانى لم يستدل لهما على مكان، وأما الثالث فهو الذى سنتناول منهج ابن جماعة فى علمى العقائد والكلام من خلال تصفح أوراقه.

منهجه فى علم العقائد من خلال كتابه "إيضاح الدليل".

وقد سلك ابن جماعة فى تأليف هذا الكتاب نفس مسلكه فى كافة العلوم والفنون، وهو لطافة الحجم مع غزارة المادة العلمية، والتخصص المنهجى للعلم الذى يكتب فيه بعيدًا عن الحشو والتطويل.

فالكتاب لا يزيد عن اثنتين وسبعين ورقة مصورة على ست وثلاثين لوحة محفوظة بدار الكتب المصرية.

أما منهجه العلمى فيقوم على ما يأتى:

أولا: حدد منهجه فى المقدمة فى أن الذب عن الدين - لمن تمكن منه، فرض واجب، وأن الرد على أهل البدع أمر لا محيص عنه، وغاية العالم المنتصب لإقامة الدليل إنما هو البيان وليس الهداية.

وكانت طريقته فى بيان ذلك هو حصر الآيات والأحاديث المختلف على بيان المراد منها، ثم توجيهها على مذهب الأشاعرة، وردّ أقوال مخالفيهم محددًا ذلك فى مقدمة كتابه فيقول:

"أما بعد فإن الذب عن الدين لمن تمكن منه فرض واجب، والرد على أهل البدع أمر لازب، مع أنه لا يقدر على الحمل على الاعتقاد إلا الرب الذى بيده تصاريف قلوب العباد.

وغاية المنتصب لإقامة الدليل بيان إبطال حجج أهل التشبيه والتعطيل، ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾.

ولما شاع فى الخاصة مذهب المعتزلة المؤدى إلى التعطيل، وفى العامة مذهب المشبهة المؤدى إلى التجسيم والحلول، انتصب أهل العلم من أهل الحق للرد على المذهبين، وبيان الحق المبين المباين للقولين، فأما مذهب الاعتزال فقد مُحى فى بلادنا رسمه، ولم يبق فيها إلا ذكره واسمه، وأما مذهب التشبيه فإن جماعات من العوام المجانبين للعلماء والأعلام أحسنوا الظن فى بعض من ينسب ذلك إليهم، فاعتمدوا فى تقليد دينهم عليهم، إذ كان هذا المذهب أقرب إلى ذهن العامى وفهمه: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ ﴾.

وقد ذكرت فى هذا المختصر معانى مما تمسكوا به من الآيات الكريمة، والأخبار الصحيحة الحسنة والسقيمة وما يجب رد معانيها إليه، ويتعين حملها عليه بجلال عظمته، وكمال صفاته، وقديم عزته، على ما تقتضيه لغة العرب التى نزل بها القرآن ومفهوم ذلك بينٌ عند أهل اللسان. قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾.

فأرسل سيدنا محمد ﷺ سيد المرسلين بلسان قومه العربى المبين، ونزل به القرآن ونيط به عقود الإيمان، وبه وردت أدلة الأحكام، وبيان الحلال

والحرام، وخوطبوا على ما يعرفونه من لغاتهم، ويفهمونه من مخاطباتهم من حقيقتها ومجازاتها، ومجملاتها، ومفصلاتها، ومضمراتها، وإشاراتها، واستعاراتها، وكناياتها، ونصوصها، وظواهرها، وعمومها، وخصوصها، ومطلقها، ومقيدها، فلم يحتاجوا عند نزول الكتاب إليهم وورود السنة عليهم إلى سؤال عن مدلول الألفاظ لمعرفتهم بمعناها، ولا بحث عن محلها لفهمهم لمقتضاها.

وذلك لما نزل: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ لم يشكوا أنه الجماع. ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ لم يشكوا أنه البخل والجود. (وأنزلنا الحديد) لم يشكوا أن معنى الإنزال فيه الخلق. وكذا: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾.

فكذا لم يشكوا أن ما لا يليق بجلال الله تعالى لم يرد فى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾، ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾، ونحوه من الآيات.

ومن السنة: "ينزل ربنا كل يوم إلى سماء الدنيا". "الحجر الأسود يمين الله فى الأرض". "القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن..." لم يشكوا أن ما لا يليق بجلال الرب تبارك وتعالى غير مراد، وأن المراد بذلك المعانى اللائقة بجلاله تعالى من مجازات الألفاظ وتأويلها، لما فهموا لم يسألوا عنه؛ ولو لم يفهموا منه ما لا يليق بجلال الرب تعالى لسألوا عنه وبحثوا، وكيف لا وقد سألوا عن المحيض، وأموال اليتامى، والأهلة، والإنفاق، ولبس الإيمان بالظلم، وصلاة المصلين إلى بيت المقدس من المتوفين قبل القبلة. فكيف يتركون السؤال عن صفات الرب العلية عند عدم فهم ما ورد منها مع علمهم أن معرفة الله تعالى أصل الإيمان، ومنبع العرفان؟"[٧١٦].

---

(٧١٦) اللوحة رقم٣، ٤ من مخطوط إيضاح الدليل فى قطع حجج أهل التعطيل لابن جماعة (دار الكتب المصرية رقم ٦٠٦ توحيد).

وفى هذا الجزء من مقدمة الكتاب اعتمد ابن جماعة فى مناصرة رأى أهل السنة والجماعة القائلين بصرف الآيات التى يوهم ظاهرها ما لا يليق بذاته تعالى عن معناها الحقيقى إلى معنى يليق بذاته تعالى، اعتمد على دعامتين أساسيتين:

الأولى: نزول القرآن بلغة العرب، ودلل على ذلك بما ذكره القرآن الكريم فى هذا الشأن ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾

والثانية: أن الصحابة فهموا القرآن على ما خوطبوا به من معنى لغتهم التى تحوى الحقيقة والمجاز، والكناية والاستعارة، والمجمل والمفصل، ففهموا الرفث على أنه الجماع، وفهموا غل اليد على أنه البخل وبسطها على أنه الجود ولو أنهم لم يفهموا ذلك منها لسألوا عنها. فكيف يسكتون على شىء لا يفهمونه خاصة إذا تعلق الأمر بمعرفة الله التى هى أصل الإيمان.

فلما وضع ابن جماعة هاتين الدعامتين القويتين ليستدل بهما على نصرة رأى أهل السنة والجماعة، انطلق يبين أقسام اللفظ العربى المتعلق بآيات الصفات من حيث احتماله لمعان عدة متبعًا نفس هذه الطريقة المنطقية التى تعتمد على التتبع والاستطراد العقلى المدعم بالنصوص فقال:

"وإذا ثبت أن الله تعالى خاطبنا بلغة العرب، وأن ما لا يليق بجلاله غير مراد فنقول:

اللفظ العربى المتعلق بالذات المقدسة، والصفات العلية إما أن يحتمل معانى عدة، أو لا يحتمل إلا معنى واحدًا.

فإن لم يحتمل إلا معنى واحدًا يليق بجلال الله تعالى كالعلم تعين حمله عليه، وإن احتمل معانى تليق بجلاله تعالى فهذا محل الكلام بين قول السلف والتأويل.. وقد رجح قوم التأويل لوجوه:

الأول: أنا إذا كففنا الألسنة عن الخوض فيه، ولم نتبين معناه فكيف تكف القلوب عن عروض الوساوس والشك وسبق الوهم إلى ما لا يليق به تعالى؟

الثاني: أن ابتلاج الصدور بظهور المعنى والعلم به أولى من تركه بصدد عروض الوساوس والشك، ومن ذا الذى يملك القلب مع كثرة تقلبه؟

الثالث: أن الاشتغال بالنظر المؤدى إلى الصواب والعلم أولى من الوقوف مع الجهل مع القدرة على نفيه.

الرابع: أن السكوت عن الجواب إن اكتفى به فى حق المؤمن المسلم الموقن والعامي، فلا يكتفى به فى جواب المنازع من مبتدع أو كافر، أو مصمم على التشبيه أو التجسيم.

الخامس: أن السكوت مناقض لقوله تعالي: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾ . (قد جاءكم برهان من ربكم). ﴿ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ . ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ ونحو ذلك"[٧١٧].

ثانيا: التزم ابن جماعة فى منهجه النزاهة العلمية فى النقد دون التعرض بالهجوم على الخصوم، ولكنه يقيم الدليل تلو الدليل على صحة آراء أهل السنة والجماعة، ولا يمنعه ذلك من أن يقرر صحة مذهب السلف أيضًا ويثنى عليهم وهو بذلك يبتعد كل البعد عن مسلك التعصب الذى سلكه كثير من الغلاة فى عصره، وفى كل هذا نراه يقول:

"فخاطبنا بما نفهم معناه من إدراك المسموعات، والمبصرات، والمعلومات، ونحو ذلك، مع قيام الدليل على تنزيهه من التشبيه بالمخلوقين، فقد بان بما ذكرته أن حقيقة مذهب السلف السكوت عن تعيين المراد من

---

(٧١٧) إيضاح الدليل فى قطع حجج أهل التعطيل لابن جماعة اللوحة رقم ٤، ٥.

المعانى اللائقة بجلاله من ذلك اللفظ المحتمل؛ لأن المراد معان لا تفهم ولا تعقل، ولا وضع له لفظ يدل عليه لغة، بل عبر عنه بلفظ يوهم غيره، أولا يفهم له معنى، وكل ذلك مناف لما ذكرناه من أن القرآن والسنة بيان وهدى.

فمن اعتقد مذهب السلف المذكور، أو مذهب التأويل الحق فهو على هدى ومن اعتقد ظاهرًا لا يليق بجلاله تعالى أو ما لا يفهم معناه أصلا فمبتدع"(٧١٨).

وهذا القول يدل على سعة صدر ابن جماعة، وعدم معاداة خصومه فى المذهب، وإقراره بالحق لهم. بينما نجد غيره من بعض الأشاعرة أو بعض الحنابلة من لا يحسن ذلك، بل يذهبون إلى حد التقاتل.

يقول الشيخ محيى الدين عبد الحميد فى مقدمة تحقيقه لكتاب "مقالات الإسلاميين نقلا عن ابن تيمية رحمه الله ما نصه:

ويذكر ابن تيمية سبب انحراف أهل الحديث عن الأشعرى بعد ذلك بقليل وذلك قوله: "وأما مسألة قيام الأفعال الاختيارية به فإن ابن كلاب والأشعرى وغيرهما ينفونها، وعلى ذلك بنوا قولهم فى مسألة القرآن، وبسبب ذلك وغيره تكلم الناس فيهم فى هذا الباب بما هو معروف فى كتب أهل العلم، ونسبوهم إلى البدعة، وبقايا الاعتزال فيهم، وشاع النزاع فى ذلك بين عامة المنتسبين إلى السنة من أصحاب أحمد وغيرهم. وقد حاول الحنابلة أن يمنعوا الخطيب البغدادى (المتوفى سنة ٤٦٣ من الهجرة) من دخول المسجد الجامع ببغداد: لأنه كان يذهب مذهب الأشعري. وكان أكابر الأشاعرة فى ذلك العهد يضطهدون ويننون. وتحاملت الحنابلة على رجل من كبار الأشاعرة

---

(٧١٨) إيضاح الدليل فى قطع حجج أهل التعطيل لابن جماعة اللوحة رقم ٥.

ذوى النفوذ وهو القشيرى (المتوفى عام ٥١٤ من الهجرة) ووقع بسبب ذلك قتال فى الشوارع"[٧١٩].

ثالثًا: ركز ابن جماعة فى منهجه فى بقية الكتاب على تتبع الآيات الكريمة والأحاديث التى استند إليها القائلون بالتعطيل واتخذوها حجة لصحة مذهبهم ففندها وأبطل حججها وكان منهجه فى ذلك ما يأتي:

أ - حصر الآيات الكريمة المتنازع عليها وتأويلها بما يليق بجلال الله تعالى فى ثلاثين آية من آيات القرآن الكريم فأوردها واحدة إثر الأخري، وفند الأقوال حولها، وكان منهجه فى الرد على هذه الأقوال الرجوع إلى أصل اللغة التى نزلت بها هذه الآيات، والاستقراء المنطقى المحاول إلى سوق الخصم على التسليم بالحجة، ومن أمثلة منهجه فى ذلك ما نجده فى مناقشته التالية:

"الآية التاسعة: قولــه تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ﴾ وما ورد منه.

اعلم أنه أطلق الوجه فى هذه الآيات والمراد به الذات المقدسة، وعبر عنها بالوجه على عادة العرب الذى نزل القرآن بلغتهم بقول أحدهم: فعلت لوجهك أى لك. وإنما كنى عن الذات بالوجه لأنه هو المرئى الظاهر من الإنسان وبه يتميز الإنسان عن غيره، ولأن الرأس والوجه موضع الفهم والعقل والحس المقصود من الذات، ولأن الوجه مخصوص بمزيد الحسن والجمال ويظهر عليه ما فى القلب من رضى وغضب، فأطلق على الذات مجازًا.

وقد يعبر بالوجه عن الرضى، وسبب الكناية عنه أن الإنسان إذا رضى بالشيء ومال إليه أقبل بوجهه عليه، وإذا كرهه أعرض بوجهه عنه، فكنى بالوجه عن الرضى.

---

(٧١٩) مقدمة المحقق لكتاب مقالات الإسلاميين للأشعرى ١/٢٥، ٢٦.

إذا ثبت ذلك تعين صرف الوجه إلى الذات فى قوله: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ ولا يجوز إرادة ظاهره حقيقة لوجوه:

الوجه الأول: أن الموصوف بالبقاء عند فناء الخلق إنما هو الذات المقدسة لا مجرد الوجه؛ لأنه لو أريد ذلك لزم منه هلاك ما سوى الوجه تعالى عن ذلك وتقدس.

الوجه الثاني: أن قوله: (فأينما تُوَلُّوا فثم وجه الله) لو أريد الوجه نفسه لزم وجوده فى جوانب الأرض ويلزم حصول ذات واحدة فى أماكن كثيرة متفرقة متباعدة وهو محال اتفاقا.

الوجه الثالث: أنه وصف الوجه بذى الجلال والإكرام، والموصوف بذلك هو الله تعالى بدليل قوله: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾، فإنه صفة للرب تعالي، وبدليل ما ورد فى الدعاء يا ذا الجلال والإكرام. فدل فى تلك الآية على أنه وصف للذات لا للوجه خاصة لأن القرآن يفسر بعضه بعضًا. قوله تعالي: ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾. و﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ فالمراد بذلك والله أعلم، تحصيل رضاه تعالى كما تقدم. لأن الإرادة فى قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ لا تتعلق بحصول نفس الذات بمجردها، ولا بنفس ظاهرة الوجهة بمجرده، وإنما يتعلق بحصول مراد يحصل لهم دخوله فى الوجود، أما الذات أو الوجه القديم، فمحال، فدل على أن المراد حصول شيء منه، وهو رضاه عنهم، وعبر فيه بالوجه كما تقدم أن الراضى يقبل بوجهه على من رضيه.

وقيل المراد بالوجه: القصد. وقال الشاعر:

رب العباد إليه الوجه والعمل

وقيل فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾: أى لرضاه كما تقدم فالمراد حصول رضاه.

فإن قيل: إضافة الوجه إلى الرب تشعر بأن المضاف غير المضاف إليه.

قلنا : الجواب ما تقدم من امتناع ذلك للإلزامات المذكورة فى قول من قال: المراد صفة لا يعقل معناها مردود بما قدمنا أن القرآن كتاب مبين، وبيان للناس، وهدى، وإنه بلسان عربى مبين، والوجه فى اللغة العربية إما العضو وقد قدمنا أنها محال أو الذات، أو الرضا كما ذكرنا"[٧٢٠].

ب - حصر الأخبار المتنازع عليها واتجه فى منهجه إلى تقسيمها إلى أقسام هي:

١ - الصحيح والحسن: وجرى منهجه فى هذا النوع على توجيهه بنفس طريقته فى توجيه الآيات، وهى : التحليل اللغوي، والاستقراء المنطقى المدعم بالدليل النقلى أو العقلي.

وسنورد من هذا النوع الحديث الخامس عشر للتدليل على منهجه فيه وهو قوله:

"الحديث الخامس عشر: يطوى الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمني. الحديث.

اعلم أن القبض حقيقة بالنسبة إلينا مباشرة بالكف، وذلك بالنسبة إلى الله تعالى محال كما تقدم، فوجب تأويله بأن المراد تقريب التمثيل مما يدرك بالحس فمثّل بما هو أقرب إليه وقد تقدم معنا ، ومعنى اليمين فى آية الزمر فى قوله:

﴿ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ . وجاء فى بعض طرق الحديث لفظ الشمال وانفرد به عمرو بن حمزة دون سائر رواة الحديث الصحيح، وكلتا يديه يمين. وقال البيهقى: كأن الذى روى الشمال رواه على العادة الجارية على

---

(٧٢٠) اللوحة رقم ١٠، ١١ من إيضاح الدليل فى قطع حجج أهل التعطيل لابن جماعة.

الألسنة فى مقابلة اليمين بالشمال، وقوله فى الحديث: يقبض أصابعه ويبسطها هو من لفظ الراوى يحكى به لفظ النبى ﷺ لا أنه رب العزة تبارك وتعالي"[٧٢١].

وقد ناقش ابن جماعة فى هذا النوع من الصحيح واحدًا وثلاثين حديثًا على هذا النهج.

٢ - الضعيف: ويشمل الموضوع، كما يشمل ما كان ضعفه بسبب خلل فى سنده أو متنه وأورد ابن جماعة من هذا النوع خمسة وثلاثين حديثًا حدد فى أولها منهجه فى مناقشتها بقوله:

"وقد ذكرت ما تيسر من أسباب ضعفها باختصار، والنص لمنع التمسك بها، وتأويلها بعد تسليم ثبوتها على ما يقتضيه لسان العرب الذى نزل به القرآن، واقتصرت فى غالبها على الألفاظ التى يحتاج البيان إلى ضعفها وتأويلها دون بقية الألفاظ"[٧٢٢].

فابن جماعة هنا يسير على نفس المنهج الذى سار عليه فى مناقشة الصحيح، غير أنه يزيد عليه إظهار ضعف الحديث، وذكر سبب هذا الضعف، ثم افتراض التسليم بصحته ومناقشته بنفس الطريقة التى عالج بها ما سبق من الأحاديث كما لو كان هذا ضعيفًا.

ومثاله الذى اخترناه من هذا النوع هو الحديث الرابع وفيه يقول:

"الحديث الرابع: يروى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: "لما خلق الله تعالى آدم ونفخ فيه من روحه عطس". الحديث. قال فيه: "فقال الله تبارك وتعالى ويداه مقبوضتان اختر أيهما شئت. فقال اخترت يمين ربي. وفى رواية: فلما قبض الله الذرية من ظهر آدم بكفيه قال: خذ أيهما شئت. قال: آخذ يمين ربى وكلتا يديه يمين، ففتحها وفى رواية فبسطها، فإذا فيها آدم وذريته.

---

(٧٢١) اللوحة رقم ٢٧ من إيضاح الدليل فى قطع حجج أهل التعطيل لابن جماعة.

(٧٢٢) اللوحة رقم ٣٢ من نفس المصدر المخطوط.

هذا حديث ضعيف جدًا، تفرد به حاتم بن إسماعيل وهو ضعيف جدًا. وبتقدير ثبوته بالقبض عبارة عن الملك والقدرة والحكمة. والكف عبارة عما تقدم من الوجوه من الملك والقدرة والنعمة، وآثاره الحسنة فيهم، واليمين التى اختارها كناية عن أهل السعادة والطيب من ذريته. وأخذه واختياره كناية عن محبتهم ورضاه عنهم، أو أن المراد باليمين: اليمين والبركة من الله تعالي، وإضافتها إلى الله تعالى إضافة ملك وفعل لأنه تعالى هو الذى وفقهم وأسعدهم بتوفيقه لهم"(٧٢٣).

وبهذا القدر من هذه النقول نكون قد جلنا جولة طيبة مع فكر العلامة شيخ الإسلام بدر الدين بن جماعة وتأكدنا من سعة علمه، وقوة عارضته، وتمكنه من علم الكلام، والمنطق، مع تملكه لزمام الأدلة النقلية، وتوجيه الصحيح والحسن منها، وإظهار الضعيف والسقيم وأسباب سقمه، والرد عليها مع افتراض صحته.

كل ذلك على اعتقاده مذهب الأشاعرة وعدم جحوده مذهب السلف بل والإقرار بأن من اعتقد مذهب السلف فهو على هدى كما أسلفنا عنه فى الأسطر القليلة الماضية، فأثبت بذلك أنه من خيار علماء الأمة ممن دافع عما يعتقد أنه الحق، مشفوعًا بالكتاب والسنة، دون أن ينكر مذهب السلف أو يعتقد فى خروج مرتئيه كما يفعل بعض المنتمين إلى العلم فى كل زمان أو مكان. وتشديد النكير على من عداهم من المعتزلة وغيرهم.

---

(٧٢٣) اللوحة رقم ٢٣ من إيضاح الدليل فى قطع حجج أهل التعطيل لابن جماعة.

الفصل السادس
منهجه فى السياسة الشرعية

نتناول فى هذا الفصل منهج ابن جماعة فى لون آخر من الفنون العلمية التى أظهر فيها براعته، ومقدرته على البحث، والتعمق، مع التيسير والتسهيل على قارىء الفن فى الفهم والاستيعاب، إلى جانب الإحاطة بالمادة العلمية إحاطة كاملة، وهو فن السياسة الشرعية والأحكام السلطانية وهى وإن كانت من الفقه العام إلا أنى قصدت إفرادها هنا تحت مسمى فقه السياسة الشرعية أو ما يسمى عند فقهاء القانون المعاصر بالقانون الدستورى.

وقد أشارت المصادر إلى أن ابن جماعة كتب فى هذا اللون من الفنون كتابين.

أحدهما: كتاب حجة السلوك فى مهاداة الملوك. وثانيهما: تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام، وقد أشرت فى الفصل الأول من الباب الرابع إلى عدم التعرف على مكان وجود الكتاب الأول[٧٢٤].

أما الثاني: فهو الذى سنقف من خلال تصفحه على منهج ابن جماعة. وقد أدار ابن جماعة بحثه فى موضوع الأحكام السلطانية على سبعة عشر بابا:

الأول: فى الإمامة، وجعله فى خمسة فصول:

تحدث فى الفصل الأول: عن وجوب الإمامة وشروط الإمام وأحكامه، وفى الفصل الثاني: عن أنواع الإمامة، وفى الثالث عن طرق انعقاد كل إمامة منها، وفى الرابع عن كيفية اختيار الإمام لو وجد جماعة تنطبق عليهم شروطها، والخامس: طريقة البيعة.

(٧٢٤) راجع ص١٥٨ من هذا البحث.

الثانى: ما للخليفة والسلطان وما عليه. وفيه سبعة فصول:

الفصل الأول: حق التفويض بالولايات، والثاني: ما يجب على السلطان أن يفعله فى حال استيلاء أحد ملوكه على إقليم من الدولة بالقوة والقهر، والثالث: فى حقوق السلطان وحقوق الرعية، والرابع: أن السلطان بصفته الشخصية فرد من أفراد الرعية، والخامس: أن على السلطان كملك للرعية أن يدرك أنه مملوك لله عز وجل، السادس: ما ينعزل به السلطان وما يحدث عند الخروج عليه، والسابع: معنى السلطان عند العرب.

الثالث: فى تقليد الوزراء ، واتخاذ الأمراء. وفيه فصلان.

الفصل الأول: فى كيفية التقليد، والثانى : فى أنواع الوزارات واختصاص كل منها.

الرابع: فى اتخاذ الأمراء لجهاد الأعداء. وفيه ثلاثة فصول.

الأول: فى أقسام الإمارة، والثاني: فى شروط أمير الجند، والثالث: فى إقطاعات الأمراء.

الخامس: فى حفظ أوضاع الشريعة وفيه فصلان:

الأول: إقامة الأئمة والعلماء، والثاني: فى شروط القضاة والمفتين والمحتسبين.

السادس: فى اتخاذ الأجناد وإعدادهم، وتفريغهم للقيام بفرض الجهاد.

السابع: عطاء السلطان وجهاته وأنواع إقطاعاته. وفيه تسعة فصول:

الأول: الفىء وتوضيح إخراجاته، والثاني: الخراج وتقديره والثالث: ما يحدث فى تغيير أرض الخراج، أما الفصول الباقية فمسائل متفرقة حول ما يجوز إقطاعه، وما لا يجوز.

الثامن: فى تقدير عطاء الأجناد، وما يستحقه أهل الجهاد. وفيه ثمانية فصول هى على التوالى: عرض لما كان فى صدر الإسلام، ثم زيادة الأرزاق

بزيادة بيت المال، ثم أخذ السلطان لكفايته من بيت المال، ثم مراعاة حال كل أمير فى إقطاعه، ما يحرم على الرجال استعماله، والفصول الأخرى مسائل متفرقة هامة.

التاسع: اتخاذ الخيل والسلاح والعتاد للقائمين بفرض الجهاد، وفيه فصول:

الأول: عرض تاريخى، والثانى: أقسام ديوان السلطان، والثالث: فى المسابقات بالخيول والإبل، والرابع: فى شروط التسابق، والخامس: فى أقوال النبى ﷺ فى الخيول.

العاشر: فى وضع الديوان وأقسام ديوان السلطان فيه فصول:

الأول: عرض تاريخي، والثانى: أقسام ديوان السلطان، والثالث: طرق كتابة الأسماء، والرابع: ترتيب الأسماء، والخامس: وضع الأسماء الأعجام. السادس: لكل عشرة من الجند عريف، السابع: مقادير الرسوم، الثامن: الضرائب والأعشار وما يتبعه من نظام ديوان العمال، وديوان دخل بيت المال وخروجه، التاسع: إذا ضاق بيت المال عن مصارفه.

الحادى عشر: فضل الجهاد ومقدماته، ومن يتأهل له من حماته. وفيه فصول:

الأول: النصوص الواردة، والثاني: حكمه والخلاف فى ذلك. الثالث: أقسامه وحكم كل قسم. الرابع: شروط المجاهد، الخامس: ترغيب السلطان للجهاد. السادس :شروط الاستعانة بغير المسلم فى الجهاد، السابع: ما يستحب للسلطان إذا أراد الغزو. الثامن: إمرة الجيوش والسرايا، التاسع: الخروج يوم الخميس، العاشر: تفتيش السلطان على الجيش قبل الخروج إلى الغزو. الحادى عشر: استبعاد الضعيف من الجيش، الثانى عشر: رفق قائد الجيش به أثناء السير، الثالث عشر: إقامة قائد الجيش لشعائر الله تعالى. الرابع عشر: منع

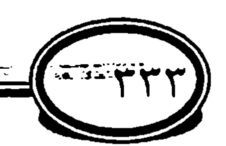
اشتغال أهل الجيش بالتجارة والزراعة وغيرها. الخامس عشر: يقظة القائد وتحرزه من غرة العدو. السادس عشر: تشاور أمير الجيش مع أهل الرأى والتجربة.

الثانى عشر: فى كيفية القتال، والصبر على مقارعة الأبطال وفيه فصول:

الأول: قتال من لم تبلغه الدعوة الإسلامية، الثانى: ترتيب أمير الجيش للصفوف، والثالث: وصيته للجيش إذا حدثت الهزيمة، الرابع: الدعاء عند التقاء الجيش إذا حدثت الهزيمة، الرابع: الدعاء عند التقاء الصفوف، الخامس: النية أثناء القتال بنصر دين الله، السادس: مصابرة العدو، السابع: الاحتفاظ بالسلاح لوقت الحاجة، الثامن: حرمة الهزيمة إذا لم يزد عدد الكفار على مثل عدد المسلمين. التاسع: إذا زاد عددهم على الضعف مع التقارب فى القوة، العاشر: إذا تقاربوا فى القوة والضعف، الحادى عشر: لا يجوز لقائد الجيش أن يبارز بنفسه. الثانى عشر: جواز قتل من ظفر به. الثالث عشر: حصار الكفار فى حصونهم وقلاعهم. الرابع عشر: طلب العدو للتحكيم أثناء الحصار. الخامس عشر: تترس الكفار بأسرى المسلمين. السادس عشر: ما يستحب عند النصر والفتح.

الثالث عشر: فى الغنيمة وأقسامها، وتفاصيل أحكامها. وفصولها على التوالى:

النصوص، ثم تحديد معنى الغنيمة، ثم تخميس الغنائم، ثم أقسام الغنائم العامة وهى: الأسرى، ثم أسر الحر العاقل، ثم أسر من له مال وعليه دين، ثم أسر الرجل مع زوجته وأولاده ثم إسلام الكافر قبل الظفر به، ثم السبى: وهم الأطفال والنساء والأرقاء. ثم مفاداة السبى ثم عرض لفصول فيها مسائل متفرقة فى غاية الأهمية، ثم الأرضون، ومنها ما فتح عنوة. وما فتح



صلحًا، ثم تخميس الكتب العلمية، ثم غنائم الصقور والسنانير، ثم ما يجوز للمجاهد أكله من دار الحرب، ثم ما يهديه مقدم الكفار لمقدم المسلمين إذا لم تكن حرب، ثم دخول المسلم لدار الحرب خفية، ثم دخول الكافر دار الإسلام بغير أمان، ثم فصول متتابعة فى مسائل الغلول فى الغنيمة.

الرابع عشر: فى قسمة الغنمية ومستحقيها. وفيها اثنا عشر فصلا كلها تدور حول الغنيمة.

الخامس عشر: فى الهدنة والأمان وأحكام الاستئمان. وفيه تسعة فصول هامة تبحث فى أسباب المهادنة، وأقسامها، وما تصح به الهدنة وتنفيذ عقد الهدنة، وما يتبع إذا خفيت الخيانة، وما يحصل به الأمان.

السادس عشر: قتال أهل البغى من أهل الإسلام. وفيه تعريف أهل البغى والخوارج، والشروط المتعلقة بالبغاة وتصرفاتهم؛ وكيفية قتالهم وضمان إتلافهم.

السابع عشر: فى عقد الذمة وأحكامه، وما يجب بالتزامه. وفيه ثلاثة عشر فصلاً. كلها مسائل متفرقة عن أهل الذمة وما يلزمهم من الجزية، وما يجب عليهم وما يجوز ، وما يجب على المسلمين نحوهم، وأحكام مساكنهم، وكنائسهم، ومراكبهم، وكف ألسنتهم، وأفعالهم، ومنعهم من دخول مكة والمدينة وغيرهما من أراضى الحجاز، وما ينتقص به عهدهم.

هذا وقد قصدت إلى سرد هذه الموضوعات قصدًا؛ لأنه على أهمية هذا الكتاب، وخطر النقاط العلمية التى تناولها ابن جماعة فى فن السياسة الشرعية والأحكام السلطانية أيضًا أو من عاصره كابن تيمية فى كتابه "السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية"، بل لا أغالى ولا أتحيز إذا قلت بأن تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام كتاب تفرد عن مصنفات هؤلاء الأعلام فى كثير من الموضوعات، بل وفى فن التصنيف والترتيب والتبويب

ومراعاة ظروف العصر الذى ألف فيه كذلك، على الرغم من أن ابن جماعة قد تواضع وسماه مختصرًا حيث قال فى مقدمته:

وهذا مختصر جمل الأحكام السلطانية، ونبذ من القواعد الإسلامية. وذكر أموال بيت المال وجهاته، وما يصح من عطائه وإقطاعاته، وتقدير عطاء الأجناد"(٧٢٥). إلى آخر ما أوردناه.

كما أنه وضح فى نفس المقدمة أيضًا بعض خصائص منهجه فى تأليف هذا الفن ومنها قوله:

"واستندت فيه إلى السنن، والآثار، وأقوال علماء الأمصار، فهو سهل المطالعة لتقرير فهمه، قريب المراجعة لصغر حجمه، وقصدت فيه غاية الاختصار، مخافة الملل من الإكثار".

ومن مطالعة الكتاب يمكن أن نستخلص منهج ابن جماعة فى تأليف هذا العلم فنبينه فيما يأتي:

أولا: الاستدلال بالكتاب والسنة على تقرير الأحكام للقضايا التى يوردها فى الأبواب المختلفة، بحيث يسوق القضية فى عنوان ثابت، ثم يعقبها بالأدلة على أولويتها ثم يخلص إلى الحكم.

فنراه يقول فى قضية "الإمامة" ما نصه:

"الباب الأول فى وجوب الإمامة، وشروط الإمام وأحكامه".

قال الله تعالى: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (٧٢٦).

---

(٧٢٥) الورقة: ٢٠٢ من مخطوط تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام. (رقم ٢٣٨٤١ب دار الكتب المصرية).

(٧٢٦) سورة ص آية ٢٦.

وقال تعالي: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾[٧٢٧].

ضمّن سبحانه وتعالى نصرة الملوك بهذه الشروط الأربعة، فإذا قاموا بهذه الشروط تحقق لهم النصر المشروط.

ويجب نصب إمام يقوم بحراسة الدين وكف أيدى المعتدين وإنصاف المظلومين من الظالمين، ويأخذ الحقوق من مواقعها، ويضعها جمعًا وصرفًا فى مواضعها فإن بذلك صلاح البلاد، وأمن العباد، وقطع مواد الفساد، لأن الخلق لا تصلح أحوالهم إلا بسلطان يقوم بسياستهم، ويتجرد لحراستهم. ولذلك قال بعض الحكماء: جور السلطان أربعين سنة خير من رعية مهملة ساعة واحدة.

ونقل الطوسى - رحمه الله - فى قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ ﴾[٧٢٨] قيل فى معناه: لولا أن الله أقام السلطان فى الأرض يدفع القوى عن الضعيف، وينصف المظلوم من ظالمه لتواثب الناس بعضهم على بعض... وَرُوِى فى الحديث: السلطان ظل الله فى الأرض يأوى إليه كل مظلوم من عباده، فإذا عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر، وإن جار كان عليه الإصر وعلى الرعية الصبر.

وعن على - رضى الله عنه -: إمام عادل خير من مطر وابل"[٧٢٩].

فإذا فرغ من ذكر الأدلة بدأ فى تقسيم الإمامة إلى ضربين: اختيارية، وقهرية، ومنهجه فى هذا يخالف مناهج كل من الماوردي، وأبى يعلي، وابن تيمية.

---

(٧٢٧) سورة الحج آية ٤١.

(٧٢٨) الورقة ٦، ٧ من مخطوط تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام لابن جماعة.

(٧٢٩) الورقة ٦، ٧ من مخطوط تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام لابن جماعة.

أما الماوردى: فإنه يبدأ بالاستدلالات العقلية، لتقرير طاعة ولى الأمر ويخلص منها إلى تقرير الحكم، وشروط الإمام، ثم يتحدث عن الإمامة وانعقادها من وجهين اختيار أهل الحل والعقد، والعهد. فيقول ما نصه:

"الإمامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها فى الأمة واجب بالإجماع، وإن شذ عنهم الأصم فى وجوبها. هل وجبت بالعقل أو بالشرع؟ فقالت طائفة وجبت بالعقل لما فى طباع العقلاء من التسليم لزعيم يمنعهم من التظالم ويفصل فى التنازع والتخاصم، ولولا الولاة لكانوا فوضى مهملين، وهمجًا مضاعين.. والإمامة تنعقد من وجهين: أحدهما باختيار أهل الحل والعقد. والثانى بعهد الإمام"[٧٣٠].

ونرى أبا يعلى ينهج قريبًا من نهج الماوردى وإن اختلف معه فى مواضع فيقول:

"فصول فى الإمامة"

بيعة الإمام واجبة، وقد قال أحمد - رضى الله عنه - فى رواية محمد بن عوف ابن سفيان الحمصى - الفتنة إذا لم يكن إمام يقوم بأمر الناس.. وطريق وجوبها السمع لا العقل، لما ذكرناه فى غيرهذا الموضع، وأن العقل لا يعلم به فرض شىء ولا إباحته، ولا تحليل شىء ولا تحريمه.

وهى فرض على الكفاية.. والإمامة تنعقد من وجهين: أحدهما باختيار أهل الحل والعقد. والثانى بعهد من الإمام"[٧٣١].

أما العلامة ابن تيمية فمنهجه فى كتابه أقرب إلى سرد النص ويليه التخصص المنهجى فى البحث فوضع مسألة الإمامة كلها تحت "أداء الأمانات" وجعل ذلك أبوابا، فالباب الأول: جعله للولايات بصفة عامة وقسمه إلى فصول،

(٧٣٠) الأحكام السلطانية للماوردى ص٣ - ٤.

(٧٣١) الأحكام السلطانية لأبى يعلى ص ٣ - ٤.

الأول استعمال الأصلح، والثاني: اختيار الأمثل فالأمثل، والثالث فى قلة اجتماع الأمانة والقوة فى الناس، فأدرج جميع الولايات تحت هذا العنوان[٧٣٢].

وبهذا نرى أن ابن جماعة تفرد عن هؤلاء الأعلام الثلاثة، بدقة البحث وترتيب الاستدلال والموضوعية، والتخصص، ثم انفرد كذلك فى نقطة هامة لم يتجه العلماء الثلاثة إليها وهى دقته فى تقسيم الإمامة فقال:

"الإمامة ضربان: اختيارية، وقهرية"

أما الاختيارية فلأهليتها عشر شروط وهى:

أن يكون الإمام ذكرًا، حرًا، بالغًا، عاقلاً، مسلمًا، عدلاً، شجاعًا، قرشيا، عالمًا، كافيا لما يتولاه من سياسة الأمة ومصالحها، فمتى عقدت البيعة لمن هذه صفته، ولم يكن ثَمَّ إمام غيره انعقدت بيعته وإمامته. ولزمت فى غير معصية الله طاعته. قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ . فقرن طاعة ولاة الأمر بطاعته وطاعة رسوله، وأطلق الأمر بطاعتهم.

وتنعقد الإمامة الاختيارية بطريقين، والقهرية بطريق ثالث:

الطريق الأول فى الاختيارية بيعة أهل الحل والعقد من الأمراء، والعلماء، والرؤساء، ووجوه الناس الذين يتيسر حضورهم ببلد الإمام عند البيعة، كبيعة أبى بكر - رضى الله عنه - يوم السقيفة. واتفق الناس على لزوم بيعته.

الطريق الثاني: استخلاف الإمام الذى قبله، كما استخلف أبو بكر عمر - رضى الله عنهما -، وأجمعوا على صحته، فإن جعل الإمام الأمر بعده شورى فى جماعة صح أيضًا، ويتفقون على واحد منهم كما فعل عمر - رضى الله عنه - بأهل الشورى من العشرة.

---

(٧٣٢) راجع السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية لابن تيمية ص٦ - ٢٧.



وأما الطريق الثالث الذى تنعقد به البيعة القهرية فهو: قهر صاحب الشوكة فإذا خلا الوقت عن إمام فتصدى لها من هو من أهلها وقهر الناس بشوكته وجنوده بغير بيعة أو استخلاف انعقدت بيعته ولزمت طاعته لينتظم شمل المسلمين وتجتمع كلمتهم"(٧٣٣).

والذين كتبوا عن ابن جماعة من المستشرقين الألمان كـ: "هانز كوفلر" فى منتصف القرن التاسع عشر يعتبرون ابن جماعة بإجازته للبيعة القهرية من مجددى علماء المسلمين للقانون الدستورى(٧٣٤).

وهذا التقسيم الفريد لم نجده فى أحكام الماوردي، وأبى يعلى، ولا فى مؤلف ابن تيمية، وليس هذا النموذج الوحيد لتفرد ابن جماعة فى تصنيفه هذا، بل النماذج على ذلك كثيرة يضيق الفصل عن ذكرها، بل لم يقتصر تفرد ابن جماعة على مسائل فرعية، وإنما تعداها إلى ذكر فصول كاملة هامة لا نراها بهذا الترتيب العلمى، وهى فصول الباب الثالث عشر فى الغنائم وتفاصيل أحكامها خاصة القسم الأول عن الأسرى، والقسم الثانى عن السبى وعقد لكل منهما فصولاً مستقلة رائعة فى نهجها العلمى لمن يحب أن يطالعها(٧٣٥).

ثانيا: يتميز منهجه بعرض الآراء العلمية لعلماء المذاهب المختلفة إن كان فى المسألة أقوال، فمثلاً نراه فى عرضه لمسألة ما ينتقض به عهد أهل الذمة يقول ما نصه:

"إذا امتنع الذمى من أداء الجزية، والتزام أحكام الملة، أو قاتلنا انتقض عهده بأحد هذه الثلاثة سواء شرط عليه ذلك أو لم يشرط. وبه قال مالك

(٧٣٣) الورقة ٧ - ٩ من مخطوط تحرير الأحكام لابن جماعة.

(٧٣٤) راجع مجلة "إسلاميكا" الألمانية النشرة العربية، العدد ٤٤، ٤٥.

(٧٣٥) الورقة ٧، ٩ من مخطوط تحرير الأحكام لابن جماعة.

وأحمد، وقال أبو حنيفة لا ينتقض إلا إذا كانت له منعة، أو لحقوا بدار الحرب، وإن ذكروا الله تعالى أو رسوله ﷺ، أو دين الإسلام أو القرآن بما لا يجوز. قال مالك وأحمد ينتقض عهده، وبه قطع بعض أصحاب الشافعي، وقال بعضهم: إن شرط عليه الكف عنه أو النقض انتقض عهده وإلا فلا. وقال أبو حنيفة لا ينتقض إلا أن يكون لهم منعه"(٧٣٦).

ثالثًا: من أبرز نهجه فى تصنيفه هذا هو الاستناد فى أكثر من موضوع على الاستدلال بأقوال الحكماء، وإيراد بعض القصص والأمثلة من غابر الملوك مما يوحى بأن الكتاب كان موجهًا فى الأصل إلى حكام المماليك وسلاطينهم بطريقة خفية ليفهموا من خلالها أحكام الإسلام وأصوله فى سياسة الرعية فى الحرب والسلم، فمثلاً يقول فى حقوق الرعية على السلطان ما نصه:

"العاشر: العادل فى سلطانه وسلوك موارده فى جميع شأنه. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾، وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ ﴾ وفى كلام الحكمة: عدل الملك حياة الرعية وروح المملكة. فما بقاء جسد لا روح فيه؟ فيجب على من حكّمه فى عباده، وملّكه شيئًا من بلاده، أن يجعل العدل أصل اعتماده، وقاعدة استناده،لما فيه من عمارة البلاد، ومصالح العباد؛ لأن نعم الله يجب شكرها، وأن يكون الشكر على قدرها، ونعمة الله على السلطان فوق كل نعمة، فيجب أن يكون شكره أعظم من كل شكر، وأفضل ما شكر به السلطان لله تعالى إقامة العدل فيما حكّمه فيه. ولذلك رُوى فى الحديث عدل الإمام العادل فى رعيته يومًا واحدًا أفضل من عبادة ستين سنة. وروى مائة.

(٧٣٦) راجع الأوراق من ١٠٩ - ١٣٢ من نفس المصدر المخطوط.

ولما كان خطر السلطان جسيمًا، ونفعه عميقًا، كان أجره عند الله عظيمًا، ومقامه فى الجنة كريمًا، ولو لم يكن فى أجر العدل ما فيه لكانت مصالح الملك وعمارة الممالك تقتضيه. وكذلك كان كسرى وغيره من كفرة الملوك فى غاية العدل مع أنهم لا يعتقدون ثوابًا ولا عقابًا. لأنهم علموا أن بالعدل صلاح ملكهم، وبقاء دولتهم، وعمارة بلادهم.

قال الحكماء: الملك أساس الجند، والجند يجمعهم المال، والمال رزق تجلبه العمارة، والعمارة عمل ينمو بالغدل.

وقال الحكماء: العالم بستان سياجه الدولة. والدولة سلطان يعضده الجيش. والجيش جند يجمعهم المال. والمال رزق تجمعه الرعية. والرعية عبيد ينشئهم العدل.

وقد اتفقت شرائع الأنبياء، وآراء الحكماء والعقلاء أن العدل سبب لنمو البركات، ومزيد الخيرات وأن الذل والجور سبب لخراب الممالك، واقتحام المهالك لا شك عندهم فى ذلك.

قيل: نزل ملك مختفيا برجل له بقرة تحلب حلاب ثلاثين بقرة. فعجب منها، وعزم على أخذها، فحلبت من الغد نصف حلبها فسأله الملك عن سبب ذلك. فقال: أظن سلطاننا عزم على أخذها، وظلم الملك يذهب البركة. فنوى السلطان تركها، وعاهد الرجل عليه، فحلبت من الغد عادتها. فعاهد السلطان ربه أن يعدل ما بقى.

وقيل: كان بصعيد مصر نخلة تحمل ستين ويبة، فغصبها السلطان، فلم تحمل ثمرة واحدة.

فقد ظهر أن العدل قيام الملك، ودوام السلطان، وشرف الدنيا[٧٣٧] والآخرة".

---

(٧٣٧) الورقة ١٦٥ من مخطوط تحرير الأحكام لابن جماعة.

وهذا الاستطراد الطويل إلى حد ما لأقوال الحكماء، والأمثلة من غابر الملوك وأقاصيصهم هو المناسب لذكر عدل السلطان، وكأن ابن جماعة قصد بذلك توجيه نظر حكام المماليك وسلاطينهم ومن يأتى بعدهم إلى التعرف على آداب السياسة بالعدل، وبسط لهم ذلك بأسلوب سهل لين، فيه إصرار العالم، وقوة الحليم، مما لا نجده عند الماوردى ولا أبى يعلى.

وهو فى هذا يفترق أيضًا عن معاصره ورفيق كفاحة العلامة ابن تيمية، رغم أن غاية الرجلين واحدة وهى إقامة دين الله على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، إلا أنهما اختلفا فى الوسائل.

ولعل ما عرضناه من سلوك الملك الناصر محمد بن قلاوون أثناء حجه مع ابن جماعة بعض حسنات ذلك العالم الحليم، وتوجيهاته فى لين ورفق، فقد يبلغ الحليم بحلمه غاية لا يبلغها العنيف مع قوته وشجاعته.

رابعًا: أنه فى منهجه لم يقف عند حد إيراد أقوال العلماء فحسب ، بل كان يتخذ لنفسه رأيا مستقلا يوجهه. فنراه مثلاً يقول فى مسائل إقطاع السلطان لبعض الأراضى التى يجوز له إقطاعها لمن يستغلها بنفسه ونوابه من غير تمليك ولا تأبيد ما نصه:

"هو جائز، وفعله أصحاب النبى ﷺ ولم يزل ذلك مشهورًا بين المسلمين من غير إنكار.. فإن كان الخراج مقاسمة فى مزارعة كعادة غالب أرض الشام فجواز إقطاعه مرتب على جواز المزارعة، وأرجح جوازه:

والمختار عندى جواز إجازة الإقطاع المدة اللائقة به، وفيه وجه أنه لا يجوز. ولا وجه عندى مع الحاجة إلى إجازته، ومزارعته، ولاسيما إن كان حوانيت ودوران"[(٧٣٨)].

---

(٧٣٨) الأوراق ٤٩ - ٥٠ من مخطوط تحرير الأحكام لابن جماعة.

خامسًا: من خصائص منهجه أيضًا فى تأليف هذا الفن هو إخراجه على غاية الاختصار لتسهل مطالعته، وتقرب مراجعته، ويتقرر فهمه، كما ذكر هو ذلك فى المقدمة.

هذا هو العلامة بدر الدين بن جماعة يبدو فى هذا العلم - كما بدا فى غيره - العالم الباحث المتمكن من علمه وبحثه، الذى تبلغ مكانته العلمية أن يحكم أصول العلم فى كتب لطيفة الحجم، سهلة التناول، مركزة المادة.

الفصل السابع

منهجه فى علم النحو

رأينا فى الفصول السابقة غلبة العلوم الشرعية على شخصية العلامة بدر الدين بن جماعة ومع ذلك فإن الذى يقرأ تعليقه المفيد على كافية ابن الحاجب، لا يلبث أن يعترف له بالعلم الغزير فى هذا الفن أيضًا، وإن لم يتخصص فيه تخصصه البارز فى العلوم الشرعية. ورأيى أن ابن جماعة كان وسطًا فى هذا الفن بين جيلين من العلماء: جيل ابن معطى وابن مالك وابن الحاجب، وجيل أبى حيان وابن عقيل.

فابن جماعة كان تلميذًا للعلامة ابن مالك، وأستاذًا للعلامة أبى حيان حتى رأينا أبا حيان ينقل عن أستاذه ابن جماعة نقده لابن مالك فى استدلاله بالسنة التى وقع فيها شيء من ألفاظ الأعاجم على إثبات القواعد العربية، يقول أثير الدين أبو حيان عن ابن مالك:

"قد أكثر هذا المصنف الاستدلال بما وقع فى الأحاديث على إثبات القواعد فى لسان العرب وما رأيت أحدًا من المتقدمين، والمتأخرين سلك هذه الطريقة غيره، وإنما تركوا ذلك لعدم وثوقهم أن ذلك لفظ الرسول ﷺ، إذ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى القرآن فى إثبات القواعد الكلية، وذلك لأمرين: أحدهما أن الرواة جوزوا النقل بالمعنى، والثانى أنه وقع اللحن كثيرًا بما روى من الأحاديث لأن كثيرًا من الرواة كانوا غير عرب بالطبع، وقد قال لنا القاضى بدر الدين بن جماعة، وكان ممن أخذ عن ابن مالك، قلت له يا سيدى هذا الحديث رواية عن الأعاجم، ووقع فيه من روايتهم ما يعلم أنه ليس من لفظ الرسول ﷺ فلم يجب بشىء" انتهى[٧٣٩].

---

(٧٣٩) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون لحاجى خليفة ص ٤٠٥ - ٤٠٦ تحت عنوان تسهيل الفوائد، وتكميل المقاصد.

وكافية ابن الحاجب التى علق ابن جماعة كتابه عليها هى أشهر من ملَخَّص لنحو اللغة العربية، وشهرتها فى النحو تفوق شهرة ألفية ابن مالك.

وابن الحاجب هو: الشيخ جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب النحوى المتوفى سنة ٦٤٦هـ وقد لقيت "كافيته" إقبالاً ورواجًا قَلَّ أن يحدث مثله لمصنف من المصنفات، ولا زالت تلاقى الإقبال الشديد فى بلاد الشرق الإسلامى كالهند، وباكستان حيث تقبل المدارس الإسلامية على تدريسها حتى يومنا هذا.

وقد أفرد حاجى خليفة سبع صفحات كاملة لمن له شرح أو تعليق على "كافية ابن الحاجب" هذه، ومنها ما هو بالفارسية، والتركية، وقد فاته أن يذكر أن لها شروحًا باللغة الأردية أيضًا. كما فاته أن يذكر تعليق ابن جماعة كذلك، ربما لأنه لم يقع له هذا التعليق فلم يذكره فى كتابه[٧٤٠]، كما لم يذكره إسماعيل باشا، مُذَيِّل كشف الظنون، والذى أشار إليه هو مجلة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية التى حصلت على نسخة مصورة عن أصل محفوظ فى جامعة استانبول بتركيا، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك[٧٤١].

أما منهج ابن جماعة فى هذا الكتاب فقد حدده إجمالاً فى مقدمته بقوله: "هذا مختصر مشتمل على فوائد غزير نفعها، وفرائد عزيز جمعها، ومنبه على مآخذه اختصار المقدمة الحاجبية، مما تدعوا الحاجة إليه فى علم العربية من الضوابط، والحدود، والشواهد، والقيود والمقاييس المعول عليها، والتفاصيل المحتاج إليها، مما قيدته عن شيخنا حجة العرب، والإمام العابد الناسك جمال الدين أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك متع الله ونفع

---

(٧٤٠) راجع كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون لحاجى خليفة ٢/ ١٣٧٠ - ١٣٧٦.

(٧٤١) راجع ص٢٦٥ من هذا البحث.

بيركاته، وأنا من الله أطلب وإلى كرمه أرغب فى تكميل جمعه بعموم نفعه، وجعلته خالصًا لوجهه"[٧٤٢].

وأهم ما ذكره ابن جماعة من منهجه فى تأليف هذا الكتاب هو:

أولاً: تنبيه طالب العلم إلى ما حذفه ابن الحاجب فى مقدمته اختصارًا، فقصد ابن جماعة إلى بسطه وشرحه لحاجة الطالب إليه، سواء كان ذلك ضابطًا من الضوابط، أو شاهدًا من الشواهد، أو قياسًا معتبرًا عند أهل هذا الفن.

ثانيا: اعتمد ابن جماعة فى شرحه للكافية على مصدر حى من المصادر الهامة فى علوم النحو وهو أستاذه العلامة ابن مالك، وما كان يقيده عنه من دروس النحو التى كان يتلقاها عليه وهو طالب، علمًا بأنه ألف هذا الكتاب سنة ٦٧٠هـ أى قبل وفاة أستاذه ابن مالك بسنتين[٧٤٣].

ومنهجه فى ذلك أن يذكر من متن ابن الحاجب الكلمة أو الجملة المراد شرحها فيقول مثلاً: "قال: الكلمة لفظ وضع لمعنى مفرد". وقد يعدل فى ذلك أو يضيف، مستدلاً بكلام العلماء كسيبويه وغيره.

ومثال ذلك كله ما ننقله من كتابه عند تعريف الكلام ما نصه:

"قال: الكلام حقه أن يقول اصطلاحا؛ لأنه قد يكون للكلمة الواحدة لغة. قال سيبويه فى قولهم: من أنت زيد. معناه: من أنت كلامك زيد، وزيد وحده ليس بكلام اصطلاحًا فتعين أن يكون لغة.

قال ما تضمن كلمتين. حقه أن يقول فصاعدًا ليدخل الزائد نحو الجمل الشرطية وغيرها، والمراد بالإسناد التركيبي، وهو نسبة أحد الجزئين إلى

---

(٧٤٢) اللوحة الثانية من مخطوط شرح كافية ابن الحاجب لابن جماعة (برقم جامعة استنبول ١٣٦٧).

(٧٤٣) كانت وفاة ابن مالك سنة ٦٧٢هـ كما سبق أن قدمنا فى ترجمته فى الباب الأول.

الآخر لإفادة المخاطب اصطلاحًا، ومعنى إفادة المخاطب اصطلاحًا: إفهام معنى يحسن السكوت عليه، فنحو: غلام زيد وإن أفاد تخصيصه به ليس بكلام، لأنها ليست الإفادة الاصطلاحية.

والتركيب ثلاثة: تركيب إسناد هو الكلام كما تقدم، وتركيب إضافة كغلام زيد، وتركيب مزج كبعلبك، ويذكر كل فى موضعه إن شاء الله تعالي.

قال: ولا يتأتى، أى الإسناد، ولو أريد الكلام لما اتجه الحصر إذ قد يكون فى أكثر من ذلك.

قلت: والمراد الجملة الواحدة، والحصر لأركانها، وإنما لم يكن فى الكلام بد من الاسم لاحتياج الإسناد إلى مسند إليه"[٧٤٤].

ثالثًا: نراه فى منهجه أحيانًا يغير لفظ (قال) ويستبدلها بلفظ (قوله) ثم يأتى بمقول القول الذى هو عبارة عن متن الكافية.

وكثيرًا ما ينقل عن ابن مالك تحت لفظ: "كما يذكر نقد ابن مالك لابن الحاجب فى بعض المواضع، كما ينقل أنواع الإعراب فيقول:

"وقوله: وأنواعه. أحسن من قول غيره وألقابه؛ لأن اللقب قد يتعدد لمعنى واحد بخلاف الأنواع فإنها تدل على اختلاف مدلولاتها، والأمر هنا كذلك لاختلاف مدلول الرفع والنصب والجر.

قوله: فالرفع علم الفاعلية، حقه والملحق بها لأن المبتدأ ليس بالفاعلية بل لما أسند إليه الخبر، أشبه الفاعل فى إسناد الفعل إليه، وكذلك الخبر لما كان ثانى جزءى جملة الفاعل، فلما أشبهاه فى ذلك ألحقا به.

قال شيخنا: الرفع إعراب ما هو عمدة فى الكلام، والنصب إعراب ما هو فضلة فيه، والجر إعراب ما هو متردد بينهما، فإن نحو غلام زيد إن كان

---

(٧٤٤) اللوحة الثالثة من خطوط شرح كافية ابن الحاجب لابن جماعة.

فاعلاً فزيد عمدة؛ لأنه تمام العمدة، وإن كان مفعولاً، فزيد فضلة تمام الفضلة.

قوله: والعامل ما به يتقوم إلى آخره.

قال شيخنا: الأسهل أن يقال: العامل ما به يحدث المعنى المحوج للإعراب، وما قاله المصنف تعسف وإن كان صحيحًا"(٧٤٥).

رابعًا: لا يقتصر فى منهجه على مجرد النقل عن أستاذه ابن مالك، ولا بإيراد تعلقياته الخاصة فحسب، ولكنه يقارن كلام ابن الحاجب صاحب المتن بآراء غيره، ويرجح أحدهما على الآخر فنراه عندما يتعرض لشرح الممنوع من الصرف للعلمية والعجمة يقول ما نصه:

"قال: فى العجمة أو تحرك الوسط، قيل ليس فى كلام العجم اسم ثلاثى متحرك الوسط لمذكر".

قلت: ثم لو وجد لم يتحتم منه منعه لأن العجمة سبب ضعيف فلم يقو تأثيره مع تحرك الوسط، بخلاف التأنيث، فإنه سبب قوي، فقوى تأثيره مع تحرك الوسط، فتحتم منعه. و"ختر" لا يعرف معناه، وقيل هو اسم امرأة، وقيل: اسم بلدة والمانع له حينئذ التأنيث والعلمية.

وقوله: فـ "نوح" منصرف أجود من المفهوم من كلام الزمخشرى والجرجانى من جواز الأمرين فإنه لم يسمع ولم ينقل قط إلا منصرفا ولو جاز منعه لسمع أو نقل ولو شاذًا"(٧٤٦).

كما يتضح لنا مدى تمكنه من هذا الفن عندما نراه كثيرًا وهو يقرر لأحد العلماء رأيا، ثم يقرر أنه رجع عنه، ويشير إلى الرأى الراجح، ويستدل

---

(٧٤٥) اللوحة رقم ٤ من مخطوط شرح كافية ابن الحاجب لابن جماعة.

(٧٤٦) اللوحة رقم ٤ من مخطوط شرح كافية ابن الحاجب لابن جماعة.

على رجحانه، بالأدلة المنقولة عن العرب فنراه وهو يستعرض المنع من الصرف لأسباب. منها العدل، ووزن الفعل مع التنكير أو عدمه فيقول:

"قال وخالف سيبويه الأخفش إلى آخره، جعل سيبويه فاعلاً مع تقدمه تساهل، وما نسب إلى الأخفش كان مذهبًا له ثم رجع عنه فى كتبه المبسوطة. والحجة لسيبويه النقل والمعني، أما النقل فروى أبو زيد الأنصارى عن العرب "أعرف منهم عشرين أحمر" غير مصروف، وأيضًا منع أدهم "وأسود" للقيد وإن كان من فضة . وأما المعنى فلأن الأمر العارض مع بقاء الجنسية لا يغير الأصل، ولذلك لو وصفت بالاسم فى قولك مررت برجل أرنب ضعفًا، صرفت أرنبًا، ولم تؤثر الصفة شيئًا؛ لأنها عارضة، وكذلك مررت بنسوة أربع، وقولنا: مع بقاء الجنسية احترازًا من مثل "شمر"، و"ضرب" إذا سمى به فإنه يمتنع لأن الجنسية ليست باقية وهى الفعلية وإلا كان مبنيا"[(٧٤٧)].

خامسًا: من منهجه فى هذا الفن أيضًا النص على تقرير رأيه فى المسألة بقوله (لنا.. كذا) مع إيراد ما يمكن أن ينشأ على هذه المسألة من اعتراضات فيقوم بإيرادها ثم يفندها بالرد عليها، وذلك نجده فى مثل كلامه على الخبر المجرد، وتحمل الخبر الجامد للضمير فنجده يقول مثلا:

"قال: والخبر المجرد. الأولى من غير الزائدة ليدخل "ما زيد بقائم" فى لغة تميم فإن ما عندهم: خبر لمبتدأ ثم التحقيق أنه ليس مجردًا. وهو مذهب سيبويه لأن المبتدأ عنده عامل فى الخبر وهو الحق لأن الفعل أقوى فى العمل من المبتدأ، ولا يعمل فى مرفوعين، ولا يصح أن يكون الخبر وهو عاملاً فى المبتدأ كما قال بعضهم؛ لأنه إذا كان مشتقًا رفع ظاهرًا ومضمرًا مثل "زيد قائم أبوه" فيلزم أن يكون عاملاً فى مرفوعين فاعله والمبتدأ وهو لا يصح، لأنه أضعف من الفعل، فأولى أن لا يعمل ذلك، لا يقال بجعل "قائم أبوه" مبتدأ

(٧٤٧) نفس المصدر المخطوط اللوحة رقم ٩.

مؤخرًا وقائم خبره والجملة خبر المبتدأ ؛ لأنك تقول رأيت زيدًا قائمًا أبوه، فعلم أن "أبوه" فاعل قائمًا مرتفع فلا يصلح أن يرفع غيره. أما الخبر فلا يتحمل الضمير خلافًا لبعض الكوفيين. قلنا لا يصلح أن يكون عاملاً فلا يتحمل ضميرًا بخلاف المشتق.

وقوله: "المسند به" لا حاجة إلى "به". فإن قيل: يكون لاستغنائه. قلنا: هذا موجود فى المسند إليه، وكذلك قال سيبويه هذا باب المسند والمسند إليه"[٧٤٨].

سادسًا: الاستشهاد بالقرآن الكريم، والأحاديث الموثوق بأن لفظها هى ألفاظ النبى ﷺ وبكلام العرب من شعر أو نثر.

فمن استشهاده بالقرآن الكريم، وبالقراءات قوله فى (أى الموصولة وحذف بعض صلتها:

"ويجوز حذف بعض صلة "أى" إذا تستطيل مثل: رأيت الذى معطيك غدًا درهما، فإن لم تطل الصلة فالحذف قليل شاذ، ومنه القراءة : تماما على الذى أحسنُ بالرفع تقديره على الذى هو أحسن:

وقوله: فيما إذا منعت إلى آخره. جواب ما الذى بالرفع، وأى شيء بالنصب أجود لتشاكل الجملتين، وليس بواجب، بل جوز جواب كل منهما بما أجبت به الآخر، وفوات مشاكلة اللفظ مع بقاء مشاكلة المعنى لا يضر.

ومنه قوله تعالي: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ ﴾ الآية. قريء سيقولون الله. فالأول لمشاكلة اللفظ والمعنى، والثانى لمشاكلة المعنى فقط"[٧٤٩].

ومن الاستشهاد بالحديث قوله فى شرح أقسام النكرة:

"الثانى النكرة بعد واو الحال كقولك قصدت ورجل واقف، ومنه الحديث "دخل رسول الله ﷺ وبرمة على النار"، الحديث..

(٧٤٨) اللوحة رقم ١٢ من مخطوط شرح كافية ابن الحاجب لابن جماعة.

(٧٤٩) نفس المصدر المخطوط اللوحة رقم ٣٨.

الثالث: النكرة إذا أضيفت إلى نكرة كقوله، "خمس صلوات كتبهن الله فى اليوم والليلة".

الرابع: النكرة المعطوفة على نكرة مختصة بتقديم الخبر مثل "فى الدار امرأة ورجل فى المسجد".

الخامس: النكرة المعتمدة على "إذا" للمفاجأة، و"لولا" الامتناعية مثل: "خرجت فإذا رجل"، وفى الحديث: "ولولا آية ما حدثتكم"[(٧٥٠)].

ومن الاستشهاد بشعر العرب قوله فى الكلام على ربَّ:

"أما "واو ربّ" فليست حرف جر بنفسها وكذلك لم يعدها سيبويه منها، وإنما يجر بإضمار رب كقول امرئ القيس:

وليل كموج البحر أرخى سدوله　　علــى بأنــواع الهموم ليبتلي

ومنه قول رؤبة:

وقاتم الأعماق خاوى المخترقن

أى مســود النواحــى، وهـذه الـواو عاطفة على كلام مضمر فى النفس بدليل مجيئه بالفاء العاطفة أيضًا، ولكن مجيء الفاء بدلها أقل منها فى الكلام كقول الشاعر:

فخور قد لهوت بهن حين　　نواعم فى المروط وفى الرياط

ومجيء بدلها "بل" أقل منها فى الكلام كقول الشاعر الراجز:

بل بلد ملأ الأكام قمته　　لا يشترى كتانه وجهرمـه

وقد تضمر "ربّ" ولا شيء قبلها، وهو أقل من الجميع كقوله:

رسم دار وقفت فى طلله　　كنت أقضى الحياة من جلله[(٧٥١)]

واستشهاده بالقرآن، والحديث، والشعر كثير لا يحصى.

---

(٧٥٠) نفس المصدر المخطوط اللوحة رقم ١٢.

(٧٥١) اللوحة رقم ٦٥ من مخطوط شرح كافية ابن الحاجب لابن جماعة.

وهذه الملامح الستة لمنهجه فى علم النحو نكاد نتبينها فى كل صفحة، بل نكاد نجدها مجتمعة فى أكثر من صفحة واحدة.

وكلها فى الحقيقة تُدلى بقرار واحد هو أن العلامة بدر الدين بن جماعة هو فى علم النحو كما هو فى غيره من العلوم: الباحث الذى لا يدع مسألة من المسائل دون أن يشبعها بحثًا.

والكتاب على صغر حجمه ذخيرة فى نحو اللغة العربية ونحوها تخرج بها كثير من طلاب عصره فى غالب المدارس التى قام العلامة ابن جماعة بالتدريس فيها مهما يشهد لابن جماعة بالتمكن فى هذا الفن.

الفصل الثامن
منهجه فى التربية والتعليم وتنظيم المدارس

قدمنا فى الباب الثالث أن شيخ الإسلام العلامة بدر الدين بن جماعة كان على رأس ثلاث عشرة مدرسة فى مصر والشام، معلمًا، وشيخًا، فلا غرابة بعد ذلك أن يكون له الأثر المحمود على ثقافة عصره، بل على سير الحركة العلمية والتربوية، والفكرية، وأن تظهر ثمار هذا الأثر، فى تلاميذه الذين صاروا أعلامًا فى تاريخ الحضارة الإسلامية.

ولا غرابة أيضًا أن يتجاوز أثره المحمود، حدود العصر الذى كان يعيش فيه، بما خلف من عصارة فكره، وخلاصة تجاربه فى التربية، والتعليم وتنظيم المدارس وآدابها جميعًا.

نلمس كل هذا فى مؤلفه القيم: "تذكرة السامع والمتكلم فى آداب العالم والمتعلم".

ذلك المؤلف الذى تنبهت إلى إخراجه - فيما تنبهت - جمعية دائرة المعارف بحيدر آباد الدكن بالهند تلك الجمعية التى لا يسع الباحث المسلم إلا أن يعترف لها بالجهد المشكور، والرغبة الأمينة الصادقة والمحاولة الدءوب فى التنقيب عن تراث هذه الأمة المفقود، رغم الصعوبات، وقلة الإمكانيات، إلا أن العزائم إذا خلصت لله تعالى كانت ثمار الخير يانعة، وقطوفها دانية. وما أن أخرجت الجمعية المذكورة هذا الكتاب إلى النور، حتى كان مرجعًا للباحثين، ودليلاً يستضيء به رجال التربية والتعليم فى التعرف على تاريخ التربية والتعليم ورجالها بصفة عامة، وعلى مناهجها فى العقود الوسيطة للأمة بصفة خاصة.

فنرى كثيرًا من الباحثين المعاصرين يتخذونه مصدرًا هامًا يرجعون إليه فى بحوثهم، ودراساتهم فى هذا الفن الذى يعد أساس الحركة الفكرية، والرقى الإنسانى كله، وعلى رأس هؤلاء الذين نهلوا من كتاب ابن جماعة أو استضاءوا به الأستاذ خليل طوطح، والدكتور أحمد شلبي، والدكتور عبد الله عبد الدائم، حتى أن الدكتور عبد الله عبد الدائم نقل فى كتابه القيم "التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين" ملخصًا وافيا للباب الخامس كله من كتاب العلامة بن جماعة"(٧٥٢).

وكان ابن جماعة من المربين القلائل الذين تنبهوا إلى فضل المعلم، وضرورة الاهتمام به وتقييمه، والنظر إليه على أنه المحور الأساسى فى العملية التعليمية وليس الكتاب.

وقد ألف ابن جماعة كتابه هذا سنة ٦٧٢هـ، ورتبه على خمسة أبواب.

خصص الباب الأول: فى فضل العلم وأهله، وشرف العالم ونسله.

والثاني: فى أدب العالم فى نفسه، ومراعاة طالبه، ودرسه.

والثالث: فى أدب المتعلم فى نفسه، ومع شيخه ورفقته، ودرسه.

والرابع: فى مصاحبة الكتب، وما يتعلق بها من الأدب.

والخامس: فى آداب سكنى المدارس، وما يتعلق بها من النفائس.

وكانت غاية ابن جماعة من تصنيفه هذا الكتاب هو تذكير الهيئة التعليمية بمجموعة الآداب والسلوك التى لا بد من حفظها للعالم، والطالب، والعلاقة بينهما، وبين هؤلاء جميعًا وبين الوسائل والأدوات التعليمية والتربوية من أبنية، وفصول، وكتب، وأدوات، ونفائس وغير ذلك.

ولهذا نراه يقول بعد أن استعرض أقوال سلف الأمة فى مزية الأدب:

---

(٧٥٢) راجع الفصل الثالث من الباب الثالث من كتاب التربية عبر التاريخ للدكتور عبد الله عبد الدايم ص ١٧٧ - ١٧٩.

"ولما بلغت رتبة الأدب هذه المزية، وكانت مدارك مفضلاته خفية، دعانى ما رأيت من احتياج الطلبة إليه وعسر تكرار توقفهم عليه، إما لحياء فيمنعهم الحضور، أو لجفاء فيورثهم النفور، إلى جمع هذا المختصر مذكرًا للعالم ما جعل إليه ومنبهًا للطالب ما يتعين عليه، وما يشتركان فيه من الأدب، وما ينبغى سلوكه فى مصاحبة الكتب، ثم أدب من سكن المدارس منتهيا أو طالبًا، لأنها مساكن طلبة العلم فى هذه الأزمنة غالبًا"[٧٥٣].

وكان منهج ابن جماعة فى هذا الكتاب هو جمع خلاصة الآراء المتعلقة بآداب التعليم والسلوك التربوي، سواء ما سمعه منها مشافهة، أو حصيلة ومطالعة، وعلى أنه يذكرنا دائمًا كعادته أنه اختصره بحذف أسانيده مخافة تطويله، أو ملل مطالعته.

وهو فى هذا متفرد بجمعه، وتحصيله، كما يذكر لنا ذلك فيقول:

"وجمعت ذلك مما اتفق لى فى المسموعات، أو استفدته فى المذكرات، وذكرته محذوف الأسانيد، كيلا يطول على مطالعه أو يمله وقد جمعت فيه بحمد الله تعالى من تفارق آداب هذه الأبواب ما لم أره مجموعًا فى كتاب وقدمت على ذلك بابا مختصرًا فى فضل العلم والعلماء"[٧٥٤].

وأول ما نلمسه من منهجه فى هذا الكتاب هو ما يأتي:

أول: أفرد المقدمة لبيان أهمية الأدب، وتهيئة النفس، وتحليتها به أولاً. وكأنه بهذا يريد أن يقول للهيئات التعليمية إنه لكى تنجح العملية التعليمية والتربوية وتؤتى ثمارها المطلوبة فلا بد لهذه الهيئة - أساتذة وطلابًا - من التخلق بحسن الأدب.

---

(٧٥٣) تذكرة السامع والمتكلم فى آداب العالم والمتعلم لابن جماعة ص٣.

(٧٥٤) نفس المصدر ص ٣ - ٤.

ووسيلته إلى ذلك التذكير بأن العلم ميراث الأنبياء، ووسيلة تحصيله حسن الخلق، ثم إيراد أقوال أئمة السلف شحذًا للهمم على سلوك هذا المسلك، والتخلق به فيقول ما نصه:

"إن أهم ما يبادر به اللبيب شرخ شبابه، ويدئب نفسه فى تحصيله واكتسابه، حسن الأدب الذى شهد الشرع والعقل بفضله، واتفقت الآراء والألسنة على شكر أهله، وإن أحق الناس بهذه الخصلة الجميلة وأولاهم بحيازة هذه المرتبة الجليلة: أهل العلم الذين حلوا به ذروة المجد والسناء، وأحرزوا به قصبات السبق إلى وراثة الأنبياء، لعلمهم بمكارم أخلاق النبى ﷺ وآدابه، وحسن سيرة الأئمة الأطهار من أهل بيته وأصحابه، وبما كان عليه أئمة علماء السلف، واقتدى بهديهم فيه مشايخ الخلف.

قال ابن سيرين: كانوا يتعلمون الهدى كما يتعلمون العلم.

وقال الحسن: إن كان الرجل ليخرج فى أدب نفسه السنتين ثم السنتين.

وقال سفيان بن عيينة: إن رسول الله ﷺ هو الميزان الأكبر، وعليه تعرض الأشياء على خلقه، وسيرته، وهديه. فما وافقها فهو الحق، وما خالفها فهو الباطل.

وقال حبيب بن الشهيد لابنه: يا بني! صاحب الفقهاء والعلماء، وتعلم منهم وخذ من أدبهم فإن ذلك أحب إلى من كثير من الحديث.

وقال بعضهم لابنه يا بنى! لأن تتعلم بابا من الأدب أحب إلى من أن تتعلم سبعين بابا من أبواب العلم.

وقال مخلد بن الحسين لابن المبارك: نحن إلى كثير من الأدب أحوج منا إلى كثير من الحديث.

وقيل للشافعى - رضى الله عنه -: كيف شهوتك للأدب فقال: أسمع بالحرف منه مما لم أسمعه فتود أعضائى لو أن لها أسماعًا فتنعم به. قيل وكيف طلبك له؟ قال: طلب المرأة المضلة ولدها وليس لها غيره"[٧٥٥].

وابن جماعة فى نهجه هذا لا يريد أن يقول لا تطلبوا العلم ولا الحديث، وإنما يريد أن يقول: لا فائدة فى علم بغير أدب، وأن على من يريد أن يكون عالمًا أن يتهيأ له بحسن الأدب.

ثانيا: علاوة على هذه المقدمة فى بيان أهمية الأدب أفرد بابا كاملاً فى بيان فضل العلم والعلماء وفضل تعليمه وتعلمه كمدخل إلى معرفة آداب العالم فى نفسه، والمتعلم فى نفسه وسلوك كل منهما حيال الآخر، وحيال الكتاب والوسائل التعليمية، ومنهجه فى ذلك، سرد مجموعة من الآيات القرآنية والآثار ليدلل على الجزئية العلمية التى يريد أن يجعلها كنتيجة لما فهم من هذه الآيات ومثاله:

أ - للتدليل على فضل العلم والعلماء يوردها ما نصه:

"قال الله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾.

قال ابن عباس: العلماء فوق المؤمنين مائة درجة ما بين الدرجتين مائة عام.

قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ الآية. بدأ سبحانه بنفسه، وثنى بملائكته، وثلث بأهل العلم، وكفاهم ذلك شرفًا، وفضلاً، وجلالة، ونبلاً"[٧٥٦].

---

(٧٥٥) تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة ص ٥.

(٧٥٦) تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة ص ٥.

ب - استعمال الاستنباط العقلي، والاستنتاج المنطقى من سلسلة إيراد الآيات القرآنية فنراه يقول:

"وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ إلى قوله: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾

فاقتضت الآيتان أن العلماء هم الذين يخشون الله تعالي، وأن الذين يخشون الله تعالى هم خير البرية، فينتج أن العلماء هم خير البرية"(٧٥٧).

ولا يفوت ابن جماعة بعد ذلك أن يشير إلى أن المقصود من العلماء هم العلماء العاملون(٧٥٨).

ثالثًا: لجأ فى منهجه فى توضيح أدب العالم منهجًا تفصيليا يحيط بدقائق الغرض من موضوع هذا الأدب فجعله فصولاً، وكل فصل تحته أنواع تحدث عن كل نوع منها على حدة، وطريقته فى ذلك أن يذكر الفصل، ويحدد أنواعه إجمالا ثم يتحدث عن كل نوع منها مدعمًا قوله بالأدلة من الآيات أو الأحاديث أو أقوال العلماء فيقول مثلا:

"الفصل الأول: فى آدابه فى نفسه، وهو اثنا عشر نوعًا".

النوع الأول: دوام مراقبة الله تعالى فى السر والعلن، والمحافظة على خوفه فى جميع حركاته وسكناته، وأقواله، وأفعاله، فإنه أمين على ما أودع من العلوم، وما منح من الحواس والفهوم، قال الله تعالى: ﴿ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾.

وقال الشافعى: ليس العلم ما حفظ. العلم ما نفع. ومن ذلك دوام السكينة والوقار، والخشوع والتواضع لله والخضوع.

---

(٧٥٧) نفس المصدر ص ٥ -٦.

(٧٥٨) تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة ص١١.

ومما كتب مالك إلى الرشيد رضى الله عنهما إذا علمت علمًا فلير عليك علمه، وسكينته، ووقاره، وحمله، لقوله ﷺ: العلماء ورثة الأنبياء.

وقال عمر - رضى الله عنه -: تعلموا العلم ، وتعلموا له السكينة والوقار. وعن السلف حق على العالم أن يتواضع لله فى سره وعلانيته، ويحترس من نفسه، ويقف على ما أشهر عليه"(٧٥٩).

ثم استرسل بعد ذلك فى ذكر آداب العالم، متبعًا فى كل أدب منها نفس هذا المنهج وذكر من آداب العالم فى نفسه، صيانة العلم، والتخلق بالزهد، وتنزيه علمه عن المطالع، وتنزيهه عن دنى المكاسب ورذيلها، واجتناب مواضع التهم؛ والمحافظة على شعائر الإسلام، وملازمة تلاوة القرآن والتفكر فى معانيه، والتحلى بمكارم الأخلاق، والتنزه عن الأخلاق الرديئة، والمواظبة على الأشغال، وعدم الاستنكاف من الاستفادة ممن دونه منصبًا، والاشتغال بالتصنيف والجمع والتأليف.

وهو فى كل نوع من هذه الأنواع يتبع هذا المنهج نفسه، فى إيراد النوع والاستشهاد له بما يمكن أن يشهد له من قرآن، أو حديث، أو مأثور، وأحيانًا يستشهد بأبيات من الشعر:

فمثلاً يقول فى النوع الثانى من أدب العالم فى نفسه:

"قال الزهري: هوان بالعلم أن يحمله العالم إلى بيت المتعلم، وأحاديث السلف فى ذلك كثيرة وقد أحسن القائل أبو شجاع الجرجاني:

و لم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى	لأخدم من لاقيت لكن لاخدما
الشقى به غرسًا و أجنيه ذلة	إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما
و لو أن أهل العلم صانوه صانهم	ولو عظموه فى النفوس لعظما

---

(٧٥٩) نفس المصدر ص ١٢.

وفى ذكر آداب العالم فى درسه يبين ما يجب على الأستاذ أن يتجمل[٧٦٠] به من الآداب كالاستعداد للدرس، وصفة الجلوس، وتقديم الأشرف فالأشرف من الدروس، وطريقة إلقاء الدرس، وصيانة مجلس الدرس عن اللغط، وزجر المسيء من الطلاب، وملاطفة العاجز عن التقدير.

وكذلك فى أدب العالم مع طلبته كالترغيب فى العلم، وإكرام الطالب وحسن تربيته وتأديبه، وحسن التلطف فى تفهيمه، ومراعاة القدرات المختلفة للتلاميذ، وتوضيح المسائل بتصويرها للطلاب، وطرح الأسئلة على الطلاب لامتحان قدراتهم على التحصيل، واستعادة مخطوطاتهم، ومساعدة الطلبة، والاستفسار عن أحوال الغائبين وعيادة المريض منهم، والتواضع معهم.

وهو فى كل هذه الأحوال يتبع نفس المنهج الذى سلكه من قبل من إيراد ما يشهد لكل خاصية من هذه الخواص بما يتيسر له جمعه من الأدلة النقلية والعقلية.

وهو بهذا يقدم لنا صورة حية لما كان عليه حسن تنظيم المدارس ودقة اختيارها للمعلم التربوى الجيد الملتزم لشروط الطرق التدريسية الصحيحة فنجده يذكر فى تحدد طريقة المعلم لإلقاء الدرس ما يلى:

"ويصل فى درسه ما ينبغى وصله، ويقف فى مواضع الوقف، ولا يقطع الكلام، ولا يذكر شبهة فى الدين فى درس، ويؤخر الجواب عنها إلى درس آخر بل يذكرهما جميعًا، أو يدعهما جميعًا، ولا يتقيد فى ذلك لمصنف يلزم منه تأخير جواب الشبهة عنها.. وينبغى أن لا يطيل الدرس تطويلاً يمل، ولا يقصره تقصيرًا يخل ويراعى فى ذلك مصلحة الحاضرين فى الفائدة فى التطويل، ولا يبحث فى مقام أو يتكلم على فائدة إلا فى موضع ذلك، فلا يقدمه عليه، ولا يؤخره عنه إلا لمصلحة تقتضى ذلك وترجحه، ولا يرفع صوته

---

(٧٦٠) تذكرة السامع والمتكلم ص١٧.

زائدًا على قدر الحاجة، ولا يخفضه خفضًا لا يحصل معه كمال صوته زائدا على قدر الحاجة، ولا يخفضه خفضًا لا يحصل معه كمال الفائدة.. ولا يسرد الكلام سردًا بل يرتله، ويرتبه، ويتمهل فيه، ليفكر فيه هو، وسامعه... وإذا فرغ من مسألة أو فصل سكت قليلاً حتى يتكلم من فى نفسه شيء.. فإذا لم يسكت هذه السكتة ربما فاتت الفائدة، وأن يصون مجلسه عن اللغط من اللفظ، وعن رفع الأصوات، واختلاف جهات البحث.

قال الربيع: كان الشافعى إذا ناظره إنسان فى مسألة فعدا إلى غيرها يقول: نفرغ من هذه المسألة ثم نصير إلى ما تريد... وأن يزجر من تعدى فى بحثه... أكثر الصياح بغير فائدة.. أو نام أو تحدث مع غيره أو ضحك، أو استهزأ بأحد الحاضرين، أو فعل ما يخل بأدب الطالب.. والأولى للمدرس أن يمكث قليلا بعد قيام الجماعة فإن فيه فوائد وآداب: منها عدم مزاحمتهم، ومنها إن كان فى نفس أحد بقايا سؤال سأله"[٧٦١].

ولنا على منهجه فى هذا النوع ملاحظتان:

الملاحظة الأولى: قلة النصوص الاستدلالية من الآيات والأحاديث، وهذا أمر ليس بغريب إذ إن هذا النوع يتحدث فى مسائل عملية كيفية إلقاء الدرس والشروع فيه ،وشرحه وانتهائه، وهذه أمور أكثرها راجع إلى الخبرة منها إلى النصوص، حتى أن هذه النصوص تكاد أن تكون نادرة فيما يختص بباب تنظيم المدارس وطريقة التعامل مع الكتب؛ لأنها إجراءات يصقلها المران، والتجربة، كما أن قيام النهضة المدرسية كان حديثًا للغاية، إذ لم يتعد بدأ هذه النهضة قيام الدولة النورية، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك[٧٦٢].

---

(٧٦١) تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة ص ٣٨ - ٤٥.

(٧٦٢) راجع ص من هذا البحث.

الملاحظة الثانية: أن ابن جماعة يكاد يتفق مع كثير ممن سبقه من أهل الفكر والنظر ممن اهتموا بنشر الحركة التعليمية، وتكلموا فى أدب العالم والمتعلم كالإمام الغزالى، الذى خصص الباب الخامس من الجزء الأول من كتاب إحياء علوم الدين لذكر العالم والمتعلم تحت عنوان "كتاب العلم"[(٧٦٣)].

ولكن ابن جماعة كان أكثر إحاطة وجمعا لآدابها.

"ولا ندعى أن ابن جماعة أنشأ نظرية حديثة فى التربية والتعليم، وإنما حسبه أنه كان جامعًا للآداب والخصائص التى ينبغى للهيئة التعليمية أن تتحلى بها كمنهج وسلوك، بالإضافة إلى تقديم خبرة واسعة زادت على ستين سنة فى العمل فى هذا الميدان، بحيث استفاد منها كثير من الباحثين الذين جاءوا فى العصور التالية بعده من تتلمذ على أبنائه أو أحفاده كابن خلدون الذى يذكر فى الفصل التاسع والعشرين فى "وجه الصواب فى تعليم العلوم وطريق إفادته". ما يمكن أن يكون تهذيبًا لما ذكره ابن جماعة"[(٧٦٤)].

وفى الحقيقة أن معظم المربين، ورجال التعليم فى العصور الإسلامية الوسيطة قد تناول موضوع آداب العالم والمتعلم بدرجات متفاوتة، والدكتور عبد الله عبد الدايم يقدم لنا مثالاً فيقول:

"وقف معظم المربين فى الإسلام عند آداب العالم والمتعلم وقفات طويلة وكانت محور كتبهم ودراساتهم، ويكفى أن نستعرض أسماء بعض الكتب التربوية لنتأكد من هذه الحقيقة: المعيد فى أدب المفيد والمستفيد للعلوي، وتعليم المتعلم للزرنوجى، وجامع بيان العلم وفضله وما ينبغى فى روايته وحمله

---

(٧٦٣) إحياء علوم الدين للغزالى جـ ١.

(٧٦٤) مقدمة ابن خلدون ص٥٣٣ الفصل التاسع والعشرون.

لابن عبد البر، وتذكرة السامع والمتكلم فى آداب العالم والمتعلم لابن جماعة"[765].

ولكن الإنصاف يقتضى لنا أن نقول إن ابن جماعة كان فى كتابه أكمل هؤلاء المربين جميعًا فى بيان آداب العالم والمتعلم، وأكثرهم توسعًا فى عرضها.

بل إنه تفرد فى كتابه القيم بذكر آداب التعامل مع الكتب، كما تفرد بذكر آداب سكنى المدارس، وتنظيمها، ونكتفى من هذه الآداب بذكر المقتطفات الآتية:

"أن يلزم أهل المدرسة التى يسكنها بإفشاء السلام، وإظهار المودة والاحترام ويرعى لهم حق الجيرة والصحبة والأخوة فى الدين والحرفة؛ لأنهم أهل العلم وحملته وطلابه.

أن يختار لجواره إن أمكن أصلحهم حالاً، وأكثرهم اشتغالا، وأجودهم طبعًا، وأصونهم عرضًا، ليكون معينًا له على ما هو بصدده، ومن الأمثال: الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق، والطباع سراقة، ومن دأب الجنس التشبه بجنسه..

والضعيف، والمتهم، ومن يقصد للفتيا، والاشتغال عليه فالمساكن السفلية أولى بهم...

والمراقى التى تقرب من الباب، أو الدهليز أولى بالموثوق بهم، والمراقى الداخلة التى يحتاج فيها إلى المرور بأرض المدرسة أولى بالمجهولين والمتهمين..

والأولى أن لا يسكن المدرسة وسيم الوجه، أو صبى ليس فيها وَلى فطن، وأن لا يسكنها نساء فى أمكنة تمر الرجال على أبوابها.

---

(765) التربية عبر التاريخ ص238 - 239.



وإذا كان مسكنه فى مسجد المدرسة، أو فى مكان الاجتماع، ومروره على حصيره، وفرشه فليحتفظ عند صعوده إليه من سقوط شيء من نعليه، ولا يقابل بأسفلها القبلة ولا وجوه الناس، ولا ثيابه، بل يجعل أسفل أحدهما إلى أسفل الأخرى بعد نفضهما، ولا يلقيهما إلى الأرض بعنف.

وإذا سكن فى البيوت العليا خفف المشي والاستلقاء عليها، ووضع ما يثقل كيلاً يؤذى من تحته...

ولا يتخذ باب المدرسة مجلسًا، بل لا يجلس إذا أمكن إلا لحاجة..

ولا يكثر التمشى فى ساحة المدرسة بطالاً من غير حاجة إلى راحة أو رياضة، وانتظار أحد، ويقلل الدخول والخروج ما أمكنه..

أن لا ينظر فى بيت أحد فى مروره من شقوق الباب ونحوه، ولا يلتفت إليه إذا كان مفتوحًا، وإن سلم سلم وهو مار من غير التفات، ولا يكثر الإشارة إلى الطاقات لا سيما إن كان فيهن نساء..

ولا يرفع صوته جدًا فى تكرار أو نداء أحد ... ويتحفظ من شدة وقع القبقاب، والعنف فى إغلاق الباب، وإزعاج المشى فى الدخول، والخروج، والصعود، والنزول وطرق باب المدرسة بشدة لا يحتاج إليها[٧٦٦].

وهكذا ينصدى لبيان كثير من آداب السلوك، والإرشاد إليها مما لا نجده فى الكتب المذكورة أو غيرها، وهذا كله مما يشير إلى خبرة الرجل بأصول التربية وآداب تنظيم المدارس، وتوقيتها وترقية نظم التعليم بها، مما يضع منهجه فى مقدمة مناهج الذين كتبوا فى هذا المضمار كابن سحنون والقابس، والغزالي، والزرنوجى وغيرهم.

على أنه فى هذا الباب الأخير اعتمد فى منهجه التأليفى على الخبرة، والاستقراء، وطول التمرس فى مهنة التنظيم، وإعداد المدارس، ورئاستها،

---

(٧٦٦) تذكرة السامع والمتكلم ص٢٢١ - ٢٢٣.

والإشراف عليها ومعنى ذلك أنه جمع فى منهجه بين الاعتماد على النصوص النقلية فى الكتاب، والسنة، والآثار، وأقوال الحكماء، وبين الاستقراء العقلي، والخطط التجريبية التى تعتمد على الخبرة.

فجاء كتابه حافلاً بما توصل إليه رجال التربية والتعليم من التنظيم والإعداد، والعمل على رقى الحركة العلمية، والتربوية، واجتهاد رجالها فى وضع وبيان آداب السلو ك.

الفصل التاسع
منهجه فى الأدب

نثره: موضوعه وخصائصه - شعره: أغراضه وخصائصه، شعره العلمي، المناسبات، الاعتذار، الحكم والوصايا وضرب المثل، المديح النبوى والتأمل الوجدانى والغزل الروحى - نقد وتحليل.

تمهيد:

من المسلم به أن العمل الأدبى هو النتاج الفكرى لأديب ما فى عصر من العصور شعرًا كان هذا النتاج أو نثرًا.

وبهذا المفهوم عد مؤرخو الأدب وكتاب التراجم القاضى بدر الدين ابن جماعة واحدًا من أدباء عصر المماليك وكتابهم سواء المتقدمون منهم أو المتأخرون.

فابن العماد الحنبلى من المتقدمين يقول عنه فى ترجمته له ما نصه:

"له النظم، والنثر، والخطب"[٧٦٧].

ومحمود رزق سليم من المتأخرين يقول عنه فى ترجمته أيضًا:

"وقد برع هذا القاضى فى الفقه والحديث وتفسير القرآن الكريم والكتابة الإنشائية ونظم الشعر"[٧٦٨].

ويقول عنه فى موضع آخر:

"ويعتبر القاضى بدر الدين بن جماعة أحد أدباء العصر ومؤلفيه، لما له من خطابة جامعة شاملة كان يعكف على إعدادها، ولما له من نظم مليح، ولما له من مؤلفات"[٧٦٩].

---

(٧٦٧) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد ١٠٥/٦، وراجع الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجير الدين الحنبلى ٤٨٠/٢.

(٧٦٨) عصر سلاطين المماليك لرزق سليم ١/قسم ٢ ص ١٠٥.

ومن هذين النصين ندرك أن أدب ابن جماعة يشتمل على فرعيه الأساسيين وهما النثر والشعر.

أولا: نثره: موضوعه وخصائصه:

عالج ابن جماعة النثر الفنى بنوعيه: الخطابة، والكتابة.

أما الخطابة: فقد ألمحت المصادر التى سبق أن أوردتها أثناء ذكر مؤلفاته فى علوم الأدب أن له كتابًا فى الخطابة، وقد صرح ابن كثير بذلك:

"وجمع له خطبًا كان يخطب بها فى طيب صوت فيها"(٧٧٠).

ومع ذلك فإن هذا الكتاب لم يقع بين أيدينا لنعرف من خلاله خصائص أسلوبه فى الخطابة ومنهجه فيها، غير أن المصادر التى تحدثت عن ابن جماعة كخطيب ومتأدب أشارت فى طياتها إلى بعض خصائصه فى هذا اللون من ألوان النثر الفنى منها: سلامة المنطق، وحسن التصوير، وقوة التعبير عن المعاني، وإقناع السامعين.

وهذا ما يستفاد من عبارة العلامة ابن حجر الذى يقول:

"كان يخطب من إنشائه ويؤديها بفصاحة ويقرأ فى المحراب طيبًا"(٧٧١).

ومن عبارة ابن كثير عنه عندما تولى خطابة المسجد الأموى فى شوال سنة ٦٩٤هـ: "ثم خطب من الغد وشكرت خطبته وقراءته"(٧٧٢).

ومن عبارة اليافعى عنه: "كان خطيبًا مفوهًا، ورعًا صينًا"(٧٧٣).

---

(٧٦٩) نفس المرجع والجزء والقسم ص١٠٧.

(٧٧٠) البداية والنهاية لابن كثير ١٦٣/١٤.

(٧٧١) الدرر الكامنة لابن حجر ٢٨٢/٣.

(٧٧٢) البداية والنهاية لابن كثير ٣٣٩/١٣.

(٧٧٣) مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعى ٢٨٧/٤.

وهذه العبارات التقريظية من معاصريه المتقدمين هى التى حدت بأحد مؤرخى الأدب فى عصرنا أن يقول عنه ما أثبتناه فى صدر هذه الصفحة من أنه يعتبر واحدًا من أدباء العصر لما له من خطابة جامعة شاملة كان يعكف على إعدادها.

ولولا أن ابن جماعة كان كذلك ما أسندت إليه الدولة الخطابة فى المسجد الأقصى والمسجد الأموى والجامع الأزهر وهى من أشهر وأهم المساجد فى التاريخ الإسلامى بعد الحرمين الشريفين، وقد بسطت القول فى هذا الموضوع عند الحديث عن وظيفته فى الخطابة.

بل إننا من خلال هذه العبارات التقريظية ندرك أن ابن جماعة لم يكن واحدًا من خطباء عصره المتأدبين فحسب بل كان واحدًا من أحسن وأفصح خطباء عصره وأقدرهم على ارتجال الخطبة إذا ما قارنا هذه النقول التقريظية بما نقله لنا الأستاذ محمود رزق سليم فى العبارة التالية عن الخطبة وأحوال الخطباء فى عصر ابن جماعة:

"وقد وجدت الخطبة فى عصر المماليك غير أنها فقدت - فى الغالب - عنصرًا هامًا من أفضل عناصرها وهو عنصر الارتجال. فلم نجد فيما قرأنا من تراجم علماء العصر وخطبائه ونابهيه ما يدل على إحسان الارتجال - من استثناء المناظرات - إلا لمحات قليلة لا تعاون على إصدار حكم حاسم، كأن يقال "كان - فلان - خطيبًا بليغًا مفوهًا"[(٧٧٤)].

وهنا ندرك أن ابن جماعة يندرج ضمن هذه اللمحات القليلة لما عرفناه عنه كخطيب بليغ مفهوه.

على أنه ينبغى أن نلاحظ أن فن الخطبة التى تناولها ابن جماعة كان فى الغالب من الخطب الدينية وإن كنت لا أستبعد تطرقه إلى معالجة قضايا عصره الاجتماعية، أو غيرها من القضايا.

---

(٧٧٤) المجلد السادس القسم الثانى من الجزء الثالث ص ٥٨.

أما الكتابة: وهى الجناح الآخر للنثر الفنى فإن كتب ابن جماعة التى بين أيدينا تمدنا بنماذج عديدة من تفسير ، وحديث، وفقه، وكلام، ونحو، وتاريخ، وغير ذلك.

وما زالت كتاباته فى هذه الفنون بين أيدينا أيضًا تمدنا بنماذج عديدة لخصائص نثره، ومنهجه فى الكتابة التى يغلب على أسلوبها اللون العلمى المتأدب، أى معالجة الكتابة الفنية الخاصة بعلم من العلوم بأسلوب أدبي، يضفى عليه ابن جماعة أهم خصائصه الشخصية فى الكتابة، وهى السيولة والسلاسة، وعمق الفكرة والقدرة على التعبير عنها بحسن اختيار الألفاظ المناسبة لها، وجذب انتباه القارىء بالمقدمات، وسوق الأدلة الإقناعية فمن نماذجه الكتابية فى علم التفسير ما نصه:

"قوله تعالى: ﴿ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ بدأ برب، ثم بملك، ثم بإله، ما حكمة هذا الترتيب وما فائدة إعادة الناس ظاهرًا مع إمكان ضميره؟

جوابه: أن البارى تعالى ربى الناس بنعمه أجنة، وأطفالاً، وشبانًا فقال: رب الناس . فلما شبوا عرفوا أنهم عبيد لملك قاهر لهم وهو الله سبحانه وتعالى فقال: ملك الناس. فلما عرفوا وجوده وملكه سبحانه كلفوا بعبادته وأمره ونهيه وانفراده بالألوهية والعبادة فقال: إله الناس، فربّ: أخص الثلاثة لأنه يقال فى البارى تعالى وفى غيره.

ومالك: أعم منه وأخص من إله؛ لأنه يقال ملك العراق ونحوه.

وإله: أعم الثلاثة؛ لأنه تعالى ربهم وملكهم وإلههم، ولا يشاركه غيره فى ذلك. فحصل الترقى من صفة إلى صفة لما فى الوصف الثانى من التعظيم ما ليس فى الأول، وفى الثالث ما ليس فى الثانى.

وأما تكرار الناس: فإما لمشابهة رءوس الآي، كغيرها من السور. أو لأن الأوصاف الثلاثة أتى بها عطف بيان كقولك الفاروق أبو حفص عمر لقصد البيان، فكان التصريح بلفظ الناس أصرح فى البيان من الضمائر. وخص الناس بذلك لأن غيرهم لا يدعى الربوبية، والملك، والألوهية، فبين أنه إله من قد يوصف بذلك، فغيرهم أولى بأنه إلههم"(٧٧٥).

ومن نماذجه الكتابية فى علم العقائد نختار النص التالى الذى يتعرض فيه لآراء المذاهب وتوجيه مذهبه فى مسألة آيات الصفات الواردة فى القرآن الكريم والتى يوهم ظاهرها التجسيم، وذلك بالرجوع إلى لغة العرب التى نزل بها القرآن الكريم فيقول منتصرًا لمذهبه:

"وإذا ثبت أن الله تعالى خاطبنا بلغة العرب، وأن ما لا يليق بجلاله غير مراد فنقول: اللفظ العربى المتعلق بالذات المقدسة، والصفات العلية، إما أن يحتمل معانى عدة أو لا يحتمل إلا معنى واحدًا. فإن لم يحتمل إلا معنى واحدًا يليق بجلال الله تعالى كالعلم تعين حمله عليه. وإن احتمل معانى لا تليق بجلاله تعالى فهذا محل الكلام بين قول السلف والتأويل كما تقدم . وقد رجح قوم قول التأويل لوجوه:

الأول: أنا إذا كففنا الألسنة عن الخوض فيه ولم نتبين معناه فكيف تكف القلوب عن عروض الوساوس فى الشك وسبق الوهم إلى ما لا يليق به تعالى؟.

الثانى: أن ابتلاج الصدور بظهور المعنى والعلم به أول من تركه بصدد عروض الوساوس والشك، ومن ذا الذى يملك القلب مع كثرة تقلبه؟

(٧٧٥) راجع اللوحة ١٢٧ من مخطوط كشف المعانى عن المتشابه من المعانى لابن جماعة المحفوظ بدار الكتب المصرية رقم ٢١٨١٨ ب.

الثالث: أن الاشتغال بالنظر المؤدى إلى الـ ـاب والعلم أولى من الوقوف مع الجهل مع القدرة على نفيه.

الرابع: أن السكوت عن الجواب إن اكتفى به فى حق المؤمن المسلم الموقن والعامى فلا يكتفى به فى جواب المنازع من مبتدع أو كافر أو مصمم على التشبيه أو التجسيم.

الخامس: أن السكوت مناقض لقوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾ ﴿ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ﴿ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ ونحو ذلك. والله تعالى أعلم.

ولذلك لا تجد آية من الآيات مشتملة على ما يتوهم منه صفة المخلوقين إلا مقرونة بما يشعر بالتنزيه أو تفسير المراد به، إما متقدمًا أو متأخرًا كقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [(٧٧٦)].

وهكذا فى كل علم وكل فن نجد أسلوب العلامة بدر الدين بن جماعة أسلوبًا عذبًا، شيقًا، يسهل جفاف المادة العلمية، ويزيل خشونة المصطلحات الفنية ويأخذ بيد القارىء إلى أقرب الطرق فهمًا وإقناعًا. تلك هى خصائص أسلوبه البارزة نلمسها فى كل فن عالجه بالبحث والكتابة ومن هذا الأسلوب يبدو لنا الفن فى الكتابة النثرية. فهو محدد الأفكار، يسلك فى سبيل الوصول إليها خطوات مرتبة، يسوق معها الأدلة الإقناعية من النصوص النقلية أو المسلمات العقلية، نلمس فيها سهولة اللفظ مع إمكان

---

(٧٧٦) اللوحة رقم ٤، ٥ من مخطوط إيضاح الدليل فى قطع حجج أهل التعطيل لابن جماعة المحفوظ بدار الكتب المصرية برقم : ٦٠٦ علم الكلام.

امتناعه على غيره، وهو أسلوب مرسل لا يخضع لقيود السجع الذى اشتهر به كتاب عصره، مما يجعله مناسبًا للكتابة العلمية الفنية.

على أننا نلمح آثار عصره على أسلوبه فى المقدمات التى يصدر بها مؤلفاته، فنرى القافية المسجعة التى امتاز بها عصر المماليك تغلب على هذه المقدمات فعلى سبيل المثال يقول فى مقدمة كتابه (إيضاح الدليل فى قطع حجج أهل التعطيل) ما نصه:

"أما بعد: فإن الذب عن الدين لمن تمكن منه فرض واجب، والرد على أهل البدع أمر لازب، مع أنه لا يقدر على الحمل على الاعتقاد، إلا الرب الذى بيده تصاريف قلوب العباد، وغاية المنتصب لإقامة الدليل، إبطال حجج أهل التشبيه، والتعطيل. فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد الله أن يضله يجعل صدره ضيقًا حرجًا كأنما يصعد فى السماء"(٧٧٧).

والمقدمة كما ترى قطعة من النثر الأدبى الفنى الرفيع.

ويقول فى مقدمة (كتاب تحرير الأحكام فى السياسة الشرعية) ما نصه:

"هذا مختصر فى جمل الأحكام السلطانية، ونبذ من القواعد الإسلامية. وذكر أحوال بيت المال وجهاته ،وما يصح من عطائه واقطاعاته، وتقدير عطاء الأجناد، وما يستحقه المرصدون للغزو والجهاد، وذكر اتخاذ الأمراء والأجناد وآلات القتال من السلاح والأعتاد، وكيفية الجهاد وفضله، ومن المخاطب به من أهله، وتفصيل أموال الفيىء والغنائم وأقسامها، وما يختص بها من تفصيل أحكامها، وذكر هدنة المشركين، وأحكام أهل الذمة ودوام المستأمنين، واستندت فيه إلى السنن والآثار، وأحكام أهل الذمة ودوام المستأمنين، واستندت فيه إلى السنن والاثار، وأقوال علماء الأمصار.

---

(٧٧٧) اللوحة رقم ١٠ من مخطوط إيضاح الدليل فى قطع حجج أهل التعطيل.

فهو سهل المطالعة لتقرير فهمه، قريب المراجعة لصغر حجمه. وقصدت فيه غاية الاختصار، مخافة الملل من الإكثار"[(٧٧٨)].

وفى هذا السطر الأخير وضح ابن جماعة منهجه الأصلى فى التأليف والكتابة الفنية، وهو ليس هنا هكذا فحسب، بل فى كل فن كتب فيه. وإذا كان ابن جماعة قد نحى فى مقدمات كتبه منحى كتاب عصره فى السجع والقافية إلا أننا نلاحظ عليه عدم التكلف فى سجعه، بل لا نكاد نلحظ أن هناك أثرًا لكلام مسجوع أصلا، لطبيعته وسلاسته، بحيث يخرجه عن عداد كتاب عصره وولعهم بفنون البديع مع تكلفهم فيه، فضلا عن أن هذه المقدمات القصيرة لا تجعل من ابن جماعة كاتبًا يعكس طريقة عصره بالضرورة، بل لنا أن نقول عنه ما قاله الأستاذ محمود رزق سليم فى مثل هذه الحالة:

"ليس من الضروري أن تتضح كل خصائص الأدب فى عصر ما فى أدب كل أديب فيه بل ولا فى أدب كل أديب من أدباء حلبة واحدة من حلباته.

وذلك لأن الأدباء يختلف بعضهم عن بعض باختلاف ظروف حياتهم الخاصة، وباختلاف أذواقهم وطبائعهم. وهذه الاختلافات ذات أثر بيِّن فى تنوع خصائص كل أديب عن غيره. وإلا أصبحوا جميعًا نسخًا مكررة لأصل واحد"[(٧٧٩)]

---

(٧٧٨) اللوحة رقم ١، ٢ من مخطوط تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام لابن جماعة المحفوظ بدار الكتب المصرية رقم ٢٣٨٤١ ب.

(٧٧٩) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى المجلد السادس القسم الثانى من الجزء الثالث ص٢٧٠.

ثانيًا شعره: أغراضه وخصائصه:

إن المؤرخين وكتاب التراجم الذين أدرجوا العلامة بدر الدين بن جماعة فى عداد الشعراء لم يذكروا له ديوانًا معروفًا باسمه مخطوطًا أو مطبوعًا، وإن ذكروا له أبياتًا متفرقة يروونها عنه مباشرة، أو ينقلونها عن تلاميذه.

وممن روى عنه البيتين والثلاثة والأربعة تلاميذه تاج الدين السبكى، وصلاح الصفدى، وأبو الفدا المؤرخ، وابن تغرى بردى، وابن العماد الحنبلى.

غير أنه بالبحث فى المصادر الأدبية المخطوطة فى عصر المماليك وجدت له أرجوزتين، الأولى فى اثنين وسبعين بيتًا فيمن ولى الخلافة منذ أول الإسلام إلى سقوطها فى بغداد، والثانية فى اثنين وتسعين بيتًا فيمن ولى القضاء منذ إنشائه حتى عصره هو .

والأرجوزتان محفوظتان في دار الكتب المصرية، وفى مخطوط نزهة النظار لابن الملقن كما سبق ذكر ذلك في الفصل الأول من الباب الرابع[٧٨٠].

كما عثرت على مصدر من أهم المصادر التى روت عن العلامة بدر الدين شعره، وهو مخطوط ألفه ابنه القاضى عز الدين بن جماعة المتوفى سنة ٧٦٧هـ اسمه (منتخب نزهة الألباء فيما يروى عن الأدباء) روى فيه عن أبيه طائفة لا بأس بها من أشعاره، ومنها قصيدة ممتازة فى مدح النبى ﷺ تقع فى ثلاثة وخمسين بيتًا.

وبالعثور على هذا المصدر الأخير وما حوى من شعر القاضى بدر الدين بن جماعة بلغ ما جمعته له ثلاثمائة بيت إلا نيفًا، قالها فى أغراض مختلفة، هى فى الحقيقة بعض ألوان الأغراض الشعرية التى سادت فى عصر المماليك، وهذه الأغراض أوردها الدكتور محمد زغلول سلام فى كتابه "الأدب فى

---

(٧٨٠) راجع: ص٢٦٩ من هذا البحث.

العصر المملوكي" تحت عنوان "موضوعات الشعر" ناقلا عن الأبشيهى ما نصه:

"ذكر الأبشيهى أن الناس قسموا الشعر فى عصره حسب تقدير زكي الدين بن أبي الإصبع إلى ثمانية عشر قسمًا هى:

غزل، ووصف، ومدح، وعتاب، واعتذار، وأدب، وزهد، وخمريات، ومراث، وبشارة، وتهان، ووعيد، وتحذير، وتحريض، وملح، وباب يفرد للسؤال والجواب"[(٧٨١)].

وبالطبع فإن ابن جماعة لم يقل الشعر فى جميع هذه الأغراض، بل إنه نزه نفسه عن كثير منها كالغزل اللاهي والخمريات، والهجاء ولا هى مندرجة تحتها.

وسأثبت هنا كل ما وجدته من شعره لهدفين:

الأول: تسجيله وحصره مجموعًا لأول مرة، والثانى: معرفة أغراضه وبيان خصائصه.

أما الأغراض التي تناولها ابن جماعة فى شعره - بحسب ما جمعناه له - فيمكن حصرها فيما يأتى:

أ - الشعر العلمي.

ب - شعر المناسبات.

جـ - الحكم والوصايا.

د - المديح النبوي والغزل الروحى.

أ - الشعر العلمى:

وهو لون من ألوان الشعر، وأغراضه التى شاعت فى العصر المملوكى حتى صار خاصة من خصائصه، وهذا اللون يهدف إلى تلخيص قواعد العلوم

---

(٧٨١) الأدب فى العصر المملوكى: الدولة الأولى ٢/١١.

والفنون المختلفة فى أبيات شعرية يغلب عليها أوزان الرجز، والبسيط ومن أشهر ما قيل من الشعر العلمى فى ذلك العصر ألفية ابن معطي، وألفية ابن مالك في علمي النحو والصرف، وتحفة الأطفال في علم التجويد.

وقد كثر هذا اللون من ألوان الشعر كثرة لاحظها كثير من مؤرخي الأدب منهم الدكتور محمد زغلول سلام الذي يقول:

"ونلاحظ فى هذ العصر قلة الشعراء المحترفين، وشيوع النظم بين كثير من طبقات المتعلمين، وخاصة الكتاب والقضاة والفقهاء وأصحاب الحرف ممن نالوا قسطًا من المعرفة، ونجد عددًا كبيرًا فى هذا العصر من شعراء العلماء، والفقهاء من الشعراء ،أمثال ابن دقيق العيد، وابن سيد الناس، وأبي حيان أثير الدين، وصدر الدين بن الوكيل، وابن العربى، وتقى الدين السبكي، وتاج الدين السبكي.

قال الصفدى: كل من عانى النظم وغلب عليه فن من الفنون ما به إلى ذلك الفن، وغلبت عليه قواعده، واستعملها فى مقاصدها الشعرية، وتخيلات معانيه، وظهر على ما يرومه اصطلاح ذلك الفن وأحكامه، ألا ترى إلى الفتح البستى ومقاطيعه المشهورة فى الآداب والحكم كيف يغلب عليها ألفاظ المنجمين"[٧٨٢].

وفى هذا الغرض العلمي للشعر ألف ابن جماعة أرجوزتين فى التاريخ والتراجم.

أما الأرجوزة الأولى: فننقلها عن ابن الملقن الذي أوردها بقوله[٧٨٣]:

"وقد نظم سيدنا ومولانا قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة قضاة الشام المحروس فى قصيدة فقال:

---

(٧٨٢) الأدب فى العصر المملوكى ١٠٨/٢.

(٧٨٣) اللوحات من ٣٦ – ٣٨، مخطوط نزهة النظار لابن الملقن رقم ١١٥٤٩ح دار الكتب المصرية.



يقول راجى ربه الرحيم ... محمد هو ابن إبراهيم
الحمد لله العلى حكمه ... كما هدى بفضله جل اسمه
وأفضل الصلاة والسلام ... على الرسول سيد الأنام
محمد وآله الكرام ... وصحبه الأئمة الأعلام
وبعد ذا فهذه الأسامى ... لحاكمى دمشق فى الإسلام
أول من كان على القضاء ... فيها عويمر أبو الدرداء
وبعده فضالة الأوسى ... ابن عبيد حكم مرضى
وابن بشير وهو النعمان ... ثلاثة صحابة أعيان
ثم بلال بن أبى الدرداء ... أقام برهة على القضاء
وعابد الله الكبير الشان ... وهو أبو إدريس الخولانى
ثم المسمى زرعة ... وزهده المشهود أضحى عجبا
وبعده عبد الرحمن العذرى ... ثم نمير ذا ابن أوس الأشعرى
وابن أبى ملك ذا يزيد ... ثم سلمان الفتى السديد
قاضى الخلائف المحاربى ... والحرث بين محمد المرضى
ثم ابن عبد الله وهو سالم ... ذلك المحاربى خير عالم
ابن لبيد واسمه محمد ... ثمامة الأزدى بعد محمد
وبعده سلمة بن عمرو ... ثم ثمامة أعيد فادرى
وبعده يحيى بن حمزة ولى ... وكان عما شأنه بمعزل
وبعد يحيى كان عبد الرحمن ... ابن يزيد قاضيًا وما شان
ثم عبيد وهو الغانى ... قضى بأمر صاحب الزمان
وبعد صرفه أعادوا بعده ... يحيى بن حمزة فدام مده
وابن أبى بكر ويسمى عمرا ... أعنى به العذرى دام دهرا
وعبد الأعلى وهو ابن مشهر ... ثم محمد بن يحيى فأخبرى
والسكنرى وهو اسماعيل ... محمد بن هشام النبيل
وابن علية وذا محمد ... وبعده عبد الحميد محمد

ثم أبو زرعة ذا محمد ... وهو ابن عثمان الفتى المسدد
ثم أبو زرعة قد أعيدا ... وجمعت مصر له بمحتسدا
فاستخلف النواب فى دمشقا ... وهو على قضاء مصر يرقا
فناب عنه ابن العلى أحمد ... وعمر بن أحمد المؤيد
وأحمد الحمصى وهو ابن على ... بعد ابن أبى زرعة قد ولى
ثم محمد وهو ابن عباس ... الجمحى لم يكن به بأس
ثم أبو زرعة عاد يحكم ... ثالثة وأمره منبرم
ثم الإمام المرزيانى حكم ... محمد بن أحمد وما ظلم
وابن الجنيد بعده وهو عمر ... ثم محمد بن أحمد بدر
ذاك هو المعروف بالتوكانى ... ولم يكن فى أمره توانى
وزكريا هو البلخى ... وهو ابن أحمد الفتى المرضى
ثم ابن زبير وهو عبد الله ... قد ولى الحكم بلا استباهى
وبعده الحسين ذو التقدم ... ابن أبى زرعة ذا المقدم
وبعده محمد بن الحسن ... ثم الرقاشى عاصم عيرونى
وابن الخصيبى محمد قضا ... يسمى بعبد الله حكم رضنا
ثم أبو طاهر بن أحمدا ... محمد الباسط فى الحكم بدًا
ثم ابن هارون الحسين العالم ... وبعده فيوسف بن القاسم
خلافة عن مصر لابن النعمان ... لما أشيف للقضاء المصران
ثم أبو محمد وهو الحسن ... ابن أبى الحسن الشريف المؤتمن
ثم ابن عباس ا هو الحسن ... فأبى الحسن الشريف ذا المتن
وابن أبى الرسين أقام بعده ... وذاك عبد الله أوفى عهده
ثم ابنه محمد من بعده ... وابن النصيبى ابن نجده
ذاك محمد شريف قد عرف ... وابن النصيبى وفضله ألف
كان خطيبًا وإمامًا قاضيًا ... لا حاسدًا له ولا مناويا
ثم الخطيب والإمام المأمون ... محمد بن أحمد بن هارون

وبعده سلمان وهو ابن على   عن أحمد الحاكم فى مصر ولى

وبعده الشريف حمزة ولى   يسمى بفخر الدولة المفضلى

وبعده المحسن الكريم   وبعده الشريف إبراهيم

وبعده الشريف يحيى المعتمد   وعاد إبراهيم وهو مجتهد

ثم ابنه الشريف اسماعيل   وابن النصيبى أحمد الأصيلى

هذا وكان خطيبًا بالجامع   مع قضائهم بلا منازع

فهو لأجلهم أشراف   وليس فى نسبهم خلاف

وبعدهم عبد الجليل قد ولى   ثم على العزنوى وابتلى

وبعده ابن الحسن الحسين   ثم محمل بن موسى الشين

ومحمد بن نضر الهروى   واستخلف الزكى يحيى فقوى

ثم زكى الدين يحيى حكمًا   ثم ابنه محمد بها سما

ثم ابنه على يحيى الزكى   وحكم كلى فى الورى مرضى

والسهروردى الكمال بعده   محمد ذو الجاه والموده

ثم الإمام ابن أبى عصرون   ثم ابنه الوسنى محيى الدين

وبعده القاضى أبو المعالى   محمد المدلى ببيت عالى

ثم ابنه الطاهر نعم المقتدى   ثم جمال الدين عبد الصمد

ثم أعيد الطاهر الذكى   ثم الجمال يونس المصرى

من بعد نواب أقامكوا مدة   بعد الزكى بسنين عدة

وكان بعد الخوى أحمد   وعلمه وفضله لا يجحد

وابن الزكى بعد مصر قد ولى   يحيى المكنى بأبى المفضل

وابن الجرسبانى بعده ولى   عبد الكريم وهو بالدين جلى

وبعده يحيى وذاك ابن السنى   إذ كان بالعلم وبالدين عنى

وبعده إلى الخونى عادت   ولكن المدة ما عادت

ثم الربيع الخائن الكيلانى   وماله فى جوره من ثانى

وابن الزكى بعده استقلا   إذا كان محيى الدين يحيى أولى

وبعده الصدر الرئيس أحمد ابن سنى الدولة المؤيد
وبعده ابنه محمد بدر بعد فتوح الشام من جيش اليسر
وبعده ابن خلكان أحمد ابن محمد الرئيسى الأوحد
وفى زمانه تقسم القضا وعاد ذا أربعة كل رضا
وصار ذكره فى البلدين سنة كم هيجت من فتنة ومحنة
وبعد محمد بن الصايغ الورع المحقق المبالغ
ثم ابن خلكان قد أعيدا ولم يزل مجلسه مفيدًا
ثم أعيدت بعد لابن الصائغ الورع المحقق المبالغ
ثم بهاء الدين يوسف تلا ابن الزكى حيث كان أفضلا
وبعده خصوا بها محمدًا هو الشهاب بن الخونى أحمدا
من بعد ما كان قضا بالقاهرة ولم تكن أحكامه بالجائرة
ثم تولى بعده الإقليما محمد هو ابن إبراهيما
ثم اشتغل بعد بالخطابة لدعوة من صالح مجابة
وولى القضا بعد عمر ينعت بالإمام صاحب الخير
ثم أعادوا بعده محمدًا من بعد رده للقضا مجتهدًا
ثم دعوه لقضاء مصرا ثانية حتما فسار قهرًا

أما الأرجوزة الثانية فينقلها لنا ابن الملقن أيضًا فى مؤلفه (نزهة النظار) فيقول: "ومن نظم سيدنا قاضى القضاة بدر الدين أرجوزة فى الخلفاء نختم بها الكتاب ونعم الختام:

الحمد لله الذى هدانا لملة الإسلام واجتبانا
وأفض الصلاة والتسليم على النبى المصطفى الكريم
محمد وآله وصحبه ومن تلا مستمسكا بحبه
وبعد ذا فهذه الأسامى لخلفا ملة الإسلام
وكم أقامت مدة الإمام منهم من الشهور والأعوام
أول من بويع بالخلافة صاحبه الصديق ذو المخافة

أقـــام حـــولين وبعض ثالـــث — وابتـــــدا الفتـــوح غيـــر لابث
عمر الفـــاروق أقــــام عشـــرا — يفتتـــح البــــلاد مصـــرا مصـرا
وبعـــده عثمــــان ذو النــــورين — أقـــام عشـــرا زادهـــا حـــولين
ثم عـــلى بن عـــم أحـــمـــدا — أقـــام دون خمسة واشتشهـــدا
ثم ابنـــه أبـــو محمـــد الحسن — أقـــام نصف سنة عـــلى السنن
وسلـــم الأمـــر إلى معـــاويـــة — فدام عشرين غدت لـــه مـــواتية
ثم ابنـــه يزيد بعــــده مـــلك — مـــا دون أربـــع يبغـــى فـــهلك
ثم ابنه من بعــــده معـــاويـــة — ثـــلاثة من الشهـــــور خاليـــة
وابن الـــزبـــير بعـــده تـــولى — تسعـــة أعـــــوام وكـــان أولى
منهـــا لـــمــــروان قـريب عـــام — ولابنـــــه تتمـــــة الأعـــــوام
وكلما استكملـــه عبـــد الملك — إحـــــدى وعشرين وملكـــه ملك
ثـــم الـــوليد تسعـــــة تـــولى — ثـــم سليمــــــان ثـــلاثـــا إلا
ثم الإمام العـــدل حبرهم عمـــر — خمسة أشهـــــر وعامين أخـــــر
ثـــم يزيـــد أربعـــــا وبعــــده — هشـــــام تسع عشـــرة الممتـــدة
ثـــم الـــوليـــد يزيد مدتــــه — زادت على عامين كانت فتلتـــه
ثـــم يزيـــد بن الـــوليد دامـــا — ستـــة أشهـــــر مضت تمامـــا
وبعـــــد خمسة من الأعـــــوام — مضت لـــــمروان على التمـــام
حلت بـــه و أهـــلـــه البليـــة — بها انقضى أمـــــر بنى أمـــيـة
عام ثلاثين مضت بعـــد الـــمائة — واثنين كم أفنى فيه من فئـــة

العبـــاسيـــة

وبعد ذا قـــام بنـــو العبـــاسى — وهـــم بنيلـــها أحـــق النـــاس
فاستخلف السفاح دون خـــمس — ثـــم بها الأمـــــر بغـــير لـــبس
ثـــم الأخ الـــمـــدعو بالمنصـــور — عشرين مـــع عامين بالتحـــريـــر
ثـــم ابنـــه المهـــدى دام عشـــراً — وعـــامًا الهادى قضـــى وشهـــرًا

ثم الرشيد بعده أقاما ... عشرين مع ثلاثة أعوامًا

ثم الأمين أربعًا وأشهرا ... وبعده المأمون عشرون أخرى

وبعده دام أخوه المعتصم ... ما دون تسع شهور يحتكم

ثم ابنه الواثق دام خمسًا ... وطاب بالمحنة فيها نفسًا

والمتوكل المزيل المحنة ... أقام خمس عشرة بالسنة

ثم ابنه المنتصر القاتل له ... ستة أشهر يبغى فعله

والمستعين أربعا لم يدع ... وهو ابن عمه وأول من خلع

وبعده المعتز دون أربع ... وبعد خلعه بقتله سعى

ودون عام دام أمر المهتدى ... الصالح بن الواثق المجتهد

ثم أخو المنتصر المعتمد ... عشرون عامًا وثلاثا فتد

وبعده فابن أخيه المعتضد ... عشرًا أقام لم ينازعه أحد

والمكتفى ابنه قام بعده ... ست سنين وشهورًا عده

وبعده دام أخوه المقتدر ... خمسًا وعشرين عليهم يصطبر

خلع مرتين وأعيدًا ... وقتلوه بعد ذا شهيدًا

وفى زمانه جرى قلع الحجر ... والمغربى فى زمانه ظهر

ثم أخوه القاهر استقلا ... عامًا ونصفًا ثم عزلا

وسلموه وهو أول سمل ... من بعد خلعه وقام وسئل

وبعده الراضى وهو ابن المقتدر ... سبعة أعوام أقام يختبر

ثم أخوه المقتفى ثم سمل ... لأربع مضت لما عزل

وبعده ابن المكتفى المستكفى ... حولا وأشهرًا ولم يوف

خلعه المعز ثم سمله ... ومات بعد أربع مضين له

ثم أخو الراضى المطيع أمرته ... دامت ثلاثين وطالت مدته

وبعد ذاك أسلم الخلافة ... إلى ابنه الطائع لا مخافة

فدام ما دون ثان عشره ... من السنين طائعين أمره

وبعده القادر ذو السيادة ... إحدى وأربعين عامًا

ثم ابنـه القائـم بعد دامـا	أربعـة وأربعـين عامـًا
ثم ابنه من بعده وهـو المقتدى	زاد عـلى عشرين ذات العـدد
ثم ابنـه أعنى به المستظهـرا	سـاد عشـرين مضين أشهـرا
وبعـده المسترشد بالله حكـم	سبعا وعشرين وهـو غير متهـم
ثـم ابنـه الـراشد دام عامًا	وخـلعـوه ذا ارغـامـا
وقـام عمـه الإمام المقتفـى	خمسا وعشـرين وأشهـرا بقى
وبعـده قـام ابنه المستنجـد	مـدة إحدى عشـرة المستحمد
والمستـضـىء ابنـه بعـده	أقـل من عشـر وولى عهـده
ثم ابنـه الناصـر دام دهـرا	سبـعًا وأربعـين إلا شهـرًا
ثم ابنه الطاهـر كانت مـدته	تسعة أشهـر وحالت مـوتته
ثم ابنـه المستنصر المنصـور	عشـر وسبـعا ودنا المقـدور
ثم بعد ما أقـام خمس عشرة	دخـل فى بغـداد تلك العبرة
ثم خـلا العصر عـن الإمـام	ثـلاثـة مضت من الأعـوام
ثم أقيـم عمـه المستنصـر	وقتـله فى غـزوة مشتهـر
ثم الإمـام الحاكـم المـؤيد	أيام عصـرنا الإمـام أحـمد
بويـع فى الستين والستمـائة	دامـت لنا أمـامـه ذات دعـه
وقـام بعـده ابنه المستكفى	بالله بالبيعـة غـير مخـفى

والأرجوزتان كما ترى ليس فيهما من خيال الشعر، ولا عاطفة الشاعر شيء يذكر؛ لأنهما كما ذكرنا أنهما من قبيل الشعر العلمى، أو ما يسمى بالنظم العلمى.

وأسلوب هذا اللون من الشعر يقابل أسلوب النثر العلمى البحت، الذى لا خيال فيه لكاتبه، ولا ظل لأسلوبه أو عبارته، وإنما حسبه من هذا الشعر نظم الحقائق العلمية فقط ليسهل حفظها، وتستجمع مادتها. وفى نفس هذا الغرض

من الشعر أيضًا نجد للعلامة بدر الدين أبياتًا متفرقة أوردها ابنه العلامة قاضى القضاة عز الدين بن جماعة فى مخطوطة (نزهة الألباء) ومنها:

فى عد معجزات موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قوله:

آيات موسى الكليم التسع يجمعها ... بيت على إثر هذا البيت مسطور

عصى يد وجراد قمل ودم ... ضفادع حجر والبحر والطور

ويعقب العلامة عز الدين بعد إيراده لهذه الأبيات فيقول:

"قال والدى وهذا أظهر، وأنشدنى لنفسه فى ذلك أيضًا:

آيات موسى الكليم التسع تجمع فى ... بيت على إثر هذا البيت مسطور

عصى يد وجراد قمل ودم ... طوفان ضفدع جدب نقص تثمير(٧٨٤)

وهذه الأبيات الأربعة من بحر البسيط.

ومنها: في حصر جهات بيت المال:

جهات أموال بيت المال سبعتها ... في بيت شعر حواها فيه كاتبه

خمس وفيء خراج جزية عشر ... وارث فرد ومال ضل صاحبه(٧٨٥)

والبيتان من بحر البسيط.

ومنها أيضًا ما رواه عنه ولده القاضى عز الدين فى أسماء أسياف النبى ﷺ وخيوله ما أورده فى نفس هذا المخطوط بقوله: "وأنشدنى لنفسه فى أسماء أسياف سيدنا رسول الله ﷺ:

إن شئت أسماء أسياف النبى فقد ... جاءت بأسمائهن السبع أخبار

قل مخدم ثم حيف ذو الفقار وقل ... عضب رسوب وقلعي وبتار

وأنشدنى لنفسه فى أسماء أفراس النبى ﷺ السبعة:

---

(٧٨٤) اللوحة رقم ٤ من مخطوط نزهة الألباء فيما يروى عن الأدباء المكتبة التيمورية رقم ٤٠١ شعر.

(٧٨٥) نفس المخطوط اللوحة رقم ٥، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكى ٥/٢٣١.

والخيل سكب لحيف سبيحة ضرب لزاز مرتجز ورد لها أسرار[٧٨٦]

وهذه الأبيات من البسيط أيضًا.

ومنها: في صحة الدعاء ما رواه عنه تلميذه الإمام السبكي قوله:

قالوا شروط الدعا المستجاب لنا عشر بها بشر الداعى بإفلاح

طهارة وصلاة ومعها ندم وقنت خشوع وحسن الظن يا صاح

وحل قوت ولا يدعي بمعصية واسم يناسب مقرون بإلحاح[٧٨٧]

ب - شعر المناسبات والاعتذار:

وهو غرض من أغراض الشعر، مال شعراء عصر المماليك إلى النظم فيه كالتهانى فى الأعياد، والأفراح، والوظائف، وغيرها حتى أن الدكتور زغلول سلام غلب هذا اللون من أغراض الشعر على بعض الشعراء حين تقرأ له قوله عن شعراء ذلك العصر:

"وفى موضوعات الشعر نجد منهم من يغلب عليه المديح والقول فى المناسبات"[٧٨٨].

ومع ذلك لم أعثر لابن جماعة على شعر فى هذا اللون سوى أبيات معدودة فى أغراض شتى كالتهنئة بحلول شهر الصوم، وتمنيه دوام وظيفة الخطابة، والاعتذار والتأسف على توليه القضاء وهو فى هذا الغرض من أغراض الشعر يقترب إلى حد ما من الصياغة الشعرية الفنية، ولا يزال يلج فى دقة هذه الصياغة شيئًا فشيئًا حتى تبلغ عنده حد الجودة والسمو فى قصيدة مدح بها رسول الله ﷺ على نهج بردة الإمام البوصيرى بعدما عرج على أغراض أخرى

---

(٧٨٦) نفس المخطوط اللوحة رقم ٥.

(٧٨٧) طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ٥/٢٣١ – ٢٣٢.

(٧٨٨) الأدب فى العصر المملوكى ٢/١٣٤.

من أغراض الشعر المعروفة وهى، الإعتذار، والحكم والوصايا، وضرب الأمثال.

فمما قاله فى مناسبة حلول شهر رمضان ما رواها عنه ابنه القاضى عز الدين حيث قال:

"وأنشدنى لنفسه من لفظه ما كتبه إلى بعض أصدقائه وهو:

أهنىء بشهر الصوم من لو بثثته	عظيم اشتياقي رق مما أعانيه
وأشكو إليه جسدًا لو بلى بهم	شوامخ خمسًا هدها ما تقاسيه
ومن كان لا يرضيه من حالى سوى	خلاف مراد الله ما حيلتى فيه(٧٨٩)

وهذه الأبيات من بحر الطويل.

ومنها ما قاله بمناسبة توليه الخطابة بالمسجد الأقصى، والمسجد الأموى فى دمشق ما أورده عنه صلاح الدين الصفدى أثناء ترجمته له فقال:

"ومن شعره ما أنشدنيه لنفسه إجازة:

يا لهف نفسى لو تدوم خطابتى	بالجامع الأقصى وجامع جلق
ما كان أهنى عيشنا وألذه	فيها وذاك طراز عمري لو بقى
الدين فيه سالم من هفوة	والرزق فوق كفاية المسترزق(٧٩٠)
والناس كلهم صديق صاح	داع وطالب دعوة بترفق

ومنها ما رواه عنه ولده القاضى عز الدين بمناسبة توليه القضاء، وهى من بحر المتقارب:

"وأنشدنى لنفسه:

وُلِّيتَ القضاء وما اخترته	وكم من حريص سعى جهده
يروم القضاء ويعى به	وربك عن ذاك قد صده

---

(٧٨٩) اللوحة رقم ٦ رمن نزهة الألبا لابن جماعة، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكى ٢٣١/٥.

(٧٩٠) الوافى بالوفيات للصفدى ١٩/٢، ونكت الهميان للصفدى ص٢٣٦.

ويحسد من نالـــه ظـــالما حليف همــوم غدت عنده[٧٩١]

ومن الأبيات التى قالها فى هذا الغرض أيضًا بيتان أرسلهما إلى شيخه ابن رزين بعد عودته إلى القضاء وقد أوردهما القاضى عز الدين بقوله:

وأنشدني لنفسه من أبيات كتبها إلى شيخه العلامة تقى الدين بن رزين وقد عاد إلى قضاء الديار المصرية:

يميتُ الطّعَامُ القلب إن زاد قدره كزرع إذا ما زاد بالمـاء سقيه

وإن لبيبا يرتضى مـــوت قـلبــه لأكل لقيمات لقد ضل سعيه

والأبيات من بحر الطويل.

الاعتذار:

وقال فى الاعتذار بيتين رواهما له أبو الفدا فى تاريخه يعتذر فيهما عن نفسه بسبب المناصب التى قلدته الدولة إياها وما حصله من الجاه والمال وهما:

لم أطلب العلـم للدنيا التى ابتغيت مــن المنـــاصب أو للجــاه والمـــــال

لكن متابعة الأسـلاف فيـه كما كانوا فقدر ما قد كان من حالى[٧٩٢]

ج : شعر الحكم والوصايا وضرب الأمثال:

وفى هذا الفن من الشعر نُحِسُّ أن موهبته قد انصقلت حيث تتجلى المقدرة الحقيقية للقاضى بدر الدين ابن جماعة على النظم الرصين، وإطلاق الحكمة النابعة من تجربته الذاتية، فى أسلوب جزل، وعبارة رصينة تمتاز بسهولة الحفظ لحسن وقعها على الأسماع.

ومنها ما ذكره ابن تغرى بردى فى ترجمته عنه فقال:

"ومن شعره أنشدنى قاضى القضاة حافظ العصر شهاب الدين بن حجر إجازة، وأنشدنى الإمام العلامة مسند القاهرة برهان الدين التوخى قال:

---

(٧٩١) مخطوط نزهة الألباء اللوحة رقم ٦.

(٧٩٢) المختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا ١٠٨/٤.

أنشدنى قاضى القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة لنفسه:

ارض من الله ما يقدره | أراد منك المقام أو نقلك
وحيثما كنت ذا رفاهية | فاسكن فخير البلاد ما حملك

قال قاضى القضاة شهاب الدين بن حجر المذكور فرددت عليهما:

وحَسِّنِ الخق واستقم فمتى | أسأت أحسن ولا تطل أملك
من يتق الله يؤته فرجًا | ومن عصاه ولا يتوب هلك[793]

وقد نقل ابنه قاضى القضاة عز الدين عنه فى نزهة الألباء طائفة من أبيات الحكم والأمثال والتأمل فى غاية من الروعة والأداء الفنى، فمن البحر البسيط قوله:

وباسط الرزق للمحظوظ يرزقه | أنى توجه والمحروم محروم
وكن على ثقة فى نيل ما قسمت | لك المقادير فالمقدور محتوم[794]

ومن الكامل قوله:

لا تطلبن معيشة بمذلة | فليأتينك رزقك المقسوم[795]
واعلم بأنك نائل كل الذى | هو فى الكتاب مسطر محتوم

ومن الوافر قوله:

تثبت فى الأمور ففى التأنى | لك العقبى وكم ندم العجول
ولا تثبت لديك حديث من | لا يحقق نقله فيما يقول
ولا تك فى مخاصمة عضو ما | لتعقل ما يقال وما تقول
وكن متحليا بثبات جأش | ولا يسلبكه الأمر المهول

---

(٧٩٣) اللوحة رقم ٥٥ من الجزء الثالث من مخطوط المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى لابن تغرى بردى رقم ١٢٧١ تاريخ، المحفوظ بدار الكتب المصرية والنجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ٢٩٨/٩.

(٧٩٤) نزهة الألباء فيما يروى عن الأدباء لعز الدين بن جماعة اللوحة رقم ٥.

(٧٩٥) نزهة الألباء فيما يروى عن الأدباء لعز الدين بن جماعة اللوحة رقم ٥.

وكن متغافلا عن كل موذ ... تبلغه وقل صبر جميل
فإن يذهب كفيت الهم فيه ... وسيفك إن يكن ظفر صقيل
وكن كالبحر يحمل فى سكون ... وعند الريح بطاش صئول
وكن بالعفو موصوفا إذا ... ما قدرت فإنه وصف جليل
تدرع بالقناعة فهى أصل ... إذا قعدت بإنسان أصول
الا إن القناعة ثوب عز ... وذو الأطماع مذموم ذليل
إذا حصلت ما يكفيك حلا ... فذاك العز والمجد الأثيل(٧٩٦)

وقد علق القاضى عز الدين على هذه الأبيات بقوله:

"وقد قال لى والدى - رحمه الله تعالى - إنه نظمها فى شبيبته وتخلق بها...

وأنشدني لنفسه:

صاحب الدنيا إذا اعتبرت ... حاله فى الهم والتعب
وترى أنكاد صاحبها ... قدر ما يوليه من رتب(٧٩٧)

وله من البسيط قوله:

بالله ما هذه الدنيا وزينتها ... إلا تجارب فيها يظهر الرجل
من ذا الذى تقبل الدنيا عليه ولم ... تفتنه ذاك الشجاع الفارس البطل(٧٩٨)

ومن الطويل قوله:

دع الحرص واقنع بالذي فيه راحة ... وإن كان حرص فاتسع بوداد
لمن تجمع الدنيا إذا لم ترد بها ... لذاذة عيش أو حصول مراد
تمتع بها ما استطعته من مباحها ... إذا لم تقدمها ليوم معاد(٧٩٩)

---

(٧٩٦) نزهة الألباء فيما يروى عن الأدباء لعز الدين بن جماعة اللوحة رقم ٥.

(٧٩٧) نفس المخطوط اللوحة رقم ٤ ، ٥.

(٧٩٨) نفس المخطوط اللوحة رقم ٥.

(٧٩٩) نفس المخطوط اللوحة رقم ٦.

ونلاحظ فى هذين اللونين من الأغراض عدم التكلف مع سهولة الألفاظ، وجريان الحكمة، كما نلمح فيها عمق التجربة الذاتية، وما أجمل قوله فى ذلك:

بالله مـا هـذه الدنيا وزينتها   إلا تجـارب فيها يظهر الرجل

كما ينم شعره عن سلوكه الشخصى، وصدق إحساسه، ورغبته فى حسن الوصية للناس، والحث على تخلقهم بالفضيلة التى يزدان هو بها، وراجع فى ذلك قوله:

وكن متغافـلاً عـن كل مـؤذ   تبلغـه وقـل صبـر جميـل

وكن كالبحر يحمل فى سكـون   وعند الـريح بطاش صئـول

وكـن بالعفـو مـوصوفـًا إذا   ما قدرت فإنه وصف جميـل

تـدرع بالقنـاعـة فهى أصـل   إذا قعـدت بإنسـان أصـول

وما أروع الحكمة على لسانه:

ألا إن القنـاعـة ثوب عـز   وذو الأطمـاع مذمـوم ذليل

وقوله:

يميت الطعام القلب إذا زاد قدره   كزرع إذا زاد بالمـاء سقيه

وإن لبيبا يرتضى مـوت قلبـه   لأكل لقيمات لقد ضل سعيه

د: شعر المديح النبوى، والغزل الروحى:

وهذا الغرض أيضًا من أسمى وأجل الأغراض التى أبدع فيها ابن جماعة لأنها نبعت من وجدانه الذى أفاضت عليه محبة الله ورسوله سلسلاً عذبًا، وكانت الأماكن المقدسة فى مكة، والمدينة، كما كان الحب الفياض لرسول الله ﷺ هى الملهم الحقيقى لهذا الشعر فخرج سيالا بغير تكلف، امتزج فيه حسن التعبير بسمو الغرض.

وهذا اللون من أغراض الشعر كان أكثر ذيوعًا، وانتشارًا من غيره من الأغراض، وتكفل بثه ونشره شعراء الصوفية الذين كثروا فى ذلك العصر كثرة قل أن توجد فى زمن واحد، حتى أننا نجد مؤرخى الأدب يقسمون شعراء الصوفية فى ذلك العصر إلى طبقات، بل ويفردون لمذاهبهم الشعرية فى هذا الغرض وحده صفحات طويلة.

يقول الأستاذ الدكتور محمد زغلول سلام عن أدب عصر المماليك:

"واشتهر فى العصر ثلاث طبقات من شعراء الصوفية، تتلمذت الطبقة الأولى منهم فنيًا، وفكريًا على ابن الفارض، وتأثروا فى الصوفية بأئمة الصوفية فى العصر أمثال ابن عربي، وشهاب الدين السهروردى، وابن سبعين، والحريري، والشاذلى، والمرسى.

ومن رءوس هذه الطبقة الششترى (توفى سنة ٦٦٨هـ) والخيمى محمد ابن عبد المنعم (توفى سنة ٦٨٥هـ) ومحمد بن إسرائيل (توفى سنة ٦٧٧هـ) وعفيف الدين التلمسانى (توفى سنة ٦٩٠هـ).

وفى الطبقة الثانية نجد البوصيرى محمد بن سعيد (توفى سنة ٦٩٥هـ) وتقي الدين السروجى (توفى سنة ٧٩٣هـ).

وفى الطبقة الثالثة: ابن العجمى، وابن أبى حجلة التلمسانى (توفى سنة ٧٧٦هـ).

ويبرز بين شعراء الصوفية فى هذا العصر اتجاهات ومذاهب"[٨٠٠].

وقد أفاض الدكتور زغلول بعد ذلك فى عرض هذه المذاهب والاتجاهات وذكر منها اتجاه الوجد أو الطريق، ومذهب وحدة الشهود، ومذهب الحلولية أو وحدة الوجود، ومذهب عشق الجمال، ومذهب أصحاب الطريق[٨٠١]. وإلى

---

(٨٠٠) التوجيه الأدبى ص١٢٧، ١٣٨ بتصرف.

(٨٠١) التوجيه الأدبى ص١٢٧، ١٣٨ بتصرف.

جانب هؤلاء الشعراء - الذين يمكن أن نسميهم بأصحاب المذاهب الصوفية في الشعر - كان يوجد العلماء العاملون الذين قالوا الشعر الصوفى، ولم يخلطوه بالمذاهب المتطرفة، وكان من هؤلاء العلماء: النووى، وابن دقيق العيد، والسبكي، وابن جماعة.

وسنورد الآن ما نظمه العلامة ابن جماعة فى هذا اللون من الأغراض الشعرية ثم نعقبها بخصائص شعره بصفة عامة.

والمصدر الذى سجل لابن جماعة هذا اللون من الأغراض الشعرية هو ولده القاضى عز الدين الذى ينقل لنا فى كتابه "نزهة الألباء ما نصه:

"أنشدنى سيدى والدى تغمده الله برحمته، وأسكنه بحبوحة جنته لنفسه يمدح سيدنا رسول الله ﷺ تسليمًا كثيرًا:

لم يطل ليلى ولكن لم أنم   ونفى عنى الكرى طيف ألم

وسنورد الآن ما نظمه العلامة ابن جماعة في هذا اللون

من الأغراض الشعرية ثم نعقبها بخصائص شعره بصفة عامة.

والمصدر الذى سجل لابن جماعة فى هذا اللون من الأغراض الشعرية هو ولده القاضي عز الدين الذى ينقل لنا فى كتابه "نزهة الألباء ما نصه":

«أنشدنى سيدى والدى تغمده الله برحمته، وأسكنه بحبوحة جنته لنفسه يمدح سيدنا رسول الله ﷺ تسليمًا كثيرًا:

يا سايق العيس تطوى البيد فى الظلم   سلم سلمت على سكان ذى سلم

واقر السلام على سكان كاظمة   ورامة وأهيل السفح من إضم

بالله أم القرى عند الحلول بها   سلم على البيت والأركان والحرم

وزمزم والصفا والمعلمين معًا   ومولد المصطفى فى الشعب والعلم

وبث شوقى إلى البيت الحرام وما   حوله من مستجار لى وملتزم

وأنشد هنالك قلبى فهو عندهم   عسى يزول بذكرى عندهم ألمى

واحبس بطيبة أعناق المطى فقد   بلغت منزل أهل الجود والكرم

واقـر السلام على خـير الأنـام وقـل مبلغا عـن مشـوق مغرم بهـم
سـلام رب العـلا مـع الصـلاة على عـلاك يا خير مبعوث إلى الأمـم
يا سيـد الرسـل يا خير الأنام ومـن به تبـاشـرت الأيـام بالنعـم
يا صفـوة الله يا أعـلى الورى شرفـا يا أكرم الخلق من عرب ومن عجـم
يا مصطفى بشـر الرسـل الكـرام به يا مرسـلا لجميع النـاس كلهم
يا أرفـع الرسل قـدرًا في مكـانته حـقا وأوصـلهـم لـذى رحـم
يا سيدًا قـد عـلت فـى الرسـل رتبته وحظـه فيهم مـن أوفـر القسم
يا خـير داع لمستهـد أتـاه لقـد غـدا بجاهـك فى أمن وفى حـرم
يا مـن عـن الناس أسباب الضلال جـلا لما أتى بعلـوم الشـرع والحكـم
يا سيـدًا شـرفت فى النـاس أمتـه به غـدت فى البرايا أفضـل الأمم
يا سيـدًا فضلـه عـم الأنام وكـم له مـن أياد من الإحسـان كالديم
يا مـن ببعثـه رفـع الضـلال عنـا وعم نور الهدى فى الحل والـحـرم
يا سيد الخلـق أعـلاهـم وأفـضلهـم عـلمًا وحـلمًا وخلقا غير ذى شـمم
يا مصطفى مرسلا فى العرش قـد كتبت لـه رسالتـه فى سـالـف القـدم
يا من بـه أخـبرت كتب الإلـه وكـم وصف ذكـران له وكـم وكـم
يا مـن بـه فـرج الـرحمن كـربته عن الـخلائق بل كـم عم من نعـم
يا مـن سفينـة نـوح حيث كان بهـا نجت من الغـرق المشمـول بالنقـم
يا من خـمدت لـه نار الخليـل وقـد أضحت سلامًا وبردًا بعـد مضطـرم
يا مـن به نفس إسـماعيل قـد فـديت من ذبحها بمنى بالـذبح ذى العظـم
يا من لـه أخـذ الإلـه الـمواثق من كـل النبيين بالأيـمان والعصـم
يا من بمولـده طـرق السماء حـرست وانشـق إيوان كسرى شبـه منهدم
يا من له خمـدت نـار الـمجوس ولـم تخمد مـذ ألف عـام ثم لـم ترم
يا من جـرى الـماء من كفيه منهمـرًا حتى اكتفى العكر النظامى بمائهم
يا مـن دعـا شجـرًا فاستجبن لـه طوعًا كطـوع سميع عـاقـل فهـم
يا من أتى القـدس والسبع الطبـاق سـرى وفى ليلـة قبل ما جلـت عن الظلـم
يا سيـدا أم الرسـل الكـرام لـدى بيت المقـدس تكـريمًا على كـرم
يا من رمـى بحصى مـن كفـه ودعـا جيشًا فهـم بين مقتـول ومنهـزم

يا من له القمر البدر المنير غدا — نصفين عند انشقاق غير ملتئم
يا من عليه غزال سلمت وكذا — فى كفه حصيات سبحت كضم
يا من أتاه بعير ثم كلمه — مقبلا مع هذا صفحة القدم
يا خاتم الرسل فى الدنيا وأولهم — إلى القيامة بعثًا يوم حشرهم
يا شافعًا فى البرايا يوم حشرهم — والناس فى كربة والهول فى عمم
يا سيد فى غد ترجى شفاعته — فى المذنبين وذى إثم ومجترم
يا من له الحوض تسقى منه أمته — والناس من عطش الأكباد فى حمم
يا من تفتح أبواب الجنان له — يوم القيامة قبل الناس كلهم
يا من إذا بلغ المداح جهدهم — بالنثر كان مديحًا أو بنظمهم
لم يبلغوا عشر معشار الزريرة — مما خصه ربه من أكرم الشيم
عبيدك المرتجى منك الشفاعة يا — خير البرية يا ذا الجود والكرم
قدام باب حماك الرحب معتصمًا — بحبل حسن الرجا يا خير معتصم
مستغفرًا تائبًا مما عساه جنى — فى سالف العمر فى ثوب من الندم
يود تقبيل أرض أنت ساكنها — سعيا على الرأس لا سعيا على القدم
صلى عليك إله العرش ما لحظت — عين وما غمضت فى النور والظلم
صلى عليك صلاة ما لها أمد — تغدو عليك بأنواع من النعم
آلك الطيبين الطاهرين ومن — رضيت صحبتهم يا سيد الأمم

والقصيدة ثلاثة وخمسون بيتًا من بحر البسيط، وبإخراجها هنا ترى النور لأول مرة منذ ثمانية قرون، باعتبارها إحدى قصائد المدائح النبوية التى احتذت حذو بردة البوصيرى فى الغرض، والوزن، والقافية وهى بهذا تعد من قصائد نهج البردة وهى كثيرة جمعها على الجارم فى كتاب جمع فيه قصائد الشعراء الذين مدحوا رسول الله ﷺ إلا قصيدة ابن جماعة لأنه لم يكن له بها علم حتمًا.

فقد كان البوصيرى: محمد بن سعيد بن حماد "من أبرز من خط طريق المديح النبوى فى الشعر الصوفى" على حد تعبير الدكتور سلام[٨٠٢].

وللبوصيرى فى هذا المجال سبع قصائد منها: البردة المشهورة، والهمزية التي مطلعها:

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء

واللامية التى عارض بها كعب بن زهير فى قصيدته التى مطلعها: (بانت سعاد فقلبى اليوم متبول)

والحائية التى مطلعها:

أمدائح لى فيك أم تسبيح لولا ما غفر الذنوب صفيح

وقصيدة زخر المعاد ومنها:

نذرت إن جمعت شملى بيانك أو شفت غليلى به توداء شمليل

وقصيدة تقديس الحرم التي يختمها بقوله:

وإنى لأرجو أن يقربنى إلى جنابك أرقال الركائب والوخد

والقصيدة المضرية فى الصلاة على خير البرية[٨٠٣].

وقد تأثر بالبوصيرى فى المديح النبوى وعلى الأخص بقصيدة البردة كثير من الأدباء قديمًا وحديثًا ذكر منهم الأستاذ فتحى عثمان:

"أبو بكر ابن حجة الحموى المتوفى سنة ٧٣٨هـ، وعائشة الباعونية المتوفاة عام ٩٣٠هـ، ومحمود البارودي، وأحمد شوقى، ومعارضات أخرى لشعراء عديدين"[٨٠٤].

ولابن الفارض أيضًا قصيدة يعارض بها البوصيرى، كما يذكر الدكتور[٨٠٥] سلام الذى يضيف قائلاً:

---

(٨٠٢) الأدب فى العصر المملوكى ٢٢٨/١.

(٨٠٣) راجع فى شأن هذه القصائد شرح البردة للأستاذ فتحى عثمان ص ٣٨ – ٤١.

(٨٠٤) راجع فى شأن هذه القصائد شرح البردة للأستاذ فتحى عثمان ص ٨٣.

(٨٠٥) راجع الأدب فى العصر المملوكى ٢٢٨/١.

"سار كثير من شعراء العصور على أثر البردة فاحتذاها، وعارضها جماعة من الشعراء، وتناول معانيها، وأسلوبها جملة ممن اهتموا بالمديح من بعده كالخيمي، وصفى الدين الحلي، وابن جابر الأندلسى الضرير، وابن حجة الحموى، وصفى الدين الحلى ومن تبعه انتهجوا نهجًا جديدًا فى مدائحهم إذ طرزوها بالبديع، وأسموها البديعيات، ضمنوا كل بيت فيها نوعًا من البديع فجعلوها مديحًا ومتنًا فى علم البديع معًا"(٨٠٦).

فلا غرابة إذًا أن يتأثير ابن جماعة مع المتأثرين ما دامت تلك حالة العصر والبيئة، والإنسان تبع لها، والأديب على الأخص أكثر انجذابًا، وتبعية وانفعالاً.

ومن نماذج تأثر ابن جماعة فى قصيدته ببردة البوصيرى عدا الاتفاق فى الوزن والقافية - تشابه أسماء الأماكن فى الحجاز والجزيرة - بداية القصيدتين بالنسيب التقليدى الموجه إلى النبى ﷺ، وذكر فضائله، وصفاته، ومعجزاته، كما هو الشأن عند كثير من الشعراء الذين عارضوا بردة البوصيرى.

فمثلاً افتتح ابن جماعة قصيدته بالنسيب فقال:

يا سايق العبس تطوى البيد فى الظلم — سلم سلمت على سكان ذى سلم

وأقر السلام على سكان كاظمة — ورامة وأهيل السفح من إظم

وابن الفارض يفتتح قصيدته قائلا:

هل نار ليلى بدت ليلاً بذى سلم — أم بارق لاح فى الزوراء فالعلم

ومطلع قصيدة البارودى:

يا رائد البرق يمم دارة العلم — واحد الغمام إلى حى بذى سلم

وكل هذه الأبيات تعارض افتتاحية بردة البوصيرى:

أمن تذكر جيران بذى سلم — مزجت دمعًا جرى من مقلة بدم

ومن معارضة ابن جماعة قوله:

يا سيدا قد علت فى الرسل رتبته — وحظه فيهم من أوفر القسم

---

(٨٠٦) راجع الأدب فى العصر المملوكى ٢٢٨/١.

يناظر قول البوصيرى:

فاق النبيين في خلق وفى خلق ولم يدانوه فى علم ولا كرم

ومن معارضة ابن جماعة قوله:

يا سيدًا فضله عم الأنام وكم له من أياد من الإحسان كالديم

يناظر قول البوصيري:

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفًا من البحر أو رشفًا من الديم

وقول ابن جماعة في الشطر الثاني:

يا من بمولده طرق السماء حرست وانشق إيوان كسرى شبه منهدم

يناظر قول البوصيري في الشطر الأول:

وبات إيوان كسرى وهو منصدع كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم

وأبيات ابن جماعة التى يقول فيها:

يا من أتى القدس والسبع الطباق سرى وفي ليلة قبل ما جلت عن الظلم

يا سيدًا أم بالرسل الكرام لدى بيت المقدس تكريمًا علي كرم

تعارض قول البوصيرى:

سريت من حرم ليلاً إلى حرم كم سرى البدر في داج من الظلم

وبت ترقى إلي أن نلت منزلة من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم

وقدمتك جميع الأنبياء بها والرسل تقديم مخدوم على خدم

وأنت تخترق السبع الطباق بهم فى موكب كنت فيه صاحب العلم

ونحن نلمس فى معارضة ابن جماعة القوة، والقدرة، والتماسك الفنى سواء فى المعنى أو في اللفظ أو فى التركيب.

بخلاف ما نراه عند كثير من معارضي البردة كأبي بكر بن حجة الحموي الذي قال عنه الأستاذ فتحي عثمان في أسلوب ساخر:

"جاء تقليده بمثابة نقطة الحبر المشلفطة التى انطبعت على ورق النشاف، وما ذلك إلا لأنه أخطأته موهبة التصوير واتبع طريقة التعبير ومع ذلك فنقاط الخلاف

بين قصيدة ابن جماعة وقصيدة البوصيرى واضحة[٨٠٧]، ومختلفة تمامًا عن قصائد النهج إذ إن ابن جماعة اقتصر فى صلبها على المناجاة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد المقدمة التى شملت النسيب والوجد وبث الشوق إلى الأماكن المقدسة، وقبيل الخاتمة المشتملة على التوسل وطلب الشفاعة. وما أجمل وأعذب قوله:

عبيدك المرتجى منك الشفاعة يا ... خير البرية يا ذا الجود والكرم

قدام باب حماك الرحب معتصمًا ... بحبل حسن الرجا يا خير معتصم

مستغفرًا تائبًا مما عساه جنى ... في سالف العمر في ثوب من الندم

يود تقبيل أرض أنت ساكنها ... سعيًا على الرأس لا سعيًا على القدم

وفي البيت الأخير معنى مبتكر لم يسبقه إليه غيره.

ومن أطرف الأشياء التى يجب أن نذكرها فى هذا المقام أن ابن جماعة كان أحد شيوخ البوصيري[٨٠٨]، بينما كان البوصيرى أسن من شيخه ابن جماعة حيث ولد قبله بإحدى وثلاثين سنة، إذ ولد البوصيرى سنة ٦٠٨هـ، وتوفى سنة ٦٩٥هـ[٨٠٩]، ولكن روافد العلم تنبع من نهر واحد، فلا غرابة أن يتتلمذ الشيخ على الشاب، ولا أن يتأثر الشيخ بالتلميذ.

ولم يقتصر تأثير ابن جماعة ببيئته على غرض من أغراض الشعر فحسب بل إننا نرى انعكاس هذا الأثر فى الوزن والقافية أيضًا، فقد حاول ابن جماعة الخروج عن البناء التقليدى للقصيدة، والسير على منوال حركة التجديد التى هبت من الأندلس تحملها رياح الموشحات. وفى هذا يقول الدكتور محمد زغلول سلام فى حديثه عن أدب المماليك:

"وأما البناء الموسيقى للقصائد فقد استخدم العروض التقليدى، وإن تأثر الشعراء كثيرًا بموسيقى الموشح الأندلسى، وبالأوزان الخفيفة الراقصة التى أشاعها الأندلسيون والمغاربة فى الشعر العربى منذ القرن الخامس الهجري.. ومال الشعراء

---

(٨٠٧) شرح البردة للبوصيرى ص٨٣ – ٨٤.

(٨٠٨) نفس المصدر ص٢٢.

(٨٠٩) راجع شذرات الذهب لابن العماد ٤٣٢/٥.

إلى استخدام المقطعات القصيرة وعدلوا عن القصائد المطولة فكثر استخدام المثنوي، والرباعية، والخماسية، والسباعية، واشتهرت هذه المقطعات فى الأسمار والإخوانيات والموضوعات الخفيفة، وكثيرًا ما كانت ترتجل... واشترك النظم الشعبى فى الرباعية، وعرفت "بالدوبيت" كذلك، وقد شاعت فى الشعر الفارسى منذ القرن الثالث ومنه انتقلت إلى الشعر العربى باسمها الفارسى[٨١٠].

وتتمثل محاولة ابن جماعة لتجديد بناء القصيدة فى مقطوعته التى رواها عنه ابنه القاضى عز الدين وهى من الخماسيات أى الذى يتكون من خمس قواف: أربع منها متشابهات والخامسة مطلقة، "ولكنها تراعى إذا تكررت، وهذه المقطوعة قالها العلامة بدر الدين فى الغزل الروحى والتأمل الوجدانى وهى من أوزان الطويل.

يقول القاضى عز الدين: وأنشدنى لنفسه[٨١١]:

أيا سائق الـركب الحجازي بي رفقًا

أظن المشـــوق الصب بعـدك لا يبقى

بخيف[٨١٢] منى قف ثم بث الذى ألقى

وقل هل يرى للمغرم من ملقى　　فقد شفه طول البعاد وما يلقى

فَحِبُّكم لا تسألـوا عن نحييه

وسلـــوا عن حالـه من طبيبه

وما حال مشتاق نأى عن حبيبه

يحن إلي وادي الأراك وطيبه　　ويصبو إلى تذكار سكانه عشقًا

ترى عائد شملي بسلع وحاجز

ووادي منى والمنحنى والمشاعر

وسفح زرود والحبيب سامري

---

(٨١٠) الأدب فى العصر المملوكى ١/ ١٢٢ - ١٢٤.

(٨١١) نفس المرجع والجزء ص١٢٥.

(٨١٢) قال فى لسان العرب المجلد الأول ص٩٢، مسجد الخيف بمنى لأنه خيف الجبل، وخيف مكة موضع فيها عند منى.

أملى به قلبي وسمعي وناظري وأرقى على ظهر الصفا حبذا مرقى

خصوص حديثي فيكم وعمومه

ومقعـــد قلبي حبكم ومقيمـــه

وأنت منــاه دائـــمًا ونعيمـــه

فلا تمنعوا من قربكم ما يرومه فأجفاني بالدمع من بعدكم غرقى

ترى عندكم ما عندنا من تشوق

وما قد عرانا من جوى وتـــحرق

فمنـــوا بوصل واعطفـــوا بترفق

كفى ما جرى من بعدنا والتفرق فلا مهجتي تهدا ولا دمعي ترقا(٨١٣)

ونلاحظ أن ابن جماعة لم يخرج عن الوزن التقليدي فوزن الأشعار:

فعولن، مفاعلن، فعولن، مفاعلن، وهي تفعيلات البحر الطويل غير أن تشطير الأبيات، وإنقاص البيت الأخير وإطلاق قافيته أمور خارجة عما عرف في نظم القصيد . العربي.

هذا وقد روى عز الدين لأبيه أبياتًا أخرى متفرقة في التأمل الوجداني والغزل الروحي ولكنها تتجه اتجاه الشعر التقليدي ومنها قوله:

"وأنشدني لنفسه ارتجالاً وهو يبكي بعد السلام على سيدنا رسول الله ﷺ للوداع والخروج من المدينة الشريفة:

أحـــن إلى زيـــارة حـــي ليلى وعهدي من زيارتها قريب

وكنت أظن قرب العهد يطفى لهيب الشوق فازداد اللهيب

وهما من الوافر

وأنشدني أيضًا لنفسه ارتجالاً وهو يبكي بعد السلام على سيدنا رسول الله ﷺ للوداع في سنة أخرى:

وإذا ما قصدت طيبة شوقًا صار سهلاً لدى كل عسير

(٨١٣) اللوحة رقم ٤ من مخطوط نزهة الألباء.

وإذا مـا ثنيت عـزمي عنها فعسير عليَّ كـل يسـير

وهما من الخفيف

وأنشدنى لنفسه ببطن مُر ارتجالاً:

قالوا إلىَّ كم تشتكي طول النوى وتبث مـا تـلقـى بقلـب شيق

قـرب اللقـا فقـر عينـا باللقـى وأنشد فـإنك بعد يـوم تلتقي

يا مـرحبًا بوصـال مـن تهواهـم يا بطن مرّ أطلت يومًا قد بقى(٨١٤)

وهى من بحر الكامل

وفى الغزل الروحى أورد لـه كل من صلاح الدين الصفدى، وابن العماد الحنبلى الأبيات الآتية:

لما تمكـن من فـؤادي حبه اعتبت قلبي في هـواه ولمتـه

فرثى له طرفي وقال أنا الذي قد كنت في شرك الهوى أوقعته

عانيت حسنًا باهرًا فاقتادنى سـرًا إليه عندما أبصـرته(٨١٥)

---

(٨١٤) نفس المصدر المخطوط اللوحات ٤، ٦، وراجع طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ٢٣١/٤.

(٨١٥) الوافى بالوفيات ١٩/٢، ونكت الهميان فى نكت العميان ص٣٣٦، وشذرات الذهب فى أخبار من ذهب للصفدى ١٠٦/٦.

نقد وتحليل

لم أقصد فى هذا الباب إلى تأريخ الخصائص الفنية والأدبية لعصر ابن جماعة عندما تعرضت لمنهجه، وطريقته فى التأليف، وإن كان لا يمنعنى الآن فى ختام البحث من الإشارة الموجزة إلى الخصائص العامة من خلال تحليل الخصائص الخاصة لمنهج ابن جماعة فى العلوم.

وقد سبق أن ذكرت أن ابن جماعة عاش فى فترة من أغرب وأعجب فترات التاريخ الإسلامى كله وهى دولة المماليك حتى رأينا بعض المؤرخين من غير المسلمين يؤكد صعوبة قيام مثل هذه الدولة[٨١٦] فى غير ظل الإسلام وسماحته.

وقد تكلم الكثيرون عن ظلم المماليك وعسفهم، وأحوال الاضطرابات الداخلية واتهام عصرهم بالجمود، وعدم التجديد في العلوم والمعارف، وانحطاط الأساليب الأدبية في الشعر والنثر على حد سواء.

وإذا كان هذا الكلام صحيحًا إلى حد بعيد، فإنه لا يمكن لأحد أن ينكر على المماليك أنهم القوة الوحيدة التى كان لها الفضل الأكبر فى التصدى لجحافل المغول الكاسحة من أقصى الشرق، حتى قيل بأنه لولاها لما قامت حضارة الغرب الحديثة أيضًا[٨١٧]. كما كانوا القوة الوراثية للنخوة الدينية الإسلامية عن سادتهم الأيوبيين حتى آلوا على أنفسهم تحقيق أهداف صلاح الدين الأيوبى فى اقتلاع جذور الصليبيين باقتلاع إماراتهم من الشرق الإسلامى واحدة إثر الأخرى، تلك الإمارات التى كانت بمثابة عضو غريب زرع فى جسد الأمة الإسلامية كما زرعت إسرائيل فى العصر الحديث. هذه من الناحية السياسية.

أما من الناحية العلمية: فإني أرى أن دولة المماليك لم تكن بالسوء العلمي والأدبي بالقدر الذى أشيع عن هذه الدولة في كتب التاريخ والأدب لسببين أوجزهما فيما يأتى:

---

(٨١٦) راجع تاريخ العرب المطول ٧٩٣/٢، وص ٥٤ من هذا البحث.

(٨١٧) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ١٩٦/٥، وراجع ص٥٥ من هذا البحث.

الأول: رواج العلوم والفنون حتى ظهرت أكثر الموسوعات في الفقه، والتاريخ، والأدب وغيرها من الموسوعات التي سبقت الإشارة إلى شيء منها إلى الحد الذي نعتبره تعويضًا للثروة العلمية المفقودة غرقًا في دجلة بغداد(٨١٨)، حتى كان ظهور هذه الموسوعات هو السمة البارزة من سمات ذلك العصر، ويكفي لي لفظ "الموسوعة" ما يدل على أنه المؤلف الذي يضم موضوعات من الفنون شتى، وفنونًا من العلم متفرقات، لا تعرف التخصص، ولا تقصد إليه.

وهو العصر الذي اشتهر فيه من اشتهر من كبار علماء الأمة كابن عبد السلام، وابن كثير، وابن دقيق العيد، وابن منظور، والنسفي، والبيضاوي، والنويري، وابن تيمية، وابن قيم الجوزية، ومن قدمنا من أفاضل شيوخ وتلاميذ ابن جماعة الذين تعرفنا عليهم في الباب الأول، وهم جميعًا كانوا أعلامًا في العلم والأدب، وما قيل عن اضمحلال الأدب وانحطاط الأسلوب في ذلك العصر لا ينطبق على مثل هؤلاء الأعلام وإن انطبق على فئة احترفت الأدب ولم تنل فيه الغاية كالدواداري صاحب كنز الدرر وجامع الغرر الذي يمتلئ كتابه بالأساليب الركيكة التي رأينا مثالا منها في محاكمة ابن الأثير بحكم كونه من أعاجم المماليك(٨١٩) إن كان الكتاب شاهد صدق على أحداث عصره.

وأين هذا وأمثاله في النويري صاحب بلوغ الأرب، أو من ابن منظور صاحب لسان العرب، وهم جميعًا أبناء عصر واحد؟

وإذا كان عصر المماليك لم يبلغ المرتبة العلمية التي كانت لعصر الدولة العباسية في أوجها فعذره أن ظروف الحرب المستمرة دفاعًا عن الأمة ضد المغول من جهة والصليبيين من جهة أخرى لم تدعه يتطاول إلى العصر العباسي في الفنون والعلوم؛ لأن العباسيين ورثوا العلوم عن دولة عربية ثم مزجوها بحضارات الأمم التي استقرت ودانت لهم، فانشغلوا بتهذيبها، بمثل ما اشتغل المماليك بحرب عدو ينازعهم

---

(٨١٨) راجع الفصل الثالث من الباب الثاني: الأحوال الفكرية.

(٨١٩) راجع ص ١٢٧ من هذا البحث.

عقر الدار وقلب الأمة، بينما كانت جبهات العباسيين فى أقصى بلاد أعدائهم، وعلى مشارف تخومهم.

فالمماليك قد ورثوا علمًا غارقًا فى دجلة، ودولة زائلة فى بغداد، دبت فيها الكهولة والفساد، وانشغلوا بزحف جارف من كل اتجاه يقصد أول ما يقصد قبر الحضارة وقتل العلوم والفنون.

ولعل من سوء حظ المماليك أيضًا أن ورثتهم كانوا أتراكًا فلم ينهضوا بما بدأه المماليك فَنُعِتَ المماليك بما قصر فيه الأتراك في جملته فلم يكن حظ من ورثوا عنهم الملك بأحسن حال مِمَّنَ ورَّثوه هم من تركة العباسيين المثقلة.

والثانى: أن دولة المماليك - رغم كل ما كتب عنها - لا يزال الخفاء والغموض يحيطان بكثير من جوانب الحياة السياسية والفكرية فيها، والجانب الفكري بكتبه ورجاله أكثر خفاء وغموضًا.

فالمؤلفات التى كتبت فى ذلك العصر تعد بالآلاف، ولا زال جلها مخطوطًا، رهن المحابس فى مساجد العالم وكنائسه وأديرته، ومكتباته، ومتاحفه، ولا زال أصحابها مجهولى الأسماء والصفات من كافة الجوانب العلمية، وليس أدل على ذلك من شخصية العالم الذى تناولناه بالبحث فى هذه الرسالة، ومعه أسرته كلها التى تزيد على أربعين عالمًا، عاشوا جميعًا فى عصر المماليك، عصر الموسوعات فى كافة الفنون التى لا يكاد فن من فنونها يخلو من موسوعة منها، حتى نستطيع أن نطلق عليه سياسيًا "عصر المماليك" وعلميًا "عصر الموسوعات".

فابن منظور المتوفى سنة ٧١١هـ له موسوعته فى اللغة سماها "لسان العرب" والنويرى المتوفى سنة ٧٣٢هـ له موسوعته فى الأدب المسماة "نهاية الأرب فى فنون الأدب"، والدميرى المتوفى سنة ٨٠٨هـ له موسوعته فى علم الحيوان المسماة "حياة الحيوان"، وابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤هـ له موسوعته فى تاريخ مصر المعروفة باسم "النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة"، وابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩هـ له موسوعته فى علم الجغرافيا سماها "مسالك الأقطار فى ممالك الأمصار"، وابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢هـ له موسوعات فى علوم الحديث منها

"الإصابة فى معرفة الصحابة"، و"فتح البارى بشرح صحيح البخارى" والقلقشندى المتوفى سنة ٨٢١هـ له موسوعته في نظم الدولة المعروفة باسم "صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء".

فمنهج التأليف فى ذلك العصر هو الكتابة الموسوعية. وكأن المنهج قد صار طريقة تقليدية مميزة لذلك العصر.

ففى كل فن من فنون العلم موسوعة ودائرة معارف تحيط بكل شيء تقريبًا ولا تقصد إلى التخصص.

وهنا نتساءل: هل كان العلامة بدر الدين بن جماعة فى منهجه العلمي، ومسلكه التأليفى موسوعيًا كمعظم علماء عصر المماليك ومصنفيهم أم أنه تفرد بمنهج معين بالبحث والكتابة، فى كل المؤلفات والمصنفات التى سبق أن عرضناها فى الفصل الأول من هذا الباب؟

والجواب عن ذلك:

أن ابن جماعة لم يكن كاتبًا متفرغًا، وإنما كان قبل كل شيء أستاذًا شغلته صناعة الرجال، وإعداد العلماء عن تأليف الموسوعات، وتصنيف دوائر المعارف التى لم يتخذها نهجًا لكتابته. ولو أراد ذلك لفعل، فللرجل باع طويل فى العلم، ونفس لا يطاول فى البحث والتحليل، وإنما كان أخص خصائص تصنيفاته هو التركيز فى البحث حول موضوع واحد. وهذا من أهم الأسباب التىأدت إلى عدم اشتهاره، لأن الناس فى ذلك العصر ولعوا بحجم المصنفات أكثر من ولعهم بقيمتها.

على أن الناظر لمؤلفات ابن جماعة قد يتصور للوهلة الأولى أنها أقرب ما تكون إلى المؤلفات الدراسية المقررة، وذلك للطافة حجمها، والبعد عن تعدد أجزائها، بحيث لم نعرف - فيما سبق أن ذكرنا من مؤلفاته - أن أحدها يزيد عن جزء واحد ما خلا مؤلفه "نور الروض" فى التاريخ فهو يقع فى جزءين لا ثالث لهما، وهذا التصور - إن صح - لا يغض من قيمة هذه المؤلفات، ولا ينقص من

مرتبتها سواء كان من الناحية العلمية والفكرية، أو من الناحية التاريخية، والحضارية، لما اعتاده علماء الأمة فى الأجيال السابقة من أن يقرءوا مؤلفاتهم فى حلقات يجلسون فيها لإسماعها عنهم، وإجازتهم السامعين رواية ما سمعوه، كبديل عما تكفلت به وسائل الطباعة فى عصرنا الحاضر، فكل ما كان يؤلف يقرأ على طالبيه - فى غالب الأحيان - بقدر ما تسمح الظروف بهذا، كأن يكون المؤلف أستاذًا أو عالمًا مشهورًا كما هى الحال فى ظروف القاضى بدر الدين بن جماعة.

على أن المتعمق فى قراءة كتب ومصنفات ابن جماعة يتجاوز بها هذا التصور السريع، ويدرك قيمتها العلمية، ولا يسعه إلا أن يعترف بأن الرجل كان مجددًا من ناحية التأليف، مبتكرًا فى التصنيف والإخراج، يأخذ القارىء إلى الفكرة العلمية أخذًا مباشرًا، فى دقة عبارة، وسهولة لفظ، ووضوح معنى، وحلاوة جرس، ولا يدور أو يطوف حول هذه الفكرة كما اعتاد أصحاب الموسوعات أن يفعلوا وكأنى بابن جماعة وقد نظر فيمن حوله من المصنفين والمؤلفين فهاله تكالبهم على كتابة الموسوعات، وشغفهم بالتطويل والحشو، لا بالتخصيص والتعمق فعزف هو عن ذلك، واتخذ لنفسه منهجًا سويًا قوامه:

الاختصار مع الابتكار - والتجديد بلا تقليد:

فنراه إذا ألف فى التفسير لا يلجأ إلى التفسير التقليدى، وإنما يختار من التفسير ما لم يجد غيره قد تعمق فيه، فيصنف فى مبهمات القرآن، ويؤلف فى المتشابهات، ويكتب فى فوائد السور، ويبحث فى أسباب تكرار القصص القرآنى ونراه فى الحديث كذلك، يؤلف فى التساعيات، ومناسبة أبواب البخارى بعضها إلى بعض، وإذا أعجبه موضوع ألفه غيره، ولم تعجبه طريقة العرض تناوله بالتنظيم والتهذيب وزيادة الفائدة، كما فعل فى مقدمة ابن الصلاح، والتى هذبها ونقحها فى مؤلفه "المنهل الروى فى علوم الحديث النبوى". وكما فعل فى تاريخ السهيلى "الروض الأنف" والذى اختصره هو فى مجلدين.

وهو فى جميع هذه الفنون لا يقلد أحدًا ، بل يستنبط ويبتكر، ويأتي بأشياء لم يسبقه إليها غيره، ويعلن هذا صراحة، سواء كان في طريقة التأليف، أو طريقة العرض، أو طريقة الاستنباط[٨٢٠].

فالموضوعية، ودقة التحليل، والفكرة المباشرة، والالتزام بالمنهج العلمي، والتخصيص فى البحث هى السمات البارزة لمنهج ابن جماعة فى التأليف والتصنيف فى كل فن من الفنون.

أما فى الأدب: فقد انحصرت أساليبه الأدبية فى ثلاثة هى: العلمى، والأدبى، والديني، كما تردد أسلوبه بين الأسلوب الأدبى، والعلمى الميسر، والعلمى المتأدب.

واتسمت أفكاره بالتقليد ، وإن رأيناه يحاول الابتكار والتجديد بالخروج على القافية، وعلى الوزن التقليدى ولكنه حتى فى هذا التجديد كان مقلدًا.

لأن هذا التجديد كان اتجاهًا عصريًا لا اتجاهًا فرديًا، وإن امتازت أفكاره بالترتيب والوضوح فالفكرة عنده محددة واضحة لها مقدمة ولها صلب وخاتمة، يلجأ إلى تحليلها وتعليلها.

أما عاطفته الشخصية: فتظهر بشكل واضح فى مجال العقائد، والحب الإلهى والحكمة النابعة من التجربة الذاتية فنرى عاطفته فى هذه المجالات حارة، قوية، صادقة، أمينة فى التعبير عن أحاسيسه.

وفى تصويره: جمال فنى ملائم لجوه النفسى وللسياق، يبتعد عن مجرد الإدراك الحسى الظاهرى.

وتعبيرات ألفاظه: ملائمة للموضوع وللأسلوب على حد سواء، فلكل موضوع كالحكمة، والغزل الروحى، والمناجاة، ما يناسبها من الألفاظ.

كما أن لكل أسلوب تناوله أدبيًا كان أو علميًا ميسرًا، سماته الخاصة من الألفاظ والعبارات وأهم ما تميزت به تعبيراته خلوها من كلف البديع الذى كان بلاء عصره خلوًا تامًا، مع سلامته اللغوية باعتباره واحدًا من علماء عصره فى النحو

---

(٨٢٠) راجع على سبيل المثال ص٢٥٥ من هذا البحث.

واللغة، كما أن ألفاظه دسمة بعيدة عن التعقيد والابتذال تنقل إلينا إحساسه وانفعاله كأديب بصدق المرايا الشفافة.

ولعل هذا هو أهم خصائصه الأدبية، وإن كان يغلب عليه فى الجملة رقة العالم فى أدبه وذاك أمر طبعى فى شخصية ابن جماعة العالم الورع التقى.

الخاتمة

بعد تجوالنا فى أبواب هذا الكتاب وفصوله، فى رحاب هذا العالم الجليل قاضى القضاة شيخ الإسلام العلامة أبى عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد الله ابن جماعة الكنانى الحموى الشافعى الذى عاش أربعًا وتسعين سنة، حافلة بالأعمال الجليلة، والآثار الحميدة، أثرى فيها الحياة العلمية، والثقافية، وشارك فى تجدد نشاط الأمة العلمى، وحمل لواء العلم، وذب عن دينه، ونافح عن أمته، وترك خلفه من الآثار ما يدل عليه، ومن المصنفات، والبحوث، والرسائل ما هو جدير به، ومن الذكرى الطيبة العطرة، والسيرة المحمودة ما حق له علينا أن نفرد له المكان اللائق بشخصه، وننبه عن ذكره وشأنه.

بعد كل هذا التجوال ندرك أن أمتنا العظيمة، أمة ولود لا عقم عندها، وأنها تلد الأصحاء الأذكياء، والنابهين، من العلماء العاملين المجدين. ومن خلال هذا أيضًا نعرف أن جهود العلماء - المجهولين - من هذه الأمة أعظم خطرًا، وأجل شأنًا، مما عرفناه عن مشاهير العلماء وأن صفحة التاريخ طوت من العلماء الأعلام أكثر مما أظهرت.

وأن عصرًا واحدًا على الأقل من عصور هذه الأمة - هو عصر المماليك - كان أكثر من غيره طيًا للعلماء، ولصحفهم، وآثارهم على حد سواء، مما يحتم علينا أن نعيد تقييم هذا العصر بصورة جديدة.

وأن على المهتمين بجمع تراث هذه الأمة العظيمة أن ينتبهوا إلى هذه الحقائق، وأن يعلموا أن إظهار هذا التراث أمر واجب، وأنا ما ظهر منه أقل مما تخفيه بطون المكتبات.

وأن من العار علينا أن ننظر إلى هذا التراث، وهو فى يد غيرنا دون أن نعمل على استرداده، ونشمر عن ساعد الجد فى نشره، وإظهاره، وأن نشجع الباحثين على ذلك بكافة الوسائل.

فكم في تاريخ أمتنا ممن حكمنا عليهم بالنسيان مثل ما حكمنا على العلامة بدر الدين بن جماعة وهو أستاذ الأساتذة؟

وكم من الأفراد من أمتنا فى هذا العصر - عامها أو خاصها - من يعرف أن أسرة واحدة من هذه الأمة أنجبت للإسلام أربعين عالمًا، حملوا جميعًا اسمًا واحدًا هو: "ابن جماعة"

وأن هذه الأمة بأبنائها، ومدارسها ومساجدها، وقضائها، وأحوالها السياسية، والاجتماعية كانت مدينة بالفضل لعلماء هذه الأسرة ابتداء من القرن الخامس الهجرى إلى القرن الثانى عشر، فتخرج على أيديهم من تخرج من أمثال: السبكى، وأبو حيان، والصفدي، ونور الدين الهاشمي، والذهبى والبلقيني، والكمال ابن الهمام، والشمس القاياتي، والمحب الأقصرائى، وابن حجر، والمقريزي، والسخاوى، وابن قزيل، وعمر ابن قديد، وآلاف غيرهم ممن نجهلهم جهلنا بآل جماعة، ثم كم من علماء هذه الأمة وخواصها فى عصرنا الحاضر من يعرف أن العلامة بدر الدين ابن جماعة - موضوع هذا البحث - كان رأس هذه الأسرة وعميدها؟

وإذا كان مطلوبًا منى أن أجيب عن هذا السؤال الذى تفرضه عليّ طبيعة البحث عن شخصية ابن جماعة:

لماذا لا يعرف الكثير من المثقفين، والعلماء في هذه الأمة شخصية ابن جماعة ولماذا لم يشتهر ابن جماعة اشتهار تلاميذه، وتلاميذ تلاميذه؟

والجواب عن ذلك هو عدم اهتمام المسئولين فى هذه الأمة بجمع التراث واكتفائهم بالنظر إلى هذا التراث وهو فى يد غيرهم من بعيد فى متاحف العالم، ومكتباته وفى أيدى المحققين من المستشرقين وأقسام الإستشراق فى العالم الغربى وإلا فآثار ابن جماعة موجودة بنسخها الأصلية فى مكتبات ألمانيا، والهند، أو دير الأسكوريال بأسبانيا، ثم جهلنا بجمع هذا التراث، وجلهنا بطريقة نشره أشد وقعًا... فما أكثر الجهال بتراث الأمة، وما أكثر الذين يحاربون هذا التراث من أبنائها غيظًا وحنقا، إما بدافع الجهل الأعمى... أو بكونهم مأجورين ينفذون مآرب الأعداء ومخططاتهم.

وأى مسئول فى العالم الإسلامى اليوم يستطيع أن ينتزع مخطوطًا عربيًا فى حجم الكراس الصغير من متحف لندن أو دير الأسكوريا، أو مكتبة الفاتيكان، أو إحدى مكتبات لندن؟ ولو بذل فى دفعها الملايين؟ ذلك أنهم عرفوا قيمة الكتاب التاريخية، والحضارية، ونحن نصر على الجهل به.

فإن قدر الله لبلد من بلادنا أن يحتفظ بنسخ مخطوطة - وهى ولا زالت والحمد لله - بالآلاف - فإن المسئولين عن التراث - إن كان هناك بالفعل مسئولون يحملون هذه الصفة - يجهلون أو يتجاهلون طرق نشره، وإشاعته.

ومن صور هذا التجاهل أننا لا ننشر من المخطوطات، والآثار إلا من كان صاحبه مشهورًا، زائع الصيت عرف من التاريخ بالضرورة.

وكأن الحق الوحيد الممنوح لأبناء هذه الأمة هو الاستمرار فى معرفة ابن كثير، وتاج الدين السبكى، وابن حجر - ولكن ليس لهم الحق أن يعرفوا من هو أستاذ ابن كثير، ومن هو أستاذ السبكي، ومن هو أستاذ ابن حجر؟

ولقد أوشكت يومًا أن أترك هذا البحث عن العلامة بدر الدين بن جماعة، لأن صديقًا من المثقفين أراد تقديم نصيحة مخلصة لأقرب الطرق لنيل الدرجة العلمية، وهي : أن أكتب حول شخصية مشهورة.

ولكن ثقتى فى عملى جعلتنى أصر على نقض غبار التاريخ عن هذه الشخصية الجليلة، شخصية ابن جماعة أستاذ الأساتذة.

بل وجعلتنى أصر على أن أفرد لأساتذته هو فصلا كاملاً أترجمهم فيه، لمعرفتى بقيمة المعلم والأستاذ، وأثره في حياة الحركة العلمية، والثقافية، وبناء الإنسان.

ومن صور هذا التجاهل: أن يعمد المسئولون إلى جعل الكتاب سلعة تجارية، وليس حقًا طبيعيًا كالماء، والهواء، فلا ينشرون من كتب التراث إلا من كان صاحبه مشهورًا، حتى يحصل الكتاب أكبر مكسب مادي.

وكأن كتب التراث تابعة لوزارات الإنتاج، لا لوزارات الخدمات.

ومن هنا فإن ناشريى هذه الكتب يصرون على رفع قيمتها، بينما الواجب على هؤلاء المسئولين تدعيم هذه الكتب ونشرها بقيمة رمزية، تمامًا كتدعيم السلع الضرورية فى حياة الشعوب.

وإذا كانت أمتنا أفقر الأمم في تملك السلع الضرورية الآن، فنحن أغنى الأمم في ملكية كتب التراث، فلماذا نصر علي رفع قيمتها؟

ومن صور هذا التجاهل: وقوف كثير من جامعات بلادنا في وجه طلاب الدراسات العليا الراغبين في الكتابة والبحث في مجال التراث، وحثهم على الكتابة فيما حولنا من موضوعات الحاضر.

وكأن الحاضر ابن غير شرعي للماضي فعلى جميع الباحثين إذا ألا يلتفتوا إلى هذا الماضي؛ لأنه مسئول عن جريمة يجب كتم الخبر عنها.

ومن صور هذا التجاهل: أننا نعنى بأسماء الأعلام التى ألفت فى الموسوعات، وبلغت أجزاء كتبها العشرات، فنحن مولعون بالضخامة، يخفينا الكيف، ويبهرنا الكم وابن جماعة، ومن ورائه علماء أسرته كلها، ثم العديد من أمثالهم... هؤلاء جميعًا ذهبوا ضحية صور هذا التجاهل بقيمة التراث الخالد لأمتنا، ثم بطريقة جمع هذا التراث ونشره.

وإلا فمن ذا الذي يدعي أن العلامة شيخ الإسلام بدر الدين بن جماعة لم يكن مشهورًا، وهو أستاذ من ذكرناهم من أعلام هذه الأمة؟

وهو الذي عاش قرنًا كاملاً من الزمان ملأ السمع والبصر؟

وكم عالم فى تاريخ هذه الأمة كلها مثل ابن جماعة كان يخرج الجيش والحكام، والأمراء؛ لتوديعه إذا ذهب، واستقباله إذا عاد؟

وكم عالم فى هذه الأمة مثل ابن جماعة أجمع أهل عصره من الملوك، والأمراء، والعلماء، والصوفية، والعامة على محبته؟

وكم عالم فى هذه الأمة مثل ابن جماعة أوكلت إليه الدولة مجموعة من أهم وظائفها في وقت واحد هى قضاء القضاة، والخطابة، والتدريس، ومشيخة الشيوخ؟

وكم عالم في هذه الأمة مثل ابن جماعة تولى صدارة ثلاث عشرة مدرسة في عصره كانت الواحدة منها بمثابة جامعة كبرى، يأتيها الطلاب من كل مكان؟

وكم عالم في هذه الأمة مثل ابن جماعة ظل قاضيًا للقضاء أربعين سنة، وأستاذًا يُخَرِّج الأجيال أكثر من ستين سنة؟

إلى جانب مؤلفاته التي آثر أن تكون فى كل طريف، ونادر، وآثر أن يبتعد عن كتابة كل شيء فى أى شىء، واكتفى من التصنيف بما يخف حمله، وتزداد نفاسته، شأن الملوك، وحملة الدرر والجواهر.

ومن الذي يدعى أن ابن جماعة لم يكن مشهورًا وهو الذى قلده الملوك، والسلاطين المناصب، وقلده مشاهير العلماء الألقاب، وشهادات التقدير فقالوا عنه:

"شيخنا قاضى القضاة، حاكم الإقليمين مصرا، وشامًا، وناظم عقد الفخار الذي لا يسامى، متحل بالعفاف، متخل إلا عن مقدار الكفاف، ذو عقل لا يقوم أساطين الحكماء بما جمع فيه".

(تاج الدين السبكى - طبقات الشافعية الكبرى)

"شيخ الإسلام بدر الدين...... تقدم وساد أقرانه.. وجمع له القضاء، والتدريس، والخطابة، ومشيخة الشيوخ مع الرياسة.... والديانة.... والصيانة.... والورع... وكف الأذى.... والتصانيف الفائقة النافعة".

(ابن كثير - البداية والنهاية)

"شيخ الإسلام.... قاضى القضاة..... المفتي.. العلامة...... ذو الفنون والمناقب، والرياسة، والمناصب... كان ذكيًا يقظًا... مناظرًا متفننا... مفسرًا... خطيبًا مفوهًا... ورعا صينًا...

تام الشكل.... وافر العقل... حسن الهدى... متين الديانة ذا تعبد وأوراد.... وحج واعتمار".

(اليافعى - مرآة الجنان)

"قاضي القضاة بدر الدين.... حسن المجموع..... كان ينطوي على دين... وتعبد... وتصون وتصرف.. وعقل .... ووقار وجلالة... وتواضع.... حمدت سيرته..... ورزق القبول من الخاص والعام".

(أبو الفداء - المختصر فى أخبار البشر)

"قاضى القضاة ... شيخ الإسلام.. الخطيب ... المفسر.... له تعاليق فى الفقه والحديث، والأصول، والتواريخ... وله مشاركة حسنة فى العلوم، وله النظم والنثر، والتلامذة، والجلالة الوافرة، والعقل التام الرضي، فالله تعالى يحسن له العاقبة... وهو أشعرى فاضل".

(ابن العماد الحنبلى - شذرات الذهب)

"قاضي القضاة... العالم... الفاضل... المؤلف... الكاتب... الشاعر... الأديب... من أعرق أسر حماة.... بارك الله فى كثير من رجالها... فخدموا العلم، والدين، والأدب... والعدالة فى القضاء خير الخدمات".

(محمود رزق سليم - عصر سلاطين المماليك)

ذلكم هو شيخ الإسلام العلامة بدر الدين بن جماعة... حاولت أن أُذَكّر به الأمة وأن أخدم به الملة.. فاجتهدت ما وسعنى جهدى فى ذلك... ولا أزعم أنى بلغت حد الكمال، فالكمال لله - عزَّ وجلَّ - وحده.. وغاية ما أتمناه رضى الله - عزَّ وجلَّ - وتجاوزه عن ذنوبي، وإصلاح من يرى عيبًا عندي، فالإنسان محل الخطأ والعيوب، وحسبي من القارىء الكريم قول شاعرنا العربي:

فإن رأيت عيبًا فسدّ الخللا　　فجلّ من لا عيب فيه وعلا

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم وأن ينفع به طلاب العلم

ويجعله ذخرًا لى ولوالدى وذريتى يوم الدين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

فهرس المصادر والمراجع والحوليات

أولاً: القرآن الكريم.

ثانيًا: المصادر والمراجع.

(١) ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن على بن محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيبانى.

١ - الكامل فى التاريخ، ط دار صادر، بيروت، ١٩٦٦، لبنان.

٢ - اللباب فى تهذيب الأنساب، ط مكتبة القدسى ١٣٥٧هـ، القاهرة.

(٢) ابن إياس: محمد بن أحمد الحنفى:

٣ -بدائع الزهور فى وقائع الدهور، طبعة بتحقيق الدكتور محمد مصطفى، ط دار المعارف ١٩٥١م القاهرة.

(٣) ابن تغرى بردى: جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكى.

٤ -النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر.

٥ -المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى الجزء الأول، ط بتحقيق أحمد يوسف نجاتى ١٩٥٦م وباقى الأجزاء مخطوط برقم ١٢٧١ تاريخ — دار الكتب المصرية.

(٤) ابن تيمية: تقى الدين أحمد بن عبد الحليم الحرانى المتوفى سنة ٧٢٨ هـ.

٦ -السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية، ط دار الكتاب العربى ١٩٦٩م، مصر.

(٥) ابن جبير: أبو الحسن محمد.

٧ -الرحلة، ط مطبعة السعادة ١٩٠٨م مصر.

(٦) ابن جماعة: عز الدين عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم المتوفى سنة ٧٦٧هـ

٨ -نزهة الألباء فيما يروى عن الأدباء (مخطوط رقم ٤٠١ شعر المكتبة التيمورية).

(٧) ابن جماعة: محمد بن إبراهيم بن سعد الله المتوفى سنة ٧٣٣ هـ.

٩ -إيضاح الدليل فى قطع حجج أهل التعطيل، (مخطوط رقم ٦٠٦ توحيد – دار الكتب المصرية).

١٠ - تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام، (مخطوط رقم ٢٣٨٤١ ب – دار الكتب المصرية).

١١ - تذكرة السامع والمتكلم فى آداب العالم والمتعلم، ط دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٣هـ حيد آباد الدكن – الهند.

١٢ - تنقيح المناظرة فى تحقيق المخابرة (مخطوط رقم دار الكتب المصرية.

١٣ - شرح الكافية ابن الحاجب (مخطوط رقم ١٣٦٧ جامعة استبول).

١٤ - غرر التبيان فيمن لم يسم فى القرآن (مخطوط رقم ١٥٩٨/ ٢ – ١١٠ ق الاسكوريال).

١٥ - كشف المعانى عن المتشابه من المثانى (مخطوط رقم ٢١٨١٨ ب – دار الكتب المصرية).

١٦ - المنهل الروى فى علوم الحديث النبوى (مخطوط رقم ١٥٩٨ – الاسكوريال).

١٧ - نور الروض (ميكروفيلم رقم ٣٠٧٦ مكتبة ممتاز العلماء السيد محمد تقى بلكهنو الهند).

(٨) ابن الجوزى: أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على المتوفى سنة ٥٩٨ هـ.

١٨ - زاد المسير فى علم التفسير، ط المكتب الإسلامى للطباعة والنشر ١٩٦٥م بيروت - لبنان.

١٩ - المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، ط دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٩ هـ، حيدر آباد الدكن - الهند.

(٩) الحاكم: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ النيسابورى.

٢٠ - مقدمة علوم الحديث، ط دار الكتب المصرية ١٩٣٧م.

(١٠) ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن على بن محمد بن على بن أحمد العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ.

٢١ - تقريب التهذيب، تحقيق الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف، ط دار الكتاب العربى ١٩٦٠م مصر.

٢٢ - تهذيب التهذيب، ط دائرة المعارف النظامية ١٣٢٥، حيدر آباد الدكن - الهند.

٢٣ - الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ط دائرة المعارف النظامية حيدر آباد - الهند.

٢٤ - رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق الدكتور حامد عبد المجيد وآخرين، ط الإدارة العامة للثقافة - قسم نشر التراث ١٩٥٧م مصر.

(١١) ابن حزم: محمد بن على الأندلسى.

٢٥ - جمهرة أنساب العرب، نشر وتحقيق وتعليق: ليفى بروفنسان، ط دائرة المعارف ١٩٤٨م مصر.

(١٢) ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن جابر.

٢٦ - العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر، ط دار الطباعة العامرة ببولاق، ١٢٨٤هـ مصر.

٢٧ - المقدمة لكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ط المطبعة الخيرية ١٣٢٢هـ

(١٣) ابن خلكان: شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر المتوفى سنة ٦٨١ هـ.

٢٨ - وفيات الأعيان وأبناء الزمان، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، ط مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

(١٤) ابن سعد: محمد بن سعد كاتب الواقدى.

٢٩ - الطبقات الكبرى، ط دار صادر بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٠ - لبنان.

(١٥) ابن الصلاح: عثمان بن عبد الرحمن بن موسى، أبو عمر المتوفى سنة ٦٤٣ هـ.

٣٠ - علوم الحديث (مقدمة ابن الصلاح)، ط المطبعة العلمية ١٩٣١م حلب، سوريا.

(١٦) ابن طولون: شمس الدين محمد بن على.

٣١ - قضاة دمشق، والثغر البسام فيمن ولى قضاء الشام، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، ط: المجمع العلمى العربى ١٩٥٦م دمشق.

(١٧) ابن عساكر: أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله.

٣٢ - تاريخ مدينة دمشق، ط المجمع العلمى العربى المطبعة الهاشمية ١٩٥٤م دمشق.

(١٨) ابن العماد الحنبلى: عبد الحىّ أحمد بن محمد.

٣٣ - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ط مكتبة القدسى ١٣٥٠هـ، القاهرة.

(١٩) ابن كثير: عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر المتوفى سنة ٧٧٤ هـ.

٣٤ - البداية والنهاية ط مطبعة السعادة، مصر.

٣٥ - تفسير القرآن العظيم، ط دار إحياء الكتاب العربى، مصر.

(٢٠) ابن الملقن: سراج الدين أبو جعفر عمر.

٣٦ - نزهة النظار (مخطوط رقم ١١٥٤٩ج، دار الكتب المصرية).

(٢١) ابن منظور: محمد بن مكرم بن على المتوفى سنة ٧١١هـ.

٣٧ - لسان العرب المحيط، دار لسان العرب بيروت – لبنان.

(٢٢) ابن الوردى: زين الدين بن مظفر بن عمر.

٣٨ - تتمة المختصر فى أخبار البشر (تاريخ ابن الوردى) تحقيق أحمد رفعت البدراوى، ط دار المعارف – بيروت، لبنان.

(٢٣) أبو زهرة: الشيخ محمد.

٣٩ - ابن تيمية: حياته، عصره، آراؤه، وفقهه ط مكتبة دار الفكر ١٩٥٨م مصر.

(٢٤) أبو الفدا: الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ هـ.

٤٠ - المختصر فى أخبار البشر، ط المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ القاهرة.

(٢٥) أبو المحاسن: شمس الدين محمد بن على الحسينى.

٤١ - ذيل تذكرة الحفاظ للذهبى.

(٢٦) أبو يعلى: محمد بن الحسين الفراء الحنبلى المتوفى سنة ٤٤٨ هـ.

٤٢ - الأحكام السلطانية، ط مطبعة مصطفى البابى الحلبى ١٩٣٨م مصر.

(٢٧) إسماعيل باشا: ابن محمد أمين بن مير سليم البابانى البغدادى.

٤٣ - إيضاح المكنون فى الذيل على كشف الظنون، ط وكالة المعارف ١٩٤٥م – ١٩٤٧، استنابول.

٤٤ - هدية العارفين فى أسماء المؤلفين، وآثار المصنفين، ط وكالة المعارف ١٩٥٥م استنابول.

(٢٨) الإسنوى: جمال الدين عبد الرحيم المتوفى سنة ٧٧٢ هـ.

٤٥ - طبقات الشافعية، ط ديوان الأوقاف فى العراق ١٣٩٠ هـ، بغداد.

(٢٩) بروكلمان: كارل بروكلمان.

٤٦ - CARL BROCKELMANN. GESCHICHTE DER. ARABISCHEN LITTERATUR. LEIDEN E. J. BRLLL ١٩٤٩.

(٣٠) البستانى: المعلم بطرس.

٤٧ - ائرة المعارف، ط مطبعة المعارف ١٨٧٦ – ١٨٨١، بيروت – لبنان.

(٣١) البغوى: الحسين بن مسعود بن الفراء.

٤٨ - معالم التنزيل وأسرار التأويل.

(٣٢) البلنسى: محمد بن على بن أحمد الأوسى.

٤٩ - صلة الجمع وعائد التذييل لموصول كتابى الإعلام والتكميل (مخطوط رقم ٢٤٤٤١ ب دار الكتب المصرية) القاهرة.

(٣٣) توتل: فردينان.

٥٠ - المنجد فى الأدب والعلوم، ط المطبعة الكاثوليكية ١٩٢٧هـ، بيروت، لبنان.

(٣٤) حاجى خليفة: مصطفى بن عبد الله كاتب حلبى.

٥١ - كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، ط وكالة المعارف ١٩٤١م – ١٩٤٣م استانبول.

(٣٥) حِتّى فيليب حتى، وآخرين:

٥٢ - تاريخ العرب المطول، ط دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ١٩٦٥م، بيروت.

(٣٦) الخانجى: محمد أمين.

٥٣ - منجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان، ط مطبعة السعادة ١٩٠٧م، مصر.

(٣٧) الخطيب البغدادى: أحمد بن على.

٥٤ - الجامع لأخلاق الراوى وآدب السامع ط دار المكتب الإسلامى ١٩٦١م، دمشق.

(٣٨) الخطيب التبريزى: ولى الدين محمد بن عبد الله العمرى.

٥٥ - مشكاة المصابيح، نسخة ط: مطابع نورمحمد آرام باغ، كراتشى، ونسخة بتحقيق محمد ناصر الدين الألبانى، ط المكتب الإسلامى، ١٩٦١م، دمشق.

(٣٩) الدوادارى: أبو بكر بن عبد الله بن أيبك المتوفى سنة ٧٢٢ هـ.

٥٦ - كنز الدرر وجامع الغرر تحقيق هانس روبرت رويمر: ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٠م القاهرة.

(٤٠) الذهبى: شمس الدين ابو عبد الله بن أحمد بن عثمان المتوفى سنة ٧٤٨ هـ

٥٧ - تذكرة الحفاظ، ط دائرة المعارف النظامية ١٣٣٣هـ حيدر آباد – الهند.

٥٨ - دول الإسلام، ط دائرة المعارف العثمانى ١٣٣٧ هـ حيدر آباد الدكن – الهند.

٥٩ - العبر فى خبر من غبر، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، ط سلسلة التراث العربى، ١٩٦٠م الكويت.

٦٠ - ميزان الاعتدال فى نقد الرجال، تحقيق محمد على البجاوى، ط دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٢م مصر.

(٤١) رزق سليم: الشيخ محمود.

٦١ - عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى ط مطبعة دار الكتاب العربى ١٩٤٧م القاهرة.

(٤٢) رضا كحالة: عمر.

٦٢ - معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ط دار العلم للملايين ١٩٦٨ م، بيروت.

٦٣ - معجم المصنفين، ط مطبعة وزنكوغراف طبارة ١٣٤٤هـ بيروت.

٦٤ - معجم المؤلفين، ط: مطبعة الترقى بدمشق ١٩٥٧م سوريا.

(٤٣) الزركشى: محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٧٩٤ هـ.

٦٥ - البرهان فى علوم القرآن، ط دار إحياء الكتاب العربى ١٩٥٧م، القاهرة.

(٤٤) زقلمة: أنور.

٦٦ - المماليك فى مصر، ط مطبعة المجلة الجديدة مصر.

(٤٥) السبكى: تاج الدين عبد الوهاب.

٦٧ - طبقات الشافعية الكبرى، ط المطبعة الحسينية ١٣٢٤ هـ القاهرة.

(٤٦) السخاوى: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن.

٦٨ - الجواهر المكللة فى الأحاديث المسلسلة (مخطوطات بغير رقم فى المكتبة العلمية بقرية بيرجهندا السند - باكستان).

٦٩ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ط مكتبة القدسى ١٣٥٣ هـ، القاهرة.

(٤٧) سلام: الدكتور محمد زغلول.

٧٠ - الأدب فى العصر المملوكى، ط دار المعارف ١٩٧١م، مصر.

(٤٨) السهيلى: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد المتوفى سنة ٥٨١ هـ.

٧١ - التعريف والإعلام بما أبهم فى القرآن من الأسماء والأعلام، تحقيق الأستاذ محمود ربيع ط مكتبة صبيح مصر.

(٤٩) السيوطى: جلال الدين عبد الرحمن المتوفى سنة ٩١١ هـ.

٧٢ - الإتقان فى علوم القرآن، ط شركة مصطفى البابى الحلبى ١٩٥١م مصر.

٧٣ - بغية الوعاة فى أخبار اللغويين والنحاة ط مطبعة السعادة ١٣٢٦ هـ مصر.

٧٤ - تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى، ط مكتبة القاهرة ١٩٥٩م مصر.

٧٥ - حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، ط مطبعة الموسوعات ١٩٢١م القاهرة.

٧٦ - معترك الأقران فى إعجاز القرآن، ط دار الفكر العربى القاهرة.

٧٧ - مفحمات الأقران فى حل ألفاظ القرآن، ط مكتبة صبيح القاهرة.

(٥٠) شرف الدين: عبد العظيم عبد السلام.

٧٨ - ابن قيم الجوزية: عصره: ومنهجه، وآراؤه فى الفقه والعقائد والتصوف، ط مكتبة نهضة مصر ١٩٥٦م، القاهرة.

(٥١) شلبى: الدكتور أحمد.

٧٩ - التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، ط دار مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٧م مصر.

(٥٢) صبحى الصالح: الدكتور.

٨٠ - مباحث فى علوم الحديث، ط الجامعة السورية ١٩٥٩م دمشق.

(٥٣) الصفدى: صلاح الدين خليل بن أيبك.

٨١ - نكت الهميان فى نكت العميان، ط القاهرة.

٨٢ - الوافى بالوفيات، باعتناء هلموت ريتر، ط دار النشر فرنزشتاينر ١٩٦١م فيسادن.

(٥٤) طرخان: الدكتور إبراهيم على.

٨٣ - مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٠م مصر.

(٥٥) غنيمة: محمد عبد الرحيم.

٨٤ - تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، ط دار الطباعة المغربية ١٩٥٢ م تطوان المغرب.

(٥٦) فنسنك: وهو تسما، أرثولد، وهفنح، وبروفنسال وآخرين.

٨٥ - دائرة المعارف الإسلامية، ط مطبعة الاعتماد ١٩٣٣ مصر ترجمة محمد ثابت الفندى وآخرين.

(٥٧) فتحى عثمان:

٨٦ - شرح البردة للبوصيرى، ط دار المعارف ١٩٧٣م القاهرة.

(٥٨) القرطبى: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى.

٨٧ - الجامع لأحكام القرآن، ط وزارة التربية والتعليم ١٩٥٨م مصر.

(٥٩) القلقشندى: أبو العباس أحمد.

٨٨ - صبحى الأعشى فى صناعة الإنشا، ط المطبعة الأميرية بدار الكتب المصرية ١٩١٤م القاهرة.

(٦٠) الكتبى: محمد بن شاكر المتوفى سنة ٧٦٤ هـ.

٨٩ - فوات الوفيات والذيل عليها ، ط دار الثقافة ١٩٧٤م تحقيق الدكتور إحسان عباس – بيروت.

(٦١) كرد على: محمد

٩٠ - الإسلام والحضارة العربية.

٩١ - خطط الشام.

(٦٢) ماجد: الدكتور عبد المنعم.

٩٢ - دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر، ط مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٥م القاهرة.

(٦٣) الماوردى: أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ.

٩٣ - الأحكام السلطانية ، ط المطبعة السعادة ١٩٠٩م القاهرة.

(٦٤) مجير الدين الحنبلي:

٩٤ - الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل.

(٦٥) المرادي: السيد محمد خليل.

٩٥ - سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ط: مكتبة المثني ١٣٠١هـ بغداد.

(٦٦) المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد.

٩٦ - السلوك لمعرفة دول الملوك ، ط: لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١ القاهرة.

٩٧ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ط: مكتبة النيل ١٣٢٥ هـ مصر.

(٦٧) موير: سير وليم.

٩٨ - تاريخ دول المماليك في مصر (ترجمة) محمود عابدين، سليم حسن، ط: مطبعة المعارف ١٩٢٤م مصر.

(٦٨) النعيمي: عبد القادر بن محمد المتوفي سنة ٩٢٧هـ.

٩٩ - الدارس في تاريخ المدارس، ط: مطبعة الترقي ١٩٤٨م دمشق.

(٦٩) النويرى: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٧٣٢ هـ.

١٠٠ - نهاية الأرب فى فنون الأدب، ط مطابع كوستاتسوماس، نشر وزارة الثقافة – مصر.

(٧٠) هاشمى: مولانا عبد القدوس.

١٠١ - تقويم تاريخى (فى اللغة الأردية) ط دار تحقيقات إسلامى ١٩٦٥م إسلام آباد – باكستان.

(٧١) اليافعى: عبد الله بن أسعد بن على بن سليمان عفيف الدين المتوفى سنة ٧٦٨ هـ.

١٠٢ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ط مطبعة دائرة المعارف حيدر آباد الدكن – الهند.

(٧٢) ياقوت الحموى: شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومى البغدادى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ.

١٠٣ - معجم البلدان، ط مطبعة السعادة ١٩٠٦م مصر.

(٧٣) اليونينى: قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٢٦ هـ.

١٠٤ - ذيل مرآة الجنان، ط مطبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن ١٣٧٤هـ، ١٩٥٤م الهند.

(٧٤) الشعرواى: الشيخ محمد متولى الشعراوى.

١٠٥ - معجزة القرآن ط المختار الإسلامى للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.

ثالثًا : كتب الفهارس ومجلات الحوليات:

١٠٦ - فهرس الخزانة التيمورية ، ط دار الكتب المصرية ١٩٤٨م مصر.

١٠٧ - فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ، الفقه الشافعى، وضع عبد الغنى الدقر، ط المجمع العلمى العربى ١٩٦٣م دمشق.

١٠٨ - فهرس المخطوطات دار الكتب – مصر ، تصنيف فؤاد سيد ، ط دار الكتب المصرية ١٩٦١م القاهرة.

١٠٩ - فهرس مخطوطات مكتبة الأسكوريال.

١١٠ - فهرس المكتبة الأزهرية ، ط مطبعة الأزهر ١٩٥٢م مصر.

١١١ - فهرس المخطوطات المصورة لمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية ، وضع: فؤاد سيد ، ط القاهرة.

١١٢ - مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الحادى والعشرون ، الجزء الأول جمادى الأولى ١٣٩٥ هـ مايو ١٩٧٥م.

١١٣ - مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الحادى والعشرون – الجزء الثانى، ذى القعدة ١٣٩٥ هـ، نوفمبر ١٩٧٥م.

١١٤ - مجلة الضياء العدد الأول، إصدار وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – حكومة دبى ط ١٩٧٩م.

فهرس الموضوعات

الأبحاث والمؤلفات

في الفقه

١- التشريع الإسلامي: جذوره الحضارية وأدواره التاريخية
٢- الحدود والقصاص في الفقه الإسلامي
٣- نظام إعداد الجيوش في الإسلام - تحقيق ودراسة
٤- أسرى الحرب في الشريعة الإسلامية والقانون
٥- الزينة والتجمل وأحكامها في الشريعة الإسلامية
٦- عيون المسائل الخلافية بأدلة الكتاب والسنة (العبادات)
٧- عيون المسائل الخلافية بأدلة الكتاب والسنة (المعاملات)
٨- عيون المسائل الخلافية بأدلة الكتاب والسنة (التقاضي والجنايات)
٩- العلامة السغدى البخارى شيخ السرخسى (دراسة تأصيلية لفقهه وفتاواه)
١٠- فتاوى العلامة السغدى البخاري (تحقيق ودراسة)
١١- مباحث في الأقضية والبينات والجهاد
١٢- المعاملات في الفقه الإسلامي
١٣- القضاء على الغائب
١٤- اللقيط وأحكامه بين الشريعة والقانون

فى التفسير وعلوم القرآن

١- مباحث فى مبهمات القرآن الكريم سورتى الفاتحة والبقرة
٢- تفسير سورة الأنفال (دراسة تحليلية)
٣- مع الأنبياء عليهم السلام فى سورتهم (تفسير ودراسة وتحليل)
٤- تفسير الصحابى الجليل أبى بن كعب رضى الله عنه
٥- تفسير أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها
٦- كشف المعانى فى المتشابه من المثانى (دراسة وتحقيق)
٧- مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن
٨- غرر التبيان فيمن لم يسم فى القرآن (تحقيق ودراسة)
٩- القاضى بدر الدين بن جماعة حياته وآثاره ومنهجه فى التفسير والعلوم الإسلامية
١٠- تفسير آيات الاحكام
١١- النظريات السياسية الإسلامية فى العصر الحديث (ترجمة عن الإنجليزية)
١٢- الأحاديث التساعية الإسناد

دار البيان
للطبع والنشر والتوزيع
٤ عمارات الجبل الأخضر - بجوار وزارة المالية الجديدة - مدينة نصر
القاهرة - تليفاكس: ٣٤٢٦٣٢٧